تصوير ابو عبدالرحمن الكردي

SIMON & SCHUSTER

الدار العربية للعلوم - ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

نظرية الواحد في المئة

THE ONE PERCENT DOCTRINE

بحث في العمق في تعقّب الولايات المتحدة لأعدائها عبر تطبيق نظرية الواحد في المئة التي ابتدعها نائب الرئيس ديك تشيني في الحرب على الإرهاب

رُون سَسْكِنْد

الحائز على جائزة بوليتزر ومؤلف كتاب

ثمن الولاء جورج بوش، البيت الأبيض، وتعاليم بول أونيل

نظرية الواحد في المئة

بسم الله الرحمن الرحيم

يضم هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
The One Percent Doctrine
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Simon & Schuster, Inc.
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم
Copyright © 2006 by Ron Suskind
All rights reserved

Arabic Copyright © 2006 by Arab Scientific Publishers

نظرية الواحد في المئة

بحث في العمق في تعقّب الولايات المتحدة لأعدائها
عبر تطبيق نظرية الواحد في المئة التي ابتدعها
نائب الرئيس ديك تشيني

تأليف

رون ساسكيند

ترجمة

ميشيل دانو

الدار العربية للعلوم ـ ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو اقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر

الطبعة الأولى

1428 هـ - 2007 م

ردمك 9953-87-046-2

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ـ ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم - ناشرون ش.م.ل

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611)

المحتويات

مقدّمة... 7

الفصل الأوّل: الإيجابيّات الخاطئة.......................... 19

الفصل الثاني: خارج إطار الشكّ.......................... 53

الفصل الثالث: للضرورة أحكام.......................... 97

الفصل الرابع: رأس الظواهري.......................... 143

الفصل الخامس: التنفيذ.......................... 183

الفصل السادس: دواعي الحذر.......................... 215

الفصل السابع: المحادثات مع الدكتاتوريين.......................... 245

الفصل التاسع: القلوب والعقول.......................... 321

الخاتمة.......................... 371

ملاحظة الكاتب.......................... 381

كلمات شكر.......................... 383

مقدّمة

يمكن للتردّد أن يقتلك.

يغيب عنك شيء. تخذلك إرادتك. تذهب في اتجاه معيّن في حين يكون الطريق الآخر هو الصائب.

تمرّ الأيام، ويميل الناس إلى ترك ماضيهم وراءهم. يقولون، بذلنا ما في وسعنا، ويمضون.

ولكن، في ما يتعلّق بأحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، يشعر أولئك الذين كان باستطاعتهم إحداث فرق بأسف شديد.

تردّدت علامات المذكّرة المحذّرة التي وجّهتها وكالة الاستخبارات المركزيّة (سي آي إي) في السادس من آب/أغسطس 2001 إلى الرئيس الأميركيّ - "بن لادن مصمّم على ضرب الولايات المتحدة الأميركيّة"- كثيراً خلال السنوات الماضية.

ولكن، وفي شهر آب/أغسطس أيضاً، توجّه محلّلو وكالة الاستخبارات المركزيّة إلى كروفورد لإعلام الرئيس شخصياً - وتطفّلوا على عطلته لإطلاعه على التحذيرات وجهاً لوجه.

وكان السلاح التحليليّ التابع للسي آي إي قد بلغ، في هذه النقطة، مرحلة الذعر. وكانت وكالات الاستخبارات الأخرى، بما فيها تلك من الدول العربيّة، تدقّ ناقوس الخطر. وكانت الإشارات كلّها حمراء. لم تكن الوكالات تعرف وقت حصول الاعتداء أو مكانه، ولكنّها كانت تعلم أنّ شيئاً ما يُحضّر. وتوجّب إحاطة الرئيس علماً بذلك.

وكان من الأهمّية بمكان لسير شؤون الأمّة إطلاع الرئيس جورج دبليو بوش، أكثـــر من الرؤساء الذين سبقوه، وجاهياً على ما كان يحصل. فالرئيس بوش ليس من المولعين بالقراءة، ولم يكن كذلك أبداً، على الرغم من الجهود التي بذلها البيت الأبـــيض لتسليط الضوء على الكتب المهمّة التي كان يقرأها من حين إلى آخر. لم يكن رئيساً يقدّر الاستماع إلى آراء متعدّدة – وأوضح ذلك خلال عدّة مناسبات. وكانت دائرة المستشارين الذين وثق بهم ضيّقة – أضيق بكثير عندما أصبح رئيساً مـــنه عـــندما كان حاكماً. ولكنّه مستمع جيد يعتمد بشكل كبير على الاستماع البـــصريّ. يكوّن آراءَ عن الناس بسرعة، يراقبهم بانتباه، ويثق بنظرته. إنها هبة من الله، هـــذه الدقّـــة غير الكلاميّة التي يعتمد عليها الرئيس في إدارة أهمّ مسؤوليّاته الرئاســيّة: قـــرارات يوميّة لا تُحصى، لكلّ منها أهمّية خاصة؛ سلسلة مروّعة من المـــشاكل المتوجّب فهمها؛ عدد لا متناهٍ من الخبراء المسيّسين والخبراء السياسيّين، جمـــيعهم يتحدّثون بنبرات جدّية. ماذا يفعل جورج دبليو بوش؟ يجعل من الأمور شخصية. ربما لم يكن يتمتّع بباع طويل، وخاصة بالسياسة الخارجيّة، قبل وصوله إلى ســـدّة الرئاسة، ولكن – وبفضل ثقته بهذه القدرات التفسيريّة – لم يكن يعتبر ذلـــك عيباً فيه. قد قام الخبير الجالس أمامه بعمله، وحمل القسم الأكبر من العبء، ويحـــاول الرئيس قياس مدى "ثقتهم" بما قالوه، حتى إن لم يكن ذا خبرة في المسائل المطـــروحة. هـــل تظهـــر على ملامحهم علامات القلق أو يبدون غير واثقين من أنفـــسهم؟ هـــل يراوغون؟ ماذا يراود فكرهم... وماذا يفكّرون عنه؟ هذا القسم الأخير بغاية الأهمّية.

ولكنّ، على الرغم من أنّ هذه المؤشّرات الحسيّة والعميّقة أساسيّة للغاية – وبخاصّـــة في مـــا يتعلّق بوضعة كبار المسؤولين، إن الفخ يكمن في عدم دقّتها أحـــياناً. ويجـــب التشديد تارةً على فحوى الحديث، وليس على المتحدّث أو الإلقاء.

ويـــبدو أن الـــرئيس بوش قد قام بالاختيار الخاطئ خلال اجتماع وجاهي لمناقشة المعلومات الاستخباراتيّة خلال هذا الصيف الحاسم.

شزر الرئيس بوش متحدّث السي آي إي المذعور بنظرة قاسية.

فقال: "حسناً، قد حميت ظهرك الآن".

كان جورج تينيت وفريقه قد أخلوا مكاتبهم في مقرّات السي آي إي بحلول منتصف نهار الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001، ولكنهم لم يتعدوا كثيراً.

ففي نهاية الأرض الإسمنتيّة، وقعت مكاتب شاغرة في مطبعة السي آي إي – مبنىً مؤلّف من طابقين يصعب وصفه في معسكر لانغلي في فيرجينيا، تُصدر معلومات حوالى اثني عشر مخبراً يومياً، بما في ذلك العديد من كتب المعلومات التي طُبعت السنة الماضية حول القاعدة. إلى هناك توجّهوا، إلى المكان حيث كانت تُطبع التقارير.

اجتمع تينيت ونائبه جون ماكلولين وقلّة غيرهما في قاعة مؤتمرات، وهي عبارة عن قاعة خالية من النوافذ، بيضاء ومربّعة، وبدأوا يجرون اتصالات هائلة، محاولين الحصول على معلومات حديثة، وتقارير عن الأوضاع، على أيّ شيء. كان اليوم مبكّراً، والنهار قد انتصف. وبدأت الحقائق التي ستضحي قريباً مجرّد معلومات عامّة – يعرفها حتى طلاّب المدارس – تتبلور. فالمكان أصبح واضحاً، والزمان وكيفية حصول الاعتداء أيضاً – وتبلورت أمام نُظر كلّ من يملك شاشة تلفاز. أمّا السبب – إذا اتّضح فعلاً ضلوع الإسلاميّين المتطرّفين في الاعتداء– فبقي سؤالاً معلّقاً منذ الاعتداءات التي طاولت مركز التجارة العالميّة عام 1993. وكان قد أحدث تطوّر إرهاب الجهاديّين المضطرد فوضى في السي آي إي وغيرها من الأجهزة الحكوميّة. على الرغم من ذلك، وعلى الرغم من فهم استراتيجي واضح لدوافع العدوّ ومبتغاه، بقيت الأسباب غير واضحة.

تبلورت حقيقة جديدة قائمة على معطيات حديثة مع بزوغ هذا الفجر. ففي تمام الساعة 1:10 من بعد الظهر، اندفع محلّل إلى الغرفة حاملاً أوراق مطبوعة. كان يحمل بيانات عن الرحلات الأربعة، كانت قد وصلته للتوّ من مسؤول في إدارة الطيران الفدراليّة – وهي وكالة عاشت كابوساً في الصباح، محاولة تحديد المئات من الطائرات التي أقلعت عند وقوع الاعتداء الأوّل. واندرجت ضمن طرق التذكّر في اليوم الأولّ إرسال لوائح بأسماء المسافرين إلى السي آي إي لمراجعتها.

"اسمـــان"، قال المحلّل طارحاً ورقة على الطاولة. "نعرف هذين الاسمين". تحلّق الجميع حوله، واضعين نظرهم على نسخة من الرحلة 77 للخطوط الجويّة الأميركـــيّة، التي أضرمت النيران في مبنى وزارة الدفاع الأميركيّة – البنتاغون. بالتحديق إلى الاسمين، يتضّح أنهما خالد المدهر ونواف الحزمي، الرجلان اللذان ورد اسماهما على لوائح داخليّة متعدّدة كأعضاء في تنظيم القاعدة. حدّق الجميع في الاسمين. وهكذا، سجّلت ذاكرة التاريخ التي لا ترحم أسماء منفّذي الاعتداء.

"هـــا هـــو"، همس تينيت، الرجل الذي يعاوده كابوس في وضح النهار. "التأكـــيد، يا إلهي". وحلّ الصمت. حلّ صمت ربما لمدة عشر ثوانٍ، أو ربّما دقيقة.

بعـــد ســـاعتين، حطّـــت الطائـــرة الرئاسية في قاعدة أوفوت العسكريّة في نيبراســـكا. وجمـــع الرئيس بوش المضطرب مستشاريه الرئيسيّين في اجتماع عبر الفـــيديو، وكان الاجتماع الرفيع المستوى الأول الذي يُعقد منذ الاعتداءات. نقل تينيت أخبار اكتشاف أسماء رجال معروفين بانتمائهم إلى تنظيم القاعدة، مُدرجين علـــى لوائح ركّاب الرحلة 77 للخطوط الجويّة الأميركيّة، بمن فيهم المدهر الذي عـــرفت الـــسي آي إي بوجوده في ماليزيا قبل سنة، والذي يحمل تأشيرة دخول أميركيّة صالحة، والذي يبدو أنه تسلّل إلى الولايات المتحدة بغفلة من السي آي إي ومكـــتب التحقيق الفدرالي (أف بي آي). وهمس بوش جازراً ضعف التواصل بين الـــسي آي إي والأف بي آي، ولكـــنّ هـــذا التوبيخ اضمحلّ مع ورود التأكيد الحاسم: تنظيم القاعدة؛ المتّهم.

دائماً ما تكون نقاط البداية محيّرة – فمتى يبدأ حدث فعلاً في رحلة الإنسان المتكـــرّرة علـــى الأرض؟– ولكن، قد تكون هذه الأجوبة الوحيدة التي ستتوصّل إليها. فلم تقبل الحقائق أي جدل. إنّ حرباً، أيّة حرب، كانت لا بد من الاندلاع.

كان من الممكن قياس أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر بالأحداث التي كانت لتقع في الثاني عشر منه.

ففـــي الثاني عشر من أيلول/سبتمبر، كانت أميركا تلملم جراحها وتتحضّر للردّ. وكان من شأن الردّ على المأساة، في النهاية، أن يغيّر وجه الأمّة.

وسرعان ما تحوّلت الوجوه المألوفة التي تتولّى زمام الدولة إلى مصدر توق حاد - فارتفعت الصلوات التي تتمنّى للرئيس ومستشاريه والرجال والنساء المسؤولين في الحكومة الشجاعة والقدرة على مواجهة المأساة والتعامل معها. بالطبع يتمحور هذا الكتاب حولهم، ويقدّم إيضاحات حول الإجراءات التي اتّخذوها، وسبب اتّخاذها. كما يشدّد على العبر التي استخلصوها وعلى ما فاتهم.

ولكن، يسلّط هذا الكتاب الضوء أيضاً على حفنة من الأميركيّين الذين لم يُمَط عنهم اللثام حتى يومنا هذا، هُم الخبراء والشغوفون الذين لا يهتمّون بأضواء الشهرة، أو بجذب اهتمام الأميركيّين الرازحين تحت وطأة المأساة، أو الكونغرس الأميركيّ أو المجتمع العالميّ الحذر.

هؤلاء الرجال والنساء- هؤلاء المخفيّون - يخوضون المعركة. فليس عليهم إلاّ أن يركّزوا على المعركة ضدّ جيوش عالميّة متخفية منكبّة على الدمار، وعلى الانتصار في هذه المعركة. فبعد البيانات والتصريحات المدوّية والتي تصف ضرباً جديداً من ضروب الحرب والانتصار على الشرّ، ينكبّ هؤلاء الرجال والنساء على وضع خطّة واتخاذ الخطوات اللازمة واستبيان الدرب التي يجب سلوكها عندما لا تتوفّر خريطة، أو عندما تضلّ الطريق ويغرق الأفق في السواد. هُم الذين يطلعون الناس على سير العمل، يقفون مذهولين، غالباً غير مصدّقين، أمام تقييم الرأي العام للتقدّم الحاصل ولآخر التطوّرات. في هذا العصر حيث يتغلّب التقدير على التأكيد، وحيث الإدعاء يتفوّق على الحقيقة، يعرفون تماماً أين يرسمون الحدود. هذا ما يجعلهم قيّمين ولكن خطرين، هذا ما يحيل صمتهم أولويّة للذين يستجيبون لصوت الشعب أو للأجيال القادمة.

وهذا العمل مليء بالخدع البصريّة. فتُسلّط الأضواء على المسؤولين البارزين - أي بوش وتشيني ورايس وتينيت، ويوضعون تحت المجهر ويستحوذون على الانتباه. يحصلون على التقدير، كما يُلقى عليهم اللوم، إذا توجّب ذلك، لأسباب لا علاقة لهم بها؛ يقولون لنا إن كلّ شيء سيكون على ما يُرام، أو يطلبون منا أن نشعر بالخوف، أو الاثنين معاً. يبثّون روح الثقة، مفتاح النجاح في عصرنا الحديث، ولكنّهم حذرين في التعامل مع الأشخاص الذين يضمنون نجاحهم:

العشرين شخصاً تقريباً الذين يملكون نـزعة إلى اللغة العربيّة والذين يمضون نهارهم وليلهم على شبكة الإنترنت؛ العميل الذي يكتشف كيف تتدفّق الأموال من القاسي إلى العنيف؛ والجاسوس الذي يكتشف مصدراً مستعداً للإدلاء بشهادته، ويحمي العقل المدبّر مهما كلّف الأمر؛ والمظليّ الذي يرتدي نظارات رؤية ليليّة ويخلع باب شقّة في كاراتشي.

أما صبر المسؤولين في رأس الهرم فقد نفد: نفد بسبب تبرير الخطوات المتخذة والخطابات، وبسبب محاولة التخفيف من الذنب الذي يطارد كلّ شخص تولّى مسؤوليّة قبل أحداث 11 أيلول/سبتمبر، وكان باستطاعته أن يتصرّف بطريقة مغايرة. أمّا المهنيون الذين سُرق النوم من أعينهم والمخفيون، بعدّة طرق، على غرار أعدائهم السفّاحين، فيشعرون بجزع يحاولون طمسه؛ وتضجّ في عروقهم قناعة مفعمة بالإرادة تؤكّد أنّ لكلّ مشكلة حلّها، على الرغم من أن الحقائق تدحض ذلك.

من أجل فهم الردّ الأميركيّ على أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، يجب أن تتحدّث إلى الفريقين، وأن تصغي إلى كلّ منهما يتحدّث، وأن تؤسّس لحوار بين أولئك الذين يدقّقون في التفاصيل ويرسمون خطط التحرّك، أي المنفّذين، وأولئك الذين - من الرئيس إلى أسفل الهرم - يتحقّقون من التقدّم المُحرز، ويعرضون النتائج، ويستحوذون على ثقة الشعب. أمّا المهمّة الأساسيّة لكلا الجانبين فتكمن في إيجاد أجوبة حتّى تحت الضغوط والظروف الصعبة.

ضع نفسك في مكان الآخر.

من بعيد، تبدو كرقصة متقطّعة لا هدف منها، جبهة مجعدة وأفعال جامدة. من استلام تقارير تلو الأخرى عن خطر محتمل، مع العلم بأن معظمها كاذب، من دون معرفة الأسباب التي تؤكّد ذلك، أو ما قد يغيب عنك، ثمّ الدعوة إلى عقد اجتماع من أجل تصويب الأسئلة. إضافة إلى اتخاذ القرار بشأن إطلاع الناس - الأميركيّين المنتمين إلى أحزاب أو الأعضاء في بعض لجان الإشراف التابعة للكونغرس - على بعض الأحداث، في حقبة يؤكّد فيها العلماء السياسيون أنّ التحدّث علناً عن الحقيقة مغامرة خطرة. وبعدها، يحين موعد الموجز التالي، طاولة

المؤتمــرات التالــية واللائحة الحافلة بأسماء عربية يصعب لفظها واتصالات شفافة. عندما كانت الأيام هادئة، كان بيل كلينتون يشكو لألان غرينسبان اعتماد الثروة الرئاســيّة - وثروة اقتصاد الدولة - على حكم سوق الأوراق الماليّة. أمّا اليوم، قد ترتكــز هــذه الثــروة على ما إذا استطاع حارس في متجر صغير في بالو ألتو أن يلاحظ أن الرجل في متجر نيمان ماركوس يرتدي معطفاً في الصيف، وتفوح منه رائحــة الغاردينيا ويحمل حقيبة غريبة. كما سيحدد - مصير الأمّة أيضاً - بما إذا اتصل هذا الحارس بالأف بي آي، وبالإجابة على اتصاله، أو بتحويل الاتصال إلى شخص يفهم معناه، في الوقت المناسب.

ولكــن، مهــلاً، هل يعلم مكتب التحقيق الفدراليّ أن السي آي إي غير أكــيدة مــن وجود قرابة المائة حقيبة من الأسلحة النوويّة، التي تمّ إنتاجها في الحقــبة الــسوفيتيّة؟ وأنّ بن لادن، إضافة إلى المتمرّدين الشيشان ومجموعات إرهابــية لم تسمع بها قط، يحاولون جاهدين وضع أيديهم على هذا النوع من الأســلحة منذ سنوات؟ هل يجب أن يعلموا ذلك؟ هل يفيد إذا أُحيط مكتب التحقيق الفدرالي علماً بذلك؟- أو المشاة، على عجلة من أمرهم، الذين يرهبهم الخوف ويدفعهم إلى عدم الشراء، أو بناء أحلام كبيرة؛ وإذا تخلى الناس عن كلّ ذلك، ستتباطأ، لا سمح الله، عجلة النمو والازدهار. ولكن، بالطبع، إن الشعور بالخــوف مــبرّر، ويحدث مشاعر أخرى، ويدفع بالحشود الذاهلة إلى التركيز ويوعّيهم ويجعلهم يرون بوضوح ما يحاول قادتهم الجديّون القيام به. بالطبع، إن التقدير، من دون طرح أسئلة كثيرة، لأمر جميل جداً. وهكذا، في نهاية المطاف، قد نعطي بعض المعلومات، جزءاً صغيراً من هذه القصّة المشوّقة أو تلك، ليعلم الجمــيع طبعاً أنه يجب أن يخافوا، ولكن ليس كثيراً، لأننا - المنتخبين والمعيّنين الموثوقين - نسيطر على الوضع.

وفــيما نحــاول التوصــل إلى قرار بشأن ذلك، يجلس على طاولة المؤتمرات محاربون رياديّون يحاولون فهم تفكيرك الذاتيّ. تشكّ في أنهم يحاولون تكوين فكرة مــا عنك، وقد تكون على حقّ، ولكنّهم يتفهّمون المشكلة اليوميّة التي تواجهها، لأنهم يعتبرونك أساسَ كلّ شي، وربّما لأن العمل الذين يقومون به هو الأصعب.

ضع نفسك في مكانهم، ويمكنك أن تشعر بالمشاهد تتغيّر. وتحمل كلّ خطوة تغيّرات جديدة. انتظر قليلاً، وتبدأ المعلومات تتبادر إلى عقلك وتفهم ما لم تكن على علم به، أو ما لم يكن باستطاعتك التأكّد منه، إضافة إلى بعض المعلومات التي تمّ اكتشافها والتحقّق من صحّتها والمتعلّقة بكيفيّة عمل الشبكات الإرهابيّة في العالم وتطوّرها. تعرف أن العدوّ متواجد في كلّ مكان ولكنّه مخفي عن الأنظار، رابض، صبور وذكيّ، يراقب تحرّكاتك ليذهب بالاتجاه المعاكس، الاتجاه المفاجئ، غير المتوقّع. تتأرجح بين احترام حذر للنهج والغيظ الإجراميّ الذي يتّبعه - لو استطعت فقط القبض على الساعي أو قائد الخليّة أو حتى الضابط، عندها فقط سيعرفون معنى المعاناة. وأخبر الجميع. لو كان ذلك ممكناً. وعندها فقط تستطيع أن تنام، على الأقلّ تلك الليلة، لأنك ستعرف إلى أين توجّه الطائرة الموجّهة المسلّحة أو الوحدة المدجّجة بنظارات الرؤية الليليّة - كلّ هذه القدرة المسلّحة، المعزّزة والمستعدّة؛ ولكن لا تتوافر دلائل كافية تشير إلى توجيهها. ضجيج كثير، والله يعلم، والدلائل تتوافر، وتملأ الغرفة حتى السقف، وتمضي نصف عمرك في مطاردة لا شيء، العدم. ويبدو كلّ شيء مثيراً للريبة: تثير ريبتك مجموعات كبيرة من الناس تتحدّث بلغة ما ولها عادات وتقاليد غريبة، والتأكيدات الضمنيّة، لأنك لا تفهم كيف يتحوّل غضبها إلى سخط، ومنه إلى عنف، وإذا قام شخص واحد من أصل مئة، أو ألف بتحرّك ما، تواجه عندها جيشاً - جيشاً كبيراً ومتخفياً - لا يرتدي بزّة ويتحرّك بكلّ حريّة في سوق تجد وتجرّب فيها كلّ شيء- معدّات مدمّرة تفوق الخيال - كلّها على بعد كبسة زرّ من الشراء، مُرفقة بكتيّبات قابلة للتحميل. ومضى على رؤيتك لزوجتك، أو زوجك، أو أطفالك، أو أي شخص يهمّك أمره، أسابيع، أو أشهر؛ وفيما أنت تدرس هذا الاحتمال أو ذاك، يسألك كلّ شخص يراك، بما في ذلك رؤساؤك "هل نحن بأمان، هل زال عنّا الخطر؟"- حتى الأشخاص الذين على اطّلاع- فيما يفوتك كلّ شيء: حمّام الأطفال، المسرحيات المدرسيّة، الزفاف أو حتى الجنازات. وتحاول أن تتشبّث بشيء يذكّرك بالمألوف، لتفهم جنون الحياة المهيب، في خضمّ ما يُدعى بالـ "حرب

علـــى الإرهاب"، وعندها، تلاحظ أنكّ غرقت في لعبة ماركو بولو عالميّة، في حـــوض بكبر المحيط - ولكنّ ذلك بغاية الجديّة، حيث الفائز يسيطر. والوضع مخيف في هذا الحوض. خاصة عندما يسوده هدوء مميت - كما في الأشهر التي تلـــت أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر - ولا أحد يجيبك عندما تصرخ "ماركـــو"، ولا تـــشعر إلاّ بالحفيف عندما يمرّ منافسك بصمت، فيما تتحرّك بسرعة وتمرّ أمام ناظريك صور المباني المحترقة والطائرات المنفجرة.

بـــين وجهـــات النظر المتضاربة، برزت منذ البدء بعض النقاط المشتركة. فتـــشاطر المسؤولون والمخفيّون حساً عميقاً بالطارئ. فأخذ الجميع عهد مصير في 12 أيلول/سبتمبر. إذ أقسم الموظّفون المدنيّون على بذل كلّ ما توفّر لهم من جهـــود لمواجهة القاعدة وشبكة الإرهابيّين العالميّة التابعة لها ومسانديها وإلحاق الهـــزيمة بهم. وتعهّدوا العمل ليلاً نهاراً من دون كللٍ أو ملل. وأجبروا أنفسهم علـــى التفكير منطقياً وبوضوح. لن يتورعوا عن ارتكاب أي مكروه في سبيل تحقيق أغراضهم.

فقط عندما يكتشفون نقطة الانطلاق.

أمّـــا المقارنة المفضّلة التي سرت في الأروقة الحكوميّة فكانت تحدّي أبوللو 13، وهو معيار موثوق تعتمده أيضاً جامعات إدارة الأعمال والمتحدّثون الذين يبـــثّون الحماسة في النفوس. تشير هذه المقارنة إلى وقت معيّن من عام 1970، عـــندما أوقـــف منقي الهواء عمل مركبة الناسا، على بعد 200 ألف ميل عن الأرض، وتـــوجّب على روّاد الفضاء بناءه بما توفّر لديهم من معدّات. فجمع فـــريق هندســـة في هيوســـتن عيّنة من كلّ المعدّات المفككة - شريط لاصق وخـــراطيم ومعدّات طبيّة - ووضعوها على الطاولة وانكبّوا على العمل. كانوا بحاجـــة إلى علاج، إلى طريقة لربط المنقّي المربّع بآلة مدوّرة في غضون ساعات قلـــيلة، وإلاّ اختنق الطاقم برمّته. وتوجّب أن يكون الحلّ مرتّباً؛ فلم يكن هناك مـــن مـــنفعة إذا لم يحسن الطاقم بناء المنقّي. وأصبح إتباع الإجراءات نوعاً من أنـــواع الصلاة التي تلازمنا منذ أن أطلق رون هاورد الفيلم الذي تمحور حول القصة عام 1995: "ليس الفشل خياراً".

وينطبق كلّ ذلك على "الحرب ضدّ الإرهاب". وطُبعت القرارات التي اتُخذت في أعقاب الكارثة بالقوّة الارتجالية والعاطفيّة عينها. ومن السهل نسيان القسم الأخير: فالرغبة في المساعدة، بأي شكل من الأشكال، كانت الحافز الرئيسيّ. إذا فُرض على وكالات الأمّة الأقوى في العالم اللجوء إلى جميع الوسائل المتوفّرة من أجل تلبية مهمّة غير متوقّعة، طلب جديد؛ توجّب على كلّ وكالة إيجاد السبيل الذي يخوّلها إبراز جبروتها المؤسّساتي. ونجح ذلك تارة، وأخفق طوراً. ففي أوقات الأزمات، لا تكون السُبل واضحة المعالم. ولم يكن الفشل - أو حتى الاعتراف بالإخفاق أو بالضياع- خياراً. فكان للبنتاغون جيشاً دائماً. أما السي آي إي، وفروعها المختصّة بالتنصّت، بدءاً بوكالة الأمن القوميّ ونزولاً، فكان لها الاستخبارات - الرؤية الليليّة القادرة على خرق عتمة الليل. وتمتّعت وزارة العدل بحكم القانون، والأف بي آي بجيش من العملاء المحلّيين. وكان لوزارة الخزينة القدرة على ولوج جميع البيانات الماليّة العالميّة... وإلى آخره، في كلّ بناية في جميع أنحاء العاصمة المذعورة. وبشكل عام، من شأن كلّ درب، أينما أدّت، أن تحدّد الأعوام الأربعة ونيّف المقبلة انطلاقاً من واقع أمّتنا اليوم. والمستقبل الذي ينتظرنا.

على الرغم من ذلك، وخلال هذه المرحلة، ارتفع من تحت السطح الرقيق لهمهمة البيانات الصحفيّة والمواقف الرسميّة، ضجيج "التنافر الإدراكيّ"- هذا التعبير العاطفيّ عن التنافر الناتج عن تضارب أفكار متنافسة، الضوضاء المحبطة التي تفرض على العقل تعديل معتقداته المتأصّلة، أو اختراع معتقدات جديدة للبحث عن السكون. تلك هي العمليّة التي غالباً ما تدفعنا إلى الأمام في خضمّ ضوضاء الحياة العصريّة.

لا تنجح الحكومة الفدراليّة الموسّعة بالتفكير كعقل واحد عندما ترزح تحت وطأة الضغط. فلديها متطلّبات وقائيّة، وجداول أعمال متنافسة، وقواعد توزّع الأدوار والمهام تجاه المواطنين والرئيس والمدراء؛ بالطبع يحقّق ذلك الكثير، ولكن غالباً ما يشوبه الاختلال. ويعني ذلك الكذب، والنفاق، وإخفاء ما يسهل إخفاؤه، والتصرّف بدافع الحماية الشخصيّة، لأنّه، وفي ظلّ غياب الثقة، لا يبقى إلاّ مجرّد مكتب.

لطالما كانت الحالة كذلك – مسألة قوّة حياة مأسورة في تراتبيّة أغاظت الجميع، من ماكس ويبير إلى ستيفين ر. كوفي – وربّما هذا واقع يجب القبول به، والخضوع له. ربّما لا يودّ الناس الاطّلاع على الخلافات الداخليّة والشكوك المزعجة، على هذا التنافر. أو ربّما لا يريدون الاضطلاع بالاضطرابات والوضوح الذي ينتاب المسؤولين أمام التاريخ – المسؤولين الذين ينتبهون إلى كلّ فعل، وشركائهم الأقوياء والصريحين الذين ستتعرّف إليهم في الصفحات المقبلة – لأنهم يطاردون، جنباً إلى جنب، الأطياف على حائط كهف العدو الذي تسلّح لتوّه بأسلحة مدمّرة وتأكيد طائفي، وصبر، وتصميم ذكيّ، وربّما، مزايا تكتيكيّة.

في الأيام الهادئة، لأكملتَ حياتكَ غير مبال، وقلت بأنك يجب أن تسدّد رهنك، وأرسلت أولادك إلى المدرسة، وشاهدت البرامج التلفزيونيّة المضحكة، ولقلتَ في نفسك أنّه، منذ قرنين، واجه بعض الآباء المؤسّسين بعض الأشخاص المزعجين، وراء المتاريس، ولكنّهم لم "يتحمّلوا الحقيقة".

ولكنّنا نمرّ بأوقات استثنائيّة. ففي الواقع، المعرفة قوّة قادرة على استئصال الخوف. ويجب أن تعرف، على الأقلّ، ما الذي يحصل من حولك.

وهذا ما يجيده الأميركيّون.

الفصل الأوّل

الإيجابيّات الخاطئة

بحلول ساعات الظهر في الثالث عشر من أيلول/سبتمبر، أطلّ عميل في مكتب دينيس لورميل. قال إن أحدهم اتّصل من مكتب التحقيق الفدرالي (أف بي آي) في أوماهـا. أرادت شركة فيرست داتا كوربوريشن، التي تمتلك منشأة معالجة بيانات ضخمة هناك، أن تساعد بأية طريقة. أشاح لورميل الحانق بنظره عن مكتبه قائلاً: "هذا جيّد"، محاولاً إخفاء الابتسامة المرهقة التي تعلو وجهه. "قد تكون هذه أخباراً عظيمة، عظيمة للغاية".

كـان لورمـيل، نجل شرطيّ في مدينة نيويورك، قد أمضى عقدين من الزمن بالعمـل علـى الناحية الماليّة لبعض أهمّ القضايا في مكتب التحقيق الفدرالي، من التحقـيق في قضية أعضاء الكونغرس الفاسدين المشتركين في فضيحة آبسكام، إلى مـزاعم بيلـي كارتر الذي رشاه الليبيّون، إضافة إلى قضيّة البنك الدولي للقروض والتجارة، أمّ أعمال التزوير المصرفي الدوليّة.

وتعتـبر شـركة فيرسـت داتا من أكبر شركات معالجة معاملات بطاقات الائـتمان في العالم. ويبلغ إجمالي إيراداتها 6.5 مليار دولار أميركيّ ولها مكاتب في جميع بلدان العالم. وكان لورميل على يقين بضرورة التحقق من سلسلة طويلة من الأسماء، بدءاً بالخاطفين التسعة عشر. كما كان يعلم أن كلّ اسم من الأسماء سينتج عـدّة أجـوبة - أي إيجابـيّات خاطئة - وسيتوجّب التحقق من تواريخ الإنفاق ومكانـه. وهنا، ستبرز مشاكل الحريّات المدنيّة - فقانونياً، يتوجّب الحصول على إذن مسبق للتحقّق من كلّ بطاقة ائتمان. وقد لا يتوفّر الوقت الكافي للقيام بذلك؛ فقد يقع اعتداء آخر في أية لحظة.

ولكـــن، كان لورميل يعلم شيئاً غاب عن عملاء مكتب التحقيق الفدرالي، الـــذين لم يغمــض لهـــم جفـــن لمدّة يومين بعد وقوع أحداث الحادي عشر من أيلـــول/سبتمبر: لم تكن فيرست داتا First Data شركة معالجة بطاقات الائتمان الـــرائدة الوحـــيدة في العالم – ما شكّل نقطة إيجابية رائعة حينها. فقد أقرّ لورميل لعميل شاب: "داخل الشركة هناك جوهرة".

ويسترن يونيون.

كانـــت شـــركة التلغراف القديمة المحرّك الأساسيّ للثورة التكنولوجيّة لعدّة أجيال، والذي فقد بريقه اليوم. عاشت الشركة أيام عزّها خلال خمسينيات القرن التاســع عـــشر، عندما بدأت تمدّ كابلات على طول الشاطئ الشمالي الشرقيّ، ومدّت عام 1861 أول كابل عابر للقارّات. في غضون خمس سنوات، نقلت هذه الكـــابلات الـــتحويلات من بورصة نيويورك إلى مدن شمال الشاطئ الشرقي عبر "التلغراف الكاتب". وصف ذلك بالعجيبة حينها.

وتطـــوّر العـــالم. ولكن معظم بلدان العالم العربي الاثنتي والعشرين ما زالت تعـــيش في هذا الماضي. فلا تزال شركة ويسترن يونيون، التي يبلغ إجمالي إيراداتها 2.7 مليار دولار أميركيّ، مقصد شريحة كبيرة من سكان العالم العربي الثلاث مئة مليون. ولا تزال بعض بلدان العالم الأقلّ حظوة تلجأ إلى الطريقة التقليديّة كوسيلة وحـــيدة لـــتحويل الأموال. فتحضر الأموال إلى مكتب ويسترن يونيون، تسلّمه للمكتب، الذي يعدّه ويُرسله بلمح البصر إلى مكتب آخر من مكاتب الشركة.

تتمحور "الحرب ضدّ الإرهاب" المزعومة حول تحوّلات غير محتملة، وتحالفات غـــريبة، حول أشياء لا تتوقعها أبداً. في الواقع، إن الأحداث غير المتوقّعة هي التي تفاجـــئ عـــدواً قـــادراً علـــى التأقلم بسرعة – وأعني قرية عالميّة من الإرهابيّين الإســـلاميّين. إلى ذلك، يُعتبر لورميل داهية في الجرائم الماليّة، ويتحدّث مثل عمّال تفـــريغ المراكب، هو قادر على أن يكون صارماً، ويتمتّع بقدرة دقيقة على التفكير مـــثل طريدته – إنه الشخص المناسب في الحالات التي تتطلّب ابتكاراً. وصل إلى المنـــزل الليلة السابقة لتناول العشاء، بعد أن أمضى يومه تائهاً بين أحلام اليقظة في مقرّات الأف بي آي المضطربة. وأسرّ لزوجته مولي: "اكتشفت العديد من الأمور

اليوم... نحن بحاجة إلى مقاربة ضخمة وشاملة - نستطيع أن نقضي عليهم، كلّهم، هؤلاء الحقيرين. نتمتّع بالكثير من الإمكانات من الناحية الماليّة، والتي لم تكن متوفّرة لنا في السابق. لو استطعنا فقط أن ننظم عمل الجميع، أقلّه هذه المرّة".

الآن، قابعاً في مكتبه، طلب لورميل من العميل الشاب الحصول على رقم لشركة فيرست داتا، فيما كرّر فكرة كانت تراوده: "يجب أن نحوّل هذه الشركة إلى سلاح فتّاك".

في الدور السابع من مقرّ الأف بي آي، عند منتصف ليل الثالث عشر من أيلول/سبتمبر، دخل جورج تينيت، المنهك البالغ من العمر ثمانية وأربعين سنة، مكتبه. لم يحظَ إلاّ ببضع ساعات من النوم من وقوع الأحداث، وبدا التعب على محيّاه. أطلّت جايمي ميسيك، نائبة مدير مساعدة للاستخبارات، في مكتبه.

"أمستعدّ أنت لأخذ قسط من الراحة؟"

"بعد قليل ربّما، ولكن لفترة قصيرة"، أجابها تينيت.

كانت ميسيك، السمراء النحيلة في العقد الخامس من العمر، تكنّ مشاعر لتينيت، الذي عيّنها سكرتيرته التنفيذيّة عندما كان نائب المدير عام 1996، ثمّ، عندما احتلّ منصب المدير، رقّاها إلى المنصب الثاني في مديريّة الاستخبارات - معقل جيش المحلّلين التابع للسي آي إي. خاضا الكثير من التجارب سوياً. ولكن، أياً منها لم يكن يشبه الذي حصل.

كانت تحبّ جورج. وانطبق هذا الشعور على كلّ من عمل في الطابق السابع من السي آي إي، ونادراً ما حصل ذلك بين جدران تلفّها السريّة وينمو فيها عدم الثقة. لم يكن يشبه مدراء الاستخبارات المركزيّة، إذ لم يكن هندامه دائم الترتيب، وكان منفتحاً للغاية. إلى ذلك، كان يعاني من مشكلة سلوك، فكان يواجه مشكلة حقيقيّة في انتقاد الآخرين، حتى عندما كانوا يستحقّون الانتقاد. ويقع في معظم المشاكل التي يواجهها بسبب هوسه في إرضاء الآخرين، حتى عندما يصرخ عليهم.

دخلت وجلست على يد كرسيّ وثير مقابل لمكتبه، في وضعة شرطيّة تسمح لها بالخروج بسرعة إذا ما كان مرهقاً، أو تلقّى اتصالاً من شخص أهم، يتوق إلى محادثته. وكانت المراكز الهامة العليا في الحكومة تعجّ بأشخاص متوتّرين.

انضمّت ميسيك إلى الوكالة عام 1983 كمحلّل اقتصاديّ، وتُشرف اليوم على آلاف المحلّلين الذين يدرسون المعلومات البشريّة التي يجمعها العملاء الميدانيّون، أو العملاء المستخفّون، أو مصادر المعلومات البشريّة الأجنبيّة، والإشارات الاستخباراتيّة من شبكة التنصّت الأميركيّة الواسعة. يحاولون فهم هذه المعطيات خلال ما يُدعى "وقت وظيفي"- والذي يُفسّر بعند الحاجة، أو بعبارة دارجة، وقت إنقاذ الأرواح. وقد فشلوا في هذا المجال. قد فاتتهم بعض الأمور. عرفت ميسيك ذلك. لم يكن مهماً أن وظيفتها، أو وظيفة المحلّلين في مديريّة الاستخبارات كانت تلامس حدوداً مجرّدة: معرفة كلّ ما أنت بحاجة لأن تعلم، في الوقت الذي أنت بحاجة إليه.

قالت: "يجب أن نجد وسائل جديدة لتفكيك هذه المسألة، وجمعها مجدداً. وسّع آفاق تفكيرك... فكّر بما قد يفوتنا".

أخذ تينيت أوراقه قائلاً: "حسناً، من أين نبدأ؟"

أجابت: "بالتعاون مع قلّة من أفضل المبدعين الذين نعيّنهم لترؤس وحدة من الأشخاص الذين لم يعملوا قَط على قضايا الإرهاب. فلنرَ ما يظنّون عندما ينظرون إلى ما نواجه، فلنرَ إذا كانوا يرون أموراً أخرى".

أجاب تينيت: "عيون نضرة"، وهو يفرك عينيه. "قد يأتون بفائدة ما". ناقشوا الأسماء المطروحة، حتى انسحبت ميسيك، قائلة أنها ستضع لائحة بالأسماء في الصباح.

استدار تينيت نحو النافذة، وأرجع كرسيه إلى الوراء. تراءت له من بعيد أضواء واشنطن، المدينة المضطربة التي تحاول إعادة بناء صورتها في العالم، فوق الأشجار التي كانت تظلّل حرم السي آي إي. شارف نهار طويل على الانتهاء. ليس أنه لم يجرِ على ما يرام. فالعكس صحيح، بل كان أفضل من المتوقّع. ذلك الصباح، قدّم واحد من نوّاب تينيت، الرجل القاسي كوفر بلاك، رئيس مركز مكافحة الإرهاب التابع للوكالة، أداءً رائعاً في غرفة متابعة الأوضاع في البيت الأبيض. وبعد انقضاء تسعة أشهر على موجزات رئاسيّة يوميّة، علم تينيت يقيناً أن بلاك سيكون الشخص الذي سيهزّ الرئيس جورج دبليو بوش. وصدق ظنّه. فكان

في جهنّم استهجان لا يُسبر غوره، جهنّم يقضي على الأرواح. فكانت الاعتداءات غير المتوقّعة تساوي كبش الفداء. الحكم. التقبيح الأبدي.

عندما هاجم أعضاء الكونغرس الجمهوريّون تينيت بُعيد وقوع الاعتداءات، سارع بوش إلى نجدته. فقال الرئيس أمام مجموعة من أعضاء الكونغرس الغاضبين على متن الطائرة الرئاسيّة في السابع والعشرين من أيلول/سبتمبر: "لا يجدر بنا التشكيك بفريقنا. ولن أشكّك به. أمتنا في حالة حرب. يجب أن نشجّع الكونغرس على التساهل مع الرجل. فتينيت يقوم بعمل جيّد. وإذا لم يكن كذلك، فألقوا اللوم عليّ، وليس عليه".

في هذه المرحلة، كان جورج تينيت لينفّذ أي شيء يطلبه الرئيس. أي شيء. وعلم جورج دبليو بوش ذلك.

نهار الجمعة الرابع عشر من أيلول/سبتمبر، عندما أراد الرئيس بوش طلب منح صلاحيّات خاصّة من الكونغرس، وصل فريقه على أتمّ الاستعداد إلى مبنى الكونغرس.

وقد صادف أن محامي الإدارة يحاولون منذ أشهر وضع نظريّات حول كيفيّة توسيع الصلاحيّات الرئاسيّة. في الواقع، زرع نائب الرئيس هذه الأفكار في الأساس، اعتقاداً منه، منذ أيام معاناته الطويلة خلال إدارة نيكسون، أنّ صلاحيّات الرئيس تضاءلت بشكل خطر.

وشدّد مفاوضو البيت الأبيض، في المجلس التشريعي ومجلس الشيوخ على حدّ سواء، بتوسيع الصلاحيّات التشريعيّة، لتشمل التفويض للقيام بنشاطات مختلفة على الأراضي الأميركيّة.

وسمحت صيغة القرار المقترحة للرئيس "باستخدام كلّ القوّة الضروريّة والمناسبة ضدّ الدول، والمنظمات، أو الأشخاص الذين يعتبرهم قد خطّطوا، وسمحوا، وشاركوا أو ساعدوا في اعتداءات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001 الإرهابية، أو الذين أووا هذه المنظّمات أو الأشخاص، من أجل الحؤول دون قيام هذه الدول أو المنظّمات أو الأشخاص بترتيب اعتداءات إرهابيّة دوليّة ضدّ الولايات المتحدة في المستقبل". بعبارات أخرى، هو تفويض شامل. وقبل دقائق

علـى التـصويت، طالب مسؤولو البيت الأبيض بصلاحيات أكثر. فبالإضافة إلى "اسـتخدام كـلّ القـوّة الضروريّة واللازمة"، أرادوا إدخال جملة "في الولايات المتحدة"، أساساً من أجل منح صلاحيات حرب لكلّ الخطوات المفوّض بها الرئيس في الـولايات المـتحدة الأميركيّة. رفض أعضاء مجلس الشيوخ هذه الاقتراحات الأخيرة. وكانت هذه سابقة في التاريخ. ووافق مجلس الشيوخ على القرار بـ 98 صوت مقابل لا شي، وفي المجلس التشريعي بـ 420 مقابل صوت واحد.

بعـد يومين، أي صباح نهار الأحد السادس عشر من أيلول/سبتمبر، استقرّ ديـك تـشيني، نائب الرئيس، في الملجأ الرئاسي في جبال ماريلاند لشرح كيفية اسـتخدام الرئيس لهذا التفويض. وعلم تشيني أنّ الوقت قد حان ليبرز براعته، هو الذي يتمتّع بخبرة في المجال التنفيذيّ أكثر من أي نائب رئيس شهده العصر الجديد. كـان الرئيس قد تحدّث باقتضاب في رسائل تلفزيونيّة، وبلهجة قاسية منذ وقوع الاعتداءات نهار الجمعة. والآن، حان دور تشيني للتطرّق إلى التنفيذ، للحديث عن كيفيّة إتمام المهمّة، عن مهنته. سطعت الأنوار، وكان واضحاً أن تيم روسرت، مقدّم برنامج Meet the Press على قناة NBC سيطرح بعض الأسئلة. أراد المشاهدون الاسـتماع إلى نائب الرئيس يتحدّث. خلال لحظات، بدأ تشيني يتحدّث بصوته الجهير، الذي يؤكّد على السيطرة على الأوضاع، والذي يشدّد على الاتصال بك في حال احتاج إليك. وقال، في إطار محاربة تنظيم القاعدة، إن الحكومة تحتاج إلى "التفكير في الأسوأ، نوعاً ما". وتدفع بنا الأزمات إلى أن نكون صادقين. كان البلد يعيش صدمة. وعلى عكس طبيعته، كان ديك تشيني يتحدّث عن الخطّة المتّبعة على التلفزيون القوميّ. "إن الكثير من الإجراءات التي يجب اتّخاذها ستكون سريّة، من دون أية مناقشة، وباستخدام الموارد والوسائل المتوفّرة لدى وكالات الاستخبارات إذا أردنا النجاح. هذا هو العالم الذي يعمل فيه هؤلاء الأشخاص. لذلك، سيكون من الحيويّ لنا أن نستخدم ما توفّر لنا من وسائل من أجل تحقيق مآربنا".

غالباً ما ينصح الخبراء في أسامة بن لادن بـ "الاستماع إلى يقوله. فهو يقول الحقـيقة، وهـو يعني ما يقول". في هذه الحالة فقط، انطبق هذا القول على نائب الـرئيس. فانطوى هذا البيان على العديد من المعاني، الكثير الكثير من المعاني التي

تتخطّى الدعوات الجريئة والمحمّسة إلى إحلال "العدالة المطلقة" على أعدائنا في الخارج- والمختبئين بيننا طبعاً - الأشرار الذين سيذوقون قريباً طعم غضب الجبروت المصقول بالحقّ. ليس أن الدعوات إلى حمل السلاح لم تكن فعّالة. على العكس؛ لكنها ربما لم تكن مناسبة للتحدّي الذي تواجهه أميركا حالياً. وأكّد تشيني أنّ التحرّك السليم لن يكون عبر جيوش تُجمع ورايات ترفرف. بل سيكون بالتحرّك في الظلام.

خلال اجتماع خاص للوزراء صباح يوم الاثنين في السابع عشر من أيلول/سبتمبر، وزّع الرئيس المهام. فبعد مضيّ أسبوع على المشاورات مع كبار المسؤولين في كامب دايفيد، حان وقت التحرّك. وتمحورت المهمّة حول طرد القاعدة من ملجئها في أفغانستان، والقضاء على نظام طالبان الحاكم إذا ما اقتضت الضرورة. في هذه الحال، سيشكّل الرد جسراً بين القديم والجديد، وسيشرك ضباط الاستخبارات، والسلاح الجوي، ووسائل الاتصال السلكية واللاسلكية العسكريّة الخفيفة. "السي آي إي تدخل أولاً"، أكّد الرئيس بوش لكبار المسؤولين السبعة عشر في الحكومة الأميركيّة المتحلّقين حول الطاولة ذلك الصباح، والذين سيحصلون، كل منهم، على لائحة مهام - ومنهم وزراء الخارجية والخزينة والطاقة والدفاع العدل. ستبدأ السي آي إي مهمّتها فوراً بالعمل مع القبائل الأفغانيّة - بدعمها وتوجيهها ورشوها - وتحضّر لوصول القوات الخاصة الأميركيّة. وربّما سيبدأ القصف المستهدف قريباً، ربما في مطلع شهر تشرين الأول/أكتوبر. عندها، سيصل عدد محدود من الجنود الأميركيّين - بضع الآلاف منهم - تقودهم الخرائط التي رسمها عملاء السي آي إي الذين كانوا يتمتعون بخبرة في المنطقة، والذين يحظون اليوم على كامل ثقة الرئيس.

يوماً بعد يوم، أضحت واشنطن العاصمة الصاخبة للصراع المرير، الحرب المدعوّة "حرباً ضدّ الإرهاب"، عبارة كانت تجد مكانها بطريقة غير مستوية في اللغة العالميّة. وتردّدت هذه العبارة في رسائل الفاكس المُرسلة في الأسبوع الذي تلا الاعتداءات، وقبل أن يستخدمها الرئيس بوش في خطابه الحدث في العشرين من أيلول/سبتمبر 2001، معلناً قبل جلسة مشتركة للكونغرس الأميركيّ أنّ

"حـــربنا ضـــدّ الإرهاب تبدأ مع القاعدة، ولكنّها لا تنتهي عند هذا الحدّ. لن تنتهـــي الحـــرب إلاّ بعـــد العثور على كلّ مجموعة إرهابيّة ذات امتداد عالميّ، وإيقافها وإلحاق الهزيمة بها".

واكتـــسبت العـــبارة معـــنىً مغايراً بشكل متقطّع، وباتت تُحدّد بغير معناها الحقيقـــيّ – نوع من التحديد بسبب غياب المعنى الحقيقيّ. في هذا الإطار، تفادى المـــتحدّث باســـم البيت الأبيض، أري فليشر، خلال مؤتمر مع الصحافيين، مسألة أساسيّة: استخدام عبارة "حرب".

تساءل أحدهم: "بالطبع لا تعلن الحرب ضدّ فرد؟"

وســـأل صحفي: "أنّى لك أن تعلن الحرب ضدّ أمّة في حين لا تعرف الأمة المعنيّة؟"

"لا أدري مـــا إذا كان ينبغي استعمال عبارة "حرب"، أكّد الرئيس الفرنسي جاك شيراك، واقفاً إلى جانب الرئيس جورج دبليو بوش، خلال مؤتمر صحافيّ بُعيد وقوع أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، عندما وقفت الدولتان وقفة اتّحاد. "ولكن، أستطيع أن أقول أننا نواجه اليوم صراعاً من نوع جديد".

في الواقـــع، سيكتـــسي العديد من الأجوبة "طبيعة جديدة". فالجواب الأول سيكون أن السي آي إي – وهي وكالة استخبارات – ستكون اللاعب الأساسيّ، تـــشبه بعـــض الشيء جيشاً غير محكم الجمع، على عاتقه ملقاة عدّة مهمّات. بل مهمّات كثيرة. وعلى الرغم من فشل الوكالة في مهمّتها الأولى – أي التحذير من أحـــداث الحـــادي عشر من أيلول/سبتمبر قبل وقوعها – إنها على أهبّة الاستعداد لمـــرحلة مـــا بعد الاعتداءات أكثر من أيّ جناح آخر من الحكومة الأميركيّة. وفي حين دأبت الفئات الأخرى من الحكومة على دراسة القدرات المؤسّساتيّة التي يمكن اللجـــوء إليها من أجل حماية أميركا والدفاع عنها، كانت السي آي إي قد بلغت مـــرحلة مـــتقدّمة من "الخطّة" التي تعدّها منذ سنوات، وهي تحليل استراتيجي عن كيفـــيّة محاربة تنظيم القاعدة كانت الوكالة قد أطلقته عام 1999– أي بعد مرور ســـنة كاملة على تأكيد تينيت لموظّفيه بـــ "أننا سنوظّف كلّ أموالنا وقدراتنا" من أجل مكافحة خطر المجموعات الإرهابيّة العالميّة هذا.

الرئيس على حافة فقدان صبره. الآن وقد اتّضحت الجهة وراء الاعتداءات، كان متلهفاً لمعرفة الردّ الأميركيّ. كان بلاك يذرع غرفة متابعة الأوضاع جيئة وذهوباً، تحت النظرات الفضوليّة لمسؤولي مجلس الأمن القومي والرئيس القلق، فطرح خطّة كان تينيت وغيره من المسؤولين الكبار في الوكالة قد أعدّوها بسرعة: حملة تقودها السي آي إي، مدعومة بالقوات الخاصة الأميركيّة، تجتاح أفغانستان، تستخدم قادة القبائل المحليّة ومقاتلون أقوياء، وتقضي على تنظيم القاعدة في معقله الأفغاني. واسترسل بلاك قائلاً إنّ لهذه الحملة تكاليفها – فقد يلاقي جنود أميركيّون وعملاء في السي آي إي حتفهم – ولكن، سيرى العدوّ "نهاية أيامه".

أومأ الرئيس – بكامل قوّته – برأسه، وبدت في عينيه علامات التيقّظ والتصلّب. لاحقاً، سيقول أن هذا الاجتماع شكّل "نقطة تحوّل في تفكيري"، أي وضع إطار خطّة لاجتياح أفغانستان. خلال اجتماع آخر لمجلس الأمن القومي بعد الظهر، منح الرئيس بوش موافقة أوليّة على أفكار طرحها تينيت، تقضي بمنح السي آي إي صلاحيات أوسع. من شأن هذه الصلاحيات "أن تزيل العوائق" وتسمح بمطاردة العدو، على حد تعبير تينيت. ومن أجل اقتناص هذه الفرصة، ستحتاج الوكالة إلى المزيد من الأموال، إلى عناصر خضعت لتدريب أوسع وإلى حريّة عمل أكبر. ستحتاج إلى استراتيجية شاملة. فوافق بوش. الآن، وبعد مرور يومين فقط على الاعتداءات، أراد المزيد – المزيد من التفاصيل، المزيد من الأفكار، المزيد من كلّ شيء.

كلّ ذلك بعث روح الاطمئنان في نفس تينيت الذي علم يقيناً أنّه لن يطرد من وظيفته.

من المنطقي أن يتساءل عن وظيفته في هذه الأحوال. إذ يحتاج الرؤساء وكلّ القادة في مثل هذه الأحوال إلى كبش محرقة. عندما يؤخذ بلد على سابق غرّة، تلقى المسؤولية على الشخص المفترض فيه معرفة كيفيّة تفادي المفاجئات – مثل وزير أو دوق أو جنرال ما أو حتى مدير استخبارات.

ناظراً وراءه، قال جون ماكلولين، نائب تينيت: "طبعاً، علمت أننا قد نطرد جميعنا. لم يكن لأحد الوقت الكافي للتفكير بذلك. بل كنّا نقول هيا، هيا، هيا.

نعرف ما يجب القيام به. فلنضع خطّة معاً. وإذا ما أراد شخص ما طردنا، فليفعل! نعطيه الخطة ونحن خارجون".

من أجل فهم ما الذي قد يحصل خلال السنوات الأربعة المقبلة، يجب إدراك هـذا المـزيج من عدم الاستقرار والامتنان - الشعور بذنب الناجي هذا، وصدمة الناجي، وامتنان الناجي - وكيف كان ينتهي بحسب جورج تينيت.

إن التناسق بين جورج الرئيس وجورج تينيت مفتاح علاقة محوريّة في "الحرب ضـدّ الإرهاب". كانا زوجاً طبيعياً منذ البداية - رجلان اجتماعيان، وصريحان، ويذهـبان مباشـرة إلى الهدف - ولكنّهما يأتيان من عالمين مختلفين. فتينيت ابن مهاجرين يونانيين من الطبقة العاملة، من سكّان نيويورك، رجل عصاميّ ومنتمٍ إلى الحـزب الديمقراطي. شقّ طريقه من الكونغرس - حيث عمل كمدير موظّفين في لجـنة اسـتخبارات مجلس الشيوخ، منها انتقل إلى مجلس الأمن القوميّ، ثم احتلّ المنـصب الـثاني في السي آي إي في منتصف التسعينيّات من القرن الماضي. أثار إعجـاب كلينتون، وكان يشعر دائماً بالحاجة إلى إثبات قدراته، وإلى شقّ طريقه. أمـا الرئيس بوش، وعلى جميع هذه الأصعدة، أتى من طبقة معارضة أنيقة ووفيّة، وحمل منذ ولادته ميزات، وارتقى ليحتل أرفع منصب في الدولة، ماشياً على خطى والـده. عـندما بقي تينيت في منصبه بعد انتخابات عام 2000، سرت همسات متفاجـئة من البيت الأبيض. فلعب الرئيس السابق دوراً مهماً، وكان على علاقة بأشـخاص داخـل الـسي آي إي، أخبروا ابنه أنّ تينيت رجل طيب، وأعلموه بـضرورة إبقـاء الـسي آي إي بعيداً عن السياسة، وأصرّوا على إبقاء تينيت في منـصبه. قالوا، نظرياً هذا جيّد، ولكن لنرَ كيف ستسير الأمور. فلنرَ إذا ما سيتفق مـع بـوش وتشيني. سمعهم تينيت - وحاول جاهداً كلّ يوم - وفي كلّ احتفال رسمـيّ وخلال الاجتماعات الصباحيّة - أن يثبت عن قدراته. كلّ مسؤول رفيع يعمل "لإرضاء الرئيس". وكانت هذه العبارة تتردّد على مسمع تينيت، الدخيل في هذه الحلقة الضيّقة، يومياً في الصباح.

كـلّ ذلك قبل وقوع الأحداث الأليمة. لو كان الرئيس قد طرد تينيت من منصبه قبل وقوع أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، لكان هذا الأخير ليرمى

يـــا لها من عبارات قويّة. ولكن، تحوّلت الأشهر إلى سنوات، و لم يتحقّق هذا الوعيد. بالطبع، لم تكن الأموال متوفّرة، فقد رفض الرئيسان كلينتون وبوش زيادة المـــوازنة، وخُصـــصت حـــصّة صـــغيرة من موارد السي آي إي لجهود مكافحة الإرهـــاب. وعانت الوكالة في العديد من المجالات من نقاط ضعف كبيرة، حيث أنفقت ما يقارب ربع موازنتها في التسعينيّات من القرن الماضي على ما يُدعى بـــ "حـــصّة الـــسلام". فتوقّف العمل في قسم الاستخبارات السريّة. واختفت تقريباً مـــصادر المعلومات البشريّة في العالم العربيّ. واقتصرت استراتيجية تبنيت لمكافحة خطر الإرهابيين المتنامي على إعادة هيكلة الوكالة برمّتها - استراتيجية غير محدّدة الأولـــويات. فظنّ الكثيرون أن جميع المراكب سترفع سوياً، وكانت السي آي إي تقوم بذلك بخطى حثيثة وبعدّة خطط، بل الكثير الكثير من الخطط.

ســـتطّبق بعض هذه الخطط الآن بين ليلة وضحاها. فبعد اجتماع المجلس في صـــبيحة الـــسابع عشر من أيلول/سبتمبر، كان قد وقّع الرئيس بوش على "قرار رئاســـيّ" سرّي وسّع صلاحيّات السي آي إي، خاصة في مجال العمليّات السريّة. فتستطيع الوكالة استخدام وسائل قاتلة ضدّ الإرهابيّين، من دون إشراف مدنيّ في معظم الحالات. وستتمكّن أيضاً من إدارة ما كان أساساً سياسة خارجيّة سريّة - أي قـــناة بـــين الـــسي آي إي ووكالات الاستخبارات الأجنبيّة التي تكون دائماً مفـــتوحة، نظـــرياً. كان هذا التفويض بالصلاحيات الإضافيّة ضرورياً لاستكمال "خطّـــة الهجـــوم العالمي"- خطّة رفعتها السي آي إي إلى بوش في الأيام السابقة وفصّلت العمليّات التي ستخاض ضدّ الإرهابيّين في ثمانين بلداً.

في الثامن عشر من أيلول/سبتمبر، وقّع بوش أمراً تنفيذياً سرياً خصّص مباشرة بموجبه مبلغاً يتراوح قدره بين 800 و900 مليون دولار أميركيّ إلى السي آي إي. وسيُخـــصّص الجـــزء الأكبر من هذه الأموال لبناء مراكز الاستخبارات لمكافحة الإرهـــاب، في الـــدول الـــتي لا تبدو، حتى الآن، دولاً صديقة. في هذه الحرب، سنحتاج إلى عقد صداقات جديدة.

كانـــت السي آي إي وكالة أمضت معظم وقتها في جمع المعلومات وتمريرها في السلـــسلة - وهـــو الدور الأساسي الذي اضطلعت به، بالطبع، منذ منتصف

السبعينيّات من القرن الماضي عندما أدّى اكتشاف التجاوزات في النشاطات السريّة في حقيبة واترغايت إلى تأليف لجان، ووضع قيود، وتأليف لجان إشراف تابعة للكونغرس. والآن، باتت الحاجة أمّ إعادة الاختراع. فعلى الرغم من تزايد الطلب على دقّة المعلومات، كانت السي آي إي ستتحوّل إلى وكالة أعمال سريّة، وغالباً مميتة. كانت اللعبة مسألة حياة أو موت، مسألة إيجاد أفراد أو مجموعات صغيرة منتمية إلى ثقافات مختلفة – بعضها متحمّس للجهاديّين، بعضها لا والبعض الآخر مشكّك. كانت حرب رجل ضد الآخر.

في اليوم الذي وُقّع فيه القرار الرئاسيّ، أي في الثامن عشر من أيلول/سبتمبر، تأججت المناقشات في لانغلي. فاستطاع كوفر بلاك أن يجاهر بمعرفته بالقاعدة منذ وقت طويل، لأنه واجه بن لادن في الخرطوم عام 1994، السودان، عندما كان الرجلان يرأسان فريقاً كان يتجسّس على الآخر، وتأزّمت اللعبة وبلغت حدّ المطاردة في السيارات ومحاولة بن لادن اغتيال بلاك. أما اليوم، فستوضع حدود جديدة. فبعد المحاضر المحمّسة التي ألقاها بلاك أمام الرئيس بوش ومجلس الأمن القوميّ، لجأ إلى لغة صراعات العصور الوسطى – فتحدّث عن تقفّي أثر أعضاء تنظيم القاعدة و"اقتلاع رؤوسهم". وسرعان ما انتشرت هذه اللغة في الحكومة، مؤجّجة مشاعر العداء. داخل أروقة السي آي إي والبيت الأبيض، سرت الأحاديث عن قطع رؤوس بن لادن والظواهري وإرجاعها في علب. وتحدّثت خطّة الهجوم العالمي للسي آي إي، الموافق عليها حديثاً، عن اعتقال مشتبهين بهم واستجوابهم، والإشارة إلى امتثال المعتقلين أمام النظام القضائيّ الأميركيّ. وأعلم بلاك زميلاً له في لانغلي أنّ "المهمّة واضحة المعالم". "سنتقفّى أثر العدو أينما كان على الكرة الأرضيّة. سنجده ونقتله".

على بعد ثمانية أميال شرقي جنوبيّ أرلينغتون، في أضخم مبنى في العالم، سيتفرّج المدرّبون على القتل – أي الجنود الأميركيّين – من الخطوط الجانبيّة.

سيؤدّي الجيش الدائم الأميركيّ الأكثر تسلّحاً في تاريخ البراعة الإنسانية مجرّد دور مساند. فبعدما تولّت السي آي إي مهمّة التنفيذ، استعدّ منفّذو البنتاغون التقليديون لمهمّة صغيرة النطاق في أفغانستان، إذ نُشر ما لا يزيد عن عشرة آلاف

جـــنديّ، وهـــو عدد ضئيل بالنسبة للعديد الإجمالي للجيش الأميركيّ، وانتظروا التعليمات.

شـــكّل ذلك صدمة بشعة للقيادة المدنيّة في البنتاغون: دونالد رامسفيلد وزير الدفاع، نائبه بول ولفويتز، نائب وزير السياسة دوغلاس فايث، وكبير مستشاريهم غـــير الموظّـــف ريتشارد بيرل - الذي احتلّ منصب مساعد وزير الدفاع في عهد رونالـــد ريغـــان والذي يرأس حالياً المجلس الاستشاري للدفاع الخاص بالرئيس. كانت الأمور تجري بسرعة منذ عهد الرئيس كلينتون وخلال الأشهر التسعة الأولى مـــن الإدارة الجديـــدة من أجل تحقيق هدفين: تحويل الجيش إلى قوّة مكافحة أكثر مـــرونة، ذات تكنولوجـــيا عالية ومواكِبة للقرن الحادي والعشرين، وخلع صدّام حسين.

إلى ذلـــك، تـــشاطر الجمـــيع نوعاً من الكراهية تجاه السي آي إي. ورفعوا شـــكاوىً عدّة، وقدّموا لائحة بإخفاقاتها وغرورها التافه الذي يعود إلى 20 سنة. فأخفقـــت السي آي إي في توقّع نموّ التطرّف الإسلاميّ وآية الله الخميني في إيران. وأخفقـــت في توقّع سقوط الإتحاد السوفييتي. وأخفقت في التنبّه للحرب التي شنها العـــراق ضـــدّ الكـــويت عـــام 1991. أمـــا بالنسبة لأحداث الحادي عشر من أيلـــول/سبتمبر، فقد حالت تحذيرات تينيت وأهمّ نوابه ضدّ خطر القاعدة المتعاظم مـــنذ اجـــتماعهم الأول بالرئيس الجديد دون ارتفاع صوت النقّاد. و لم يتجاوب الـــرئيس بوش، أو نائبه تينيت ذات الباع الطويل في السياسة، مع هذه التحذيرات و لم يضعوا خطّة عمل. وبقي بن لادن مشكلة من دون حلّ، تركيبة لم تُثر لأية ردة فعـــل لـــدى الحكـــومة الأميركية. إذ ركّزت الحكومة الأميركيّة - كما شدّدت مستـــشارة الأمـــن القومـــي كوندوليزا رايس في كانون الثاني/يناير 2001 خلال الاجـــتماع الأول لمجلـــس الأمن القوميّ خلال عهد الرئيس بوش - على "زعزعة الـــنظام العراقي لاستقرار المنطقة"، وعلى الإطاحة بصدّام حسين. وخلال صيف وخـــريف عـــام 2001، وردت عـــشرات التقارير إلى وزارتيْ الدفاع والخارجيّة، شـــدّدت على إمكانيّة اجتياح العراق، في حين ازداد تحذير السي آي إي من خطر تنظيم القاعدة.

وشكّلت القاعدة والعراق موضوعين منفصلين، ذات أهداف مختلفة. ولكن، أكّد الرئيس بوش، في خطابه في التاسع عشر من أيلول/سبتمبر، على تلاقيهما. فلم يكن مقتنعاً بالحديث الجانبيّ الذي أجراه في الثاني عشر من أيلول/سبتمبر بالقرب من باب غرفة متابعة الأوضاع مع ريتشارد كلارك، المنسّق القوميّ للأمن والمستشار الأعلى لمكافحة الإرهاب. كان بوش قد سأل كلارك عن علاقة صدّام حسين بالاعتداءات. فنفى كلارك قطعاً وجود أي رابط - كان واضحاً أن القاعدة هي التي قامت بالاعتداءات، وكانت القاعدة وصدّام أعداء بطبيعة الحال. خلال اجتماع مع جورج تينيت في التاسع عشر من أيلول/سبتمبر، تطرّق الرئيس ونائبه إلى المسألة مباشرة. فقال بوش لتينيت: "أريد أن أعرف الروابط بين القاعدة وصدّام. لدى نائب الرئيس معلومات قد تفيدنا". عندها، استدار نحو تشيني، الذي كان يشارك في الاجتماع عبر بثّ فيديو من مكان آمن.

أُوكلت إلى نائب الرئيس، منذ الأيام الأولى لهذه الإدارة، مهمّة جمع المعلومات الاستخباراتيّة والسياسة الخارجيّة. وازداد عبء المسؤوليّات الملقاة على عاتق تشيني بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. فضمّ مكتبه ما يقارب عشرات الموظّفين والمستشارين المعنيّين بالأمن القوميّ. وقد أطلع تشيني جورج تينيت أنّ أحدهم أخذ تقريراً يشير إلى أنّ محمد عطا، أحد الخاطفين، قد التقى في براغ في تشيكوسلوفاكيا بعميل رفيع في الاستخبارات العراقيّة خمسة أشهر قبل وقوع الاعتداءات. تفاجأت مديريّة الاستخبارات المركزية بذلك. "سنعمل على ذلك في الحال، سيّدي نائب الرئيس".

بعد مرور ساعة، عاد تينيت إلى مقرّ السي آي إي حيث اجتمع العديد من أهمّ نوّابه في مكتبه. أطلع جيم بافيت، رئيس مديريّة العمليّات على الطلب. وفيما رمقه بافيت بنظرات مشكّكة، قال تينيت: "إنه طلب مباشر من تشيني وبوش. فلنعمل عليه حالاً". وسرعان ما تولّى بافيت المهمّة - وانهمرت الاتصالات على مدير مكتب السي آي إي في براغ.

في صباح الواحد والعشرين من أيلول/سبتمبر، وصل مدير السي آي إي، متأبطاً ملفاً كبيراً ويرافقه موظّف رفيع في مديريّة الاستخبارات إلى البيت الأبيض

للموجز الاستخباراتي الصباحيّ. وردّد بوش جملته الاعتيادية، قائلاً: "ماذا تحمل لي من أخبار اليوم يا جورج؟". دخل تينيت في صلب الموضوع، مجيباً: "إن مكتبنا في براغ يشكّك في مدى صحّة التقرير، فهو غير متناسق". كما أشار إلى بعض البراهين الأخرى التي تشمل سجلاّت بطاقات الائتمان والاتصالات الهاتفيّة التي جمعتها السي آي إي والأف بي آي، وكلّها أكّدت وجود عطا في فيرجينيا خلال هذه الفترة – في شقة تبعد بضعة أميال عن مقرّ الوكالة.

أومأ تشيني، المشارك عبر جهاز الفيديو، معبّراً عن شكّه في صحّة هذه المعلومات.

بعد مرور أسبوعين، في مطلع شهر تشرين الأول/أكتوبر، تأسسّت داخل وزارة الدفاع مجموعة موظّفين مشابهة لموظّفي فريق الأمن القوي التابع لنائب الرئيس. تأسست وحدة البنتاغون، المدعوّة مجموعة تقييم سياسة مكافحة الإرهاب، والتي يرأسها دوغلاس فايث، نائب الوزير لشؤون السياسة، لتوفير معلومات استخباراتيّة تحت الطلب لرامسفيلد ولمكتب نائب الرئيس. ومن شأن كلّ مكتب، بالإضافة إلى موظّفي الأمن القومي التابعين له، أن يدعموا المكتب الآخر، وأن يحقّقوا هدفاً مشتركاً: عدم استنفاد استخبارات السي آي إي وحدهم. شكراً، ولكننا سنؤسّس وحدة خاصة بنا.

جمع الرجلان التوّاقان الجالسان سوياً إلى الطاولة – تاريخ طويل من العمل جنباً إلى جنب. فبعد الانضمام إلى إدارة نيكسون عام 1969، برهن دونالد رامسفيلد، وهو في منتصف العقد الثالث من العمر وعضو الكونغرس السابق، عن مهارات كمدير تنفيذيّ لفرع من الإدارة، لدرجة أن ريتشارد نيكسون كان ينظر إليه بحرص. وسرعان ما حوّل رامسفيلد مهمّة مزعجة – أي ترؤس مكتب الفرصة الاقتصاديّة الموروث عن حقبة جونسون – إلى مركز قوّة، وعيّن مساعداً له موظّفاً جديداً في البيت الأبيض، نشأ في وايومينغ، وهو طالب حكوميّ ذكيّ درس مواد ووحدات تخوّله نيل شهادة دكتوراه. ولم يكن هذا الشخص سوى ديك تشيني.

بالإضافة إلى مهاراتهما في التخطيط والتنفيذ، تعلّم الرجلان من فرصة صادفتهما عام 1975، عندما كان رامسفيلد يحتلّ منصب رئيس موظّفي جيرالد

فـــورد وكـــان تـــشيني نائبه، وألقيت على عاتقهما مهمّة الإشراف على مسائل الاســـتخبارات. وقاد الرجلان ما عُرف عندها بـــ "مجزرة عيد جميع القديسين"، وهـــي عبارة عن سلسلة مناورات أدّت إلى احتلال رامسفيلد منصب وزير الدفاع وتـــشيني رئيس الموظّفين، في حين جرّدا وزير الخارجيّة هنري كيسنجر من دوره الثنائي كمستشار للأمن القوميّ، وهمّشا نائب الرئيس نيلسون روكفلر لعدم كونه محافظاً كفاية في الشؤون الخارجيّة بما يشبع رغبات الجناح المحافظ للحزب - وهو جـــناح أقـــنع رامسفيلد وتشيني الرئيس فورد بأنهما يتحدثان باسمه. وسرعان ما سحب روكفلر ترشيحه ضدّ صديقه المرشّح فورد في انتخابات عام 1976.

ارتكزت تصرّفات الثنائي على التقاء الأفكار والطموحات الذي اعتادت عليه العاصـــمة، وفي هـــذه الحـــال، ركّزت الأخيرة على تساهل كيسنجر في سياسة الانفـــراج الـــتي يتّبعها تجاه الاتحاد السوفييتي. كما وتّر هذا الموقف علاقة الثنائي بوكالة الاستخبارات المركزيّة خلال تلك الحقبة. وعوضاً عن توفير تقارير تظهر نموّ القـــدرة العـــسكريّة الـــسوفييتيّة، قدّمت الوكالة تحاليل معقدّة ومتردّدة، محفوفة بالتحذيـــرات حـــول حـــدود القـــدرة السوفييتيّة (والتي ظهرت صحتها لاحقاً) والـــصعوبة الـــتي تعـــيق تقديـــر القدرات الحقيقيّة لعدوّنا. وهكذا، تسببت آخر سلـــسلات أحـــداث عيد جميع القديسين بطرد مدير السي آي إي وليم كولبي، وشـــكلت خطّة للحدّ من تأثير السي آي إي على عمليّة السياسة. تالياً، استُبدل كـــولبي برجل اعتبره رامسفيلد منافساً له - شخص كان من الأفضل أن يُنفى إلى الـــسي آي إي التي بدأت تفقد بريقها. ولم يكن هذا الشخص سوى مفوّضنا إلى الصين، جورج إتش دبليو بوش.

حـــصل ذلـــك منذ 30 عاماً. وبالنسبة لرامسفيلد وتشيني، بدأ جورج دبليو بـــوش حـــياته السياسيّة كإضافة - نجل متعاصرهم. في هذه العلاقات المعقّدة بين الرجلين، من المهمّ عدم التغاضي طبعاً عن التفاعل البشريّ الأساسيّ، والتقاليد التي اعتادها البشر. بطبيعة الحال: يبقى نجل صديق أو زميل، بالنسبة لوالده، وفي مختلف الأحـــوال والظروف، طفله. بالنسبة لتشيني، يبقى جورج دبليو بوش ابن شخص أكـــبره (أعجب به)، على الرغم من اعتقاده أن الرئيس السابق فوّت فرصة كبيرة

قُـــدّمت لـــه على طبق من فضّة بعدم القضاء على صدّام حسين. أمّا رامسفيلد، فاعتـــبره ابن رجل لم يشعر أبداً أنه يساويه الذكاء أو الأهداف، وخير برهان على ذلـــك أيـــضاً تفويت الرئيس الأسبق لفرصة الإطاحة بصدام حسين. والآن، ضع هذين الشخصين في المناصب العليا التي يحتلاّنها في إدارة الابن، جورج دبليو بوش: رئـــيس لا يملك ذرّة خبرة في السياسة الخارجيّة، والذي عانى للتخلّص من خيال والده. إنها حسابات سهلة. فغالباً ما تغيّر هذه التحالفات مجرى التاريخ، أكثر من المذكّـــرات المتنافسة أو السجالات المنسيّة. لذلك، وبعد مرور مئة سنة من اليوم، ســـينظر العلماء إلى هذا العدد من اللاعبين ويقولون، بعبارات لا تحتمل اللبس، أن أيام صدّام حسين كانت معدودة. وفي نهاية المطاف، تمحور كلّ شيء حول مسألة اتفق عليها الرجال الثلاثة، وآمنوا بها. من وجهة نظر الشخصية التي توجّه الأقدار - الأشخاص المتجهين نحو تقاسم كلّ ما يحصل، والحصول على ما يبتغون عندما تـــسنح الفرصة - لم يكن غريباً، بالمقابل، أن يتطرّق الاجتماع الأول لمجلس الأمن القومـــي الـــذي عقـــد في كانون الثاني/يناير من العام 2001 إلى الإطاحة بصدام حـــسين. وشكّل هذا الموضوع أيضاً محور الاجتماع الثاني. ولكن المشكلة كانت في كيفيّة القيام بذلك، إذ لم يكن التردّد خياراً.

بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، فيما حاول الجيش الدائم والقادة المدنـــيّون جاهدين لإيجاد وسيلة للمساهمة، ستبرز مشكلة المشاركة. ففي تشرين الثاني/نوفمبر، سيتحدّث الرئيس بوش إلى رامسفيلد جانبياً ويطلب منه إعداد خطّة مفصّلة لاجتياح عسكريّ للعراق. ولم يكن أكيداً أنه سبق لتشيني وقال لرامسفيلد بـــأن يـــتوقّع مـــثل هذا الطلب. فطلب بوش من رامسفيلد عدم إطلاع أيّ من المسؤولين الكبار في الحكومة على هذا الطلب، وإقناع الضباط العسكريّين الرفيعي المستوى بأنه مجرّد طلب اعتياديّ. وإذا قُدّم العرض الأخير من دون طلب الحصول على معلومات استراتيجية مسبقة من تشيني، لشكّل ذلك مفاجأة. واندرجت هذه المهمّـــة في عداد المهام الكثيرة التي أدّاها تشيني خلال الثلاثين سنة الماضية: العمل خلـــف الكواليس لتنسيق أحداث ستبدو وكأنها غير متوقّعة. ولكن على العكس. كانت مجرّد معادل بيروقراطيّ للحدث الإعلاميّ. وهكذا، انتقلت أميركا إلى خطّة

مفصّلة للإطاحة بصدّام، علم بأمرها ثلاثة رجال فقط: بوش ورامسفيلد وتشيني. أما أسباب عدم الإفصاح عنها فكانت جليّة المعالم. ولكن، سؤال واحد شائك بقي: كيف نحبك قصّة "الحرب ضدّ الإرهاب" حول الإطاحة بصدّام حسين؟ تالياً، إجابات إضافيّة أوليّة.

الاستخبارات مهمّة. ذلك هو الدرس الأول الذي تعلّمنا إياه أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر.

وكانت الحكومة بكافة أجهزها، التي تتلمّس طريقها في أرض مجهولة، ويائسة، تتوق للحصول على معلومات استخباراتيّة. فلم تكن الأهداف الملائمة المحدّدة على أراضي أفغانستان الواسعة، أو طبيعة عدوّنا الإرهابي وقدراته واضحة المعالم.

وبعد مرور فترة صغيرة على بدء قصف الطائرات الأميركيّة لأفغانستان في السابع من تشرين الأول/أكتوبر – وبعد تجمّع القوات الأرضيّة الأميركيّة في الخليج للتحضير لاعتدائها – كشفت وكالة استخبارات غربيّة عن معلومات خطرة للولايات المتحدة. وارتسمت من خلال هذه المعلومات ملامح كابوس حقيقيّ.

تقع الأحداث في مخيّم في كندهار، في ليلة دافئة في منتصف شهر آب/أغسطس، ثلاثة أسابيع قبل وقوع أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. في ضوء النار، جلس أسامة بن لادن وندّه الوحيد أيمن الظواهري، الجرّاح المصريّ الذي جمع، عام 1998، منظمة الجهاد الإسلامي المصري التابعة له – إضافة إلى مجموعة التكتيكيّين المثقّفين – مع شبكة الجهاد التابعة لبن لادن، وأسّسوا بذلك تنظيم القاعدة. هذان الرجلان – واللذان سترد أسماؤهما على جميع الشفاه، واللذان سيصبحان أبطال طائفة بالنسبة لمليارات الأشخاص، ومنبوذين لمليارات آخرين – كانا حتى هذا الوقت معروفين لخبراء الإرهاب وللمنتمين إلى المواقع الإلكترونيّة الإسلاميّة المغمورة.

بعيداً عن نار المخيّم التي ضمّت بن لادن وأيمن الظواهري، جلس رجلان، أغلب الظنّ أنهما سلطان بشير الدين محمود وشريكه عبد المجيد. وكان محمود من أهمّ قادة مهمّة بناء قنبلة نووية في باكستان، التي استمرّت لثلاثة عقود ونجحت في

النهاية. وفيما كان العقل المخطّط وراء هذه الجهود عبد القدير خان الجامح وغير المطواع، الذي كان قد سرق التصاميم الغربيّة لإنتاج اليورانيوم المخصّب في السبعينيّات من القرن الماضي، والذي حقّق مبتغاه في الثمانينيّات من القرن الماضي، عيّنه محمود، بصفته رئيس الطاقة الذريّة في البلاد وخبيراً في وسائل تخصيب اليورانيوم، في منصب رفيع. ورافقت هذا المنصب أسساً لجأ إليها في نهاية التسعينيّات من القرن الماضي للدفاع عن فكرة ضرورة انتشار الأسلحة النوويّة في البلدان الإسلاميّة الأخرى. فقد أصبح متطرّفاً للغاية، وآمن بأنّ هذه الهبة المدمّرة من شأنها أن ترسم سيناريو "نهاية الأيام" والنصر المبهج للإسلام. عام 1999، أدّت هذه التصريحات إلى طرده من طبقة موظّفي الدولة؛ وتمّ تعيينه ثانية في مركز أدنى، فقدّم استقالته شاعراً بالإهانة.

وكانت فكرة بروزه مع بن لادن وأيمن الظواهري بهذه الطريقة فكرة مروّعة.

توجّب القيام بالكثير، وبسرعة. وكانت أسماء الأعضاء واضحة. ولكن، بمن كان محمود على علاقة اليوم؟ ما كانت تحرّكاته؟ ماذا كانت نوايا بن لادن والظواهري بعد الاجتماع بالعلماء النوويّين الباكستانيين؟ وهل أمكننا اطلاع الباكستانيّين على النتائج التي توصّلنا إليها، أو ما شككنا به؟ وأكثر ما تكتّم الباكستانيّون على برنامجهم النووي - محطّ فخر وطنيّ لا يقدّر بثمن. وقرّر تينيت وماكلولين إبقاء الأمور طيّ الكتمان، وإجراء الاتصالات من خلال "قناة الاستخبارات".

اتصل تينيت وبافيت ببوب غرونييه، رئيس مكتب السي آي إي في إسلام أباد، هذا المكتب الذي كان يشهد ازدهاراً وبخاصة مع وقوع الأحداث في أفغانستان المجاورة - ليصبح أحد أكبر مكاتب في شبكة السي آي إي.

عبر القنوات السريّة واتصالات المتابعة، أُطلع غرونييه على كلّ ما توفّر من معلومات. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو التالي: إلى أي مدى يمكنه إطلاع جهاز الاستخبارات الباكستاني على المعلومات المتوفّرة، علماً بأن هذا الجهاز معروف بقساوته وازدواجيّته خلال تأسيس نظام طالبان؟

وبرز أوّل تحدي تجسّس ملحّ في حقبة ما بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر – طـــريق غير واضحة من إسلام أباد إلى كندهار والتي من شأنها أن تؤدّي إلى بن لادن والسلاح النووي. ولكن، وقبل أن نتحرّك، كانت الولايات المتحدة الأميركيّة قد قرّرت بمن يمكنها الوثوق في هذه المنطقة من العالم.

"تفضّل يا برانت"

"تسعدني رؤيتك يا ديك".

خـــلال شهر تشرين الأول/أكتوبر، جلس الرجلان مقابل بعضهما البعض في مكـــان اعـــتادا عليه، البيت الأبيض، حيث أمضيا أطيب أيامهما، غالباً جنباً إلى جنب، يحتلاّن منـــزلة اجتماعيّة رفيعة.

كانا موجودين في تعيين كلّ منهما مستشارين موثوقين – وهما رجلان، على الـــرغم مـــن عـــدم انتخابهما، كانا يقودان السياسة الخارجيّة الأميركيّة ويضعان خططها. وعلى غرار الأصدقاء القدامى في العالم، كانا آخر من رأى الآخر يتقدّم في السن، أو يتغيّر، أو يتولّى مسؤوليات جديدة.

بالطـــبع، كـــان قد تغيّر العالم بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر – أي قـــبل شـــهر واحـــد فقـــط – والـــيوم أتيحت الفرصة الحقيقيّة لمناقشة هذه التغيّـــرات ونـــتائجها. وكـــان هذا من اختصاص الرجلين. تقييمات حكيمة، معبّـــرة وذات صـــلة؛ قـــدرة على ربط الأهداف والاستراتيجيات؛ وبعدها، معرفة ما يجب القيام به.

أو، بالتحديد، نصح الرؤساء حول ما يجب القيام به. وقد قام سكوكروفت بـــذلك، بـــصفته مستشاراً للأمن القوميّ، مع الرئيس بوش الأب والرئيس جيرالد فورد. وتحت حكم ريتشارد نيكسون، احتلّ منصب نائب مستشار الأمن القومي في تلـــك الحقـــبة، مهندس العالم الأفضل، هنري كيسنجر، مرؤوسه الأول الفعلي ومعلمّه.

بعـــد احتلال هذه المناصب لمدّة 30 سنة، اكتسب سكوكروفت قدرة على رؤيـــة العالم على حقيقته – واكتسب فهماً لردّ العالم القلق على مبادئ الولايات المتحدة وممارسة قوّتها.

وكان مرجعاً أساسياً في العديد من الاختبارات، مثل إقامة علاقات مع الصين وسياسة الانفراج والرد على سقوط الاتحاد السوفييتي وحرب الخليج عام 1991 لطرد صدام حسين من الكويت. وعيّن الرئيس الجديد جورج دبليو بوش، سكوكروفت - في عقده الثامن وقدراته لم تتغيّر - رئيساً للمجلس الاستشاري للاستخبارات الخارجيّة، وهو مجلس يمثّل الحزبين ويتألف من 16 عضواً، كان دوايت أيزنهاور قد أسّسه عام 1956 ليوفّر للرؤساء "مصدر استشارات مستقلّة حول فاعلية المجتمع الاستخباراتي في تلبية حاجات الأمة إلى المعلومات الاستخباراتيّة".

لم يتّكل جورج بوش على المجلس. لم يكن ذلك بمشكلة - بل كان خياراً قام به كرئيس - ولكن لم يكن سكوكروفت غير واقعيٍّ ليتوقّع المزيد. فقد كان معلّم كولن باول ومرشده، وزير الخارجيّة الحاليّ، وكان قد اكتشف مستشارة الأمن القوميّ كوندوليزا رايس، عندما تعرّف عليها عام 1989 عندما كانت تدرّس في جامعة ستانفورد اختصاص القوة السوفييتيّة والعلاقات الأوروبيّة. وكان ستيفن هادلي، نائب رايس، مستشارة الأمن القومي، محميّ سكوكروفت، وكان، خلال التسعينيّات من القرن الماضي، قد احتلّ منصب مدير في شركة سكوكروفت أدفايزرز، شركة استشارات السياسة الخارجيّة التابعة للجنرال.

بالأخصّ، كان برانت أكثر مستشار يحظى على ثقة الرئيس الواحد والأربعين. وفرضت حرب الخليج، أرقى لحظة في إرث الرئيس بوش الأب المستمرّ، نفسها بعد موقف شركة سكوكروفت وتحذيراتها من أنّ اجتياح صدام حسين للكويت شكّل خرقاً للقانون الدوليّ الذي تعارض مع المصالح الأميركيّة الرئيسيّة. وتماماً كما وضّح كيسنجر طموحات نيكسون العالميّة، دعم سكوكروفت الاندفاعات الدوليّة لرئيسه بتحاليل متناسقة. كما وفّر استمرارية للنمط، من خلال وضع أسس المدرسة "الواقعيّة" لتفكير السياسة الخارجيّة - رأي قائل بضرورة تعديل طموحات أميركا، ومثاليتها العالية أحياناً، بنظرة واقعيّة تركّز على الحدود المناسبة لاستخدام القوة. إلى ذلك، هناك أمر إضافيّ: إن برانت وبوش الأب، الرجلين المهذبين، واللذين يتردّدان في اتخاذ قرار ولكن الثابتين في موقفهما

عـــندما يـــتّخذانه – يـــشعران بالمحـــبة عينها التي يشعر بها رجال جيلهم. ويملك ســـكوكروفت شقة قرب مجمّع بوش في كينيبونكبورت. ويتحدّث، هو والرئيس الأسبق، كلّ يومين.

ممـــا عنى أنه كان على علم مسبق بما فهمه القلائل من خارج عائلة الرئيس بوش: أن الرئيسين لم يكونا مقرّبين، ولم تجمعهما أحاديث معمّقة التي نتوقّعها من رجلـــين باتت تربطهما الآن علاقات دم وتاريخ وثيقة. كانت ذلك غريب جداً. وعلم سكوكروفت أنّ هذا الواقع قد يفسّر سبب عدم استدعائه في الأشهر العشرة الأولى مـــن الرئاسة. على الرغم من ذلك، أبدى إعجابه ببوش الشاب. فسيحتاج الـــرئيس الجديـــد إلى نـــصائح ملائمة، كما أيّ رئيس، وربّما أكثر بقليل. انتظر سكوكروفت. وقام بما طُلب منه، بدقّته المعتادة.

في هذه الحال، طُلب منه تقييم قدرات الاستخبارات الأميركيّة ورفع تقرير بها إلى الرئيس.

انكـــبّ ســـكوكروفت علـــى هذه المهمّة بحماسة شاب. فقد أمضى عقوداً كمستهلك "لمنتجات" الاستخبارات – ملتهماً تقارير السي آي إي ورسائل وكالة الأمن القوميّ الكافية لملء قاعة روزفلت. وربّما كان الوحيد الذي يتمتّع بهذا الكمّ من الخبرة في المضمار.

وسلّط التقرير الذي أعدّه في نهاية صيف عام 2001 الضوء، أساساً، على أنّه تمّ تأسيس السي آي إي من أجل تلبية حاجات حقبة انقضت اليوم. إذ تمّ تأسيس الـــسي آي إي عـــام 1947– وترأسها مدير زُعم أنّه سيدير جهود الاستخبارات الأجنبيّة ويرفع تقاريره مباشرة إلى الرئيس. في هذه المرحلة أيضاً، تمّ تأسيس مكتب وزيـــر الـــدفاع– وهو مكتب مدنيّ يشرف على الأعمال العسكرية ويقدّم تقارير مباشـــرة إلى الـــرئيس أيـــضاً. ولكن، لم يتمّ تحديد دور كلّ منهما ومسؤولياتهما واســـتعدادهما للنموّ. وكانت مختلف الأقسام العسكريّة – الجيش والقوات البحرية والقـــوات الجويّة – ولايات-أمّة مستقلّة، يحكمها رجال بالبزّات الرسميّة، ويرأسها مكتب وزير الدفاع. على الرغم من ذلك، وفي مطلع الحرب الباردة، والصراع مع الإمـــبراطورية السوفييتيّة المستمرّ منذ 45 سنة، والحروب مع كوريا وفيتنام، ومع

ولادة مَــواطن تــأثير وأمن منافسة، أجاب مكتب وزير الدفاع على كلّ سؤال مؤسّـــساتيّ. وازداد نفـــوذه واكتسب سلطة واسعة النطاق، وبسط سيطرته على موازنة ازدادت لتتخطّى اقتصاديات جميع بلدان العالم باستثناء 12 دولة تقريباً.

وكتب سكوكروفت في تقريره أنّ السي آي إي رُكّزت أساساً على منافس واحـــد، وهـــو الاتحاد السوفييتيّ، مع ما تضمّه السي آي إي من عملاء ومحلّلين أصـــبحوا لاحقـــاً خبراء في لعبة التحرّك والتحرّك المضاد مع ندّهم الشيوعيّ. في غضون ذلك، ركّزت وزارة الدفاع على الاتحاد السوفييتي واكتسبت حجماً ضاهى حجـــم الـــسي آي إي. وعملت وزارة الدفاع جاهدة في مضمار جمع المعلومات الاســـتخباراتيّة. وتـــشرف وزارة الدفاع على وكالة الأمن القوميّ – التي قُدّرت موازنتها بستّة مليارات دولار أميركيّ خلال التسعينيّات من القرن الماضي، أي ما يقـــارب ضـــعفيّ موازنة السي آي إي. وينطبق ذلك أيضاً على معظم أقسام جمع المعلـــومات الاســـتخباراتيّة الحكوميّة الاثنتي عشرة. وبحلول عام 2000، ستسيطر وزارة الدفاع على ما يقارب 80% من موازنة أجهزة المخابرات في الأمّة.

أكّـــد سكوكروفت في التقرير أنّ انهيار الاتحاد السوفييتي يعني عدم تطبيق جهود وكـــالات الاســـتخبارات ومواردها الكثيرة بالطريقة الملائمة. وشدّد على حاجات الاستخبارات التي طرحها عدد المنافسين الإقليميّين المتفاوت، والإرهابيّين والحركات الإيديولوجـــيّة والأخصام الذين، على عكس الاتحاد السوفييتي السابق، ليسوا عاقدين العزم على تدمير أميركا – وهم، في شتّى الأحوال، غير قادرين على القيام بذلك.

في ذلك اليوم من شهر آب/أغسطس، التقى تشيني وسكوكروفت في مكتب نائـــب الرئيس لمناقشة التوصيات التي تضمّنها التقرير، والتي شملت "تغيير المهام"، حـــيث يـــؤدّي مدير الاستخبارات المركزية وظيفة قائد استخبارات الأمّة ويحصل علـــى حـــصّة الأسد من الموازنة الواقعة ضمن وزارة الدفاع. استمع نائب الرئيس بآذان صاغية، وبدا موافقاً على الطروحات. إذاً كان اجتماعاً وديّاً.

بعـــد وقوع أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، طُلب من سكوكروفت تنقيح تقريره، بالارتكاز على الاعتداءات. ومع الانتهاء من تنقيح التقرير، وموافقة تشيني عليه، عاد سكوكروفت إلى مكتب نائب الرئيس.

استقرّ وتشيني، وتحدّثا قليلاً عن الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. سأل سكوكروفت عن وضع الرئيس بوش، وعن كوندي، وكيف يتعاطى نائب الرئيس مع الضغوط المستمرّة منذ الشهر المنصرم. كان من الغريب جداً لسكوكروفت عدم استدعائه في مثل هذه الأوقات. أكّد تشيني أنّه والرئيس على خير ما يرام، وشكر لبرانت اهتمامه.

بالطبع، كانت الاعتداءات من المخاطر التي كان من الصعب مراقبتها أو تقييمها، والتي ناقشوها خلال الصيف المنصرم. وقال برانت أن التقرير المؤلّف من عشرين صفحة لم يخضع لتغييرات كبيرة.

واستغرب برانت: "يا إلهي، انطلقت من أفغانستان، من البلد المتخلّف والمنسيّ على الكرة الأرضيّة. وهذا يؤكّد قلّة معرفتنا بمصدر المخاطر".

وأكّد سكوكروفت لتشيني أنّ معرفة المعلومات التي يجب أن نعرفها وفي الوقت المناسب تعني ضرورة إعادة النظر في طبيعة جهاز الاستخبارات. واليوم، كانت وظيفة الاستخبارات موزّعة على سلسلة من الوكالات وأجهزة استخبارات الفروع العسكريّة. "نحتاج إلى مكتبة أبحاث استخبارات كبيرة"، أكّد سكوكروفت، مستخدماً كلمة مدرسيّة قديمة، حلّت محلّها اليوم عبارات طنّانة مثل "تجمّع" أو "دمج". وستضمّ هذه المكتبة جميع المعلومات؛ ويستطيع أن يلجها جميع الأشخاص الحائزين على تصريح أمنيّ مناسب، وسيتمّ استحداث تصاريح أمنيّة خاصّة ببعض المجالات، وستشرف السي آي إي ومديرية الاستخبارات المركزيّة المستحدثة على هذه العمليّة. في النهاية، ما زالت السي آي إي الوكالة الرئيسيّة، ومركز جمع المعلومات والمكان حيث تجري التحاليل الصعبة.

أومأ تشيني برأسه. وقال، في الواقع، إنّ اختلاف الأهداف الجديدة وتنوّعها لجمع المعلومات وتحليلها شكّل تحدياً كبيراً. فعلى عكس أيام السوفييت في العام 1947، ليس هناك ميدان واحد للبحث، بل كان هناك 50. إذ كانت القاعدة مجموعة مؤلّفة من عدّة منظّمات إرهابيّة – بشكل خاص في مصر والمملكة العربية السعودية – ولكن، كانت هناك مجموعات مماثلة في 12 دولة. وكانت البلدان الصناعية الجديدة تبني أسلحة مدمّرة جديدة وتختبر

حـــدودها. وكانـــت هذه البلدان تحتضن الحركات القوميّة - أي كفّة الميزان المقابلـــة للعـــولمة الجامحة. كيف نبقي كلّ هذا ضمن إطار واضح وفعّال؟ من خـــلال دمج الجهود الاستخباراتيّة وجمعها. "إنها فرصتنا الوحيدة، وإلا ستتكرّر المفاجآت"، أكّد سكوكروفت.

ثم فكّـــر ســـكوكروفت في الاحتمالات كلّها. "يعني ذلك أنّه يجب أن نغيّر المهام"، مشيراً إلى إعادة هيكلة شاملة.

ولكن تشيني لم يوافقه الرأي. وأجاب: "إنّ تغيير المهام لن يحلّ المشكلة. إنه لا يحلّ المشكلة أبداً".

"لـــيس فوراً"، اعترض سكوكروفت، ولكن ومع مرور الوقت، ستبدأ المهام المؤسساتية بالتغيّر، وسيبدأ الموظّفون "بالتفكير بعقليّة جديدة". وقال، عندها، يجب أن نتحـــرّك، ولكن يجب أن نفكّر على المدى الطويل. "انهار الاتحاد السوفييتي منذ 10 سنوات، وتعرّضنا لتوّنا للاعتداء. لقد انتظرنا بما فيه الكفاية".

واستفاضـــوا في مناقشة الأمور، في محاولة للاتفاق على الإجراءات التي يجب اتخاذهـــا - وهـــي تدمير جميع الجدران التي تفصل الوكالات، تفكيك الحواجز. وناقشوا الحواجز التي تحول دون ذلك.

عندها، استلّ سكوكرفت سيفه. وأكّد أنّه تحدّث ورامسفيلد عن التغييرات، بمـــا في ذلـــك سحب سلطة الموازنة من يد وزارة الدفاع، وإعطاء قسم كبير منها لمديريّة الاستخبارات المركزية أو السي آي إي.

ولكـــن، علـــى الرغم من ظنّ سكوكروفت أن رامسفيلد أطلع تشيني على فحوى الحديث الذي دار بينهما - بما أنّ دون وديك يتقاسمان كلّ شيء- أجاب على السؤال في شتّى الأحوال.

وقال ببساطة: "أبدى دون اعتراضاً شديداً على الأفكار التي تقدّمت بها".

وهزّ ديك رأسه موافقاً. وعندها علما بكلّ شيء- الكثير ربّما. ويستطيع كلّ رجـــل أن يحـــصي 12 شخـــصاً على الأقلّ عارضوا دون على مدى السنوات - وطرحوا أحياناً أفكاراً منطقيّة - والذين لم يعد صوتهم يؤثّر اليوم. فكيسنجر وقف ضدّه. ونيلسون روكفلر الثوري - والذي احتلّ منصب نائب رئيس - والذي فقد

منـــصبه بسبب دون، بمساعدة ديك في السبعينيّات من القرن الماضي – لطالما أكّد أنّ رامسفيلد لا يستحقّ حتى الازدراء.

قـــال ســـكوكروفت: "اسمع يا ديك. قد تعطّل طروحاتي بعض المشاريع من دون شـــكّ. لـــذلك، إذا ارتأيـــتَ أن الوقت لا يسمح بذلك، فسأوضّب أمتعتي وأمـــضي في ســـبيلي. لا أريد القيام بذلك. وأعتبر أنه يجب طرح هذا الواقع على الطاولة حالاً. فالوقت مناسب الآن". وأضاف: "ولكن، سأكون عند رأيك".

فكّر تشيني للحظة، وقيّم الوضع المطروح. كان يدير استراتيجيات جريئة في يـــد الـــسلطة الأميركيّة – خطوة أولى اجتياح أفغانستان، وقلب النظام في العراق كخطـــوة ثانية. وبفضل حسّ الواقعيّة الكبير الذي يتمتّع به سكوكروفت، لم يتأثّر بالأفكار التي طرحها بول ولفويتز، نائب رامفسيلد، الذي أكّد أنّه يمكن اللجوء إلى قـــوّة أميركا لاستبدال الأنظمة المارقة بأنظمة ديمقراطيّة صديقة للولايات المتحدة، بخاصة في العالم العربيّ المزعزع.

متـــسلّحاً بملفّه المتواضع، وضع برانت نفسه على سكّة المواجهة مع دون رامـــسفيلد. رجـــل الـــرئيس الحـــادي والأربعين مقابل رجل الرئيس الثالث والأربعين.

بعـــد برهة، أجاب تشيني: "لا، قم بعملك، وقدّم التقرير إلى الرئيس". قال ســـكوكروفت أنـــه سيقدّم نسخة مسوّدة عن التقرير، من أجل إفساح المجال أمام مناقـــشتها. بعدها، وقف الرجلان – الصديقان القدامى واللذان خاضا معاً معارك كثيرة – وتصافحا.

ماذا المعاني التي حملتها هذه المصافحة، والابتسامة الباردة؟ لماذا يبدو وكأنهما تباعدا؟

لأن ذلـــك كان الاجتماع الأخير الذي سيجمع برانت سكوكروفت بديك تشيني.

في مركز معالجة المعاملات الكبير لفيرست داتا في أوماها، اتّخذ جنود بوب مـــولير مـــواقعهم. ووطأت أقدامهم شركة تساوي 500 ثروة، شركة تحرّك فيها العملاء الفدراليّون بحريّة تامّة، يجوسون مخازن الكومبيوتر الضخمة في فيرست داتا.

تسيطر الشركة التي تتخذ من دنفر مقراً لها، على ما يوازي نصف حجم المعاملات الأميركيّ، وتعنى بنشاطات نقل الأموال في العالم.

في أيـــام الهلـــع الأولى هذه - والخوف من اعتداءات ارتداديّة - شكّل هذا الامتداد الواسع نقطة إيجابيّة. ففي النهاية، توجّب التحقيق في الكثير من المواضيع، بـــدءاً بأسمـــاء جميع الخاطفين. توجّب التحقق من كلّ شخص حمل اسم عطا أو حـــنجور في العالم وملاحقته. كما تمّت مقارنة عناوين الفواتير بتواريخ التسديد، والعـــناوين بالـــتواريخ. هل هذا هو عطا المنشود أم شخص آخر؟ إذا وقعنا على الشخص المنشود، فسيفتح ذلك الطريق أمام أبحاث في آلاف الشركاء، وسيضيء عتمة درب قاتمة. إن اكتشافاً واحداً قد يؤدّي إلى إرهابيّ آخر، أو مموّل، أو ملجأ، أو أي مكان يرتاده الإرهابيّون. أقلّه، توجّب أن تجري الأمور على هذا النحو.

مـــن أجل فهم هذه اللحظة، والأسباب المحفّزة للعمليات - والتي قد يشكّل بعضها تعدياً على الحريّات المدنيّة وحقوق الخصوصيّة - من الأساسيّ فهم النتائج القلـــيلة الـــتي توصّلت إليها الجهود الأميركيّة لمكافحة الإرهاب، ومدى موثوقيّتها وضرورتها. و لم يكن هناك حتى مصدر معلومات بشرية واحد ذات معنى في عمليّة القاعـــدة. لم ترد براهين عن عملاء القاعدة، أو مؤيّديها على الأراضي الأميركيّة. واســـتطاع فريق عطا المؤلّف من 19 عضواً الدخول إلى الولايات المتحدة، والعمل علـــى أراضيها والاتصال بقادة القاعدة وتنفيذ أسوأ اعتداء شهده تاريخ الولايات المتحدة على أراضيها، وحتى الآن لم يعرف المحقّقون كيف تمكّنوا من ذلك!

كـــان المـــسؤولون الأميركيّون، البعيدون عن الحقيقة، يترقّبون بخوف اعتداءً ارتـــدادياً. وقرّروا التصرّف أولاً، والاهتمام بالمسائل اللوجستيّة لاحقاً. على الرغم مـــن ذلـــك، عـــندما استقرّ عملاء الأف بي آي في فيرست داتا، بعد أن اتصلت الشركة بالمكتب، شعروا أنهم يملكون سوابق يمكنهم الارتكاز عليها.

فـــتملك العديـــد من الشركات الأميركيّة، الكبيرة والمعروفة، تاريخاً حافلاً بالعمـــل سرياً مع الحكومة الأميركيّة. في الواقع، كانت شركة ويسترن يونيون في واجهـــة الشركات التي تعاونت مع الحكومة. واشترت شركة ويسترن يونيون في الـــستينيات مـــن القرن التاسع عشر من شركة التلغراف الأميركيّة رسائل ممنوعة

ومشفّرة خلال الحرب الأهليّة، بأمر من وزارة الحرب. خلال الحرب العالميّة الثانية، أرسلت جميع شركات التلغراف الأميركيّة نسخاً من رسائل دوليّة إلى الحكومة الفدراليّة. واستمرّ البرنامج المدعو "عمليّة شامروك" بعد انتهاء الحرب ولم يكن الكونغرس أو مسؤولون رفيعو المستوى على علم به.

يومياً، كان ساعي بريد يترك مقرّات وكالة الأمن القوميّ في فورت مايد في ماريلاند، ويستقلّ قطاراً متوجهاً إلى مدينة نيويورك. ينسخ الموظّف على شريط ممغنط جميع البرقيّات الدوليّة التي أرسلت في اليوم السابق عبر الشركات الثلاث الرئيسيّة – ITT و RCA Global وويسترون يونيون – ويحضر الشريط إلى المحلّلين في ماريلاند لينكبّوا على دراسته. واشترك في عمليّة جمع الاستخبارات الدوليّة هذه مدنيون أميركيون، وكان العمل يُعلّق عندما كان يتمّ اكتشاف أمرهم، أو عندما تقع انتهاكات استخباراتيّة، مثل تحقيقات الكونغرس في السي آي إي في حقبة ما بعد واترغايت في منتصف السبعينيّات من القرن الماضي. وشكّلت عمليّات شامروك وغيرها من التجاوزات في التنصّت على المواطنين الأميركيّين – بعضهم من الذين عارضوا حرب فيتنام – الدافع وراء الموافقة على قانون مراقبة الاستخبارات الفدراليّ (FISA) عام 1978، وإنشاء "محكمة FISA" المزعومة. وشدّد الكونغرس على ضرورة مراجعة المحكمة لكلّ تنصت على مواطن أميركيّ والموافقة عليها. نَصّ القانون بأسلوب لبق، ومنح فترة فاصلة من ثلاثة أيام، لكي يحصل على موافقة الرئيس في الحالات الطارئة وتتمّ مراجعته لاحقاً. وعلى مرّ 20 سنة، كانت المحكمة تعطي موافقات روتينيّة – وعالجت تسعة عشر ألف طلب في تاريخها، رافضة خمسة طلبات فقط.

خلال الجلسات الاستراتيجية التي عقدت في البيت الأبيض في أيلول/سبتمبر وتشرين الأول/أكتوبر من عام 2001، عبثاً حاول مسؤولون في الأف بي آي والسي آي إي ووكالة الأمن القومي – بالتشاور دائماً مع نائب الرئيس – إيجاد الأدوات التي قد تتوفّر للاستخدام في المعركة التي تلوح في الأفق. انقسمت الأدوات إلى قطاعين أساسيّين: الاتصالات والتمويل. ويتطابق القطاعان معاً مثل تطابق اليدين من أجل وضع أسس شبكة عالميّة.

من جهة، كانت هناك وكالة الأمن القوميّ التي تسعى جاهدة من أجل توسيع قدراتها على جمع الإشارات الاستخباراتيّة وتهذيبها في حقبة تكنولوجيا اتصالات متسارعة الوتيرة. خلال عام 2001، أجرى الأميركيّون أكثر من 1.2 مليار اتصال من الخطوط الأرضية و800 مليون اتصال من الهاتف الخلويّ يومياً. وفاق عدد رسائل البريد الإلكترونيّ التريليون في السنة خلال السنوات الخمس المنصرمة. ويمرّ هذا الضجيج والمعلومات الرقميّة عبر محوّلات الاتصال الضخمة للشركات على غرار Global Crossing وWorldcom وAT&T.

مع ذلك، تعالج المحوّلات في الولايات المتحدة الأميركيّة عدداً أكبر من ذلك. فتنتقل وسائل الاتصال الحديثة بسرعات خياليّة في جميع أرجاء العالم لإيجاد أسرع طريق يوصلها إلى هدفها. مما يعني أن اتصالاً بين فرنسا واسبانيا، أو بريداً إلكترونيّاً، قد يمرّ عبر أوريغون؛ وقد تحمل الرزم الرقميّة، التي تمرّ بسرعة البرق عبر شبكة الانترنت صرّة من الرسائل من إسلام أباد إلى إسرائيل. في هذا العالم، لا معنىً للحدود؛ ولا يهمّ الموقع إطلاقاً. وكان باستطاعة العلب السوداء خاصّة وكالة الأمن القومي الموضوعة قرب محوّلات الاتصال في خريف عام 2001 أن تجمع اتصالات وبريداً إلكترونيّاً من غالبية بلدان العالم. وهذا ما حصل بالفعل. إذ حاول تقنيّو الكمبيوتر العاملون في وكالة الأمن القوميّ تهذيب حسابات محرّكات "البحث والفرز" لتنظيم تدفّق المعلومات. هذا ما فُسّر لقادة وممثلي كلّ حزب خلال اجتماع لجان الاستخبارات في البيت الأبيض ومجلس الشيوخ في تشرين الأول/أكتوبر 2001- أي أربعة أشخاص من كلّ حزب، الأمر الذي شكّل ما عُرف "بعصابة الثماني".

ووفق ما ورد في تقارير عدد من المشاركين في هذه الاجتماعات، فسّر مسؤولون في الإدارة أنّ النظام سيُستخدم لتتبّع إرهابيّين معروفين أو محتملين، ومناصريهم ومموّليهم. وباستطاعة النظام أيضاً أن يقوم بأبحاث واسعة، مثل أبحاث ضخمة بالكلمة تشمل الأشخاص الذين يتحدّثون عن عمليّات إرهابيّة و - كما بدأ تطبيقه - جميع الاتصالات بين الولايات المتحدة وأفغانستان. وعبّر بعض أعضاء الكونغرس الديمقراطيّين عن مساس هذه المسألة بالحرّيات المدنيّة، ولكن كان

مـــن الصعب طرح أسئلة محدّدة: فالبرنامج كان غاية في السريّة بحيث لم يستطيعوا استشارة موظّفيهم.

خـــلال شهر تشرين الأول/أكتوبر أيضاً، وقّع الرئيس بوش أمراً رئاسياً سرياً يسمح لوكالة الأمن القوميّ، ومقدّمي المساعدة الذين تتعامل معهم، بمتابعة ما بدأ وبالاستمرار في التنصّت على المواطنين الأميركيّين. و لم تُعر أية أهميّة لمحكمة FISA. ويـــنصّ القانـــون المحدّد على أن المحكمة ستكون الحكم "الخاص" بالمسائل المتعلّقة بمـــراقبة عملاء محليّين منتمين إلى "قوى خارجيّة". من دون أدنى شكّ، لكان من الـــصعب لـــلإدارة، من وجهة النظر اللوجستيّة، التنسيق مع المحكمة – بإحداث تطبـــيقات مذكّرات للتنصّت على الآلاف من المواطنين الأميركيّين الذين تراقبهم "العـــين العمياء" لأجهزة كومبيوتر وكالة الأمن القوميّ، وخاصة أن بعضها كانت اتـــصالات بين المواطنين. طبعاً، كان عدد كبير من الأميركيّين يخضعون لدرجات مـــراقبة أعلـــى بسبب ما فعلوه أو قالوه. في الواقع، لم تستشر الإدارة المحكمة بهذا العـــدد الـــصغير أيضاً. وفقاً لمصدر في الاستخبارات واسع الاطلاع على برنامج وكالـــة الأمن القوميّ وعلى الأيام التي نمرّ بها، "اعتقد البعض أن اللجوء إلى محكمة FISA أو محاولـــة تعديل قانون 1978 سيعرّض قدرات نظامنا بطريقة أو بأخرى، بسبب التسريبات أو الأسئلة التي سيتوجّب علينا الإجابة عنها. عندما تأخذ الخطوة الأولى، تسري الأمور وفق المبتغى – بما في ذلك الخوف من مجرّد التحدّث لمحكمة FISA عـــن أصغر معلومة لفتت انتباهنا وفرضت عليهم متابعة المسائل القانونيّة في مستنقع الأبحاث الأساسيّة. على كلّ حال، مضينا بالخطة".

هـــذا قسم من الشبكة العالميّة، الاتصالات – أي ما كتبه الناس وقالوه. أما القسم الآخر فهو ما فعلوه. هذا عنى، بشكل عام، ما اشتروه، ومن أين اشتروه و، عامّـــة، مـــن أين أحضروه إلى المنـــزل. في هذا المجال، عوّلت الإدارة أساساً على فيرست داتا. وعنت الاتفاقات مع معالجي بطاقات الائتمان الآخرين في الولايات المتحدة وفي الخارج أنّه يمكن جمع كلّ شيء بتخفٍ – على غرار محوّلات الاتصال الكـــبيرة؛ أي عـــالم معاملات غير محدود. وكان لشركة ويسترن يونيون اتفاقات تقاسم لتحويلات سلكيّة، غالباً ما تشمل المصارف ومختلف المؤسّسات الماليّة. ومن

أجل تتبّع المعاملات أو التأكد منها، كانت الشركات الكبيرة تستطيع الدخول إلى وحدات معالجة شركة أخرى. فكان كلّ شيء متصلاً. كنت فقط بحاجة إلى جواز سفر عالميّ – مثل الذي تملكه ويسترن يونيون.

بعد دمج هذين القسمين بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، بدأت البيانات بالتدفّق. فقد أغرقت الملايين من رسائل الاتصال من وكالة الأمن القوميّ مكاتب السي آي إي والأف بي آي. بدأت السي آي إي بالتدقيق في أصغر التفاصيل، وهو ما اعتادت القيام به، من أجل إيجاد معلومات يمكنها الانطلاق منها. لكن الأف بي آي لا تدقّق بالتفاصيل إلى هذه الدرجة. بل تعمل من أجل جمع براهين تخوّلها المتابعة – وتحفظ كلّ معلومة، كلّ ذرّة معلومات، وتحتفظ بها للمرحلة المقبلة. مرّت معظم المعلومات عبر الأف بي آي، إضافة إلى جميع المعلومات الرئيسيّة التي بلغت أجهزة كمبيوتر فيرست داتا – محرّك البحث الداخلي الخاص بالأف بي آي. في الأسابيع الأولى القليلة بعد الاعتداء، جرت آلاف الأبحاث الماليّة، بعد ورود معلومات أوليّة من وكالة الأمن القوميّ. وتمّ جمعها في قسم فرعيّ واحد، ثم ثان، بحسب الأهميّة والأولويّة... والجهود التي يبذلها العملاء من أجل إصدار الوثائق. في الأف بي آي، يجب "توثيق" كلّ خطوة. وهذا يعني أنّها وثائق ذات طابع قانونيّ ما – أي أنّها ذات معنى إذا ما طلبت في المحكمة.

وشكّل قانون المواطنية الحديث الغطاء القانونيّ الجديد منذ 26 تشرين الأول/أكتوبر. وسمح القانون بتوسيع رقعة المراقبة في الولايات المتحدة، ليشمل تفتيش السجلات المالية والشخصية، والإدخارات الشخصية الصغيرة، ويسمح للمواطنين بالقيام بأعمالهم تحت المراقبة، ولكن من دون علمهم.

أما الآلية المفضّلة التي اتبعتها الأف بي آي فكانت "خطاب الأمن القومي"، وهو وثيقة قانونيّة مموّهة خاصّة بالتجسّس وتحقيقات الإرهاب اعتمدت خلال السبعينيّات من القرن الماضي كوسيلة للالتفاف حول قوانين خصوصية المستهلكين. سمحت هذه الوثيقة للأف بي آي بمراجعة سجلاّت المستهلكين الخاصة ببعض العملاء الأجانب المشكوك بأمرهم بسريّة. ويصدر المئات من هذه الوثائق تقريباً سنوياً.

بعد وقوع أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، اقترح محامو وزارة العدل استخدام الرسائل من جديد، بطريقة أشمل. وأشاروا إلى أنّ إمكانيّة إصدار الرسائل بسهولة ولأدنى شك - ولم تكن تفرض براهين حقيقيّة. وكان تحرّك وكالة الأمن القومي كافياً. إذ كان باستطاعة العديد من المدراء الكبار، بما في ذلك عملاء مسؤولون عن مكاتب ميدانيّة، إصدار الرسائل. وكانوا يصدرونها بكميات كبيرة - بمعدّل ألف رسالة شهرياً - كمن كان يستخدم المحارم الورقيّة في موسم الزكام.

ليس لأنه لم يكن هناك من مذكّرات إحضار شهادات تقليديّة جيّدة أيضاً. بل على العكس. فتمّ إصدار الآلاف منها، ووافق عليها حفنة من المسؤولين في محكمة أوماها الفدراليّة. وما لبث أن أُنشأ مركز خاص مشترك بين الأف بي آي وفيرست داتا قرب مركز المعالجة التابع للشركة، وشكّل هذا المركز ملتقى العملاء وفنّيي الشركة حيث تنصّتوا على أكبر أجهزة كمبيوتر - وتعدّوها ليدخلوا النظام المالي العالم - بقدسيّة تامّة. وفي وقت من الأوقات، أصدرت أوماها مذكّرات إحضار شهادات أكثر من أية محكمة في أميركا.

أما في ما يتعلّق بالحساسيّات الناتجة عن إشراف الكونغرس على هذا المشروع الكبير، وقع حدث معبّر للغاية في تشرين الأول/أكتوبر.

دخل أعضاء لجان استخبارات مجلس الشيوخ والبيت الأبيض غرفة آمنة في مبنى الكونغرس للمشاركة في اجتماع موجز عن "الحرب ضدّ الإرهاب". وحضر مسؤولون من وزارة العدل والخزينة والسي آي إي والأف بي آي لتقديم شهادات عن "الحرب الماليّة".

تمشّى دينيس لورميل في نهاية رواق فارغ، يتحدّث إلى زميل. حصل تأخير - وكان تصويت في مجلس الشيوخ يؤخّر الأمور. كان الشخص الثالث أو الرابع ليأخذ الكلمة. وسيشاركه الحديث أمام اللجنة مسؤول ماليّ رفيع من وزارة الخزينة يُدعى جيم غورول، الذي أشرف على مكتب مراقبة الأصول الخارجيّة. وكعربون سلام واتفاق - منذ عقد الشراكة بين فيرست داتا والأف بي آي، سمح لورميل بمجيء بعض مسؤولي الاستخبارات السرية من فيرست داتا العاملين في مضمار الاحتيال في بطاقات الائتمان. ففي النهاية، كانوا خبراء في سبر غور عالم بطاقات الائتمان.

حـــدّق لورميل من بعيد عندما بدأ غورول بالحديث. ولاحظ وجود مسند. كـــان هذا الأخير قد استعان بعرض صوري في كلمته: جدول كبير يظهر كيفيّة حصول فيرست داتا على المعلومات المالية من كلّ أصقاع العالم وتنظيمها.

وهـــرع لورمـــيل، علـــى الرغم من وزنه البالغ 220 باونداً (100 كلغ)، في الغـــرفة. "هـــل فقدت عقلك؟ أخرج هذا الجدول من هنا. يجب أن لا يعلم أحد بوجـــوده. يا إلهي، إنها ليست حتى مهمّة مناطة بالخزينة!" صُعق غورول. فأنـــزل الرسم وأخرجه من القاعة.

ويعتـــبر إشراف الكونغرس على العمليات السريّة مبدأ يميّز الولايات المتحدة عـــن باقي البلدان. فهو مثال محوريّ للشيكات والأرصدة - طموحات المواجهة، علـــى حـــدّ تعبير ماديسون وأمثاله - يحول دون إساءة استعمال السلطة. في هذه الحالة، وغيرها من الحالات، قرّر أولئك الذين يخوضون "الحرب ضد الإرهاب" أنّ هذا المبدأ كان ترفاً لا يستطيعون تكبّده.

في الشهادات التي ألقيت ذلك اليوم، وفي الشهادات التي تلتها، لم يلفظ أحد اسم شركة فيرست داتا.

وهكـــذا، تم تطويـــر وإطلاق آلة بحث ومصادرة، تتمتّع بهيكل مالي وأساس اتصالات من أجل تلبية تحدّيات حرب المواجهة هذه.

في الـــنهاية، سيحكم التاريخ على هذه الآلة، وعلى الذين شجّعوا بناءها، من الـــرئيس ونـــزولاً، وفـــق الكلمات المنصوصة بحبر منذ أكثر من قرنين. وينصّ الـــتعديل الرابع من ميثاق الحقوق على "حقّ الناس بالشعور بالأمان في شخصهم ومـــنازلهم ووثائقهم وممتلكاتهم ضدّ أي تفتيش أو مصادرة غير عادلة، ولا ينتهك هذا الحق ولا تصدر أية مذكّرات إلاّ وفق أسباب مقبولة، مدعومة بقسم أو تأكيد، وتـــصف بالتحديد المكان الذي سيخضع للتفتيش والأشخاص أو الممتلكات التي ستصادر".

غالباً ما يوصف هذا التعديل بأقوى التعديلات المكتوبة. فتنبعث منه قوّة الآباء المؤسّسين وصلابة نفس تتجلّى في أسلوب الصياغة. فعند كتابة هذه السطور، كان الآباء المؤسّسون قد خرجوا لتوّهم منتصرين من تمرّد ضدّ سلطة بريطانيا؛ واعتادوا

أن "تنـــتهك" خـــصوصيّاتهم في بوسطن وفيلادلفيا، وكونكورد وهوبوكن، ولم يتعوّدوا الشعور بالـــ "راحة في شخصهم". وكانت عبارات "أسباب مقبولة" من أكثـــر العبارات المحكيّة والمستخدمة في أي نص ووثيقة: فهي تنظّم مرحلة التصادم بـــين المواطنين والحكومة بالافتراض أن الأشخاص العاقلين يستطيعون الموافقة على هذه المبدأ بشكل عام.

وستشهد سنوات طويلة مناقشات مستفيضة حول موافقة الأشخاص العاقلين علـــى إجـــراءات العمل هذه أو عدمها - مع كلّ ما تحمله في ثناياها من اتساع للـــسلطة الرئاســـيّة؛ وربّما أيضاً طوال سنوات استمرار "الحرب ضد الإرهاب" المزعومة. ما هو المعروف والأكيد؟ فيما مشّطت هذه الآلة مختلف المجالات، أزالتْ كلّ شخص يدعو للشكّ أو غير محظوظ، ولكنّها لم تقبض على أيّ شخص شكّل خطراً حقيقياً على أميركا.

الفصل الثاني

خارج إطار الشكّ

إن "الجانب الأسود" عبارة معقّدة ومتغيّرة - إذ يتحوّل معناها بحسب النبرة والتصريف. عندما طرح تشيني هذه العبارة على التلفزيون الوطنيّ قبل بضعة أيّام على وقوع الاعتداءات، أعطاها نبرة إذعان - هذا ما يجب أن نفعل، هنا يجب أن نعيش، على الرغم من إرادتنا.

لكن، هناك دائماً خيار في هذه المسائل، في التصرّفات التي ترسم في النهاية طبيعتنا. طبيعة فرد أو أمّة.

بالطبع، يعود السجال الدائر عن الملائكة الصالحين والأشرار إلى أيام الوعي الأوليّ للإنسان. ومع التنبّه لهذا الواقع، كان التحدّي الارتجالي المطروح هنا يعني أنّ، وفي الأشهر القليلة بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، الختم سيُفضّ عن هذه المعضلة ليُعاد تقييمها من جديد. ربّما غاب عنّا شيء- ربّما نستطيع أن نتساهل مع نزوات الإنسان الوحشيّة، أو نتقبّل الذين يشعرون بها، كطريقة للتوصّل لخواتم حميدة. إذا ما أبقينا الهدف نصب أعيننا - أي نشر الأمن والسلام على تلال أميركا وهضابها التي تكلّلها الشمس - نستطيع أن نتخطّى كلّ الصّعاب.

كانت رحلة باكرة إلى المجهول قد بدأت في منتصف شهر تشرين الأول/أكتوبر 2001، عندما دخل بين بونك، الذي يكرّس حياته للسي آي إي، بسرعة إلى منزل بارون في شارع ريجنت بارك في لندن، للمشاركة في اجتماع أمل أن ينبأ بمرحلة جديدة.

كان ذلك منزل الأمير بندر بن سلطان، أحد أبناء أخ حاكم السعودي الفعليّ، الملك عبد الله، والذي شغل لمدة 18 سنة منصب سفير المملكة إلى

الـــولايات المـــتحدة الأميركـــيّة. وكان بندر، البالغ من العمر 52 سنة، والصديق المقـــرّب لبوش الأب والابن، رجل معقّد للغاية، مرح ومثقّف تستهويه أمور عدّة. فقد تراه يمشي بالقرب من الخطوط الأماميّة خلال مباراة NFL، أو يتناول العشاء ويـــدخن سيجاراً في الجناح الغربيّ، أو يقدّم مساعدات ماليّة، من غير قصد، لعائلة كانـــت تـــدعم الخـــاطفين في اعتداء الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، الذين كان معظمهم من السعوديّين. قد يلاحظ شخص دقيق سائقاً يتوقّف قرب مصرف ريغز في واشنطن في يوم محدّد من كلّ شهر، لأخذ حقيبة بداخلها 50 ألف دولاراً عداً ونقداً، يتصدّق بها بندر على أصدقاء، أو عائلات أو موظّفين سعوديّين في الولايات المتحدة.

هو شخص يحب القيام بواجباته على أكمل وجه، ويعقد علاقات تقوم على فعاليـــته المتماسكة. اليوم، كان يحضر لاجتماع مهمّ في منـــزله. فاستقبل بونك، ورافقه نـــزولاً في ردهة فخمة. وهناك، انتظره بكامل أناقته وابتسامته، مَن جسّد "الناحية السوداء".

"مذهلون هم أولئك الإسبارطيون"، قال موسى كوسى.

ضـــحك بونك. "نعم، انتظرنا وقتاً طويلاً. منذ أيام ماجيك". في أيام التألق تلـــك، ارتاد بين جامعة ميشيغان – وتخرّج منها عام 1976، قبل وصول ماجيك جونسون بسنة. وكان موسى، مشجّع كرة السلّة الدائم الحماسة، قد سبقه ببضع سنوات؛ فكان يتابع دراسات شهادة عليا في علم الاجتماع في جامعة ميشيغان عام 1973. وقـــدّم أطـــروحته بعد بضع سنوات، وكانت من الأطروحات التي أخذ المدرّســـون نسخة عنها واحتفظوا بها في الدرج. لكنها لم تكن تحليلاً قاطعاً، على الـــرغم مـــن وجـــود 209 صفحات مع ملاحظات هامشيّة. كانت مجرّد بحث. واستطاع كوسى، الذي ولد في طرابلس الغرب في ليبيا من عائلة مهمّة، أن يجري مقابلة مع محور بحثه: معمّر القذافي.

ومـــرّ الـــوقت بلمح البصر. بالنسبة للرجلين، مرّت على ذكريات إيست لانـــسينغ، إســـتاد سبارتان وعلى ألوان جامعة ميشيغان الخضراء والبيضاء أيام طويلة.

أمضى بونك عقدين من الزمن تقريباً يجوب العالم لمصلحة السي آي إي، العالم العربيّ بشكل خاص؛ تزوّج لفترة وجيزة وحصل على الطلاق - على غرار معظم العملاء- وارتقى بسرعة سلّم الرتب في الوكالة. وبحلول عام 2000، احتلّ منصب نائب مدير مركز مكافحة الإرهاب التابع للسي آي إي، وكان النقيض اللبق والهادئ لكوفر بلاك الثائر. وبفضل دقته وموثوقيته، اتّخذ بونك، ومعه نائب المدير جون ماكلولين، من مزرعة الرئيس بوش مقراً لهما في أيلول/سبتمبر عام 2000- أي قبل الانتخابات بشهرين - من أجل إطلاع المرشّح الجمهوري على أسرار الدولة. وبتجهّم، أطلع بونك الرئيس بوش على احتمال أن يموت أميركيّون في اعتداءات إرهابيّة مخطّطة أو مستوحاة من بن لادن خلال السنوات الأربعة المقبلة.

ويبقى انفجار طائرة بان آم فوق لوكربي في سكوتلندا في كانون الأول/ديسمبر 1988 المثال الحيّ عن الإرهاب المخطّط ضدّ الولايات المتحدة قبل وقوع أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. فقد ذهب ضحيّة هذا الانفجار 270 شخصاً، معظمهم من الأميركيّين - بمن فيهم 35 طالباً من جامعة سيراكيوز.

ومن شبه الأكيد أن موسى كوسى، زميل بونك في سبارتان، ساعد في التخطيط للاعتداء.

ذلك، على الأقلّ، هو موافقة إجماعية لكل وكالة استخبارات مهمّة في الغرب. فقد توجّه كوسى من لانسينغ إلى ليبيا ليعمل لدى ألقذّافي. وبحلول عام 1980، ترأس الوفد الليبي إلى بريطانيا - وكان بالمبدأ سفير ليبيا إلى المملكة البريطانيّة. وخلال مقابلة غريبة مع مجلّة ذا تايمز اللندنيّة، أخبر الصحفيّ أن ليبيا دعمت الجيش الجمهوري الأيرلندي، وأنه يجب قتل ليبيين يعيشان في لندن. باختصار، طُرد من البلد. ولكن، بعد فترة وجيزة، وُجدت جثتا الليبيين في شقة في لندن؛ كما قُتل ليبيّون آخرون منشقّون ومعارضون للقذّافي في أوروبا خلال السنة التالية.

وقع انفجار طائرة لوكربي في حقبة كان ألقذّافي يطمح إلى لعب دور على الساحة العالميّة. وعلى غرار بن لادن، لجأ إلى الإرهاب. وفي منتصف الثمانينيّات من القرن الماضي، كان رونالد ريغان يدعو ألقذّافي أخطر رجل في العالم. كان

الديكتاتور على رأس دولة مارقة. وقصفت الولايات المتحدة ليبيا عام 1986 للثأر من تفجير ملهى ليليّ في ألمانيا خطّطه ألقذّافي، وقُتلت خلال القصف الأميركيّ ابنة ألقـذّافي وجـرح اثنان من أبنائه. وفُرضت عقوبات قاسية، مكلفة وأحاديّة على البلاد. وما لبثت الاستخبارات الفرنسية والبريطانية أن اتهمت كوسى، الذي كان يحتلّ منصب نائب رئيس الاستخبارات، بضلوعه في كارثة ثانية: تفجير الطائرة الفرنسية، يو تي آي 772، فوق النيجر عام 1989. وقد بلغت حصيلتها 170 قتيلاً.

عـام 1998، وقبل استلام جورج تينيت منصب مدير السي آي إي، سافر وجـون ماكلـولين إلى جدّة للقاء بندر. في منـزل السفير الواسع، والذي شبّهه ماكلـولين "بعالم ديزني الذي يضمّ قردة طائرة وشاشات عملاقة"، ذكر بندر أنّ حديثاً جمعه منذ مدّة بالقذّافي. "أظنّ أنه يريد أن يتحدّث. لقد أضنته العزلة".

بعـد عـام، تسلّل موسى كوسى إلى جنيف. والتقى ببونك هناك. واتّضح لـبونك، في بدايـة عقد جديد، أنّ الليبيّين تعبوا من انعزالهم عن الأسرة الدوليّة. فكانـوا غير قادرين على إرسال أطفالهم المتميّزين إلى الجامعات الأميركيّة، وكانوا يختـنقون جرّاء العقوبات التي فرضت حدوداً على كلّ شيء، من المنتجات الجافّة، إلى القطـع الأساسيّة لمصافي النفط التي توقّف العمل في العديد منها لأنها باتت غير قابلـة للإصلاح. وسرعان ما انخرط بروس ريديل، العضو في مجلس الأمن القوميّ أيـام كلينـتون، في العملـيّة السياسيّة، مطلقاً المحادثات لتسوية مسألة لوكربي. واتّـسمت هـذه العمليّة بدرجة سريّة عالية. وكان للصمت مبرّراته: فقد كوّنت عـائلات ضحايا لوكربي منذ الكارثة مجموعة دفاع شرسة وجامحة، وكانت تعمل من أجل القيام باعتقالات، وفرض عقوبات وكلّ ما يرقى إلى رسالة عدالة. وكان مـن شـأن مجرّد فكرة محادثات مع سفّاحي طرابلس أن تفجّر غضباً محقاً للأهالي الـذين لا تجمعهـم بأحـبائهم سـوى صورة قرب السرير، والأفلام المنـزليّة والذكريات البعيدة.

ولكن، حصل كلّ هذا قبل الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. فكانت الولايات المـتحدة والعـالم الغربي يعانون من نقص- نقص في الاستخبارات. وبعد مرور عـشرين عاماً على طرده من إنكلترا، نـزل كوسى من على متن طائرة في مطار

هيثـرو وكـان وفـد في اسـتقباله: كـبار المسؤولين من السلك الدبلوماسي والاسـتخباري الـبريطانيّ والأميركيّ. وكان متسلّحاً بملف يضمّ أسماء إرهابيّين إسلاميّين ومواقعهم في أوروبا وشمال أفريقيا والشرق الأوسط.

الآن وقـد شكّلوا مجموعة كبيرة، توجّهوا عائدين إلى منـزل بندر، الأرض المحايـدة، برعاية السعوديّين. بعد مرور شهر على وقوع أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وثلاثة أيام على بدء القصف الأميركيّ على أفغانستان، معقل تنظيم القاعـدة، عُرضت حملتا "الحرب ضدّ الإرهاب" الهادفتان إلى وضع حدّ للإرهابيّين ونـزع السلاح العالميّ، في منـزل بندر الأنيق. وتطرّقت الاجتماعات الصباحية بين كوسى ووليم برنـز، مساعد وزير الخارجيّة الأميركيّ لشؤون الشرق الأدنى، إلى التعويـضات الـتي ستُسدد إلى عائلات ضحايا لوكربي، في حال اعترفت ليبيا بذنـبها في الاعتداء، ودفع تعويض مقابل نـزع السلاح. فكان من المعروف أن ليبيا تملك أسلحة كيمائية للدمار الشامل، وربّما عناصر بيولوجيّة. وعلى الرغم من استماع كوسى لشروط التخلّي عن كلّ ذلك، لم يرتسم على محيّاه أية علامة، بل كـان يصغي بانتباه. كان رجل واحد يدير بلده – وتوجّب على ذلك الرجل أن يوافق على هذه المقترحات.

في الواقـع، ومع حلول نهاية بعد الظهر، جلس موسى وبين وتحدّثا عن ماتن كليفـز، حارس نقطة فريق ميشيغان عام 2000، وكيف سيطر على مباراة البطولة في NCAA، وأهـدى الجامعة أوّل لقب وطنيّ تفوز به منذ أن تفوّق ماجيك على لاري بيرد وولاية إنديانا عام 1979.

ولكـن هـذا الحـديث لم يكن للتسلية فقط. من أجل فهم "الحرب ضدّ الإرهاب"، والمشاكل الأخلاقيّة الناجمة عن "الناحية السوداء"، يجب أن تجلس على هـذه الطاولة، في قصر سفير البلد الأم لخمسة عشر خاطفاً من أصل التسعة عشر الـضالعين في الحـادي عـشر من أيلول/سبتمبر، وأن تتحدّث إلى رجل مبتسم وعـصريّ يُزعم أنه قَتل ركّاب طائرة قبل أن تتسنّى لهم الفرصة لسحب طاولاتهم الجـرّارة. قـد تصاب بعض عائلات الأولاد الذي كانوا على متن طائرة لوكربي بالغثـيان إذا صادف وقرأت هذا المقطع. أو قد تُطلق الشتائم. فيطارد هذا الرجل،

موسى كوسى ورئيسه أسوأ كوابيسهم. هل يمكنهم مسامحة هذا التصرّف - ذبح الأبرياء؟ هل يشكّل الجلوس إلى طاولة مع ممثل الحكومة الأميركيّة والتحدّث عن كرة السلّة نوعاً من الغفران؟ وهل من اختلاف جوهريّ بين الذي يقوم بهذه الأعمال الوحشيّة وبين الجنرال الذي يقود قصفاً جويّاً على قرية، أو منزل إرهابيّ قد ينام فيه أطفال؟

ولكن، كانت أميركا تعاني من نقص. فكان من المتوقّع حصول موجة ثانية من الاعتداءات، ولم يكن تواجد الاستخبارات الأميركيّة في العالم العربيّ قوياً. كانوا بحاجة إلى عيون خبير - وكانت الخبرة ترتدي عدّة مظاهر.

قال بين: "اسمع يا موسى، يمكنك أن تضع لوكربي وراءك. نريد حلّ الموضوع. وأنت تريد حلّه. يجب أن نتخطّاه الآن".

تنفّس كوسى الصعداء- لقد انتظر سنوات طويلة ليسمع ما قاله بونك لتوّه. كان الليبيّون مستعدّين لدفع- ومبالغ طائلة - تعويضات لعائلات الضحايا. "نحن أيضاً نريد حلّ الموضوع يا بيني".

عندها، أصبحت نبرة بونك جديّة للغاية. فقال: "كلّ شيء تغيّر بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. أمران أساسيّان. نحن نريد منكم التخلّي عن أسلحة الدمار الشامل التي تملكونها. ولكن، والأهم من كلّ هذا، سنحتاج إلى المساعدة في محاربة الإرهابيّين".

أجل، لقد فهم كوسى. فقد علم، مثل العالم أجمع، أن الولايات المتحدة تواجه أعداء رهيبين متمثلين في بن لادن والظواهري. وكان يملك اسماً ليقدّمه لبونك، هديّة: ابن الشيخ الليبي، وهو عنصر ليبيّ في تنظيم القاعدة. دوّن بونك الاسم. لم تكن معلومات كوسى دقيقة، ولكنّه اعتقد أنّ الليبي كان في باكستان. أما الأسماء الأخرى التي ذُكرت فكانت لإسلاميّين متطرّفين موجودين في دول مختلفة، وكانوا أعداء ليبيا، النظام المسلم في الظاهر، والذي اعتبره الوهابيّون مرتدّاً وفاسداً.

لاحقاً، بدأ بونك بالتدقيق. فطرح اسم منظّمة - أمّة تعمير النوّ (والتي تعني إعادة إحياء الإسلام). وبدأت هذه المنظمة التي تتخّذ من باكستان مقراً لها تثير

اهتمام الولايات المتحدة الأميركيّة. فكانت تضمّ حوالى 12 فرداً من نخبة متطرّفي باكستان، بما في ذلك مهندسون وعلماء فيزياء وكيمياء ورجال عسكريون مختارون وأعضاء في الشرطة السريّة الممتدة على رقعة الدولة، أو الاستخبارات الداخليّة. ولكن، كانت نشاطاتها تبدو في الظاهر نشاطات إنسانيّة بشكل عام، تقوم على تقديم الخدمات الطبيّة وإغاثة أفغانستان، الدولة المجاورة الفقيرة. ولكن كان محمود، العالم النووي الباكستاني، من مؤسّسي هذه المنظّمة.

سأله بونك: "هل تعرف هذه المنظّمة؟".

سكت كوسى لبرهة، وكأنه يفكّر في ما يجب أن يقول - أو ألاّ يقول. وقال: "لقد اتصلوا بنا، وسألونا ما إذا أردنا مساعدتهم في تطوير قنبلة نووية". وأضاف أنّ الهدف الأساسي غير المعلن لهذه المجموعة يكمن في نشر التكنولوجيا النووية في الدول الإسلاميّة في العالم.

ونجح بونك، المتمرس في فنون التضليل، في الحفاظ على اهتمامه الظاهر في أقوال كوسى.

وفيما كان صانعو السياسة في البيت الأبيض والبنتاغون يخططون سراً لاجتياح العراق، كان اختبار نزع الأسلحة قد بدأ رسمياً في الوقت عينه.

افترض هذا الواقع التوغّل في الناحية السوداء بهدف تبادل عناصر ثمينة - استخبارات عمليّة، وتعويضات ضخمة، وأسلحة مدمّرة وقبول دوليّ.

"فلنجتمع مجدداً قريباً"، قال بونك.

اكتفى موسى بالابتسام.

عاد بونك إلى السي آي إي وبجعبته المعلومات الثمينة التي حصل عليها. وسرعان ما وُضع محمود في الإطار المناسب - على رأس منظمة أمّة تعمير النو المظلمة، وكالة إغاثة تقوم على بذور الدمار.

تقوم "الحرب ضدّ الإرهاب" المزعومة على عقد صداقات، أصدقاء غير محتملين في بعض الحالات، من خلال إيجاد وسائل منسّقة ومتوافق عليها للتحرّك. ولكن ليست الأمور بالسهولة الظاهرة، وخصوصاً في إطار التحالفات أو الخصومات بين الدول. ولكن، فتحت أمة تعمير النو فرصة مهمّة. فكانت منظّمة دوليّة تملك بصمات

واضحة، وإن كانت أعمال إغاثة في غياب دولة راعية رسمّياً. مما عنى أن باستطاعة كلّ دولة أن تلاحق أمة تعمير النو، كما يحارب الجسد جسماً غريباً.

وفي لحظة انكشاف تصاميمها النوويّة، اتصلت الولايات المتحدة بعملاء أجهزة الاستخبارات في العالم. وبدأت الاستخبارات الفرنسية، والبريطانيّة والسعوديّة والسودانيّة بالبحث عن أدلّة. وتم تشاطر المعلومات عبر "قناة استخبارات"- وهي قناة معلومات بين جميع الأجهزة تبقى مفتوحة دائماً نظرياً.

في الواقع، انتشرت شبكة أمة تعمير النو في دول عربيّة مختلفة. وسرعان ما تمّ الكشف عن أسماء أعضائها الآخرين. وتمّ إرسال المعلومات إلى وكالات استخبارات أخرى أيضاً.

وتمّ جمع أدلّة كافية للطلب من الاستخبارات الداخليّة التحرّك. وحصل ذلك عبر قناة الاستخبارات - فكان من الأفضل عدم إثارة ضجّة عن التحرّك.

اتصل غرونيه بالاستخبارات الداخليّة. وأعطى معلومات عن شبكة أمة تعمير النو التابعة لمحمود.

في الثالث والعشرين من شهر تشرين الأول/أكتوبر، اعتقل عملاء الاستخبارات الداخليّة محمود وعبد المجيد، ووضعوهما قيد التحقيق. فجأة، وبالتنسيق مع السي آي إي، أصبحت وكالة الاستخبارات الباكستانيّة تملك العديد من الأسئلة لتوجيهها.

نهار الأربعاء في 24 تشرين الأول/أكتوبر، دخل رجل طويل القامة، ممشوق، وأشيب الشعر مكتب جيم بافيت.

فقام بافيت، الذي يترأس مديريّة العمليّات في السي آي إي، عن مكتبه وسارع للترحيب بالرجل. "رولف! الرجل الذي كنت أبحث عنه".

أصدقاء قدامى؟ إخوة في السلاح؟ طبعاً، ولكن كان بافيت يملك عرضاً، وكان رولف موات-لارسن قد أمضى أسابيع محاولاً الحصول على معلومات استخباراتية عن الموضوع على طريقة السي آي إي.

يعرفان بعضهما بعضاً منذ قرابة 20 سنة - حين كان بافيت مسؤول عن قضية، ويعمل في أوروبا وآسيا قبل أن يرتقي سلّم مديريّة العمليات ويتولّى رئاستها.

مـــن جهته، تخرّج رولف موات - لارسن من جامعة ويست بوينت، وكان مظلياً سابقاً في الجيش، وعمل في السي آي إي لأكثر من 16 سنة، واحتلّ منصب رئـــيس مكـــتب في موســـكو مـــرّتين في نهاية الثمانينيّات ومنتصف التسعينيّات المـــضطربة مـــن القرن الماضي، واحتلّ منصب رئيس فاليري بلايم مرّة واحدة - وتفاجأ بالعودة إلى الطابق السابع. كان قد اعتقد أنّ أيامه في الإدارة العليا قد ولّت منذ أكثر من أربعة أشهر عندما اختتم سنة من عمله في فريق المدير تينيت. وفي سنّ 46، كـــان جاهـــزاً للعودة إلى الميدان، باعتبار أنه أكثر رؤساء المكاتب خبرة في الـــشبكة، وكـــان قد حصل على ما يريد: مكتب بكين. الصين - منافس أميركا الصاعد.

بـــدأت الاتصالات ترد بعد بضعة أسابيع على وقوع اعتداءات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. وكان وزوجته يتابعان حصة اللغة الصينيّة في السي آي إي، ولم يـــتوقّف رنـــين الهاتف الجوّال. إنهم بحاجة إليه. كانوا يعرضون عليه عملاً، عمليّة خاصة ولكن من نوع آخر. أجرى بضع اتصالات؛ وكوّن فكرة عن الوضع هذه الأيام في الدور السابع.

كـــان بافـــيت يحاول إقناعه بالعرض: "إنها أهم فرصة الآن... ستترأس قسم المخاطـــر الكيميائـــية والبيولوجيّة والإشعاعيّة... ستكون أنت المسؤول... لديك صلاحيات تامّة، كلّ ما تريد... إنها مهمّة لإنقاذ العالم".

أصـــغى مـــوات - لارسن بانتباه، كما تعلّم رجال عمليّات السي آي إي الإصغاء، بشبه ابتسامة، لا تكشف أية ردة فعل. تحرّى عن الأمر قليلاً. كان مركز مكافحـــة الإرهـــاب الـــذي يترأسه صديقه القديم كوفر بلاك يضمّ حوالى ألف شـــخص. أمـــا قـــسم الكيميائي والبيولوجي والإشعاعيّ فكان يضمّ أربعة. أربعة أشخاص يعملون في قسم قد يغيّر نمط حياتنا في حال وقوع كارثة.

استمرّ بافيت بالكلام لفترة، متوجهاً إليه وكأنّه يعظه.

"التاريخ يدعوك يا رولف! هل ستقوم بذلك؟ هل ستقبل العرض؟"

فكّر موات - لارسن لبرهة، مقدّراً النتائج.

"حسناً جيم، سأقوم بذلك".

تمّت الصفقة. في لحظة، وقفا ومشى بافيت أمام رولف، مسرعاً للوصول إلى تينيت.

تعانقا. إذ كان تينيت من الذين يحبّون العناق. كان يرحّب بعودة رولف إلى العائلة. عائلة عانت من صدمة وكان رولف غائباً عنها. لهذا السبب، كانت عودته في هذه الأوقات الحرجة بغاية الأهمّيّة. شعر الجميع بضرورة تفسير مواقفهم له، تفسير كلّ التغيّرات التي حصلت، ما بقي صامداً وأخيراً التعبير عن مشاعرهم. كان من الضروريّ تفسير القرارات قيد التنفيذ وإقناع أسطورة الوكالة الذي عاد ليحتل المراتب العليا بجدوى هذه القرارات.

مشى تينيت وموات - لارسن في الممرات. وكان تينيت يمشي بخطى سريعة - فقد تعوّد الذهاب والإياب في الممرات، وأُطلق على ذلك اسم "ممشى جورج". ومشى رولف، الذي كان أطول منه بقليل، إلى جانبه.

قال تينيت: "نحن في موقف حرج، فإما تملك أمة تعمير النو القنبلة النوويّة، أو لن تألو جهداً للحصول عليها".

هزّ رولف رأسه، دوّن بعض الملاحظات في دفتر صغير، وهي عادة يستخدمها منذ زمن. قام جورج بخطوات أكثر، وقال: "ينبئني حدسي أننا في مأزق كبير".

هذه أيضاً عادة اشتهر تينيت بها: فهو يفكّر بصوت مرتفع، يفكّر ويتكلّم، ويحاول أن يفهم ما يحصل بالتحليل بصوت مرتفع. وقد قام بذلك مراراً وتكراراً مع بوش. وغالباً ما تركّز المذكّرات الداخليّة التي تصدرها الإدارة على ضرورة المحاضر الشفهيّة لهذا الرئيس، وتشدّد إحدى هذه المذكّرات على "ارتكاز" قضيّة معيّنة على "المحضر الشفهيّ الأخير". وساعدت عادة تينيت على التفكير والكلام بشفافيّة وصراحة، الرئيس بوش على فهم كيفيّة صياغة الأفكار، وتحديد البراهين والنتائج التي يتمّ التوصل إليها. كان ذلك بمثابة إدراك مسموع. بالنسبة لشخص لا يهوى القراءة مثل بوش، كانت هذه الميزة الجديدة بمثابة درب الخلاص.

وعلى الرغم من الذهول الذي كان تشيني يشعر به تجاه عادة تينيت، وتجاه

شغفه المتهوّر، كان دائماً يلتزم الحذر. فكان يطلب من رئيس موظّفيه لويس "سكوتر" ليبي التحقق من تشيني. كلّ كلمة. في المقابل، كانت كوندي رايس الدقيقة والتي تفكّر في كلّ كلمة تقولها، وتجسّ النبض قبل إبداء رأيها، تكره هذه العادة. فكان تينيت، الذي يتكلّم بدون تفكير، يغيظها باستمرار. فدائماً ما كانت تشكو لمساعديها "هراء تينيت".

ولكن، وفيما كانا يتمشّيان، لاحظ رولف أنّ تينيت كان يحاول إيجاد شيء ما. فتوقّفا. هذا ما تتوقّع حصوله عادة.

أمسك تينيت بذراع رولف وقال: "رولف، أنصت إلى ما سأقوله، يجب أن تكون على خطأ".

"عن ماذا تتحدّث؟"

"سوف تخطئ أحياناً، حسناً؟ يجب أن تكون على خطأ. يجب أن تكون على معرفة كاملة بمسألة أسلحة الدمار الشامل هذه، يجب أن تتخذ القرارات، وتحدّد المخاطر المحتملة، وستكون أنت على خطأ، وليس أنا، ليس أي شخص آخر. مسؤوليتك حمايتنا. مسؤوليتك حماية الدولة في هذه المسألة... بمعنى أنك يجب أن تكون متقدّماً للغاية. وإذا كنت متقدّماً للغاية، وتطرد عندما لا تنجح الأمور، هذا هو الثمن الذي يجب دفعه".

رمق رولف تينيت، وأومأ برأسه كأنه يحدّثه على الكلام: "... ماذا تعني؟"

"يجب أن تكون على خطأ- ولكن ليس تحليلياً... بل يجب أن تكون متقدّماً للغاية... فأنت تعرف أنّ كلّ الفشل الذي منينا به ناتج عن عدم توقّعنا للأحداث. إن الفشل الذي منينا به ناتج عن تركيزنا على المعلومات التي نملكها، وعدم التفكير بما لا نعرف".

أمسك بذراع رولف الأخرى، وضغط عليها، وقال له: "يجب أن تشعر بالشغف، يجب أن تكون توّاقاً لمعرفة ما يغيب عنك".

بعد يومين، طلب موات - لارسن رأياً ثانياً من صديق قديم، كوفر بلاك، عن "التوق لمعرفة ما يغيب عنه". رحبّ بلاك به، بضحكة القرصان وتهديده، باهتمام متصنّع.

بدأ كوفر بلاك حديثه قائلاً: "قُضي عليك، قضي عليّ، قُضي علينا جميعنا"، مقلّباً بعض الأوراق على مكتبه. وتابع: "وقعت أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وأوكلت إليك أسوأ مهمّة، مهمّة أسلحة الدمار الشامل. لا تستطيع أن تفوز في هذه المهمّة، مستحيل. في نهاية المطاف، سنغرق. إذا ما وقعت مشكلة، سيُقضى علينا. إذا لم يحصل شيء، سيُقضى علينا. لا فضل لنا بشيء، بل يقع اللوم علينا. لذلك، لا تعتدّ بنفسك لتسلّمك هذا المنصب ولا تفرح، لأنك علقت، مثلي تماماً".

جلسا ليتحدّثا عن الموضوع، محاربان سابقان في السي آي إي. رجلان سيقومان بكلّ ما توجّب، وغالباً ما قاموا بواجبهم. سبق لموات - لارسن وأن طُرد مرّتين من الاتحاد السوفييتي، لأنه كان جَسوراً. خاض لعبة شطرنج شرسة مع السوفييت، مواجهات ومناورات، وكان حتى يلتقي مرّة في الشهر برئيس جهاز الاستخبارات الروسي (KGB) خلال احتساء كأس المشروب المفضل. كانا يلعبان لعبة "السؤال الواحد". كان يحقّ لكلّ منهما طرح سؤال واحد: وتوجّب على الشخص الآخر الإجابة بصراحة، أو عدم الإجابة أبداً. كان الكذب ممنوعاً. كانت محاولة لبناء الثقة، وتحديد حجم العدوّ، وهي الطريقة التي اتبعها موات - لارسن لتجنيد عدد كبير من العملاء المتخفّين. كان بلاك يشبهه، جذاباً وقاسياً عندما توجّب الأمر. ولكنّ تاريخه القريب مغاير. فقد بدأ بالعمل على قضايا المتطرّفين الإسلاميّين قبل الجميع. لاحق بن لادن. وكان من أوّل المسؤولين الرفيعين الذين عيّنتهم السي آي إي على ساحة المعركة. وقد اعتبر فوز بن لادن فشلاً شخصياً، وأراد الثأر.

وبالإشارة إلى تقنيّات السي آي إي المعتمدة منذ زمن طويل، لبناء العلاقات مع العدو وتنسيق العمليّات في مرحلة لاحقة، قال لرولف: "إن مقاربة التجنيد التقليديّة لن تنجح مع هؤلاء الأشخاص. إنّ النموذج الأوروبيّ التقليديّ غير قابل للتطبيق هنا. فلا نملك أدنى المعلومات عن القاعدة. هم رجال أقوياء. هم مستعدّون للموت. يجب التفكير في الخطف، في وسائل الاستجواب - الوسائل البشعة".

أحــبّ بلاك موات – لارسن واحترمه. في المبدأ، كانا يتحدّثان عن إمكانيّة وجــود جسر بين الحقبات: حقبة ما بعد الحرب العالميّة الثانية إلى ما قبل أحداث الحـــادي عـــشر من أيلول/سبتمبر، سيطرت عليها المواجهة مع الخصم السوفييتي، وحقــبة ما بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر – التي بدأت منذ أكثر من شـــهر تقـــريباً – الـــتي نواجه خلالها شبكة دوليّة من الإيديولوجيّين الإسلاميّين الانتحاريين.

قـــام مـــوات – لارسن بالخطوة الأولى. "عندما تتحدّث عن التعذيب، السؤال الذي يُطرح هو من يحدّد معايير الأدلّة المطلوبة لاتخاذ "الإجراءات المناسبة" المزعومة؟"

أجاب بلاك: "برأيك، ماذا يجب أن يكون المعيار؟"

قـــال رولف: "الكلمة السرّ هي البرهان. لأنّه يُعتقد أن الكثير من الأشخاص يعـــرفون أمـــوراً لا يجب عليهم معرفتها. إذا لم يكن تقييمك لمن يجب أن يعرف معلـــومات معيّـــنة صائباً، قد ينتهي بك المطاف في إيذاء العديد من الأشخاص– وإحداث أعداء جدد كثر".

أومأ بلاك برأسه.

قال: "حسناً. ولكن ماذا إن علم شخص بوضع أسامة بن لادن أو قنبلة ما؟ إن كشف ما يعرفه يوفّر حياة العديد من الناس. وعندها يا صديقي، ما هو المعيار الذي سيُتّبع؟"

رفع بلاك إصبعه بوجه موات – لارسن قائلاً: "ماذا ستفعل حينها؟"

علـــى الـــرغم مـــن أن "الحرب ضدّ الإرهاب" هي، على حدّ تعبير الرئيس الفرنـــسي جاك شيراك، حرباً من "طبيعة جديدة"، شكّلت الحرب الأميركيّة على أفغانستان نوعاً من الجسر، ملتقىً بين الأفكار الجديدة والقديمة، التي تمّ جمعها على طـــريقة أبولو 13، بواسطة شريط لاصق والقليل من الشجاعة. دخلت فرق السي آي إي أولاً وبـــدأت العمل مع قادة القبائل. وتدفّقت الأموال بحريّة. شارك قادة الحروب من المجاهدين السابقين. وكان العدو، أي تنظيم القاعدة، مركّزاً في ملجأ واحـــد، يسانده نظام حاكم، نظام الطالبان. لذلك، كان تطبيق النموذج التقليديّ لدولة تنتهك الحدود السياديّة لدولة أخرى ممكناً.

كـــان مخطـــط الولايات المتحدة صغيراً - يتألّف من 300 جنديّ تقريباً من القوات الخاصة، تدعمها قوات جوية محدّدة الأهداف، توجّه الجيش الأفغانيّ وتقاتل معـــه. اجتمعوا بقادة المقاومة. أُخليت العاصمة كابول، فيما انسحب نظام طالبان ورجال القاعدة إلى الهضاب الوعرة لتحضير قواعد العصابات. أما الآخرون فهربوا إلى الحدود الجنوبيّة مع باكستان.

في 11 تـــشرين الـــثاني/نوفمبر، قبض المسؤولون الباكستانيون، بالتعاون مع عملاء السي آي إي، على ابن الشيخ الليبـــي، الرجل الذي حدّده موسى كوسى في باكستان. وكان هذا الاعتقال النوعيّ الأوّل، على الرغم من طابعه المتوسّط، في "الحرب ضدّ الإرهاب".

انـــتقلت الأخبار من باكستان إلى مركز السي آي إي في لانغلي، وأدرجت علـــى جدول أعمال اجتماع الساعة الخامسة مساءً. كانت الأوضاع ما زالت في بداياتها في هذه الحقبة الجديدة، بعد مرور شهرين، وكان الاجتماع ما زال صغيراً، إذ شـــارك فيه حوالى 12 مسؤولاً رفيعاً في السي آي إي وزائر دوريّ من وزارة الدفاع أو الخارجيّة. أطلق تينيت هذا الاجتماع عام 1999، ولكن اتّضحت أهمّيته الكبرى بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. فعلى الرغم من كلّ شيء، كان تينيت يمـــضي نـــصف نهاره في المركز، يشارك في اجتماعات في البيت الأبيض أو مجلس الـــشيوخ أو غـــيره مـــن الأقسام. وكان دوره في هذه الاجتماعات إطلاع باقي الحكومة على تحرّكات السي آي إي وأسبابها.

وترك اتخاذ قرار عمليّات السي آي إي وأسبابها إلى اجتماع الخامسة من بعد الظهر. وكان تينيت دائم الحرص على العودة إلى فيرجينيا في الوقت المحدّد. وكانت الاجتماعات تبدأ دائماً بـــ "جدول مخاطر" يعرضه مركز مكافحة الإرهاب الذي كـــان يراقب التحرّكات في كلّ بقاع العالم. في هذه المرحلة، كان مركز مكافحة الإرهاب يحصل على سبعة عشر ألف نبأ أسبوعياً من الاستخبارات، بما في ذلك ما يقارب 2500 برقيّة من مكاتب السي آي إي المنتشرة في العالم. أمّا التنسيق فكان مسألة أخرى. فعلى الرغم من عدد الموظّفين البالغ ألفاً، كانت المعلومات المجموعة تفوق قدرتهم على دراستها أو تقييمها.

اكـــتظّت القاعة بهم. فقدّم موات - لارسن تقريراً عن مسائل أسلحة الدمار الـــشامل إلى لاعبين من خارج الحكومة. ورفع هانك كرومبتون، المتمرّس لمدّة 20 ســـنة في اســـتخبارات الـــسي آي إي السريّة والذي يترأس الآن حملة الوكالة في أفغانـــستان، تقريراً عن تقدّم الحرب. لاحقاً، عرض فيل، "فيل القلق"، تقريراً عن جدول الاستخبارات العالميّة الذي يشرف عليه - والذي يشبه اختباراً كبيراً لصهر الإشارات الاستخبارية والبيانات من المواقع لملاحقة الإرهابيين على الكرة الأرضية. يدعو تينيت عرض التقارير هذه موجز مركز الاستخبارات المجموع- للقائد الأعلى - ويقـــيّم مـــا يـــسمعه ويدرس احتمال عرضه أمام مركز الاستخبارات المجموع الحقيقيّ، في موجز الصباح التالي.

في هذا اليوم، وبعد الانتهاء من قراءة التقارير، عقد تينيت جلسة مناقشة. فلم يـــشكّل اعـــتقال الليبـــي إلاّ البداية. وأمل الجميع أن يتمّ اعتقال أعضاء يحتلّون مـــراتب أعلـــى، فـــيما ارتفعت حصيلة اعتقالات الأعضاء من المراتب الأدنى في أفغانستان. ولكن ماذا سيحلّ بالمعتقلين؟

واختزل تينيت محور اجتماع عقده مع رامسفيلد. التقى الرجلان على مائدة الغـــذاء كلّ أسبوعين، مناوبة بين السي آي إي ووزارة الدفاع- في ما يشبه اتفاقاً مـــتوازناً، علـــى غرار العلاقة التنافسيّة بين الوكالتين. وتطرّقا مؤخراً إلى موضوع الـــسجن. مـــا العمل بالسجناء الذين اعتقلتهم القوى المشتركة بين السي آي إي والقوات الخاصة الأميركيّة في أفغانستان، غنائم الانتصارات السريعة في البلاد؟ فقد أُرســـل بعض المعتقلين، وغالبيتهم من جيش الطالبان الذين لم يحالفهم الحظ- إلى قـــادة حلف شمال الأطلسي المدعوم بالولايات المتحدة. ولكن سيتمّ اعتقال المزيد، على أمل أن يكون بعضهم من أعضاء القاعدة البارزين.

أخـــبر تينيت رامسفيلد أن السي آي إي كانت تبذل جهوداً تفوق الجدول المحدّد لها. فاضطرّت إلى بذل الجهود في محاولة اعتقال بن لادن أو قتله، بينما تطارد الإرهابيّين في العشرات من الدول.

لم يتأثـــر رامـــسفيلد بهذا الحديث. فقال لتينيت: "لن نخوض مسألة السجن هـــذه". بالطبع، أدارت وزارة الدفاع، بموظّفيها الثلاثة ملايين تقريباً، السجون -

ســجوناً عــسكريّة. ولكن، فهم كلّ من رامسفيلد وتينيت أن سجن الإرهابيّين يختلف تمامــاً عن سجناء الحرب، الذين قد يطلق سراحهم قريباً. كان من سابع المــستحيلات أن يصبح الجيش الأميركيّ الفخور سجّان الإرهابيّين الذين تعتقلهم السي آي إي.

عــندما أطلع تينيت جميع أعضاء فريقه بمجريات هذا الحديث، لم يصدّقوا ما سمعته آذانهم.

فقال أحدهم: "مرّة أخرى، نتحمّل المسؤوليّة – نحن ندفع الثمن".

وأطنب آخر: "هذا ليس مجال اختصاصنا".

سأل مدير رفيع في السي آي إي إذا كان أحد يعرف أحد المشاركين في نظام السجون الأميركيّ. على الأقلّ سيتمتع ببعض الخبرة.

"وعــندما يرتفع عددهم، في أية سجون سنضعهم؟"، سأل أ.ب. كرونكارد "المهــمّ"، الرئيس السابق لشركة أليكس براون وأبنائه، وهي شركة استثمارات، والذي يحتلّ حالياً منصب المدير التنفيذيّ في السي آي إي، شكل من أشكال مدير تــشغيليّ أعلى في الوكالة، أي المنصب الثالث فيها. تدفّقت الاقتراحات من كلّ حــدب وصــوب. اعــتقال السجناء في سفن في البحر؟ إيجاد جزيرة غير تابعة للولايات المتحدة؟

إلى ذلــك، بــرزت مسألة الاستجوابات، وهذه المرّة بمشاركة العشرات من مدراء السي آي إي الرفيعي المستوى. "قد يوفّر لنا استجواب ناجح كل المعلومات الضروريّة والعمليّة التي نحتاج إليها"، أكّد بين بونك. "نحتاج إلى مكان يخوّلنا القيام بمــا يمكنــنا لحثّهم على الكلام". تمّ تحديد البلدان التي قد يسجن فيها المعتقلون – بعــض الــدول الحليفة القريبة، بعض الشركاء الذين نفضّل عدم الظهور معهم في العلن.

واســتمرّت النقاشات طيلة هذا الاجتماع، واجتماعات الخامسة الأخرى في الأســابيع القادمــة. هل ستدير السي آي إي هذه المنشآت أو الدولة المستضيفة؟ الجــواب غير واضح. ما هي المعايير التي ستقوم عليها الاستجوابات؟ أرسل تينيت رســالة تحذيــريّة إلى ســكوت مولير، وهو محامي وظائف احتلّ مؤخّراً منصب

مستشار عام، ونائبه جون ريزو، المستشار القانونيّ القديم للوكالة. قال لهم: "نحن بحاجـــة إلى إرشـــاد من وزارة العدل والبيت الأبيض على الإجراءات التي يحق لنا اتخاذها. نحتاج إلى توافق قبل أن نقدم على أية خطوة".

بعـــد اجتماع واحد، تشاور بين بونك وعدّة رؤساء من مديريّة العمليات في القاعـــة مع صديق، رئيس عمليّات يبقى متخفياً. قال الرجل المسنّ بترو وتهذيب: "أيـــاً يكن القرار، احرصوا على عدم الدخول في أمر إلا بعد إيجاد وسيلة للانتهاء منه".

في 16 تـــشرين الثاني/نوفمبر، لاقى محمد عاطف، القائد العسكريّ للقاعدة، حـــتفه في قصف جويّ على غارديز، على مقربة من كابول. كان يقيم مع أعضاء آخـــرين في القاعـــدة في فندق سُوّي بالأرض. أعاثت طائرة من دون طيّار، هذا الـــوحش الكاســـر، كلّ هذا الدمار. وباتت الترددات التي طبعت سنوات ما قبل الحادي عشر من أيلول/سبتمبر حول تسليح هذه الطائرات مجرّد طيف من الماضي. فـــتمّ بناء الطائرات اللاسلكيّة وتسليحها من 12 أيلول/سبتمبر بالسرعة المرجوّة. كـــان عاطف، الضابط السابق في الشرطة المصريّة، قد تولّى القيادة العسكريّة في تنظـــيم القاعدة عام 1996، وخطط للاعتداءات ضدّ السفارة الأميركيّة في نيروبي وتنـــزانيا عام 1998. كان قوّة تنظيميّة أساسيّة في القاعدة – يحرّك الأموال ويتّخذ قرارات توزيع الموارد وتحديد الأولويات.

وكانت الغنائم المنتشلة من حطام الفندق من وثائق وأشرطة فيديو ثمينة توازي موت عاطف أهميّة. فإحدى هذه الأشرطة كان تسجيلاً محلياً لمدّة 20 دقيقة، يظهر عدّة مواقع في سينغافورة – بما فيها مواقع عسكريّة أميركيّة ونظام الأنفاق في المدينة – كانـــت قـــد تعرّضت لاعتداءات تبنّتها الجماعة الإسلاميّة، جناح القاعدة في جنوب شرق آسيا. وأظهر تسجيل آخر مؤامرة اغتيال قادة من المتوقّع أن يشاركوا في قمـــة الخليج الفارسيّ. من خلال تجميد الصورة، تمكّن المحقّقون من أخذ صور 50 عنصراً في تنظيم القاعدة.

في الأســـبوع الـــتالي، دخـــل تينـــيت وإلى جانبه هانك كرومبتون المكتب البيضاوي في منتصف الصباح. من بين كلّ الذين قدّموا الموجزات في السي آي إي

هـــذه الفترة، كان كرومبتون اللاعب الأساسيّ، هو الذي عمل مع السي آي إي لمـــدّة 20 ســـنة في أثينا وجورجيا، المتحدّث ببطء، الذي يربطه بالمهمّات السرية تـــاريخ طويل، والذي يحمل شهادة ماجيستير في السياسة العامة الدوليّة من جامعة جونـــز هوبكنـــز. وترأس من لانغلي حملة السي آي إي في أفغانستان.

اضـــطلع الـــرئيس ونائبه بأدوارهم المعتادة - مع بوش جالساً على الكرسي المجنّح قرب المستوقد؛ وجلس تشيني على الكرسيّ إلى جانبه. انحنى كرومبتون على الأرض قـــرب الكرســـيين المجنحين. كان والده مساح أراضٍ وطوبوغرافيّاً، وقد استحدث كرومبتون، عاشق الخرائط، خريطة جديدة مفصّلة في كلّ موجز، تظهر مواقـــع المعارك والأراضي، وأسماء اللاعبين الأساسيّين، ومزوّدة بأسهم تدلّ على المواقع المحتملة لانتقال المعارك في المرحلة التالية.

دنـــا بوش وتشيني، كأنهما يحومان فوق كتفي كرومبتون فيما فسّر "أهمّ اشـــتباك حتى الآن"- المعركة التي وقعت قبل بضعة أيام في تارين كوت الواقعة 70 ميلاً شمالي كندهار. تحدّث كرومبتون عن كيف تسلّل سياسيّ محليّ يدعى حمـــيد كـــرزاي بين صفوف العدوّ ووجّه 50 رجل قبيلة، يساندهم أحد عشر جندياً من القوات الخاصة الأميركيّة ودعمٍ جويّ منظّم إلى الانتصار على أكثر من 700 مقاتل من الطالبان. تأثّر بوش بهذا الانتصار، وقال: "أخبرني المزيد عمّا قام به كرزاي هذا".

فأخبره كرومبتون، واصفاً كرزاي - من قبيلة الباشتون والقادر على توحيد الـــبلاد مـــن شمالها إلى جنوبها - "صلة الوصل" بين الجهود العسكرية وجهود بناء الدولة.

ولكن، بعد مرور بضعة أيام، مع حلول نهاية شهر تشرين الثاني/نوفمبر، عاد كـــرومبتون بخـــريطة أخرى وأطلع بوش على الخطر الذي يواجهه هدف الحملة الرئيسيّ، أي اعتقال بن لادن.

وتحـــت ناظري تشيني، وبالارتكاز على تقارير مفصّلة وعاجلة أرسلتها فرق الـــسي آي إي في أفغانستان، أطلع كرومبتون الرئيس بوش على الأراضي المحيطة بتورا بورا التي تمركز فيها بن لادن وحوالى ألف مقاتل.

طرح سلسلة من المشاكل. قال كرومبتون إن الجبال البيضاء حيث الكهوف، كانت مملوءة بالأنفاق وطرق الفرار. سأل بوش عن الممرّ باتجاه باكستان. كان الرئيس مشرّف قد أكّد للإدارة، ضمن صفقة قدّمت الولايات المتحدة الأميركية بموجبها مبلغاً يناهز المليار دولار في شكل مساعدات، أن جنوده سيغلقون المعابر المؤدّية إلى باكستان، وهي الطريقة المنطقية للفرار. بالتعويل على خريطته، أظهر كرومبتون كيف أن الحدود بين الدولتين كانت مضلّلة، وأن المنطقة من الناحية الباكستانية لم تكن تخضع للقانون، إذ كانت منطقة قبليّة لا سلطة لمشرّف عليها. في أي حال، أظهرت الصور التي التقطتها الأقمار الصناعية أن مشرّف وعد بإرسال جنود لم يصلوا، وبدا وكأنهم لن يصلوا قريباً.

والأسوأ من ذلك، أضاف كرومبتون، أنّ القوات الأفغانيّة "أعياها التعب والبرد، والكثير من الجنود كانوا بعيدين عن منازلهم". كانت القوات قد تعرّضت لضرب عنيف من قوات الطالبان في الجنوب، و"لم تكن قادرة على القبض على بن لادن".

قبل بضعة أيام، في السادس والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر، استقرّ 1200 جندي من القوات البحرية الأميركيّة - أكبر قوة أميركيّة في البلاد - في تخوم كندهار، على بعد 300 ميلاً شرق تورا بورا. أطلع كرومبتون، الذي كان على اتصال مستمرّ بمركز CENTCOM العسكريّ في تامبا، الجنرال تومي فرانكس خلال الأسبوع المنصرم على مخاوف عملاء السي آي إي الإداريين في أفغانستان، والتي ركّزت على أنّ "الباب الخلفي كان مفتوحاً". طلب من فرانكس تحريك القوات البحريّة للمشاركة في العملية. فأكّد الأخير أن الجهود التي بذلتها السي آي إي في مطاردة بن لادن ومحاصرته قد تضيع في انتظار وصول القوات؛ وعبرّ عن مخاوفه حيال غرق جنود البحريّة في مستنقع الجبال الثلجيّة.

وفيما أطلع كرومبتون الرئيس على هذه المستجدّات - واتضح عندها أن البنتاغون لم يوصل مخاوف السي آي إي إلى مسمع بوش - تخطّى كرومبتون حدوده. قال لبوش أنهم "على وشك خسارة طريدتهم إذا لم يكونوا متيقظين"، وأوصى بإرسال جنود البحريّة أو أية فرق عسكرية أخرى إلى المنطقة، إلى تورا بورا حالاً. لم ينبس تشيني ببنت شفة.

تفاجأ بوش مما تبادر إلى مسمعه، وطلب منه إطلاعه على المزيد من المعلومات. "ما هي قدرة الجنود الأفغان؟ هل هم على قدر المسؤوليّة؟"

"طبعاً لا، سيدي الرئيس، طبعاً لا"، أجاب كرومبتون.

كان عيد الشكر على الأبواب، وشعر تينيت بالإحباط حيال ما يحصل، أو ما لم يحصل، مع العالِمَين الباكستانيَين. أصرّ على موات - لارسن للحصول على نتائج، وشدّد على الانتهاء من القضية في "غضون أيام".

قال: "إنها حالة طارئة، لماذا لم نتمكّن من السيطرة على المسألة؟"

تمّ جمع المزيد من المعلومات، ببطء، عن محمود وأمّة تعمير النو، على الرغم من المساعدة المتواضعة التي قدّمها الباكستانيون. كان محمود ومجيد قيد الاعتقال، وثم أطلق سراحهم فجأة، ثم ما لبثوا أن اعتقلوا مجدداً. مارست عائلاتهم ومهنيّون باكستانيون أصدقاء جميع أشكال الضغوط للإفراج عنهما. ادّعى محمود المرض الجسديّ. لذلك حضروا للاستجواب بمرافقة مسؤولين حكوميّين، وعادوا أدراجهم إلى عائلاتهم في المساء. وكما كان متوقعاً، لم يفصحوا عن أية معلومات. شعر تينيت أن الوقت قد حان لطلب مساعدة القوات الموحدة الأميركيّة، أي مجتمع الاستخبارات: فقد حانت ساعة الاستنطاق.

دعا مدراء مجتمع الاستخبارات إلى قاعة المؤتمرات لاجتماع طارئ. شارك في الاجتماع بوب مولير، مدير مكتب التحقيق الفدرالي؛ ممثّلو وكالة استخبارات الدفاع؛ والقائد مايك هايدن، رئيس وكالة الأمن القوميّ، شبكة التنصت الأميركيّة، أي الشبكة العالمية القاسية والشفافة كما طبقات الجوّ.

قالت لهم تينيت: "إن الكابوس يتحقّق". وصف لهم الاجتماع حول المخيم والمشاركين فيه. استطاع الجميع ربط الخيوط. قال لهم إن عمل الاستخبارات يتطوّر - فالخطوط العريضة كانت واضحة - ولكن احتاج الجميع إلى المساعدة في جمع الصورة العامة وملاءمتها.

كان الرجال متجهّمين. فقد اتُّخذ قرار يقضي بإرسال كلّ وكالة لاعبين أساسيّين للانضمام إلى مجموعة العمليات التي يرأسها موات - لارسن - قوة ستجتمع الأسبوع المقبل. قال مايك هايدن أنه سيجمع كل إشارات الاستخبارات

ذات الصلة الواردة على مرّ السنوات العشرة المنصرمة - إشارات استخبارات عن نقــل اليورانــيوم والبلوتونيون، سرقة أو خسارة مواد أولية لصنع القنابل، والنوايا المعروفة أو المشكوك فيها لمجموعات إرهابية مختلفة - وستكون حاضرة في الصباح. كما سيرسل فريق محلّلين.

أمــا بوب مولير، المحامي الأميركيّ السابق الذي شغل منصب مدير الأف بي آي لمــدّة شهر واحد، والذي وصل في الأسبوع الذي سبق أحداث الحادي عشر مــن أيلــول/سبتمبر، فجلس و لم يحرّك ساكناً. تعذّر عليه الدفاع عن وظيفته التي قــضت بإيجــاد أي إرهابيّ قد يجوب الأراضي الأميركيّة. حماية الأرض- أياً يكن معنى ذلك - وفهم العدوّ لدرجة استباق الخطوة التالية التي سيقوم بها. كان يواجه مــشاكل في مجرّد المحافظة على أسماء الخاطفين التسعة عشر، على غرار العديد في هذه المرحلة.

سأل: "جورج، كم يزن كلّ من هذه القنابل؟"

وبــذل تينيت ما بوسعه للإجابة على هذا السؤال، خاصة أنه استشار بعض العلمــاء الــنوويين المهمّين بشأن سلسلة أدوات محتملة - بشأن نسخ أبسط عمّا يستطيع أن يفعله شخص ما بكمية بلوتونيوم بحجم كرة صغيرة.

"أعني، ما هو مدى كبر حجمها أو صغره؟"، ألحّ مولير.

وانهمرت الأسئلة... "كيف تستطيع نقلها؟"

بعد مرور هذه اللحظة الحرجة، لاحظ الجميع ما الذي حاول مدير الأف بي آي القــيام بــه؛ هو يحاول أن يطلعهم على الموضوع بسرعة. أراد إطلاع جيش العملاء هذا على ما يجب أن يبحثوا عنه.

أما الحقيقة المُرّة أن أياً لم يكن يعلم.

كــان نائب الرئيس تشيني وكوندوليزا رايس جالسين في غرفة الأزمات في ســاعة متقدّمة في شهر تشرين الثاني/نوفمبر. كانا يتحدّثان بصوت خافت، فيما دخل تينيت ومتحدّث الغرفة الخشبيّة.

هذا كان نمط تينيت - صريح ومتّقد العاطفة. رفعت كوندي ناظريها بلهفة. لم تــتفق أبداً وجورج، فكانا من طينة مختلفة - هو ساكن نيويورك الذي يتحدث

بلغة خشبية، والذي هذّبته سنوات الدراسة عند اليسوعيّين في جامعة جورج تاون وسنوات الحديث السياسيّ؛ أمّا هي، صاحبة الإنجازات الأكاديميّة، الوحيدة في سنّ الـ 46، المربكة والمقدّرة، المرتاحة التي تتأنق كلّ صباح في ثياب من تصميم أوسكار دي لا رينتا.

قالت: "حسناً، فلنبدأ. أعلم أننا سنناقش الكثير من المواضيع".

أومأ تينيت برأسه. كان تشيني ورايس يحصلان على تقارير دوريّة عن اتّساع التحقيق مع محمود، ونائبه ماجد، وأمّة تعمير النو، المنظمة التي ساهم محمود بتأسيسها. أزفت ساعة طرح جميع النتائج- أي المخاطر الناشئة - أمام نائب الرئيس. في هذه المرحلة، أصبح جلياً لتينيت أن تشيني كان مسؤولاً عن إدارة السياسة الخارجيّة. وطبعاً سيكون مسؤولاً عن هذا المجال الأساسيّ بالذات: أسلحة الدمار الشامل.

"سيدي نائب الرئيس، هذا ما كنا نخشاه. هذا سيقلب كلّ شيء"، قال تينيت.

جرد كافة التفاصيل: من شأن الاجتماع حول المخيم أن يدقّ ناقوس "الموجة الثانية" المروّعة التي كانت تؤرّق الجميع. امتدّت براثن أمة تعمير النو في أفغانستان، وباكستان والمملكة العربية السعودية. وأثارت المعلومات التي أفصح عنها الليبيّون المخاوف. ما هي الدول الأخرى التي حصلت على عرض أمة تعمير النو؟ لازم تشيني مكانه لبرهة، ولم ينبس ببنت شفة. "يجب أن نتعامل مع هذا النوع الجديد من المخاطر بطريقة لم نحدّدها بعد"، قال تشيني وكأنه يتكلّم مع نفسه. "مع هذه الاحتمالات الضئيلة والآثار الكبيرة التي تخلّفها هذه الأحداث... بصراحة لا أعرف من أين نبدأ. يجب أن نقارب المسألة بطريقة مختلفة تماماً".

أعطى تينيت المتحدث الضوء الأخضر، فتحدّث عن أدقّ تفاصيل مجموعة النخبة الباكستانيّة التي دعمت محمود. كان الباكستانيّون قد استدعوا حتى الآن ستّة أعضاء في أمة تعمير النو لاستجوابهم. ضمّت المجموعة مهارات متعدّدة. وكان محمود عالماً في مجال تخصيب اليورانيوم. وكان عضو واحد آخر على الأقلّ مهندساً، متخصصاً في تصميم القنابل وصنعها. ولكن حظي المشتبه بهم بمعاملة

عاديّـــة واحترام، ولكن الاستجواب لم يؤتِ الثمار المتوقّعة. حتى إن الباكستانيين لجـــأوا إلى اختـــبارات كاشف الكذب. ولكنهم لم يحسنوا إجراءها، فأتت النتائج مخيّبة للآمال. أنصت تشيني، مستجمعاً كافة حواسه لاستيعاب ما كان يتبادر إلى مـــسمعه. عـــند انتهاء الموجز، بقي صامتاً. بعدها، كان مستعداً لعرض "طريقته المختلفة".

"إن كـــان لدينا أدنى شكّ، وإن بنسبة 1%، في مساعدة العلماء الباكستانيّين للقاعـــدة في تطويـــر قنـــبلة نوويّة، يجب أن نردّ على هذا الاحتمال كما لو كان مـــؤكّداً"، قـــال تـــشيني. توقّف لبرهة لتقييم تصريحه، وأضاف: "لا يتعلّق الأمر بتحاليلنا، أو باحتمال وجود برهان، بل يتعلّق ذلك بطبيعة ردّنا".

بعد حديث تشيني، تجلّى الأمر: معيار تحرّك من شأنه تحديد أطر الأحداث وردّ الإدارة لسنوات مقبلة. نظرية تشيني. حتى لو كان هناك 1% احتمال وقوع حـــدث لا يتصوّره عقل إنسان، يجب التصرّف على أن الاحتمال أكيد. فعلى حـــدّ تعـــبير تشيني، "لا يتعلّق الأمر بتحاليلنا، بل بالردّ". هذه النظرية - حل الـــواحد بالمـــئة - قـــسمت مـــا لم يكن قابلاً للتقسيم في السياسة الأميركية الخارجيّة: التحليل والتصرّف. "إن ردّنا" هو المهمّ، مبرّراً كان أو لا، قائماً على وقائـــع أو لا. أمـــا في ما يتعلّق بالـــ "برهان"، تمّ تحديد معايير منخفضة جداً لدرجـــة أن الكلمـــة بحـــدّ ذاتها لم تطبّق تقريباً. إذا برز احتمال 1% بحصول الإرهابـــيّين علـــى أسلحة دمار شامل - وكان ورد احتمال حصول ذلك من وقت إلى آخر - يجب أن تتعامل معه الولايات المتحدة على أنّه أكيد. كان هذا تفويـــضاً واســـعاً للغاية. صمت الجميع لبرهة، يدرسون هذا القرار، ويقيسون مضامينه.

كـــسر تـــشيني حاجز الصمت، وانتقل للحديث عن التفاصيل. فسأل: "هل بإمكانـــنا الوثوق بصراحة بالباكستانيين في هذه المسألة؟". اعتُقل العلماء، وأُطلق سراحهم، ووضعوا تحت الإقامة الجبرية في منازلهم، بيد ذلك، تمتّعوا بفسحة حريّة. فادّعـــت عائلة محمود أنه مريض، وغيره - بمن فيهم أعضاء أساسيون من النُخب الحاكمة في باكستان - طلبوا من الرئيس مشرّف أن يدع العالِم العجوز وشأنه.

أجاب تينيت: "كلاّ، أستبعد ذلك. على الرغم من الضغوط التي نمارسها، لا نستطيع أن نسيطر على زمام الأمور". وافق الجميع الرأي.

"جـــورج، يجب أن تذهب إلى هناك، آسفة ولكن ما من خيار آخر"، قالت كوندي، بابتسامة متعاطفة.

ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحدّ. يجب على تينيت أن يبدأ تحضيراته فوراً.

قـــال تشيني، رامقاً تينيت بوقور: "ستمثّل الرئيس شخصياً، ستتحدّث بالنيابة عنه".

ارتكـــزت الـــسياسة ابـــتداءً مـــن الثاني عشر من أيلول/سبتمبر على إيجاد الإرهابـــيّين، أينما كانوا، وتوقيفهم. فهذه السياسة هي التي أطلقت شرارة الحرب على أفغانستان – معقل القاعدة – وخطط العمل لتوسيع نطاق عمل السي آي إي في ثمـــانين بلداً. كانت القوة الدافعة وراء اعتماد قانون المواطنية؛ ووراء حملة وزارة الخـــزينة الهادفة إلى سحب بيانات مالية من المؤسّسات لتستخدم كـــ "معلومات مالـــية"؛ ووراء إجراءات الأف بي آي القاسية والقاضية باعتقال أي شخص مثير للارتـــياب. دفعـــت مـــشكلة العثور عليهم قبل توقيفهم الجميع إلى دخول المجال الاستخباري.

ولكـــن كان توسّع أكبر للمهمّة الأميركيّة على بعد قاب قوسين. فمع أخبار بـــن لادن والمخيم في كندهار، كانت الخطة الحكوميّة تشهد اتّساعاً سريعاً لتشمل موضوعاً قديماً بديلاً: نـــزع السلاح.

مـــنذ انـــتهاء الحرب العالميّة الثانية، كانت الحكومات الأميركيّة المتعاقبة تثير مـــسألة انتشار الأسلحة المسبّبة لدمار كبير. حثّ الخوف الولايات المتحدة وغيرها من الدول على التخلّي عن إجراء السيادة في عدّة اتفاقات دوليّة، وإلى الانقسام إلى تحالفـــات مـــتوازنة: منظمة حلف شمالي الأطلسي واتفاقية وارسو. ولطالما وضع مفهـــوم دمار متبادل مؤكّد الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي في حلقة نـــزاع دائمة انتهت إلى فرض قيود.

لم ينـــتهِ هذا التوازن الثنائيّ الأقطاب، الذي فرض نوعاً من النظام بين الدول والأمم، عام 2001. فلم ينشأ ما يحلّ محلّه. واحتفظت الدول طبعاً بأهميتها، ولكن

بمقاييس صغيرة، متوسطة أو كبيرة. وكانت تبدأ بالتحرّك في مناطق مختلفة من العالم بطريقة متفرّقة، وكأنها قائمة على روح المبادرة، وتختبر الحدود.

بشكل عام، لم يشعر صانعو السياسة الأميركيّون بأنهم مقيّدون في مطلع عام 2001. ففي الأشهر الأولى من ولادتها، انحرفت إدارة بوش عن العقيدة الأميركيّة المعتنقة منذ وقت طويل والقائمة على الدوليّة الجبّارة – على قيادة مجتمع الأمم بالاتكال أساساً على الإقناع بدل القوة. شهدت مهمّة جديدة النور في مجموعات التفكير للمحافظين الجُدد وفي تصاريح تشيني ورامسفيلد وولفويتز وفايث وبيرل وغيرهم خلال التسعينيّات من القرن الماضي، في حين كانوا يعيشون منفيين عن الحكم. وكانت هذه الفكرة تنصّ ببساطة على الشعور بالتحرّر وعدم الخزي في استخدام القوة، بما أن الولايات المتحدة كانت القوى العظمى الوحيدة في العالم. وباتت الاتفاقات الدولية على كلّ المواضيع، من غازات الدفيئة إلى المحاكم الدوليّة، التي ساهمت الولايات المتحدة في تصميم العديد منها ودعمها، باتت تشكّل قيوداً، الخيوط التي تربط غاليفر. أصبحت هذه الاتفاقات للدول الأدنى مرتبة. توجّب التخلّص منها – وهذا ما حصل بالفعل في مطلع عام 2001 مع استلام إدارة بوش زمام السلطة.

ولكن، ما الذي قد يفعله غاليفر المحرّر من قيوده؟ في مذكّرة أُرسلت إلى مدراء مجلس الأمن القوميّ في الأسبوع الأول من استلام الإدارة زمام السلطة، بذل رامسفيلد كلّ ما بوسعه من أجل وصف ما تواجهه أميركا العظيمة اليوم. تحت عنوان "مسائل سياسة الأمن القوميّ – مخاطر مرحلة ما بعد الحرب الباردة"، كتب رامسفيلد: "سمح تحرير تجارة السلع والخدمات التكنولوجيّة في حقبة ما بعد الحرب الباردة، للدول الأكثر فقراً في العالم بالحصول على التكنولوجيا العسكريّة الأكثر تدميراً المصمّمة، بما فيها الأسلحة النووية والكيمائيّة والبيولوجيّة ووسائل تسليمها. لا نستطيع أن نمنع الدول من القيام بذلك". ستّ صفحات لاحقاً، وبعد التشديد على كيفيّة "استثمار المنافسين على غرار الصين وروسيا وإيران والعراق وكوريا الشمالية أو غيرها" في هذه القدرات المدمّرة، كتب رامسفيلد عن ضرورة رسم استراتيجيات "لردع الأمم عن تحدّي" أميركا. تمّ تسليط الضوء أساساً على مخاطر الدول في تلك الأيام.

أعلن الحادي عشر من أيلول/سبتمبر وصول لاعب من خارج حلقة الدول. وكانت المفاجأة الوحيدة فيه إطلالته المدمّرة، لحظة الاعتراف المتبادل. كان هذا اللاعب الخارج عن حلقة الدول، أو العابر للقارات، ينتظر بفارغ الصبر لحظة الإعلان عنه. كانت سيادة الدول والحدود تضمحلّ شيئاً فشيئاً على مرّ العقود، وتسارعت هذه الوتيرة بعد انهيار المواجهة الأميركيّة - السوفييتيّة الثنائيّة الأقطاب. قالت هذه المجموعات العابرة للقارات، أو الأفراد، على غرار بن لادن والظواهري، إنّ القوة القائمة على الدول وهميّة، أو على أقلّ تقدير، مبالغ فيها. فقد عمل الثنائيّ بين الدول وفي داخلها، وجندا آلاف الجهاديّين، ودرّباهما ونظّماهما في شبكة عالميّة مرنة. وجّها ضربات قاضية على الأراضي الأميركيّة بحيث لم تتجرّأ أية دولة معادية على القيام بمثلها. كانا ينشران أفكاراً تزعزع الاستقرار بين جمهور عالميّ. وكانت هذه الأفكار تركّز على أنّ نمط العولمة يعني أنّ الحدود، كما الدول، بغير أهميّة.

على الرغم من امتلاك الحكومات معظم الأسلحة المدمّرة في العالم - والقدرة على اتخاذ قرار من يعيش وكيف في الأراضي التي كانت تسيطر عليها بشكل عام - عاد دليل وجود بن لادن والعلماء الباكستانيّين ليؤجج الشعور الأميركيّ بمسألة نزع السلاح القديمة - الجديدة. وطوى النسيان الفكرة القديمة بأن حتى دولة مارقة ليست انتحارية لدرجة استعمال سلاح دمار شامل ضدّ الولايات المتحدة أو أيّ من حلفائها. فقد تعطي دولة مارقة سلاحاً فتاكاً، أو بضعة أرطال من اليورانيوم المخصّب للاعب من خارج حلقة الدول - أو عابر للقارات - إذا حرص اللاعب على عدم الكشف عن هوية الدولة التي وفّرت السلاح. ولم لا؟ فليقم الإرهابيّون بالأعمال القذرة التي لن يقوم بها أبداً راعٍ سريّ بنفسه، ولكن راوده حلم: تركيع أميركا. وأتى ردّ تشيني: حتى في وجود احتمال واحد بالمئة بحصول هذا الاعتداء، يجب أن نتصرّف على أنه أكيد.

وهكذا، خلال قصف معقل الإرهابيّين في أفغانستان، وخلال محاولة إيجاد العدوّ والقضاء عليه أينما كان، سيطرت فكرة أخرى لا تتجزأ عن الواقع: إنّ الدولة المارقة خطرة أكثر، خاصة بعد إيجاد شريك صامت جديد.

في النهاية، بمن قد يلتقي بن لادن أو مقلّدوه حول المخيم؟

تـــوجّهت طائـــرة القوات الجوية رقم 707 الزرقاء إلى إسلام أباد بجنون في صباح الأول من كانون الأول/ديسمبر.

علـــى مـــتن الطائرة، جلس تينيت، موات - لارسن ومحلّل رئيسيّ لأسلحة الدمار الشامل، متمسّكين بمقاعدهم، فيما كان تينيت يهتف.

أمـــضى لـــيون، المحلّـــل المتخفـــي، السنوات الخمس الأخيرة في بناء مركز متخـــصّص في المخاطر الكيمائيّة والبيولوجيّة والإشعاعيّة والنوويّة تابع للسي آي إي. كـــان قد أصدر كتيبات عن مختلف المخاطر ونظم إرسالها، وكيفية كشفها، وإبطـــال عملـــها. كـــان عاملاً مجتهداً، خبيراً في مسائل كانت حتى الآن مجرّد نظريّات.

في غـــضون ذلك، زرع وصول مسؤولين أميركيين على متن طائرة أميركيّة رسميّة الذعر في قلوب قوات الأمن الباكستانيّة، خاصة وأن الفريق أعلن عن وصوله قـــبل يوم واحد فقط. كانوا يسافرون إلى أراضٍ خطرة. كانت القوات الأميركيّة متمركـــزة في أفغانـــستان، والمعركة مستعرة على الحدود مع باكستان. وشهدت كاراتـــشي أعمـــال شـــغب. قد يكون بانتظارهم متطرّفون إسلاميّون مسلّحون بـــصواريخ ستينغر تمّ شراؤها من السوق السوداء. طُلب من الرئيس مشرّف عدم الإعلان عن الزيارة لأحد، حتى لأعوانه المقرّبين. انحرفت الطائرة ثمّ انقضت رأساً باتجاه مطار إسلام أباد.

دخـــل تينـــيت في ما يشبه شاحنة أمنية. ووُضع موات - لارسن في السيارة الأمامية - الليموزين - كطعم، ومرّ موكب السيارات في إسلام أباد، بالقرب من النـــصب الـــتذكاريّة الـــتي تشير إلى بناء القنبلة النووية، حدث أدخل الدولة إلى الصفوف الأماميّة للقوى العالميّة، والذي ساواها بجارتها الهندية التي تكرهها، والذي حـــوّلها أوّل دولـــة إسلاميّة تمتلك السلاح النوويّ بين الأمم الإسلاميّة في جنوب آسيا. في بلد يعيش على ستّة دولارات في اليوم فقط، كان ذلك موضع فخر.

توقّـــف موكب السيارات أمام السفارة الأميركيّة وأقلّ السفير الأميركيّ ويندي تشامبرلين وتوجّه إلى القصر. استقبل الرئيس مشرّف الوفد على مدخل القـــصر، مـــرتدياً كعادتـــه بزّته العسكريّة، ورافقهم على الدرج الرخاميّ إلى

مكاتـــبه. هو رجل نحيل، ودقيق - ربما أهيف، لا يتخطّى طوله الخمسة أقدام وثمانـــية أعشار - هو شهادة حيّة على مبدأ أن الطول لا يهمّ في إدارة شؤون الدولة. ولا الحجم أيضاً.

هـــو رجل قليل الكلام، ولكن يدرس كلّ كلمة، بابتسامة ناعمة - بطريقة مضلّلة كثيراً. استلم الرئيس مشرّف زمام الحكم عام 1999 إثر انقلاب عسكريّ، واتّـــسم حكمه منذ ذلك الوقت بالفعاليّة القصوى. يستقي قوّته من الاطلاع على الأمور أولاً، ثم التصرّف بسرعة وغالباً بصرامة.

وزّع صناديق فضية على ضيوفه، يحتوي كلّ منها على بطاقة تعريفية - برويز مشرّف، رئيس دولة باكستان - فيما جلسوا على أريكة وكراسٍ. قدّم لهم الشاي بأوانٍ فضيّة، وابتسم الجميع بدماثة.

وضـــع الـــثلاثة، على متن الطائرة، اللمسات الأخيرة على لائحة المطالب - الأشياء التي يتعيّن على مشرّف القيام بها. بالطبع، سيتمّ عرض الأخبار السيئة أولاً. وحدّد تينيت المبادئ التوجيهيّة فيما حلّقت الطائرة الأميركيّة في فضاء إسلام أباد: "لن نتحدّث عن اختلافات ثقافيّة. هناك أمور يجب عليه القيام بها. لا نأبه بما يفكّر مشرّف".

ولكـــن، بالطـــبع كانوا يكترثون، وكثيراً. وضع تينيت كأسه على الطاولة وجلس مستقيماً. على غرار أي شخص في الإدارة الأميركيّة، اتبع تينيت خطوات معيّنة: حفظ لائحة الأهداف والتكتيكات، ودرسها مطوّلاً. وعند الإشارة، تصدر منه الكلمات وكأنها ضجيج، ويعرق فيما يقولها. يجعل منها أمراً شخصياً.

"نحمل أخباراً سيئة، سيئة للغاية - أخباراً سيئة لك، ولنا". هكذا بدأ حديثه، ثم ســـرد قصّة المخيم، التي حفظها بسبب كثرة تكرارها. عرض نوايا الأشخاص المعنـــيّين، وقـــدراتهم. تحدّث عن الخطر المحدق... بالجميع وبكلّ شيء. "السنوات خلـــت، أكّد تنظيم القاعدة أنه يريد السلاح النوويّ. واليوم إنه في متناول يده. لا تقبل الولايات المتحدة بهذا الوضع. هذا وضع غير محتمل".

استـــوعب مـــشرّف كلّ كلمة، ولكنه لم يحرّك ساكناً، ولم تعلُ وجهه أية تعابير.

ثمّ نطـــق. "هذا مستحيل، سيّد تينيت. احتاجت باكستان إلى سنوات طويلة وأمـــوالاً طائلـــة لبناء ما نملكه اليوم. ما تقوله عن امتلاك القاعدة للسلاح النووي يخالف المنطق!".

أجاب تينيت: "لو كان منافياً للمنطق، لما أرسلني الرئيس إلى هنا".

"ناقشت ومستشاري الرئيسي هذه الأمور – تحدّثنا عن قدرة الإرهابيّين على تطوير هذا السلاح- وأكّد لي أنه لا يشكّل خطراً".

بالطـــبع، لم يكن هذا المستشار سوى عبد القدير خان، الذي يلاحقه فريق الـــسي آي إي ويتنصّت عليه طوال السنتين المنصرمتين. يعرف تينيت أن خان هو مستشار مشرّف. قد يقدّر مشرّف أنّ تينيت على علم بذلك، ولكنّه قد لا يعرف مـــا كـــشفته الـــسي آي إي في هـــذه المرحلة: أنّ خان يدير شبكة عالميّة لبيع التكنولوجيا النووية للدول المعادية لأميركا.

نظـــر تينـــيت إلى موات – لارسن. توقّعوا أن يبدي مقاومة. توجّب إعلام مـــشرّف بآخر التطوّرات والإجراءات. كانوا قد ناقشوا هذا القسم على الطائرة: "اصعقه بالمعلومات".

وصف رولف توفّر اليورانيوم أو البلوتونيوم المخصّب حالياً، بالسرقة أو بالبيع في الـــسوق الـــسوداء، وآخر تصاميم القنابل الصغيرة المحمولة، والقنابل المختلفة الأحجام والأشكال والقدرة الناريّة. أنصت مشرّف بانتباه، وبعد لحظات، تراجع عن موقفه الدفاعيّ.

"ولكـــن، مـــاذا عن الدول الأخرى التي تملك مواد نوويّة، مواد غير خاضعة للحمايـــة، والتي يستطيع الإرهابيّون الحصول عليها؟"، سأل مشرّف – في إشارة واضحة على تقبّله الحديث.

هـــنا، استلم تينيت الحديث، وعرض سلسلة اقتراحات جديدة ارتكزت عليها السياسة الأميركيّة الآن. "يجب أن نركّز على الهدف من وراء ذلك. إذا أرادت دولة، أو مجموعة، بناء سلاح نووي، يشعر الرئيس أنّه يجب أن نتحرّك"، أكّد تينيت.

أمـــا المسألة المطروحة هي التالية: بماذا قد تقتنع أمّة سياديّة والديكتاتور الذي يحكمهـــا بالقيام باسم الولايات المتحدة، خاصة في بلد تعمّه مشاعر الكراهية تجاه

الـــولايات المتحدة - مشاعر كدّستها الإجراءات التي اتخذها الولايات المتحدة في محاربة الإرهابيّين الإسلاميّين؟ كانت المسألة المطروحة في حقبة ما بعد الحادي عشر مـــن أيلول/سبتمبر - مسألة تضمّنت تناقضات إدارة اعتنقت فكرة أن الاتفاقات الدولـــية مثل بروتوكول كيوتو حدّت من عمل القوة العظمى الوحيدة المتبقية في العـــالم. وكانت الإدارة مقتنعة أنّه ما من جدوى للقوة إذا لم تُستخدم. فقد أكد الـــرئيس أنّ الـــولايات المتحدة "يجب أن تكون قوّة الخير". ركّز الأميركيّون على عبارة "الخير". أما معظم العالم فقد ركّز على عبارة "القوة"، وتطبيقها.

بـــدأ تينيت بتحديد الأمور التي احتاجت إليها أميركا، بدءاً باعتقال الرجلين رسمـــياً ومباشرة. فلم يعد مقبولاً بعد الآن اعتقالهما وإطلاق سراحهما. ستشترك الولايات المتحدة في استجوابهما، وستشرف على اختبارات كاشف الكذب. وافق مشرّف بتردّد، وأكّد على ضرورة إبقاء الأمر سرياً.

من بين مؤيّدي محمود، كان أحد السياسيّين البارزين في باكستان الذي كان مـــشرّف على معرفة وثيقة به. أراد تينيت اعتقاله أيضاً. فتوقّف مشرّف قائلاً: "إن كان لديك دليل، أريد رؤيته. وإلاّ لا أستطيع القيام بذلك".

وهـــنا بـــرزت العـــراقيل. كان باستطاعة مشرّف المساعدة - كان مستعداً لاعـــتقال العالمين، وإبقائهم قيد الاحتجاز. ولكن لم يكن بإمكانه القيام بالكثير إذا ظهـــر أنـــه يـــنفّذ الأوامر الأميركيّة - فمن شأن ذلك أن يضعف موقفه داخلياً. ستحدّد هذه الشروط العديد من المواجهات، مع العديد من الدول في المنطقة خلال السنوات المقبلة.

وقـــف الجميع. ترك تينيت ظرفاً يتضمّن لائحة المطالب، بما في ذلك المطالب الرئيسيّة التي وافقت عليها باكستان لتوّها. وتصافح والرئيس مشرّف.

"يحـــتاج الرئيس إلى ضمانات بأنّك لن تدع علماء بلدك يتصرّفون باسم بن لادن".

"لك كلمتي".

دخـــل مدراء رفيعو المستوى من الأف بي آي والسي آي إي مكتب نائب الـــرئيس. انـــضمّت كوندوليزا رايس إليهم. كان شهر كانون الأول/ديسمبر قد

انتصف. وبدا نائب الرئيس مضطرباً. أمضى الأسابيع القليلة المنصرمة في الإشراف على الأحداث الرئيسيّة المتعلّقة بالخطر النووي الباكستانيّ، سيناريو الكارثة الذي تحقّق. كان العلماء النوويون الباكستانيون قيد الاعتقال ويخضعون للاستجواب. وبدا أن الضغط على مشرّف - بجعله مسؤولاً مباشراً - يحقّق نجاحاً، بما أن الرئيس الباكستانيّ اتخذ إجراءات صارمة بحقّ أمة تعمير النو ومؤيّديها. كانت المنظّمة مستهدفة ووُضع العديد من أعضائها في السجن. إلى ذلك، أشرف أميركيّ على اختبار كاشف الكذب، وهو من أحد أهمّ الخبراء في المجال، وكانت نتائجه مثمرة. فعندما رُبط بكاشف الكذب، وبعد اعتقاله، أفصح محمود عن تفاصيل أساسيّة.

حول المخيم في آب/أغسطس، تحدّث محمود مجيد مع بن لادن والظواهري عن النضال العالميّ لمكافحة الإمبرياليين والصليبيين، وكيف تقودهم إرادة الله، وكيف ستحمل الأيام المقبلة التغيير المنشود والحماسة الكبيرة.

ثم، تطرّقوا إلى المعدات النووية. رسم محمود أشكالاً عن مختلف تصاميم القنبلة النووية، المركّبة بسهولة، والمنقولة والفعالة. وأصرّ بن لادن والظواهري على معرفة كيفية القيام بذلك. فاستفاض محمود في شرحه عن كيفية تخصيب اليورانيوم، وهو مجال اختصاصه، من خلال بناء سلسلة معقّدة من النابذات السريعة جداً التي تحوّل اليورانيوم الخام إلى غاز، ومنها تنقله إلى شكله المخصّب. أطلع بن لادن على أنّ العمليّة هذه ستكلّف ملايين الدولارات، وتفوق قدرة معظم الدول وأية شبكة إرهابيّة.

أطلع محمود المحقّقين أن بن لادن الصارم استوقفه. "ماذا لو كنت تملك أساساً اليورانيوم المخصّب؟"

أكان سؤالاً أم تصريحاً؟ لم يكن الأمر واضحاً. على كلٍ، أثارت توضيحات هذه التفاصيل مخاوف تشيني. ولكن، كان اجتماع اليوم سيصبّ الزيت على نار أسوأ كوابيس الاستخبارات: الجمرة الخبيثة.

دخل هذا القاتل القديم عقل الأميركيّين رسمياً قبل شهرين. ففي الثامن عشر من أيلول/سبتمبر، أُرسلت أربع رسائل تحتوي الجمرة الخبيثة إلى محطة NBC، ونيويورك بوست، وغيرهما من التنظيمات. وأُرسلت رسائل مشابهة إلى

السيناتورين الديمقراطيين توم داشل وباتريك ليهي في التاسع من تشرين الأول/أكتوبر. وكتب في رسالتين أرسلتا إلى مجلس الشيوخ الأميركيّ عبارات "الموت لأميركا، الموت لإسرائيل، الله أكبر". أصابت الأمّة صدمة جديدة بعد مرور أسابيع قليلة على وقوع أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. فقُتل خمسة أشخاص، وأُصيب 23 آخرون؛ أُقفلت أبنية مجلس الشيوخ في السابع عشر من تشرين الأول/أكتوبر بعد أن أظهرت الاختبارات أنّ 31 موظّفاً تعرّضوا للإصابة. في حين أشارت أصابع الاتهام إلى القاعدة في البداية، أكّد محقّقو الأف بي آي، في منتصف شهر تشرين الثاني/نوفمبر، أن مصدر الرسائل محليّ. بادئ الظنّ أنّ المذنب قد يكون عالماً مستاء، يتمتّع بخبرة في الجمرة الخبيثة، ولكن لم يكن لديهم دليل قاطع.

فيما أكملت الأف بي آي أبحاثها، كانت تقارير عن مخيّم القاعدة في دورونتا في أفغانستان تصل إلى لانغلي. كان الأميركيّون قد قصفوا المخيّم في تشرين الثاني/نوفمبر. لم تظهر الوثائق التي انتشلت من تحت الركام أية معلومات، إلى أن اكتشف محلّل في السي آي إي من قسم ليون، وتحديداً امرأة ذات خبرة واسعة في العوامل البيولوجيّة معلومات أجفلتها. لم تكن الوثائق سوى خطط لمنشأة معالجة بيولوجيّة. تضمّنت كتيّبات تتعلّق بكيفيّة معالجة سلسلة من العوامل البيولوجيّة. ركّزت أساساً على الجمرة الخبيثة. وأشارت الوثائق إلى أن الظواهري كان يترأس البرنامج البيولوجي بنفسه، يعاونه محمد عاطف، القائد العسكري في تنظيم القاعدة، وموزّع الموارد الأساسيّ. على الرغم من أن الوثائق لم تشِر بصراحة إلى اقتنائهم أو تصنيعهم للأنثراكس (الجمرة الخبيثة)، كان برنامج القاعدة محكماً.

عندما أُطلع تشيني على المسألة، دعا إلى عقد اجتماع الأف بي آي التي كانت تحقيقاتها تصل إلى طريق مسدود، والسي آي إي التي كشفت النقاب عن خطر خارجيّ محتّم.

وعلى حدّ تعبير أحد المشاركين في الاجتماع: "كان من أصعب الاجتماعات التي شاركت فيها وأكثرها جديّة".

كانت السنوات تلقي بثقلها على تشيني - الخيبات المتتالية فيما يقدّم المحلّلون تقييماتهم المتوازنة، تحذيراتهم وتنصّلهم، وعقود الصراع المتعبة داخل جدران المنظمة الفدرالـيّة. حـرّرته قاعـدة الواحد بالمئة من كلّ ذلك. وتمحورت الأمور حول اكتشاف عدو محتمل، مشتبه به - والوصول إلى هذا العدو قبل أن يتمكّن منّا. في الواقع، إذا اتضح فعلاً أن مصدر رسائل الجمرة الخبيثة خطط وربّما مواد مطوّرة في أفغانـستان، يعـني ذلك أنّ العدوّ -أي فريق الاعتداء البيولوجي التابع للقاعدة - كان يعمل حالياً على الأراضي الأميركيّة.

"سأكون صريحاً للغاية"، بدأ نائب الرئيس حديثه. "إنّ الأولوية الوحيدة لهذه الحكـومة هـي اكتشاف أيّ رابط بين ما حصل هنا، وما اكتشفناه هناك لدى القاعـدة". وتوقّـف. "يجب أن أعرف أدنى معلومة يملكها كلّ شخص منكم - ويجب أن أعرفها الآن".

بدأ فريق الأف بي آي بالحديث، وتبعه فريق السي آي إي.

لاحقـاً، انهمرت الأسئلة على الفريقين من تشيني ورايس. كيف نعرف هذه المعلومات؟ ما هي خططكم للمرحلة التالية؟ من نلاحق؟

لم تـتمحور الأسـئلة حول البراهين - التي تُركت للمحامين البطيئين الذين يبنون الملفّات. كان وقت الإجراءات. كانت قاعدة الواحد بالمئة قد وجدت وسيلة جديـدة لإنفاذهـا. بادئ ذي بدء، كانت القاعدة والتعاون مع العلماء النوويين. والآن، هناك الظواهري الذي يترأس برنامج أسلحة بيولوجيّة، وكانت أزمة الجمرة الخبيثة تنشر الذعر في أرجاء الدولة. طلب تشيني أهدافاً. وسأل السي آي إي: "من سنضرب أولاً؟"

لم تكـن معلـوماتهم وفيرة. فكان الجواب الأوّل: "سأعمل على الموضوع". وكان ينتظرهم عمل كثير.

وشـزرهم تشيني بنظرة قاسية، وكأنهم مؤسّسات عدوّة. توجّه إلى الأف بي آي: "إذا أفضت تحقيقاتكم إلى كشف أية علاقات أجنبية، أياً تكن هذه العلاقات، يجب أن تشاطروها مع الرجال في الطرف الآخر. هل نحن متفقون؟". أومأ مدراء الأف بي آي، عاجزين عن إيجاد الكلمات.

ثمّ نظـــر إلى جماعـــة السي آي إي. "أنتم الرجال في الطرف الآخر. إذا ما اســـتطعتم توفير أية مساعدة للمكتب، يستحسن بكم تقديمها - لا تكتفوا بأدنى المعلومات. تخطّوا كلّ الحدود. أطلعوهم على كلّ شيء. احرصوا على عدم نسيان أية معلومة".

ثم وقف معلناً نهاية الاجتماع، ونظر إلى الفريقين بازدراء. "أنتم لا تتعاونون أبداً، ولكن لن أسمح بحصول ذلك هنا".

كان جورج دبليو بوش يمضي معظم يومه جالساً في المكتب البيضاوي يستلم تقارير عن التقدّم المحرز. كان اليوم "رئيساً في وقت الحرب"، كما أحبّ أن يردّد دائماً. لا يهمّ إذا كان قد تغيّر بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، أو استفاقت فيه خـــصال كامـــنة، فقـــد وجد الوظيفة التي تلائمه. لفترة طويلة، بقي بوش يأخذ القـــرارات السريعة دونما النظر في سوابق مشابهة أو دراسات أو تحقيقات مفصّلة. خلال الأشهر التسعة الأولى، أثارت هذه القرارات مخاوف بعض الموظّفين الرفيعي المـــستوى في فـــريق عملـــه في البـــيت الأبيض، وأعضاء الحكومة المخضرمين في الكونغرس. فكانوا يتساءلون: هل يقرأ كلّ المواد؟ هل يفكّر جدياً بالقرارات؟ أما الآن، فـــبدا مـــن الضروري إتباع وتيرة متقطّعة من القرارات السريعة. فلم تواجه أميركا في كافة مراحل تاريخها ما تواجهه الآن، وكان ذلك محرّراً. كان الوقت وقت الارتجـــال، وهـــذا ما حرّر بوش. وهكذا، كانت غرائزه، وحدسه محرّرة، لا تواجه تحديات، على حدّ قوله، وأطلق العنان لعدائيّة جامحة توجب عليه دائماً قمعها.

وسرعان ما علم مسؤولون كبار آخرون ما علمه تينيت عندما اتصل بكوفر بـــلاك. وعلـــم مستشارون عسكريّون ومخابراتيون الذين قتلوا رجالاً أن قصص الحـــرب ستصل إلى يد القائد الأكثر تركيزاً عندما تصبح الأمور شخصية. حقيقيّ وعمـــيق. صـــمّم الرئيس بنفسه رسماً بيانياً: وجوه كبار قادة القاعدة مع نبذات صـــغيرة عنهم. وعندما كان يتأكّد من مقتل أحدهم أو اعتقاله، يرسم علامة "X" على الوجه. وكان يقول ممازحاً "ها قد أحرزنا تقدماً".

في هـــذا الإطار، شارك في موجز رئاسي يوميّ ناجح في مطلع شهر كانون الأول/ديـــسمبر. فقد أخبر قائد عسكريّ أفغانيّ أحد عملاء السي آي إي أنّه من

المحتمل أن يكون الظواهري قد قُتل خلال قصف جويّ بالقرب من مدينة جلال أباد الشرقية.

بحماسة عارمة، أطلع تينيت الرئيس بوش على هذا الخبر خلال الموجز الصباحيّ. فأخذ بوش قلم رصاص يحمل الختم الرئاسيّ، ووضع علامة "X" على وجه المصريّ الممتلئ، هذا الرجل الذي يساوي بن لادن أهميّة في الجهاد الإسلاميّ. وعمّ الفرح المكتب البيضاوي.

في هذا الحين، كان بن لادن يختبئ في متاهات جبال تورا بورا الشاهقة، التي تعرفها السي آي إي جيداً منذ الثمانينيّات من القرن الماضي، عندما دعمت المقاتلين المجاهدين، وبن لادن نفسه، في معركتهم ضد السوفييت.

بدأت طائرات بي 52 قصفاً عنيفاً في نهاية شهر تشرين الثاني/نوفمبر - وهزّت الهضاب قنابل قويّة، وهي قنابل زنتها 15 ألف باوند (7000 كلغ)، أكبر القنابل التقليديّة التي عرفها العالم، وتحدث ضباباً من نترات الأمونيوم والألومنيوم الذي يشعل ويرمّد كلّ ما يقع ضمن قطر 600 ياردة (540 متراً). ولكن ليست القوة المفتاح الوحيد، كما تستخدم في معظم الحملة الأفغانيّة، بل الأهداف المحدّدة. تسلّق فريق مؤلّف من أربعة عملاء في السي آي إي، يساندهم عشرات رجال القبائل الأفغان، الجبال في عتمة الليل، وأنشأوا مركز مراقبة يشرف على الكهوف. كانت مغامرة خطرة للغاية. لم يستطع أحد رؤيتهم من الموقع الذي تمركزوا فيه - فإن مجرّد الشك بوجودهم يعني القضاء عليهم - ولكن كان باستطاعتهم رؤية كلّ شيء. فتحوا خطوط الاتصال مع المخيّم الرئيسيّ، ونقلوا الإحداثيات الرئيسيّة للطيارين الأميركيّين. وبدأت القنابل تنهال على بن لادن وقوّاته. وشرع الفريق بمراقبة الاتصالات السرية بين بن لادن وقادة تنظيمه، ونقلوها إلى مترجمين في المخيم الأساسي. هذه هي اللحظة التي عملت الولايات المتحدة بدون رحمة للوصول إليها. بعد مرور ثلاثة أشهر على تدميره وإحراقه لنيويورك وواشنطن، حوصر، وأخيراً، بن لادن اليائس.

ولكن، ومع دنوّ لحظة المجد، ازدادت المخاوف في لانغلي. فازدادت طلبات السي آي إي بإرسال وحدات لتطويق الكهوف - على مساحة تقارب 15 ميلاً

مــربعاً. وكانت الأروقة العليا في الحكومة الأميركيّة تشهد نقاشات محتدمة. فكان البــيت الأبيض قد حصل على ضمانات من مشرّف في تشرين الثاني/نوفمبر تؤكّد نــشر الجــيش الباكستاني على المداخل الجنوبية للكهوف للسيطرة عليها. وصدّق بــوش وتــشيني ورامسفيلد أن ضمانات الرئيس الباكستاني متينة. فقد كانت، في الواقــع، وصيّة استراتيجية رئيسيّة - مساهمة من "المستوى السياسيّ" المزعوم - في الحملة الأوسع.

ولكن، حذّرت التقارير السريّة المقدّمة لبوش في الموجز الصباحيّ في مطلع شــهر كانــون الأول/ديسمبر من "أن الباب الخلفي مفتوح" وأنّه بالكاد يمكن رؤية بعض الوحدات العسكريّة الباكستانيّة مجتمعة قرب الحدود الباكستانيّة. لم تدخل أي من هذه الوحدات إلى أفغانستان، باعتبارها منطقة قبليّة شرسة لطالما تــردّدت باكــستان في دخولها. وإثر تعرّضه للضغوط من البيت الأبيض، أكّد مشرّف أنّ تحرّك الوحدات العسكرية بطيء ولكن ما من خوف لأنها كانت في طريقها.

في الخــامس عــشر من كانون الأول/ديسمبر، تحدّث بن لادن عبر جهازه اللاســلكي للموجات الصغيرة. أشاد "بمقاتليه الأكثر وفاءً"- الذين كانوا يناهزون الــثمانمائة مقاتــل، موجودين في الكهوف المعقدة - وطلب منهم "مسامحته" على إرســالهم إلى الهــزيمة. أكّد أنّ الحرب ضدّ "الصليبــيين" ستستمرّ "على جبهات جديدة". بعدها، رافقهم في الصلاة ومضى.

هــرب على ظهر حصان باتجاه الشمال مع مجموعة صغيرة من الرجال. وفقاً لتقاريــر داخلية للسي آي إي، سلكت المجموعة طريقاً باتجاه الشمال، نحو مقاطعة نانغرهار - مروراً بمعبر خايبر ومدينة جلال أباد - وصولاً إلى مقاطعة كونار.

في ذلك اليوم، والذي تلاه، توجّه معظم جنود القاعدة المتبقين والبالغ عددهم حوالى 800 جنديّ نحو جنوب باكستان.

مــع اقتــراب عيد الميلاد، استمرّت الأخبار السيئة بالتدفّق. فمن المحتمل أن يكــون الظواهري على قيد الحياة، على الرغم من لقاء زوجته وأولاده حتفهم في قصف الأول من كانون الأول/ديسمبر.

وكان تينيت مرسال الأخبار السيئة، فقال: "سنتابع البحث، سيدي الرئيس. أستطيع أن أؤكّد أننا سنتابع البحث".

"أكــره القيام بذلك"، قال بوش متناولاً ممحاة من مكتبه، ومزيلاً علامة "X" التي كانت تغطّي وجه الظواهري. مجدداً، كان يقف وجهاً لوجه مع الطبيب، فيما نظر إليهما أسامة بن لادن من المربّع المجاور بابتسامته الماكرة.

بعــد مرور ثلاثة أشهر على وقوع اعتداءات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، قُــتل 250 جــنديّاً من أعضاء القاعدة أو اعتقلوا، فيما فرّ 800 جنديّ تقريباً أو تــشتّتوا، بمن فيهم معظم أعضاء الإدارة العليا في القاعدة، والمُلاّ محمد عمر، قائد نظام طالبان الأعور.

بحلول منتصف شهر كانون الثاني/يناير 2002، نُقل بضع المئات من المعتقلين المحــسوبين مهمّــين للغاية إلى مخيّم إكس راي، السجن البديل والمؤقّت في خليج غوانــتانامو في كوبا. ستكون القوات الأميركيّة مسؤولة عن التعاطي مع المعتقلين الأفغــان العــامّين. فيما ستتولّى السي آي إي معاملة المعتقلين القيّمين الذين قد يقدّمون أثمن "غلّة" خلال الاستجواب.

في هــذه المــرحلة، كان الليبــي، من دون شكّ، المعتقل الثمين الوحيد. ونشبت مشاكل بين الأف بي آي والسي آي إي حول من سيستجوبه. أرسلت الأف بي آي عمــلاء إلى أفغانستان استجوبوا أعضاء القاعدة المتهمين بقصف مركــز التجارة العالمية عام 1993، مشتبهين بهم كانوا مستعدّين لتلقّي معاملة وحشيّة من آسرين كفار، لقاء الحصول على معلومات. تبيّن أنها وسيلة ناجحة: فــتمّ عقد علاقات مثمرة. وزعمت السي آي إي، التي كانت تخضع لضغوط البــيت الأبــيض للحصول على معلومات فوريّة وفعالة - أنّ الوقت لا يسمح بتطبيق هذه المقاربة المدروسة. وتصاعدت حدّة النقاش إلى أن وصلت إلى مولير وتينــيت، وتينيت لجأ إلى بوش وتشيني، ونجح. وضع الليبــي على متن طائرة مــتوجّهة إلى القاهــرة، مكــبّلاً ومعصوب العينين، حيث سيتمّ تسليمه لعمر ســليمان، رئــيس الاستخبارات المصرية وصديق تينيت. وعلى مَهْبط الطائرة المرصــوف بأفغانــستان، يطلــع عميل أف بي آي مجلّة نيوزويك، بعد مرور

سنوات، "أنّ ضابطاً في السي آي إي دنا منه وقال له، 'أنت تعرف أنك ذاهب إلى القاهرة. قبل أن تصل وجهتك، سأجد أمّك وس..'. وهكذا، خسرنا تلك المعركة". وكان الانتصار يعني للسي آي إي أن المصريّين - بفضل تمكّنهم من اللغة وعمق معرفتهم بالقاعدة وبميولها العنيفة - سيملأون الفراغ الذي خلّفته سياسة الاستجواب الأميركيّة التي ما زالت في مرحلة التطوير. وهكذا، ستشرف السي آي إي على عمليّة الاستجواب، وستعطي الأسئلة وتحصل على تقارير مستمرّة عن المعلومات المباح بها والتقدّم المحرز.

التقى بن بونك موسى كوسى في لندن في كانون الثاني/يناير، برعاية الأمير بندر مجدّداً، في منزله المطلّ على ريجنت بارك. حمل بونك معه صورة لليبي.

قال كوسى: "هذا هو. اعتقلتم الرجل الصحيح".

في هذه المرحلة، كانت المعلومات الاستخبارية الأميركية عن القاعدة وطبيعة التنظيم ونشاطاته لم تزل في مراحلها الأولى. في معركة حمل فيها كلّ مشتبه به عدّة أسماء، وانتقل بسهولة بين دول ذات حدود منفلتة، كان من المستحيل التأكد من هويّة المشتبه به. فلم نكن نعرف من أو أين كان.

بقي كلّ ذلك مخفياً عن الرأي العام الأميركي، الذي ركّز على ما تمكّن من رؤيته، أو ما استطاع قياسه. لم يكن عدد القتلى الأميركيّين مرتفعاً. وفي حين تم الإعراب عن الأسف الشديد تجاه عدم إصدار دونالد رامسفيلد والجنرال تومي فرانكس أوامر للجيش الأميركيّ بقطع طرق فرار مختلفة من تورا بورا، كان الرأي العام مأخوذاً بصور، الصور القوية، للطائرات الأميركيّة المزينة بالخطوط والنجوم تحلّق في سماء كابول وكندهار، ما منحهم شعوراً عميقاً بالتوق. من الصعب تذكّر آخر مرّة رام الأميركيّون تحقيق النصر.

ولكن، بالنسبة للعديد في الأوساط الاستخبارية والعسكريّة، كانت نهاية البداية. وكان الزواج القسريّ بين السي آي إي ووزارة الدفاع- السي آي إي جنباً إلى جنب مع القوات الخاصة، الاستخبارات بالتعاون مع القوة العسكريّة - قد شارف على النهاية، وعاد كلّ إلى مقرّه.

أخبر رامسفيلد مجموعة من كبار المساعدين في البنتاغون أنه "لا يريد أبداً أن يصل الجيش إلى موقع ويلتقي بالسي آي إي". وخلال اجتماع بكبار الجنرالات في "الدبابة"، قاعة المؤتمرات الآمنة للقيادة المشتركة، أظهر حزماً أكبر: "إن كلّ نجاح تحققه السي آي إي يعتبر فشلاً لوزارة الدفاع".

"الحرب ضدّ الإرهاب؟" مجدداً، تعريف تقريبيّ. إنها لم تكن حرباً في أفغانستان، أقلّه ليس لفترة طويلة. سنكون قد طردنا القاعدة من معقلها، وهي نتيجة جيدة، ولكنها لم تكن سوى المقدّمة.

"نعلم أنّهم سيتفرّقون في باكستان، إيران، الصومال، سوريا أو حتى اليمن. قد يذهبون إلى إندونيسيا. عندها، لم يكن أمامنا خيار، كخطوة أولى، إلاّ عزل وجهتهم المحتملة"، أكّد ماكلولين، نائب المدير. "في لحظة تشتتهم، تبدأ "الحرب ضدّ الإرهاب" الحقيقيّة بالطريقة التي نعرفها. الحرب التي كنّا نتعلّم أن نخوضها – التي ما زلنا نخوضها".

كان جورج دبليو بوش مستعداً لخوض معركة من نوع آخر.

ففي التاسع والعشرين من كانون الثاني/يناير، اعتلى الرئيس المنصة أمام الكونغرس الأميركيّ، أمام الأمة، أمام العالم، مجسّداً أقوى رجل شهده العصر الحديث.

اعتلى عرش أميركا الإمبرياليّة – أقلّ ما يُقال عنها أنها القوة الوحيدة التي تقارب الإمبراطوريّة – بتأييد يناهز 90% بحسب الاستطلاعات المختلفة.

الآن، وُضعت المهمّة الأفغانيّة في نصابها الصحيح، وهمّشت بالكامل المغامرة التي خاضها منافس أميركا، أي الاتحاد السوفييتي السابق. فقد أنفق الاتحاد السوفييتي ثرواته المحدودة وتكبّد خسائر بالأرواح وصلت إلى 15 ألف، في محاربة المجاهدين المدعومين من السي آي إي، قبل الانسحاب إلى الشمال مطأطئين الرأس. لم تقع أميركا في الفخ عينه، ولم تتبع التقليد السائد بإرسال دباباتها وعشرات الآلاف من محاربيها الشباب إلى الجبال الصخرية الغدّارة. بل خاضت حرباً ذكيّة، ربّما ذكية كثيراً. حقّقت هدفيْن بتكاليف ضئيلة. أجبرت القاعدة على الخروج من معقلها. وانهار النظام الذي كان يظلّلها، وهرب قادته باتجاه الهضاب للانضمام إلى "العصابة" الجيوسياسية الدُنيا.

أخبر كارل روف - صديق الرئيس الموثوق وعقله الباطني الاستراتيجي - المعنيّين بالشؤون السياسيّة خلال اجتماع للّجنة الوطنية الجمهورية في أوستين في منتصف كانون الثاني/يناير أنّ التأييد الشعبيّ التاريخيّ لتعاطي بوش مع "الحرب ضدّ الإرهاب" سيتحوّل إلى مكاسب تاريخيّة في انتخابات 2002 التحضيريّة. فقال روف: "نستطيع أن نتوجّه إلى الأمّة بهذه المسألة، لأنّ [الناخبين] وضعوا ثقتهم بقدرة الحزب الجمهوريّ على الاضطلاع بحماية الجيش الأميركيّ وتعزيز قدرته، وبالتالي، حماية أميركا".

ولكن السؤال المهم - الذي يفوق كلّ استطلاع أهمّيّة - هو التالي: ما مدى معرفة الرئيس بما يحصل؟ وعلى وجه التحديد، إلى أي مدى كانت هذه المعرفة كافية لتُبنى عليها مختلف القرارات التاريخيّة؟

بحسب تقييمات السي آي إي السريّة، عرف بوش أن تحقيق العديد من الأهداف المهمّة سيكون تحدياً بارزاً. فقد فرّ بن لادن من منطقة تبعد عن تورا بورا 15 ميلاً مربعاً، إلى المنطقة القبليّة غير الخاضعة لسيطرة القانون على الحدود الأفغانية - الباكستانية الممتدة على رقعة 40 ألف ميلاً مربعاً، ما يساوي حجم كنتاكي. أمّا قادة القاعدة الآخرون فقد تفرّقوا في أماكن عدّة، في بلدان لا تغلغل أميركيّ كبير فيها، مثل إيران أو سوريا، واليمن أو السودان بحسب ما أخبر تينيت بوش. على الرسم التصويري الذي أمسك به الرئيس كل صباح، كان هناك العديد من الوجوه التي لم يتمكّن الأميركيّون منها بعد.

ولكن، علم بوش يقيناً أنّ الرأي العام الأميركيّ لم يكن واسع الاطّلاع على هذا الموضوع. وتمحور الأمر على الخطر الذي شكّله لقاء محتمل بين العلماء النوويين الباكستانيين - وتنظيمهم - وأسامة بن لادن. كما تمحور على الخطر الذي شكّله احتمال حصول القاعدة على منشآت مصانع الأسلحة البيولوجيّة. أحسّ بوش وتشيني بهذه المخاطر، كما شعروا بغياب أي حلّ واضح.

في غضون ذلك، انطلق هجوم صامت ومستقرّ من داخل الإدارة. فقد قرّرت الإدارة المدنية للمحافظين الجدد في البنتاغون أن الوقت قد حان لهذا الهجوم، فيما حاولت السي آي إي والقوات الخاصة الأميركيّة تأكيد عبر "التغيير العسكري"-

العِــبر التي تؤكّد على مدى فعاليّة قوّة "ذكيّة" ومحدّدة الأهداف، اختبار لطالما أراد دونالد رامسفيلد إجراءه بنفسه.

كانت أفغانستان مجرّد مقدّمة في نظر كبار المسؤولين في البنتاغون. فقد خضعت خطّة اجتياح العراق، التي تمّ وضعها رسمياً في تشرين الثاني/نوفمبر، لعدّة تعديلات.

لم تعقد جلسات تشاور. بل سيطرت نظريّة تشيني. لا يتعلّق الأمر بالتحليل، بـــل بالإجـــراءات الـــتي نأخذها. لم يعد برانت سكوكروفت مرحباً به في البيت الأبـــيض. وكـــان يتمّ تهميش كولن باول الذي ينتمي إلى مدرسة الواقيين التابعة لـــسكوكروفت. ولم تـــتمّ استشارة جورج إتش دبليو بوش، الرجل الوحيد على الأرض الخبير في نوعية المعلومات التي يجب أن يتمتّع بها رئيس بشأن إرسال الجنود الأميركيّين إلى العراق.

ولكـــن كـــلّ ذلـــك بغير أهميّة. فلم تكن العبر التي استخلصها الرئيس منذ الاعـــتداءات مـــن العبر التي يمكن تلقينها. نعم، لقد مرّ جميع الأميركيّين بصدمة الحـــادي عشر من أيلول/سبتمبر - ولكن، في خضمّ هذه الأحداث، لم يختبر أي رجل ما اختبره الرئيس، القائد، الحامي. لم يكن باستطاعة أحد أن يشعر حقاً بمعنى ذلـــك - مـــا منح بوش ميزة عاطفيّة خاصة. لا أحد، ربّما باستثناء تشيني. واجه الرجلان مشاكل في الأشهر التسعة الأولى. في الوقت الذي كان فيه تشيني ماهراً، كان بوش ما زال يتعلّم. في ربيع 2002، طلب بوش من تشيني أن يبقى في الظلّ في الاجـــتماعات المهمّة، لإعطاء الرئيس قدرة أكبر على الحركة، على السيطرة على زمـــام الأمور. طلب بوش من تشيني ألاّ يعطيه نصائح في اجتماعات مكتظّة، بل على حِدة. ونفّذ تشيني الطلب.

الآن، بـــدت الأمور أسهل. عملا بفاعلية أكبر من ذي قبل، كما اليد اليمنى واليـــسرى، بـــتعاون وثيق. فيما ركّز الرئيس على الناحية التكتيكيّة، على الأمور الشخـــصية وفـــيما حـــاول دائماً إيجاد وسيلة للتحرّك، ركّز تشيني على الناحية الجيوسيساسيّة، على الشؤون العالميّة.

وبـــدأت كـــلّ هذه النظريّات بإعادة تحديد مسار الطاقات الأميركيّة - التي ســـيطرت الآن على الموقف وأوجدت مساراً ثانياً، فكرة جريئة مقابلة لتعليمات

"إيجادهم والقبض عليهم" الخاصة "بالحرب ضدّ الإرهاب": إخضاع الدول المارقة ونـــزع سلاحها.

وشـــعر تـــشيني أن الرئيس بحاجة إلى إثبات موقفه باسم النظام العالميّ القديم الذي ما زال مسيطراً. وكان من الممكن تطبيق الحقائق القديمة على هذه الأراضي التي تغيّرت معالمها. الدول مهمّة. وأجمع الجميع على عدم قدرة المنظّمات الإرهابيّة علـــى الاستمرار لفترات زمنيّة طويلة لتنفيذ عمليات كبيرة إذا لم تحصل على دعم الدولـــة. وكان الجواب يكمن في ميزان القوة والدبلوماسية بين الدول، التي قامت علـــيها قوة أميركا المستمرّة منذ قرن وبقيت. وحقّقت قوات "الكفّ والمنع" التي صـــوّبتها أميركـــا باتجاه نظام طالبان في أفغانستان مآربها أمام عيون الجميع. إذا "رعت" دولة ما إرهابيّين، بات باستطاعتها توقّع النتائج وتغيير موقفها بناءً عليها.

ولكن يجب لا أن يتوقف الأمر عند هذا الحدّ. بل كان من الضروريّ تفعيل "ردع الأمـــم" عن التصرّف بطريقة غير ملائمة، ودعمه وتنسيقه – على حدّ تعبير رامسفيلد. هذه كانت السياسة الأميركيّة الآن.

بعـــد جلـــوس أعضاء الكونغرس إثر الترحيب بالرئيس بتصفيق حار، تحدّث جـــورج دبليو بوش عن هذه السياسة، وأطلعهم على المسائل التي تستدعي التركيز عليها:

"لا يخفـــي العـــراق عداءه لأميركا ويستمرّ بدعم الإرهاب. فشارك النظام العراقـــيّ بخطط تطوير الجمرة الخبيثة، وغازات الأعصاب والأسلحة النوويّة لأكثر مـــن عقـــد. إنه نظام سبق له أن استخدم الغاز السام لقتل الآلف من السكّان – تاركاً جثث الأمهات فوق أجساد أطفالهنّ. إنه نظام وافق على التفتيش الدولي – ثم طرد المفتشين. إنه نظام يخفي شيئاً عن سكّان العالم".

وتابـــع: "تشكّل دول كهذه وحلفاؤها الإرهابيون محور شرّ، وتتسلّح بهدف تهديـــد الـــسلام العالميّ. من خلال السعي للحصول على أسلحة الدمار الشامل، تـــشكّل هـــذه الـــدول خطراً كبيراً ومتنامياً. باستطاعتها تزويد الإرهابيّين بهذه الأســـلحة، وبذلك تعطيهم وسيلة لتنفيذ كرهها. يمكنها الاعتداء على حلفائنا أو ابتزاز الولايات المتحدة. في أي من هذه الحالات، سيكون ثمن تجاهلها كارثياً".

وفــيما تحــدّث الرئيس، صفّق له بعض المسؤولين الكبار في البيت الأبيض والسي آي إي والأف بي آي ووزارة العدل - وأولئك الذين يملكون تصاريح أمنية عالية المستوى، وهم يعرفون يقيناً الأسباب وراء هذا الخطاب. إنها لم تكن أحداث الحــادي عــشر من أيلول/سبتمبر فقط، ولا المخيم في كندهار، وليست مختبرات الأســلحة البيولوجــية في أفغانستان. بل كانت التحرّر أخيراً من التحاليل البطيئة القائمــة على البراهين. بالطبع، كان هناك احتمال بنسبة واحد بالمئة أن تملك هذه الأنظمــة أســلحة دمار شامل وتعطيها للإرهابيّين. بالتالي، يجب أن نتعاطى مع الموضوع على أنّه أكيد.

"ســنجري مــشاورات، لكــن الوقت ليس إلى جانبنا... لن أقف مكتوف الأيدي، فيما الخطر يدنو أكثر فأكثر. لن تسمح الولايات المتحدة الأميركيّة لأخطر الأنظمة في العالم بتهديدها بأكثر الأسلحة تدميراً في العالم".

بعــدها، انحرف الرئيس قليلاً، مقدّما شيئاً يتخطّى الملفّ الذي رسمه تشيني، شــيئاً شخــصياً أكثــر من الإيديولوجيات الشاملة. في عالم خالٍ من البراهين، سيستقي الرئيس تأكيده من بئر الإيمان العميق. هذا ما يعكس حقيقة الرئيس:

"غيّــرت هذه الأوقات الصعبة الكثير في الأشخاص الذين اختبروها. توصّلنا إلى الكشف عن حقائق لن نشكّك فيها أبداً: الشرّ موجود، ومواجهته ضروريّة".

صفق له مستمعيه.

"على الرغم من اختلاف عقيدتنا أو عرقنا، نحن بلد متّحد، نبكي معاً ونواجه الخطــر معاً. والكرامة متأصّلة في قلب الطابع الأميركيّ، وهي أقوى من السخرية. وفي أوقات الكارثة - خاصة في الكوارث- اكتشف العديد أن الله قريب".

صــدر الــرد الأكثر تبصراً على هذا الخطاب من رجل معلوماته كاملة عن البيت الأبيض: الكاتب العمودي المحافظ تشارلز كراوثامر.

فكــتب في واشنطن بوست، بعد بضعة أيام: "إذا كان هناك من نقاش جديّ في الإدارة حيال مسألة العراق، قد انتهى هذا النقاش. لم يكن الخطاب سوى إعلان حرب".

الفصل الثالث

للضرورة أحكام

"حضرة السادة الكرام، نحن في حالة حرب".

بفضل طابعه الدرامي، عرف تينيت متى يتوقف عن الكلام، لكي تأخذ الكلمة حجمها. وفيما كان يحضّر الرئيس ونائبه والبنتاغون خطوات المرحلة المقبلة - أي اجتياح العراق واحتلاله - كان تينيت منهمكاً في مكافحة الإرهاب، والتوصل إلى الأهداف التي حدّدها منذ البداية: إيجادهم واعتقالهم.

كان المخطّط واضحاً. ستكون السي آي إي في خط الهجوم، والأف بي آي في خط الدفاع. تحدّد وزارة العدل الشروط التي أعدّ بعضها ليُخرق. قد يضطرّ إلى القيام بأشياء من الأفضل ألاّ تتصدّر الصحف. وأمل في حال صدورها أن يتمتّع بالرد المناسب.

تابع تينيت قائلاً: "هذا تحدٍّ فريد من نوعه. هذا تحدٍّ يعيد هيكلة طريقة عملنا، وتفكيرنا وتصرّفنا".

"هذا تحدٍّ خلّف جرحاً عميقاً في نفس أمتنا". ثم توقف.

"هذه ليست ظاهرة عابرة. هذا تحدٍّ سيعيش أكثر من أي شخص في هذه الغرفة".

كان كلّ شخص في تلك الغرفة رئيس قسم استخبارات - مجموعة كبيرة منهم، 20 تقريباً - يمثّلون عالم "الناطقين باللغة الإنكليزية".

لطالما وفّرت هذه الإشارة إلى النسب، التي أطلقها وينستون تشرشل في خطاباته الهادفة إلى تعزيز التحالف مع أميركا على مشارف الحرب العالمية الثانية، إطاراً للتعاون لمجموعة بلدان متقاربين في المِزاج والتفكير: الولايات المتحدة الأميركيّة، كندا، المملكة المتحدة، أستراليا ونيو زيلندا.

يجتمع رؤساء استخبارات هذه الدول على نحو متقطّع وغير رسميّ منذ بضعة عقــود. وكانت مديريّة الاستخبارات المركزية تشارك من حين إلى آخر. تغيّر هذا الوضع مع وصول تينيت إلى المنصب عام 1997، خلفاً لجون دوتش الذي لم يكن يحـــب هـــذه الاجتماعات. تمّ تحديد تداول محدد. حضر الجميع الاجتماعات التي ترأسها طليعة مجتمع الاستخبارات الأميركيّ.

هـــذه الـــسنة، كان دور نيو زيلندا لرعاية الاجتماع، وحطّت الطائرات – الواحدة تلو الأخرى في مطار كوينـــزتاون يوم الأحد 10 أذار/مارس.

بالطـــبع، اختلف كلّ شيء في هذا الاجتماع. إن الهدف القديم القائم على التعاون والتنسيق – والكامن في تشاطر الإشارات الاستخبارية المنسّق بين المجموعة وارتفاع تقاسم الاستخبارات البشرية – سيكتسي طابع المهمّة الإلهيّة. كان التعاون الآن رديف البقاء.

وهكذا، في صباح يوم الإثنين، اجتمع الفريق الذي من شأنه خوض "الحرب ضـــدّ الإرهاب" العالميّة في أبعد أصقاع الأرض: بيت من حجر غير جليّ في نهاية منتجع على جزيرة تأهلها الخراف أكثر من البشر.

"يجـــب أن نعمـــل كشخص واحد"، قال تينيت في نهاية كلمته الافتتاحيّة. "أســـتطيع أن أقول لكم التالي عن السي آي إي. لن نألو جهداً، لن نوفّر محاولة، وســـنتعاون مع كلّ دولة لتحقيق أهدافنا – لإيقاف عدوّنا. أصدقائي، لقد رفعنا جميع الأغلال".

ثم بـــدأت المناقـــشات. قاد تينيت وبافيت والقائد مايك هايدن المناقشات، وأعطـــوا المعلـــومات الحديـــثة المتوفّرة، على الرغم من اطّلاع الجميع على معظم الأخبار الجيّدة، أسبوعاً بعد أسبوع، عبر قنوات اتصال عابرة للحدود – اتصالات هاتفية، كابل، ورزم آمنة.

والآن، كـــان الجمـــيع في قاعة واحدة يناقش المعلومات، ويستمع إلى التقدّم المنجـــز ويخطّـــط للمستقبل القريب. أخبرهم تينيت أنّهم شعروا بأنّهم على قاب قوسين من الحصول على جائزة، مدير حاليّ في تنظيم القاعدة، أبو زبيدة. كان هذا البـــند الأوّل. نعم، كانوا قد اعتقلوا بعض الضبّاط من الدرجات المتوسطة، على

غـــرار ابن الشيخ الليبـــي الذي كان قد رأس مخيّم تدريب القاعدة في خالدن في أفغانـــستان. وتمّ اعـــتقال ضـــابطين آخرين، أبو فيصل وعبد العزيز، في كانون الأول/ديسمبر، كلاهما لاعبٌ متوسّطٌ في القاعدة.

ولكن، قبل أسبوعين فقط، في أواخر شهر شباط/فبراير، أخبرهم تينيت أنهم حقّقـــوا اختراقاً. أوقف رجال الميليشيا سيارة باجرو عند نقطة تفتيش في شابري، قرب الحدود الأفغانيّة. في المدينة مدخل إلى الحدود القبليّة الباكستانيّة. أقلّ الجيب ثلاث نساء طويلات القامة، يرتدين البوركا، وأربعة رجال. تمّ اعتقال المجموعة التي أُرســـلت إلى كوهات للتحقيق. لم يكن الرجال مستعدّين للإدلاء بأية معلومات، ولكن تمّت رشوة السائق الباكستانيّ. كان الركاب متوجهين إلى فيصل أباد، مدينة المطـــاحن الرئيسيّة في باكستان. أفصح السائق عن اسم المعنيّ في فيصل أباد، الذي ما لبث أن أُلقي القبض عليه وأكّد أن زبيدة في المدينة.

قـــال بافـــيت أن عمـــلاء الـــسي آي إي، بالتعاون مع فرق الاستخبارات الباكستانيّة، مشّطت فيصل أباد، وقلّصت البحث إلى عشرة منازل تقريباً.

عـــرف كلّ شخص في الغرفة من هو زبيدة، الفلسطينيّ المولود في السعوديّة والـــبالغ مـــن العمر 30 سنة. فقد تحدّثت عنه الإشارات الاستخبارية التي ترد منذ ســـنتين. نطق اسمه جميع العملاء على كافة المستويات، جميع الموظّفين الجدد، جميع جنود المشاة، وجميع مقلّديه في آسيا الجنوبيّة والشرق الأوسط. لم تكن أفعاله دائماً واضحة، أو حتى مكانته في التنظيم. بدا فقط أنه صلة الوصل بين الأشخاص.

حدّدت الإرادة الصلبة والتقدّم التكنولوجيّ أواصر الإشارات الاستخبارية بين الحلفـــاء الناطقين باللغة الإنكليزيّة طوال الخمسين سنة الماضية، وحوّلتها إلى نسيج متماسك. ومع تقدّم الثورة التكنولوجيّة، تطوّر النظام، الذي يُدعى إشلون، والذي وضـــع إبان الحرب العالميّة الثانية لكشف الاتصالات السلكية. يدير النظام أساساً وكالة الأمن القومي من فورت مياد، التي تضمّ 38 ألف موظّف في العالم، ومقرّات الاتصالات الحكوميّة البريطانية، الواقعة بالقرب من تشيلتينهام في إنكلترا. ويسجّل النظام ثلاثة مليارات اتصال سلكيٍّ، بالساتل، والهاتف والفاكس والبريد الإلكترونيّ يومـــيّاً. تفـــرز تحاليل الكمبيوتر الأوتوماتيكية الاتصالات. ليس إلاّ نظاماً واحداً

محصّناً بجدار نار - يتشارك الأقمار الصناعيّة وقنوات الألياف البصريّة ومراكز التنصت والأجهزة الموضوعة في محطات تحويل الهواتف التي لها جدران حائلة للحريق بداخلها.

وعلى الرغم من تسارع التطوّر التكنولوجيّ، بقي الإطار القانونيّ في كلّ دولة، ضمن عائلة ديمقراطيّات متشابهة، قاسياً فيما يتعلّق بحقوق الخصوصيّة. أساساً، يعني ذلك أنّ القانون يمنع على أية حكومة من الحكومات التنصّت على السكّان من دون سبب أو مذكّرة مسبقة - مثل المذكّرات التي تطلبها الولايات المتحدة من محكمة FISA. ولكن، يواجه نظام إشلون مشكلة مزمنة تكمن في أنه يقتضي أساساً بإعطاء الدول الأعضاء وسيلة للتنصت على الأجانب، وفي أنّ الجدران الحائلة للحريق في النظام - والتي تمنع التنصت المحليّ - هي نوع من نظام شرف مترجم في رموز كمبيوتر. يُدقّق في حوالى ثلاثة مليارات اتصال يُجمع سنوياً، ثم توزّع وتُخزّن وفق هذه الرموز المعقّدة. حتى مهندسو الكمبيوتر الرياديون يعانون من مشاكل في فكّ هذه الرموز.

خلال هذا الاجتماع، وضع تينيت هذه القيود بين "الأغلال" التي سيتم حلّها على الأقلّ، أو التي سيلغيها استعمالها. وأكّد أن هذه الحقبة الجديدة تتطلّب شراكات خلاّقة. فقد لا تتمكّن دولة ما من التنصّت على خطوط سكّانها من دون تفويض قانونيّ. ولكن، لا شيء يمنعها من التنصت على مواطن من دولة أخرى، وتقديم تقارير شاملة إلى حكومة هذا المواطن الأجنبيّ. وطالما أن التقارير لا تعطي التفاصيل الحرفيّة - أي الإشارات الاستخبارية الدقيقة، لن يتمّ المساس بجوهر العديد من قوانين الخصوصيّة.

فلتذهب روحيّة القانون إلى الجحيم. إذا كانت الحاجة أمّ الاختراع، كان المجتمعون أبناء وبنات الحاجة. وعلى حدّ تعبير رئيس استخبارات أجنبيّ، "عنى ذلك أنه سيتمّ الالتفاف على قوانين الخصوصيّة المطبّقة في الأنظمة الديمقراطيّة الرياديّة. والفكرة هي التالية: نحن في حالة حرب، وهذا ما تستوجبه الحرب".

خلال الاجتماع، لاحظ الجميع أنّ الاستخبارات أساسيّة في هذه الحرب، بأهميّة الرصاص في مسدّس أو طائرة تقصف. من زاويته، راقب رئيس الأف بي آي

بـــوب مويلر المجتمعين بصمت، مدوناً ملاحظات، محاولاً عدم التفكير بالحياة التي عاشـــها، مثل محام يحاول بناء قضية – فيما اتسعت دائرة المناقشات. كان قد فهم أنّ الأف بي آي ستجد طريقة لبناء "جسر" بين الاستخبارات وتطبيق القانون.

قـــدّم مويلر تنازلاً مقتضباً للمجموعة، مؤكّداً أنه "يركز على تطبيق القانون وليس على الاستخبارات". وأضاف: "أنا مجرّد مراقب في هذا الاجتماع". كان قد أفـــسح بالمجـــال أمام تينيت ليتطرّق إلى مسألة الاستجوابات. والآن، سينظر إلى الناحية الأخرى من استخدام، أو إساءة استخدام، إشارات الاستخبارات. واقتصر عمله في "الحرب ضدّ الإرهاب" على عدم القيام ببعض الأمور.

قُدّم طعام الغذاء. وارتدى المجتمعون السراويل الفضفاضة والقمصان، رفاق في الـــسلاح. عـــادة ما يكون عدد أجهزة الاستخبارات قليلاً في أية دولة ديمقراطية، وأدوارها متناقضة. وتشكّل الأسرار والمراقبة جزءاً لا يتجزأ من العديد من الحرّيات العزيزة على القلب، على غرار الخصوصيّة والمعارضة ومحاسبة الحكومة. على مائدة الغـــذاء، نـــاقش العديـــد من المشاركين في الاجتماع غرابة التعاون مع دول مثل باكستان التي أرست نظاماً سلطوياً وشرطة سريّة كبيرة الحجم والصلاحيّات. ومع ذلـــك، أخـــبر رئـــيس قسم استخبارات أجنبي ندّه الأميركيّ أنّ ذلك "قد يكون لمصلحتنا".

بعـــد تناول طعام الغذاء، استأنف تينيت حديثه. "سيتوجّب علينا العمل مع الآخـــرين كمـــا لم نعمـــل من قبل". وتابع: "مصر، سوريا، روسيا... الصين، باكستان، المملكة العربية السعودية والهند".

وافقـــت كـــلّ دولـــة. كانت بريطانيا على أحسن العلاقات مع باكستان والجزائـــر. وكـــان لأســـتراليا نفوذ في الهند وإندونيسيا. من تمتّع بعلاقات مثمرة وفعّالة؟ كيف يمكن تقاسم كلّ هذه العلاقات؟

"يجـــب المخاطرة"، أكّد تينيت. "تربطنا بهذه الدول اليوم علاقة شراكة، شئنا أم أبينا. سيتوجّب علينا التخلّص من عاداتنا وأفكارنا القديمة".

شـــرح بافيت التفاصيل – والتقدّم الحاصل في بعض الابتكارات منذ الحادي عـــشر مـــن أيلول/سبتمبر. صُرف العشرات من الملايين، مع توقّع صرف مئات

الملايين أكثر، لإرساء مراكز استخبارات مكافحة الإرهاب في أكثر من عشرة دول لم تكـن "صديقة" الولايات المتحدة. كانت مغامرة هشّة، ومع مرور الأيام، بُنيت ثقـة مزعزعة بين ضباط الاستخبارات المحليّة، مُنحت بموجبها طوافات، ومعدات تنـصّت وسـترات واقية من الرصاص، شعر بفضلها ضباط الاستخبارات كأنهم أمـراء. وسبق للسي آي إي أن أرسلت خبراء مختصّين لتدريب القوات المحلية في اليمن والمغرب. "سنعمل مع وكالات استخبارات لا تتردّد أبداً في اللجوء إلى كافة الوسائل لاستنطاق المعتقلين"، أكّد بافيت.

قاطعه أحد رؤساء الاستخبارات الأجنبيّة، طارحاً عليه سؤال: "كيف نعرف مـا يجـب أن نطلـع بعـض هـذه الاستخبارات الأجنبية عليه أو لا؟ وبخاصة الاستخبارات التي لا نثق فيها؟"

"في معظـم الحالات، أطلعوهم على كلّ شيء- لأنهم يعرفون أكثر منكم"، قال تينيت بصوت مرتفع. "فمن دونهم، ومن دون المساعدة التي يوفّرونها، لا نملك ذرّة مـساعدة عالميّة. سنقوم بمهمتنا في العالم العربيّ المنفتح على جميع الاحتمالات بدون حماسة ومعصوبي الأعين. يجب أن نفهم اليوم أننا لا نعلم شيئاً".

في الـسابع عـشر من أذار/مارس، تسلّل فريق من السي آي إي، يعاونه بعـض عملاء الأف بي آي، إلى فيصل أباد: مدينة تضمّ أكثر من خمسة ملايين نـسمة وتـبلغ مساحتها ضعفيّ مساحة شيكاغو. ولكن، يعتبرها العديد من الأميركـيّين مدينة كبيرة غير خاضعة لنظام، شوارعها متشابهة - تضمّ مسجداً ومدرسـة ملاصـقة؛ صفّ من المحلاّت ومكبّ نفايات قريب؛ مجموعة منازل إسمنتـيّة بالقـرب من أحياء فقيرة مغطّاة بخيام ومجارير مفتوحة. مشهد يتكرّر آلاف المـرّات في سـهول باكـستان الوسطى المكسوّة بالغبار. وبالكاد يصل الـدخل اليومـيّ إلى ستّ دولارات. أما الديانة المعتنقة فهي الإسلام التقليديّ المتعصّب.

يرسـم الأهل، كما كل الأهل، أحلاماً كبيرة لأولادهم وخططاً لتوفير حياة أفـضل لهم؛ أولادهم مصدر عزّهم وفرحهم - مغطّون بغبار الطين - يلعبون كرة القدم، أو يجمعون الأدوات للّعب، ويضحكون، كما كلّ الأولاد، أكثر مما يجب.

فوق هذه المجموعة من الناس، كانت تحوم شبكة إلكترونيّة خفيّة. كانت موجودة في شمال غرب المدينة. وكانت آلاف الاتصالات الهاتفية اليوميّة من بعض الأحياء المعيّنة تراقب. وكانت وسائل المراقبة اليوم مختلفة كما يختلف كتيّب إرشادات هاتف نوكيا. فتوفّرت أجهزة الإحساس التي تلتقط كلّ الإشارات، المرتبطة بخطوط الاتصالات وأنظمة تحويل الهواتف، التي تحوّل أرقام الصفر والواحد في الاتصالات الرقميّة إلى مجموعة عبارات محدّدة؛ إلى ذلك، تصدر محطات كابل والهواتف الخلويّة أنظمة حسابية باستمرار، تقسم، الأراضي إلى مثلثات، من الكابل إلى الأرض، باستخدام نقاط اتصال تظهر مكان المتصل. إلى ذلك، يتمركز عملاء أمام هذا المنزل أو ذاك، يحملون مسدّسات رادار، مثل المكانس الإلكترونيّة التي تمتصّ كلّ انبعاث مما قد يكون منزلاً "آمناً"، ولم يعد كذلك. يمرّ هذا الضجيج إلى مترجمين في باكستان، وفي بعض الحالات إلى الولايات المتحدة، وإلى محلّلين تقضي مهمّتهم بالكشف عن اتصال مهمّ عند سماعه.

حقّقوا اكتشافاً مهماً في أواخر الشهر تقريباً. اتصالان برقمين غريبين في أفغانستان. رقمان قد يتعلّقان أو لا ببن لادن، أو بأيمن الظواهري إذا كان حياً يُرزق، صدرا من منزل في فيصل أباد.

في السابع والعشرين من أذار/مارس، دخلت مجموعة من عملاء السي آي إي والأف بي آي وجهاز الاستخبارات الباكستانيّ، مرتدين السترات الواقية من الرصاص، إلى مكتب رئيس شرطة فيصل أباد. كانوا بحاجة إلى بعض ضباطه لإجراء بعض الاعتقالات الروتينيّة لانتهاك قانون الهجرة. وفي هذه الحالة، من الصعب الحفاظ على السريّة العمليّة. فينتشر المتعاطفون مع القاعدة ونظام طالبان في جهاز الاستخبارات الباكستاني والجيش. في هذه العمليّة، أُطلعت قلّة قليلة من الأشخاص على التفاصيل، بمن فيهم الرئيس مشرّف. وعلم رئيس الشرطة أن واحداً من "المقيمين غير الشرعيّين" الذين سيتمّ إلقاء القبض عليهم حظي باهتمام خاص. ثم وزّع العملاء صور رجل بهيّ الطلّة، أسود الشعر، توّاق يرتدي نظارات بإطار حديديّ. كان هو أبو زبيدة.

في الـــساعات القلـــيلة بعد حلول منتصف الليل، التقت فرق الاستخبارات بالمـــئات مـــن رجال الشرطة، فرقة صغيرة طوّقت كوخ شاباز، وهو فيلاّ إسمنتيّة مؤلّفة من ثلاث طبقات تقع في ضاحية فيصل أباد. اقتنع العملاء، بفضل التنصّت ورســـائل الـــبريد الإلكترونيّ التي تمّ كشفها أنّ أبو زبيدة قد يحتمي، برفقة عشرة آخـــرين، في هذه القلعة - منـــزل أرملة عجوز - التي يحيط بها حائط بعلوّ ثمانية أقدام، تعلوه أسلاك شائكة مكهربة. في الخارج، وراء منـــزل قريب، ناقش عملاء الـــسي آي إي الاستراتيجية مع رئيس الشرطة المحليّة: إذا كان الهدف إلقاء القبض على زبيدة حياً، هل يجب تطويق المنـــزل وفرض حصار، أو اقتحام المنـــزل؟

عـــند الثالـــثة صباحاً، تم اتخاذ القرار. قطع فريق هجوم باكستانيّ الأسلاك المكهـــربة، وقفـــز فـــوق الجدران وقبض على ثلاثة حرّاس نائمين، وركل الباب الأمامـــيّ ففتحه. حمل زبيدة وثلاثة آخرين جوازات سفر سعوديّة، وأموال نقديّة، وركـــضوا على الدرج. على السطح، مُحاصرين، ركضوا وقفزوا فوق الأسلاك الشائكة وهبطوا من علوّ 25 قدماً (7.5 متر) على سطح فيلاً قريبة. قاوم الهاربون بصعوبة، وصرخ زبيدة قائلاً للضباط المسلمين: "أنتم لستم مسلمين".

"بالطبع نحن مسلمون"، أجاب أحد رجال الشرطة.

"حسناً، إنكم مسلمون أميركيّون!" صدّه زبيدة.

انتهـــى الحـــديث عند هذه الكلمات. فاستلّ أحد نواب زبيدة - السوريّ المدعـــوّ أبو الحسنات - مسدّس AK-47 من أحد الشرطيّين وأطلق النار. أصيب زبـــيدة في رجلـــه ومعدته وأربيته. قُتل الحسنات. وجُرح ثلاثة شرطيّين. في تلك اللـــيلة، اعـــتُقل 25 عضواً محتملاً في القاعدة في الأحياء القريبة، واعتُقل أكثر من نصفهم من داخل كوخ شاباز.

ومـــع بزوغ الفجر، وبوجود زبيدة في مستشفى قريب تحت الحراسة، بدأت السلطات بتوضيب ما اعتبرته أثمن اكتشاف: مجموعة نفيسة من أجهزة الكمبيوتر، والأقـــراص والمفكّـــرات، ودفاتر الهاتف، حوالى عشرة آلاف ورقة. وضعت هذه المجمـــوعة في شاحنة صغيرة، انطلقت مسرعة إلى مطار فيصل أباد، حيث انتظرها طائرة أميركيّة عسكريّة لتنقل الكنـــز إلى واشنطن. وأخيراً، حصل اعتقال مهمّ.

كلّ ما وجب القيام به الآن هو كتابة البيانات الصحافيّة.

"هيا يا سيّداتي، لا نريد أن نتأخّر - فنحن لا نخرج كلّ يوم في رحلة".

ابتسم دان كولمان للنساء فيما مررن بالقرب منه، 12 موظّفة تعمل في إدخال البيانات تستقلّ باص بلوبيرد، وتدندن خارج مقرّ الأف بي آي عند بزوغ فجر يوم من أيام منتصف شهر نيسان/أبريل.

عــشقت النــساء دان. قد يحبّه أي شخص. فهو رجل قويّ وسمين، صوته مــرتفع وعيــناه ثاقبتان، هو من أفضل المراقبين في الأف بي آي. عيناه تلمعان من وقت لآخر، عينان أيرلنديّتان ساخطتان عسليّتا اللون، تشزران الرؤساء في المراتب العليا المتأنقين، الذين بدوا فقط مرتّبين للغاية.

إن دان، الــبالغ مــن العمر 52 سنة، واحد من عشرين موظّفاً حكومياً في كلّ الإدارة الأميركــيّة الذي يعرف القاعدة تمام المعرفة، ومنذ وقت طويل. بالطبع، تضمّ السي آي إي بعضاً من هؤلاء الموظّفين، وللأف بي آي أيضاً حصتها منهم. ولكن دان يتميّــز عن البقيّة. كان عميل الأف بي آي الأوّل في قضية أسامة بن لادن في منتصف التسعينيّات من القرن الماضي، وساعد في تأسيس وحدة أسامة بن لادن. داخل أروقة الأف بي آي، يُعرف كولمان "بالرجل الذي عرّف أسامة بن لادن على أميركا".

عمــل كــولمان على جميع نواحي تفجير مركز التجارة العالمي عام 1993، والملاحقــات القانونــيّة التي تلته. سافر إلى جميع المناطق الساخنة في العالم. استلم قــضايا خلايا المتطرّفين الإسلاميّين في بروكلين ونيوجرسي، والجهاديّين تحت راية شيخ عمر عبد الرحمن، هذا الشيخ الأعمى الذي نافس الظواهري على قيادة حركة الجهــاد الإسلاميّ في مصر. عوضاً عن ذلك، وصل الرحمن إلى أميركا حيث فتح متجــراً في مدينة جرسي وعاث خراباً. شدّ دان ورجال الأف بي آي في نيويورك الخــناق علــى هذه المجموعة، وأوقفوا موارد عملها، واعتقلوا بعضاً من أعضائها، وأجــروا صــفقات عــندما لــزم الأمر، وجمعوا الأدلة - شيئاً فشيئاً. هذه هي الإجــراءات الفعّالة في المحكمة، خاصّة في دولة تخضع لحكم القانون وليس لحكم الــرجال. اســتلم باتــريك فيتــزجيرالد، الذي احتلّ منصب محامٍ فدراليّ خارج نــيويورك، العديد من هذه الدعاوى. وسُجنت المجموعة برمّتها، بدءاً بالرحمن. لن

يذهبوا إلى أي مكان. في إطار عمله، يحافظ دان على خطوط اتصال مفتوحة مع مخبرين سابقين من تنظيم القاعدة - على غرار جمال الفضل، وهو الإرهابيّ الإسلاميّ الذائع الصيت الذي اعتُقل ووضع تحت حماية فدراليّة، وأصبح المخبر الرئيسيّ في العديد من الدعاوى المرفوعة.

يعتبر دان كولمن اتساع معرفته في هذا التاريخ الواسع نعمة ونقمة في آن. فكان باستطاعته ذكر الأحداث، بدءاً بالثمانينيّات من القرن الماضي، عندما كان بن لادن يتوسّل دعم القادة الغربيّين في محاربة السوفييت في أفغانستان، وكان الظواهري - الذي كان يعيش على أمجاد أصوليّين إسلاميّين اعتُبروا مرتبطين في اغتيال الرئيس أنور السادات - يعاني من التهميش داخل غرف التعذيب المصريّة. مع انطلاق سلسلة الإعتداءات في منتصف التسعينيّات من القرن الماضي، بدءاً بتفجير السفارة في كينيا وتنزانيا عام 1998، وتفجير السفينة الأميركيّة يو أس أس كول عام 2000، راقب كولمان وحفنة من العملاء الأميركيّين تطوّر قدرة التنظيم والثقة بين أعضائه. كانوا يعلمون الخطر الذي يواجههم.

ولكن، للتمعّن في هذا الموضوع- في كلّ ما تعلّمه المرء في سنوات ملاحقة القاعدة - يجب مواجهة المشاعر التي أحاطت باعتداءات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر: الصدمة الحسيّة، وطابعها الجديد. فهي تدعم الاعتقاد القائل بإمكانيّة تفادي الاعتداءات، "الشكوك" التي لا يريد أحد سماعها.

طلب من كولمن عام 2002 أن يكون موجوداً، بكامل جهوزيته، عندما يريد شخص من "المرتبة العليا" معلومات أو نصائح. لذلك، ترك دان منزله الكامن في ساوث برونسويك في نيوجرسي، بعد بضعة أسابيع على وقوع الاعتداءات، واستأجر شقة مؤلّفة من غرفة واحدة مقابل مقرّات الأف بي آي، في منطقة بشعة في وسط مدينة واشنطن، بالقرب من الحيّ الصينيّ. كان يعمل 24 ساعة في اليوم. تساقطت الأسئلة من البيت الأبيض، نزولاً في سلسلة القيادة خلال مويلر ونوّابه. وعلى الرغم من كون دان مجرّد عميل في قضيّة - ليس مديراً أو حامل شهادات، يلبس بذلة زرقاء مقلّمة ويقصّ شعره بعشرين دولاراً - كان الرجل الذي يملك الأجوبة، والمساعدة عند الضرورة.

مـــرّت شـــاحنة بلوبيرد على جسر الذكرى في طريقها إلى فيرجينيا، وهو جسر على حافتيه تماثيل ذهبية - تماثيل حرب من جهة، وتماثيل سلام من جهة أخـــرى - ينتهـــي عـــند سفوح هضاب مقبرة آرلينغتون. اتصل دان بزوجته مـــورين، رغم أن الوقت كان مبكراً. على غرار كلّ الأزواج، يتحدثان عن لا شيء، الذي هو كلّ شيء بالنسبة إليهما، ثم يتحدثان عن الأطفال. لديهم عدّة أطفال - ثلاثة فتيان مراهقين، وابنة ترتاد ساتون هول، وداني، الابن الأكبر، في أفغانستان بين صفوف الجيش الأميركيّ. فيما يرى دان سلسلة علامات المقابر عند مرور بلوبيرد قرب آرلينغتون، يفكر في القلق الذي يثيره داني في نفسيهما، وفي قلّـــة المعلومات التي كانت تصلهم. فقال: "مورين، اسمعيني. إن عدم ورود أية معلومات يعتبر دليل خير".

تـــتوقف الشاحنة في باحة السي آي إي وترجّلن النساء السوداء، ونظرن في كـــلّ الاتجاهـــات. كانت قد احتلّت العديد منهنّ منصب سكرتيرة أو خبراء في إدخـــال البيانات في الأف بي آي لأكثر من 20 عاماً، ولكن لم تزر أي امرأة مقرّ الوكالة الرفيقة للأف بي آي ومنافستها في لانغلي.

لمشاعر العدائية وانعدام الثقة بين الأف بي آي والسي آي إي تاريخ طويل وغريب - خلافات كلاميّة، تصادم بين أعضاء الوكالتين، كما تتصادم الكلاب والقطـــط. حـــتى في هذا التشبيه، يرى كل طرف ما هو بحاجة إليه أو ما يودّ سماعه. فتؤكّد الأف بي آي: نحن أقوى وجديون، أوفياء لمهامنا، بينما السي آي إي متذمّـــرون وماكرون، ومخادعون وليسوا محط اتكال. وهناك ردّ السي آي إي: نحن عنيفون، نعتمد على حدسنا، وأقوياء- نعمل وحدنا وبصمت، ولكننا ننجـــز عملـــنا على أكمل وجه - فيما تسرح في الأف بي آي حيوانات غبيّة، تبذل جهوداً فارغة.

أمـــا اليوم، اتفقت الأف بي آي والسي آي إي أن الزمن يتطلّب حاجات معيّـــنة وإجـــراءات خاصّة. إذ كان الحديث العام، بعد ستّة أشهر على وقوع الاعـــتداءات، يشدّد على أن غياب التعاون بين الوكالتين هو أحد الأخطاء التي سهّلت وقوع الاعتداءات.

فيما كان الرئيس يقاوم الدعوات إلى تأليف لجنة تفتيش من الحزبين، مثل اللجان التي تألّفت بُعيد أحداث بيرل هاربر واغتيالات الرؤساء، كانت التحقيقات داخل الأف بي آي والسي آي إي تأخذ مجراها الصحيح. كانت نقاط الضعف واضحة. لم تشاطر السي آي إي مكتب التحقيق الفدرالي أسماء الإرهابيّين المشتبه فيهم. ولم تكن الأف بي آي، المركّزة على ملاحقة الجرائم المرتكبة عوضاً عن الجرائم المحتملة، لتعرف ماذا تفعل بالأسماء إذا ما أُعطيت للمكتب الميدانيّ المناسب.

مع ذلك، حتى إذا أبدت السي آي إي والأف بي آي استعداداً لتشاطر كلّ شيء- ليلاً نهاراً، كما نصّت أوامر صانعي السياسة في واشنطن - برزت مشكلة "إجراء". تحلّل الوكالتان المعلومات بطرق مختلفة: فتحاول السي آي إي اكتشاف ما هو معروف، وتكوين آراء مثقفة عن غير المعروف، والمضي قدماً بالعمل. من دون شكّ، ترتكز السي آي إي على المعلومات، معتمدة طريقة السي آي إي الأكثر توجّهاً نحو الإجراءات التي عرفها التاريخ المعاصر. ولكن دورها ما زال يقتصر على تقديم النصح للاعبين، لصانعي السياسة، من الرئيس ونزولاً. في الوقت عينه، تحاول الأف بي آي التوصّل إلى ما هو معروف، ولكنّها تركّز دائماً على مبرّرات جميع المعلومات التي تمّ جمعها: الاعتقال والمقاضاة.

يعني ذلك أنّ كلّ من الوكالتين تتعاطى مع المعلومات بطريقة مختلفة، بحسب الوقائع. فتميل السي آي إي إلى التمحيص في المعلومات، إلى البحث عن الإشارات الثمينة في المعلومات، عن صلة رئيسيّة. وتتخطّى كميّة المعلومات التي يتمّ جمعها أية قدرة بشريّة - إذا جمعناها بمعلومات وكالة الأمن القوميّ؛ ومكتب التقصّي الوطني الذي تحلّل معلومات الساتل؛ ووكالة الاستخبارات الجغرافيّة الفضائيّة الوطنيّة التي تضمّ وظائف التخطيط والرسوم والجيوديسيّة الخاصة بثماني منظّمات دفاع واستخبارات. التدقيق في المعلومات ضرورة ماسّة، آلية بقاء.

أما الأف بي آي فتعمل من زاوية مختلفة: تنظر إلى المعلومات وكأنها براهين، كما يأمل البعض. تحاول أن تحدد أطر مسألة ما - أن تحدد أفراد جريمة مشكوك

(مشتبه) فيها – للتوصّل إلى الحقائق. هي تحدث بحوراً شاسعة، من صنع الإنسان، مــن الأدلّة – التي يجب تقييمها، وتصنيفها، وتنظيمها في إطار يمكن أن يسطع في قاعة المحكمة يوماً ما.

أمــا كــولمان، فهو الغريب: يعمل في الأف بي آي فيما يحلّل ويتمحّص في المعلــومات بسرعة أفضل محلّل في السي آي إي – ثم يضع اكتشافه في إطار يخوّل الأف بي آي اعتــباره بــرهاناً – إذا اقتــضت الحاجــة. بعبارات أخرى، تلتقي الاســتخبارات بالملاحقة القانونيّة في رأس رجل سمين يعاني من الربو، من جرسي. ومن أجل الانتصار في "الحرب ضدّ الإرهاب"، تحتاج إلى بضعة آلاف رجال مثل دان كولمان – منظّمون في هيكليّة أفقيّة مرنة، مثل مهووسي الانترنت في سيليكون فالي عام 1996– مستعدّين لربط الدقّة بالبراعة. ولكن طلبك هذا مستحيل.

بالطــبع، من الصعوبة بمكان محاولة سبر غور المعلومات بين دان كولمان ووسائل الــبحث الخاصــة بوكالة الأمن القوميّ. هذا هو القسم الآخر من المشكلة في حرب تــستخدم فــيها المعلومات سلاحاً – عارفين يقيناً ماذا تشبه كتلة من ذهب. فهي لا تلمــع تلقائــياً. خلال الشتاء، أجرى مفتّشة الأف بي آي مقابلات عدّة مع كولمان وأنــداده، في إطار الجهود الرامية لتحديد إطار للعديد من رسائل وكالة الأمن القوميّ الــتي اكتُشفت في الأيام القليلة التي تلت أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. من أهمّ هذه الرسائل عدد من الاتصالات برقم يمنيّ، التي جمعتها وكالة الأمن القومي عام 2000 مــن سان دييغو. وبحسب تصريحات كولمان، إن الرقم اليمنيّ يعود لابنة رجل "تبنّــى نصف الجهاديّين الذين اكتشفنا أمرهم في الدولة". هذا الرقم الذي تعرّف عليه كــولمان نتيجة لعمله المستمرّ في ملاحقة القاعدة لدرجة أنّه حفظه – هو الرقم الذي اتــصل به خالد المدهر، أحد خاطفي طائرات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، عندما كان مختبئاً في سان دييغو. في الواقع، كان كولمان وغيره من خبراء القاعدة في الأف بي آي قد أمروا وكالة الأمن القوميّ عام 1998 بتمرير أي اتصال هاتفي يجري بين الرقم اليمنيّ والولايات المتحدة إلى مكتب التحقيق الفدرالي – ولكنّ وكالة الأمن القوميّ لم تمتــثل لهذا الأمر. وقال كولمان: "بالنسبة لنا، يتصدّر أيّ شخص أجرى اتصالاً بالرقم اليمنيّ لائحة المشتبه بهم".

ولكـــنّ المشكلة لم تكمن فقط في تشاطر المعلومات، الأمر الذي قلّما حصل بـــين الـــسي آي إي ووكالـــة الأمـــن القومي. إنما كمنت أيضاً في تكرار ونشر المعلومات المحدّدة التي تفيد بأنّ الخبرة والدراسة محصورتان في حفنة من الأشخاص داخـــل الحكومة الأميركيّة الكبيرة. أو كما يضعها كولمان: "إنّ المسافة التي تفصل تَحوّل معلومة إلى معرفة ومنها إلى حكمة أكبر مما نظنّ". وعلى حدّ قول الخبراء في التكنولوجـــيا، مـــا من وسيلة سهلة لإيجاد حلّ قابل للتطبيق لهذه المشكلة – فلا يمكنك نسخ عقل إنسان – وإن قدرة المراجعة التي يتمتّع بها الإنسان محدودة".

في هـــذه الحالة، تدعم 12 امرأة تعمل في إدخال البيانات رجلاً واحداً. فقد دخلـــت رحلـــة هـــذا الصباح ضمن برنامج منسّق بين الوكالة ومكتب التحقيق الفدراليّ.

وصلت مجموعة زبيدة النفيسة. وانكبّت السي آي إي على دراستها. ووصل دان باكـــراً للاطّلاع عليها. ثم وضع وفريقه نسخة عنها وحملوها، بكلّ ما للكلمة من معنى، إلى مقر الأف بي آي.

قـــد تظـــنّ أن هناك طريقة أسهل للتعامل مع هذا الأمر. إنّما، وعلى غرار العديد من الأمور في الأوساط الحكوميّة، كان ذلك مجرّد حلّ سريع لعمليّة مشتّتة. وكانت المشكلة الرئيسيّة أنّ السي آي إي – الفرع الأساسيّ الذي يخوض "الحرب ضـــد الإرهـــاب"- لم ترد أو لم تستطع، في أي حال من الأحوال، وضع قاعدة بيانات يسهل تقاسمها بين مجموعة الوكالات الفدراليّة الأخرى. بل توفّر نظام قدّم "أساســـاً واسعاً" مزعوماً يسهل دخوله، تضمّن رموز دخول وتطبيقات مهمّة. إنه نظـــام البنـــتاغون – المعروف تحت رمز "انسجام" (أو هارموني)- الذي تستطيع العديد من الوكالات ولوجه. ولكن لم تستعمله السي آي إي قط.

وهكـــذا، جلـــس دان وفريقه وراجعوا ملفّات الكمبيوتر المأخوذ من ملاذ زبـــيدة، ومفكّـــراته والملفات حيث دوّن أفكاره، والأسماء التي احتفظ بها. بعضها كان قيّماً. أسماء، وأرقام هاتف ومصادر. سيخضع كلّ منها للتمحيص. لكلّ منها خـــيط يفيد، وربّما يكون الخيط الذهبي. سيدّون الفريق كلّ هذه المعلومات بدقّة وتـــرتيب يسهّل استعادتها، على طريقة الأف بي آي. ثمّ يستطيع دان أن يحضرها،

كلّ قرص على حدة، إلى مكتب التحقيق الفدراليّ ويرسلها إلى المسؤولين المناسبين في المكـــتب. في "الحرب ضدّ الإرهاب"، يكتسي الحصول على المعلومات المناسبة وإرسالها إلى الشخص المناسب الأهمّية عينها كحشو الأسلحة بالذخيرة.

ووقع نظر دان على الجائزة: كتيب مذكّرات زبيدة. كان كبيراً، يحتوي على معلــومات تعــود إلى أكثر من عقد - طريق تعبر حياة زبيدة. وُلد في ضاحية من ضـــواحي الرياض ولكن أمضى معظم سنّ المراهقة في الضفة الغربيّة. عام 1987، عندما كان يبلغ من العمر 16 سنة فقط، التحق بالثورة الفلسطينيّة. رأى نفسه في نهاية المطاف يسافر إلى أفغانستان في أواخر أيام الحرب ضد السوفييت. خلال هذه المــرحلة - أغلـــب الظن في أفغانستان، تلقّى ضربة قاسية على رأسه. لم يعر دان تقرير الجرح في الرأس أهمّية - فإنه كان قد سمع هذه القصة قبل سنة - إلى أن قرأ المذكّرات السريّة، التي ترجمها فريق السي آي إي في الأيام الأولى القليلة التي تلت إخلاء كوخ شاباز.

في هذا التقرير، كتب زبيدة انتصاراته بصوت ثلاثة أشخاص: هاني 1، هاني 2 وهـــاني 3. كان هاني 1 طفلاً، يصغر عمر زبيدة الحقيقيّ بعشر سنوات. كان هاني 2 يبلغ عمر زبيدة، وهاني 3 يكبره بعشر سنوات. كتب زبيدة انطباعاته عن أيـــام كـــثيرة - عن سنوات، كما أكّد الجميع- اجتمع خلالها بمجنّدين محتملين، وردّة فعله تجاه الأحداث والتقارير الإخباريّة - من النواحي الثلاث. اتّسم كلّ هان بـــصوت وشخـــصية مختلفة. ولكن، ما لفت نظر الأشخاص الثلاثة لم يكن بأهمّيّة كبيرة - فقد شدّدوا على ما تناوله الناس، وما لبسوه وما قالوه من أشياء تافهة... صـــفحة تلو الأخرى. كان زبيدة رجل يهتمّ بالنواحي اللوجستيّة للأشياء، وكان يهتمّ بتصليح عدد من الأغراض الشخصيّة التافهة، كالرجل الذي تتصل به والذي يستلم الخطة الصحيّة للشركة، أو المزايا، أو موظّفي الموارد البشريّة. لم يكن هناك من شيء "عمليّ" تقريباً في ملفّه. بل وضع ذلك بعهدة فريق الإدارة، ولم يكن هو من أعضاء الفريق.

بـــيد أن هذه المعلومات أتت مخيّبة للظنّ في كتاب المذكّرات، لاحظت عيون كـــولمان ما لم يكن واضحاً للجميع. لطالما شكّكت السي آي إي بمشاركة زبيدة

في تفجير السفارات الأميركيّة في أفريقيا في آب/أغسطس من العام 1998. فبحث عمّا يتحدّث عن آب 1998 في دفتر المذكّرات، ولكنّ بحثه لم يثمر... كلّه مجرّد تفاهات.

بالنسبة للأشخاص في دوائر الاستخبارات والسياسة الضيّقة، شكّل ربيع 2002 وقتاً تعلّموا فيه دروساً جديدة عن "الحرب ضدّ الإرهاب"، وكانت بعض هذه الدروس مثيرة للقلق.

كانت نسب دعم الرئيس في نيسان/أبريل مرتفعة بشكل خياليّ، لا يلبّد سماءها سوى غيمة حيرة انتابت الرأي العام: لم يتمّ اعتقال أو قتل أيّ من قادة القاعدة الكبار، تحديداً بن لادن والظواهري أو الملاّ عمر، قائد الطالبان.

ما أثار موجة من التصاريح- من الرئيس ونزولاً - أكّدت أن اعتقال بن لادن أو الظواهري ليس مهماً أبداً، بدءاً بخطاب السيد بوش الطويل عن الموضوع في الثالث عشر من أذار/مارس خلال إحدى المؤتمرات الصحفيّة التي قلّما عقدها وحده. فقال، متحدّثاً عن بن لادن "لم نسمع الكثير عنه. ولست أقول بالضرورة أنه مركز هيكل القيادة. أكرّر وأقول أنني لا أعرف أين يتواجد. وسأكرّر ما قلته. بصراحة، قلّما يثير اهتمامي".

ولكن، خلال هذه الحقبة، أكّدت المعلومات المأخوذة من الموجزات الرئاسيّة اليوميّة أنّ بوش سأل عن بن لادن والظواهري كلّ صباح، وغالباً عدّة مرّات في اليوم. ويعلّق مسؤول في السي آي إي، مطّلع على عمل الوكالة مع البيت الأبيض: "كان بوش مهووساً بالرجلين".

إلى ذلك، وفيما يتعلّق بأحداث تورا بورا - وكيف أُهملت نصيحة السي آي إي، وكيف أخطأت القيادة المدنيّة والمرقّطة في الجيش الأميركي في حساباتها، سامحة بذلك لبن لادن بالفرار - كانت جليّة لكلّ من شارك أو تمتّع بالتصريح الأمنيّ المناسب.

في السابع عشر من نيسان/أبريل، نشرت صحيفة واشنطن بوست التقرير الأول التمهيديّ الذي يشدّد على كيف فشل الجيش الأميركيّ في تطويق كهوف تورا بورا، وكيف أنّ هذا التصرّف كان ليمنع بن لادن من الهروب. في ذلك

الـــيوم، وخلال مؤتمر صحفيّ، نقض دونالد رامسفيلد هذا التأكيد، قائلاً أنّه "لم يكن هناك من براهين" تشير إلى "وجود بن لادن في تورا بورا في ذلك الوقت، أو هروبه منها، أو تشير أصلاً إلى مكان تواجده".

كان هذا أيضاً خطأً.

علـــى الـــرغم من ذلك، عندما يتمّ إخفاء جزء من هذه الأخبار العظيمة، أو كلّهـــا، تحت عبارة "سريّة"، تفتح أمام البيت الأبيض سلسلة من الخيارات الخلاّقة المتوفّرة.

ورأى البـــيت الأبيض الفرصة الملائمة للاستفادة من الفرصة التي أُتيحت له. وتعود ابتكارات البيت الأبيض في "نظام الرسائل" إلى ما قبل أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. فقد اختبر الرئيس بوش وفريقه، منذ بداية عهده، أفكاراً جديدة لمراقبة الرسائل الصادرة عن البيت الأبيض، والإدارة بشكل عام.

هـــناك العديد من النواحي المتغيّرة. من أجل تفادي تسرّب المعلومات المجهولة - أي الطـــريقة التقليديّة التي يعتمدها المسؤولون لتسريب المعلومات إلى الصحافة، ومـــنها إلى الرأي العام وغيره في الإدارة، بمن في ذلك الرئيس - أعطى فريق بوش أجهـــزة هواتف خلوية لعدد من المسؤولين وفرضوا استخدامها. هكذا، تمكّنوا من مراقبة الاتصالات الواردة والصادرة من هاتف المكاتب والهواتف الخلوية. والأسوأ من ذلك إصدارهم أوامر صارمة، وفرض عقوبات قد تشمل الطرد، تمنع أي عضو مـــن التحدث إلى الصحافة من دون إذن مسبق - إذن عادة كان يشرف مكتب الاتصالات في البيت الأبيض على منحه.

ترأســـت كـــارن هيوغز هذا المكتب وعقدت اجتماعات يومية مع فريقها المؤلّـــف مـــن عـــشرة موظّفـــي إعلام في الحكومة. وكانت مقتنعة أنّ الأخصام السياسيّين يسيطرون على الصحافة الرئيسيّة، واستقطبتهم أخبار "الأزمة". ركّزت الفكـــرة التي طرحتها على تجاهل الصحف والمجلاّت وشبكات التلفزيون الرئيسيّة بقـــدر الإمكان، التي اعتادت، على مرّ العقود، على الاجتماع باستمرار بالرئيس. ولكن هذه الحقبة انتهت. ستتمّ مراقبة هذا الأمر وإدارته بدقّة. إلى ذلك، لن يحصل

الرئيس إلاّ على ثلث المقابلات الفرديّة التي كان يجريها كلينتون، وخُمس تلك التي عقــدها بــوش الأوّل. وكان الهدف من وراء ذلك تفادي عقد الرئيس حوارات ارتجالــية مع صحفيّين واسعي الاطّلاع، خاصة وأنّ هذه الحوارات لم تكن نقطة قوّته.

ولكن، كان من الممكن قتل الأسئلة المطّلعة من مصدرها. فكان يتمّ انتقاؤها بحسب الطابع السريّ العريض. وأطلق نائب الرئيس هذه المبادرة، الذي لطالما آمن أن تدقيق الرأي العام والكونغرس في الرئيس يسيء إلى السلطة التنفيذيّة. وبإرشاد تشيني، وضعت الوثائق تحت راية "السرية" بنمط فاق ضعفيّ الإدارة السابقة.

ولكنّ بدأت استراتيجية بثّ رسائل خفيفة بالتراجع في آب/أغسطس 2001. فقـــد هـــبطت نسبة تأييد بوش إلى الخمسين، أي ما دون المستوى المعقول لرئيس حـــديث في بداية عهده. انتُقد بسبب خضوعه للآخرين وعدم التزامه وغرقه تحت متطلّبات المركز الذي احتلّه.

ولكـــن، قـــضت أحـــداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر على كلّ ذلك. فأعطـــت ردود السيد بوش المتعاطفة وخطاباته المركّبة بحنكة، زخماً لأمّة اصطفّت وراء قائدها في أوقات الأزمات. بيد أنّ الكثير قد تغيّر، لم تتأثّر استراتيجية مراقبة الرسائل الأصليّة. الآن، دعت إلى مساندة الحسّ الوطنيّ، الدعوة "الوطنية الموحّدة" إلى حمـــل الأسلحة الثقيلة. وحلّقت معدّلات تأييد الرئيس. فقد وافق الرأي العام والكونغرس على معرفة "ما يجب أن يعرف"- وأُطلعوا على ما يجب عليهم معرفته فقط، قرار اتخذه البيت الأبيض بنفسه.

في حـــين تمكّـــنت لجـــان الإشراف التابعة لمخابرات البيت الأبيض ومجلس الـــشيوخ من مراجعة المعلومات السرية، لم يطّلع سوى عضوين، من الحزبين، على المواد الحسّاسة. ولكن غاب عنهما الكثير أيضاً.

باختصار، فتحت أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر المجال أمام التنفيذ. وكانت النتيجة: مُنحت سلطة فعالة حربية لقادة سفينة الدولة. ولكن، لم يجرِ تأكّد أخـــير واعتياديّ في نهاية الحرب في أفغانستان - براهين قابلة للتأكيد عن تحرّكات الجـــنود أو الضحايا، عن الفرق العسكريّة المعنيّة، فيما المراسلون يبعثون الرسائل.

بشكل عام، استطاعت الإدارة نشر المعلومات التي أرادها في تغطية الحرب على الإرهاب، سيّما وأنّ معظمها كان مخفياً - وبسبب الإشراف الروتينيّ وغياب الشفافية. كانت هذه معلومات أساسيّة في تلك الحقبة. واستطاعت الإدارة أن تحدث أي واقع لاءمها.

وأخيراً، كانت الرسائل غير قابلة للجدل وأكيدة - نوع من الانتصار، أو أمنية تتحقّق، قادرة على سحق مبادئ الموافقة المطلعة والمحاسبة.

في الواقع، تقلّص معنى المحاسبة ليقتصر على معيار وحيد: تفادي وقوع اعتداءات على الأراضي الأميركيّة. وطالما أن هذه الاعتداءات لم تقع، لا تهمّ الأشياء الأخرى.

ولكن، ماذا يعني كلّ ذلك في اعتقال زبيدة مثلاً؟ تحرّر من اللازمة التي أجبرت رئيس في "زمن حرب" على ترداد الضروريّ.

هذا ما فعله بوش في خطاب ألقاه في غرينتش في كونتيكت في فندق الحياة ريجنسي في التاسع من نيسان/أبريل 2002. "اعتقلنا يومها رجل يدعى أبو زبيدة. وهو من أهمّ العملاء الذين يخطّطون للقيام بأعمال قتل وتدمير في الولايات المتحدة. اليوم، لم يعد يخطّط. إنه حيث يجب أن يكون"، أكّد الرئيس فيما صفّق له مساهمون في الحزب الجمهوريّ. ثم انتقل بسرعة إلى الحديث عن مسألة أكبر وأهمّ للدولة. "دعانا التاريخ لاتخاذ الإجراءات، ولبّت هذه الأمة الدعوة. يجب أن تفهموا الأهداف التي وضعناها نصب أعيننا وما يراود تفكيرنا. يجب أن نتصرّف باسم الدول الأصغر والعاجزة. يجب أن نحمي العالم وهذه الحضارة من شرّ هذه الجماعات. يتحتّم علينا القيام بذلك. وهذا يشمل الحؤول دون تعامل بضعة قادة هذا العالم الذين يطمحون إلى اقتناء أسوأ الأسلحة مع تنظيمات قاتلة مثل القاعدة. ندين لمستقبل هذا البلد بقيادة التحالف ضدّ الدول الشريرة والطامحة إلى اقتناء أسوأ الأسلحة".

إنّ هذه الرسالة - ووصف زبيدة "برئيس عمليّات" تنظيم القاعدة، "الرجل الثالث" المزعوم بعد بن لادن والظواهري - ستتردّد على ألسنة الرئيس، ونائب الرئيس، ومستشارة الأمن القوميّ كوندوليزا رايس، وغيرهم طوال شهر نيسان/أبريل والأشهر التالية.

في غضون ذلك، تابع دان كولمان وغيره من صَيادة القاعدة الواسعي الاطّلاع قراءة مذكّرات زبيدة السريّة، وتبادرت على وجوههم علامات التعجّب.

"هذا الرجل فاقد عقله، بالتأكيد يعاني من انفصام حاد في الشخصيّة"، أخبر كولمان مسؤول رفيع في الأف بي آي بعد استلام غنيمة زبيدة. "لذلك سمحوا له بالسفر في العالم ليعرّف عنهم. لذلك استعمل الجميع اسمه في رسائل البريد الإلكترونيّ والاتصالات. كان بمثابة وكيل سفر، الرجل الذي يحجز رحلاتك. بمجرّد قراءة مذكّراته، يمكنك أن تفهم كم أرهقه عبء الأعمال اللوجستيّة – إدخال وإخراج عائلات العملاء وأولادهم إلى كافة البلدان. كان لا يعرف الكثير عن العمليّات الحقيقيّة، أو الاستراتيجية المتّبعة. اتّكلوا عليه في هذه الأعمال، وكان الشخص الذي يرحّب بالجميع... هو الحاجب الذي يعمل في بهو فندق، الذي يصافح يد الجميع".

تردّدت أصداء هذا الرأي في أروقة السي آي إي واطّلع عليها طبعاً الرئيس ونائبه. وفيما كان بوش يجاهر أمام الرأي العام بالحقد الذي يكنّه زبيدة، صبّ جام خيبة ظنّه السريّة على تينيت – الرجل الذي حافظ له على عمله.

فقال بوش لتينيت في أحد اجتماعاتهم الصباحيّة: "لقد أكّدت أنه مهمّ. لن تدعني أفقد اعتباري في هذه المسألة، أليس كذلك؟"

"كلاّ سيّدي الرئيس".

في لانغلي، بحث تينيت مع موظّفيه في جميع الوسائل المتوفّرة لدفع زبيدة إلى الإفصاح عن معلومات. كان يعاني من جروح خطيرة، ولكن تمّ نقله من مستشفى قرب فيصل أباد إلى مواقع مختلفة في وسط باكستان. وأحضرت السي آي إي أفضل أطبّاء في أميركا. جلس عملاء السي آي إي في مكاتبهم الطبّية وسرعان ما أقلعوا إلى باكستان.

وقال أحد المسؤولين في السي آي إي: "لقد حصل على أفضل عناية طبيّة في العالم. أصبحت صحّته جيّدة جداً، وبات بإمكاننا اليوم أن نعذّبه".

أحدثت الضغوط التي مارسها تينيت لأشهر على فريقه القانونيّ، وضغوط فريقه على مكتب الاستشارات في البيت الأبيض سلسلة تفاعلات من الردود

القانونـــيّة. وفيما توالى وصول المعتقلين إلى معقل أكس راي في غوانتانامو، كان البـــيت الأبـــيض ووزارة العدل قد وضعا النسخة الأوليّة من الاستجواب. في هذا الإطـــار -تجـــدر الإشـــارة إلى مذكّرة بعثها المستشار القانونيّ للبيت الأبيض آل غونـــزاليس في أواخـــر كانـــون الثاني/يناير 2002، والتي تشدّد على أن الولايات المتحدة لا تطبّق اتفاقات جنيف الخاصّة بسجناء الحرب على المعتقلين الذين أسرهم في أفغانستان.

ولكـــن، ســـتطبّق القوانين الجديدة للمرّة الأولى على زبيدة. لم تكن تركيبة القـــوى هـــذه التـــركيبة المُثلى: فقد أُعطي الرأي العام الأميركيّ فكرة كبيرة عن اعـــتقاله؛ ورفـــض زبيدة التحدّث. كان تينيت يحثّ فريقه في السي آي إي على إحـــداث مفاجأة، تقدّم مفاجئ، يقدّمها إلى بوش - كبرهان على دعم خطابات الرئيس العلنيّة. هذا نمط سيتكرّر مراراً خلال السنوات التالية.

بالنـــسبة للعاملين في السي آي إي، مثل المحترفين في "جهاز السياسة" المزعوم في الحكومة، كان لهذه الأوقات أثر رقيق ومزعج. فهم الجميع في المراكز العليا في الـــسي آي إي نظـــريّة تشيني، ونفاد الصبر الذي حملته في طيّاها تجاه عمليّة جميع البراهين البطيئة الخطى، في مقابل طلب ملحّ لاتخاذ إجراءات سريعة. ولكن، ارتبط ذلـــك بالنقاشـــات الداخلية الجارية حول كيفيّة اتخاذ الإجراءات وأسبابها. وبدا مـــتعمداً وأنانياً تضليلُ الرأي العام من دون سبب واضح إلا تسجيل منافع سياسيّة قصيرة المدى.

وهو فخّ.

"تفاجأ العديد من المجتمعين في القاعة عندما سمعنا ملاحظات البيت الأبيض. أقـــصد أن أقول إن بوش وتشيني كانا يعلمان ما كنا نعرفه عن زبيدة. كان الرجل يعـــاني من مشاكل نفسيّة. بطريقة أو بأخرى، كان مستهلكاً. كما لو أنك تطلق على الموظّف المسؤول عن قسم السفر في الشركة اسم رئيس قسم العمليّات"، أكّد أحـــد كـــبار المسؤولين في السي آي إي الذي شارك في اجتماع الخامسة من بعد الظهـــر حيث طرحت خلاله قضية زبيدة. "وفكّر الجميع، لماذا وضعنا الرئيس في مأزق كهذا؟"

سرعان ما اكتشفوا أن الرئيس اعتمد إجراءات الإدارة هذه. وهي إجراءات تدفـــع الناس "إلى القيام بأفعال اعتقدوا أنهم غير قادرين على القيام بها"، كما أكّد مراراً وتكراراً بسخرية.

"ألم تعـــرفنا بعـــد؟" ســـأل خالد شيخ محمد - رئيس عمليات القاعدة - وضحك.

وقـــف يـــسري فودا، مراسل الجزيرة الرئيسيّ، مذهولاً، فيما مدّ رمزي بن الشيح يده ليسلّم عليه.

حصل ذلك في التاسع عشر من نيسان/أبريل. فُكّت عُصابة عينيه للتوّ، فرفّت عيناه، محاولاً إخفاء ذهوله، فيما تفحّص الرجلين والشقة الفارغة الجدران: "المعقل الآمن" للقاعدة في كاراتشي.

تعـــرّف فـــودا على الرجل الرشيق، المبتسم الذي يسلّم عليه: إذ ظهرت صـــورة بن الشيح على ملصقات المطلوبين في العالم منذ الخريف الماضي عندما اكتـــشفت الأمـــوال التي حوّلها لزكريا الموسوي عبر ويسترن يونيون. وتأكّد ارتـــباطه بطـــريقة أو بأخرى بخاطفي الحادي عشر من أيلول/سبتمبر - أغلب الظنّ أنّه صرّاف الرواتب.

ولكـــن، احتاج فودا إلى دقائق ليكتشف هوية خالد شيخ محمّد. بالنسبة للأشخاص الذين يتابعون عن قرب أخبار الجهاديّين العنيفين، مثل فودا، المراسل الـــنجم لبرنامج توب سيكرت الذي يُعرض على الجزيرة والذي عرض تقارير عـــدّة عـــن الإرهابيّين الإسلاميّين - عُرف محمّد من بين وجوه عملاء القاعدة المحتملين. قبل سنوات، اكتشفت الأف بي آي أنّه عمّ رمزي أحمد يوسف، أحد الرجال الذين أُدينوا وسُجنوا في قضية تفجير مركز التجارة العالميّة عام 1993. اتُهـــم محمّد بالمشاركة في مخطّط في الفيليبين لتحطيم طائرة أميركيّة في المحيط، مخطّط لم يجد طريقه نحو التنفيذ. قدّمت الحكومة الأميركيّة مكافأةَ بقيمة خمسة ملايـــين دولارٍ أميركـــيٍّ مقابل معلومات تُفضي إلى اعتقاله، ونشرت صورة للرجل الشاب الملتحي. لم يكن الرجل الواقف أمام فودا ملتحياً، وكان ضخماً. ولكنّ بريق عينيه لم يتغيّر.

فبادر فودا بالقول: "يقولون أنكم إرهابيون". ابتسم بن الشبح وتراجع.

"إنهم على حقّ"، أجاب محمّد بتأكيد وصرامة. "هكذا نجني لقمة عيشنا".

تطلّب إرسال فودا أربعة آلاف ميل من مكتب الجزيرة في لندن إلى هذه الشقة أسبوعان من الرسائل المشفّرة - وهي رحلة ابتدأت باتصال على هاتفه الخلويّ في لندن في مطلع شهر نيسان/أبريل. تساءل الرجل المتحدّث عن تحضيرات الجزيرة للذكرى السنوية للحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وطلب من فودا إعطاءه رقم فاكس آمن. بعد مرور بضعة أيام، وصل فاكس من 3 صفحات، يشدّد على اقتراحات محدّدة لوثائقي من ثلاثة أجزاء للاحتفال بالاعتداءات - المعلومات التي سيتضمّنها، حقائق أساسيّة تمّ التغاضي عنها، ولائحة بأسماء خبراء في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر متعاطفين يمكن لفودا مقابلتهم. وعلى الفور، وصلت تحديدات إضافية عن هذه النقطة: تعليمات تقضي بركوب طائرة باتجاه إسلام أباد واجتماع بصلة الوصل التي ستبقى "بغاية السريّة". أطلع صديقاً مقرباً على بعض تفاصيل ما جرى، وجعله يقسم على التكتّم - وألّف قصّة تغطية لرؤسائه (إذ كان يعمل على الجزء الثاني من مشروع يُدعى "الطريق إلى مخيّم أكس راي"). ثم توجّه إلى إسلام أباد. هناك، حصل على تعليمات بالسفر إلى كاراتشي والنزول في فندق ريجنتس بلازا، حيث استقبله رجل كهل في غرفته في الفندق وفسّر له تفاصيل ما ينتظره. قال إن "شيخ أبو عبد الله"- كنية بن لادن - كان حياً يرزق ويتابع الجزيرة باستمرار، غالباً عبر أشرطة فيديو لبثّ مسجّل. وقال الرجل إن بن لادن "طلب منّا أن نأخذ روبرت فيسك (مؤلّف وصحافيّ في الإندبندنت) إلى أم عبد الله (أي زوجة بن لادن)، وأن نأخذ يسري فودا إلى الإخوان".

وهكذا حصل تلك الليلة. وإذا فودا بنفسه يتلو الصلوات في مخبأ مع خالد شيخ محمد ورمزي بن الشبح، وبعض نوّابهم.

ومع تقدّم الوقت، تبادل المجتمعون نكات غريبة ومفاوضات وشربوا الشاي وحدّدوا الشروط. ستوفّر القاعدة الكاميرا والشريط، ولن يفصح فودا أبداً عن مكان تواجدهم، أو كيف اختلفت مظاهر كلّ رجل عن الصور المنشورة. وجب

عليـه أن يقسم على القرآن باحترام هذه الشروط. قيل له أن عينيه ستغطّيان مجدداً في رحلة إلى المطار مباشرة عند انتهاء مهمّته.

حـان وقـت التسجيل. ولكن أولاً، وضّح محمّد - الرجل المسؤول - لماذا أُحـضر فـودا إلى هذا المكان - في مشروع الاحتفال بذكرى الحادي عشر من أيلول/سبتمبر.

"أنـا رئـيس اللجـنة العسكريّة في تنظيم القاعدة ورمزي هو منسّق عمليّة "الثلاثاء المقدّس"، قال خالد شيخ محمّد. "نعم، نحن قمنا بهذه العمليّة".

في هـذه المـرحلة، كان مراسل للجزيرة يملك معلومات ثمينة أكثر من جميع قوات أقوى دولة في العالم وحلفائها.

أهلاً إلى "الحرب ضدّ الإرهاب". كانت المعلومات، معلومات قويّة، تنتشر بطـريقة ديمقـراطيّة وبغـير تمييز كما تنشر على الإنترنت. الجميع يستطيعون المشاركة.

وتسلّل فودا، الذي يشعر بدوار خفيف، إلى فراشه لنيل قسط من النوم.

نهـار الأربعـاء في الرابع والعشرين من نيسان/أبريل، توقّف موظّفو تحضير الطعام في فندق الأنتركونتيننتل في هيوستن عن العمل ليشاهدوا منظراً خيالياً: ديك تـشيني - الذي يسند رجله بسبب خضوعه لعمليّة في ركبته - مسرعاً في المطبخ على كرسيّه المتحرّك الآليّ.

صرخ أحدهم: "افتحوا الباب".

والحمـد لله اسـتجاب أحدهم، ومرّ تشيني عبره بسرعة فائقة، وأخذ شماله لـيدخل إلى قاعـة الطعـام الخاصة، فيما تُسمع أصوات العجلات المطاطية على الأرض.

في سـاعة مـتقدّمة مـن بعـد الظهر، توجّب القيام بالكثير - الكثير من التحـضيرات - والكثير على المحكّ. وصل الأمير عبد الله، القائد الفعليّ للمملكة العـربيّة السعوديّة إلى المدينة، ولكن بتردّد. اليوم التالي، سيلتقي الحاكم السعوديّ الغاضب بالرئيس بوش في كروفورد، في ما وُصِف باجتماع المكاشفة والحسم بين العالم الإسلاميّ والغرب.

كـــان هذا عشاءً تمهيدياً، عشاءً تحضيريّاً مع تشيني ورامسفيلد، اللذين سافرا للاستماع إلى الرأي السعوديّ قبل اجتماع الغد الكبير في المزرعة.

كانت العلاقات بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعوديّة مهتزّة بعض الشيء. كان السعوديّون، منذ سنة، يعانون من القلق، منذ أن اتّضح في مطلع عام 2001 أنّ مـــشروع هـــذه الإدارة هـــو تغـــيير دور الوسيط الصادق الذي لعبه الأميركيون في النـــزاع الإسرائيلي – الفلسطيني، إلى أقلّ من ذلك. في الواقع، كان الـــرئيس قـــد أكّد في اجتماع مدراء مجلس الأمن القوميّ الأوّل خلال إدارته، أنّ الـــرئيس كلينـــتون أخفق في نهاية ولايته الثانية، وأظهر ليونة تجاه ياسر عرفات – الـــذي أفـــشل محادثـــات كامب دايفيد المثمرة في اللحظة الأخيرة – وأضاف أنّ "الولايات المتحدة ستميل مجدّداً نحو إسرائيل". قال باول، الجالس على بعد كرسيّ في غرفة الأزمات، أنّ هذه السياسة ستقلب رأساً على عقب 30 سنة من السياسة الأميركيّة، وأنها قد تطلق العنان لرئيس الوزراء شارون والجيش الإسرائيلي بشكل لم يتصوّره الفلسطينيّون في أسوأ كوابيسهم. فأتى ردّ بوش: "قد يوضع عرض قوى من جهة واحدة حقيقة الأمور".

قـــد لا يكون عبد الله على اطّلاع على تفاصيل التغيّر الأميركيّ هذا، ولكنّه، كما العالم العربيّ، شاهد نتائجها – تدهور أوضاع الفلسطينيّين شهراً تلو الآخر.

وازداد غـــضبه شـــهراً تلو الآخر. كان هذا الواقع ليبثّ روح الذعر في أية إدارة. مـــنذ انهيار الاتحاد السوفييتي، بقيت علاقة الولايات المتحدة والمملكة العربية الـــسعوديّة الـــتي اتّـــسمت بالمحبة والكراهية في آن، محور نقاش دبلوماسي دوليّ، وأثـــارت العديـــد مـــن النقاشات. فتستورد الولايات المتحدة من المملكة العربية الـــسعوديّة 15% مـــن واردتهـــا النفطيّة، ومنذ اجتماع الملك ابن سعود والرئيس فرانكلين روزفلت عام 1945، علقت المملكة في صفقة دفعت فوست إلى التهديد: سنحمي العائلة المالكة السعوديّة طالما أنّ النفط يتدفّق... واصرفوا المليارات على ما تريدون.

أدّى هـــذا الاتفاق إلى إحداث نوع من لعبة عالميّة، تتضمّن مخطّطات مسبّبة للـــدوار. فرسمت العائلة السعودية طريقها إلى تحصين حكمها من خلال الجمع بين

الثـــروات غـــير المحدودة وإتباع الإسلام المتطرّف، ما يشبه في حدّ ذاته صفقة مع الـــشيطان. خـــلال الـــسنوات الأربعين الماضية، وظّفت المملكة حصّة كبيرة من العائدات النفطيّة لمصلحة رجال الدين المتطرّفين في المملكة العربية السعوديّة (إضافة إلى أئمّة في الدول العربية الأخرى وفي بعض بلدان جنوب شرق آسيا) بهدف بناء معاقـــل دينـــيّة كـــبيرة تتمثّل في مساجد عظيمة ومزيّنة ومدارس وجيوش أطفال مـــدرّبين على إتباع حياة دينيّة متعصّبة. دعم رجال الدين السعوديون هؤلاء، في اتفـــاق كاذب – وهم الحلقة الثالثة من هذا الاتفاق الثلاثيّ – السعوديين كحرّاس للحـــرمين الشريفين، مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة، وغضّوا الطرف عن قمع العائلة المالكة – التي يدعمها 25 ألف – للمعارضين، وبحثوا عن طرق استهلاك جديدة، قصور ذهبيّة، وشهادات مدرسيّة.

وأشـــرف الرؤساء الأميركيون المتتالون بعناية وانتباه بالغين على هذه الجوقة المتفائلة من النهمين للنفط الغربيّين، والأمراء السعوديّين والأئمّة الغاضبين.

وبحـــنكة ولـــباقة، قاد الرئيس بوش الأكبر هذه الجوقة. فشكّلت المملكة العربية السعوديّة، القاعدة العسكريّة للقوّات الأميركيّة في المنطقة، منصّة تسيير الطائرات خلال حرب الخليج عام 1991، التي قوّضت قوّة صدام حسين، عدوّ العديـــد من الأنظمة الملائيّة النفطيّة. كانت هذه الدول ممتنّة للولايات المتحدة. فبقـــيت أســـعار النفط مستقرّة في التسعينيّات من القرن الماضي. وبنى الأئمّة مـــساجدهم. وحافظ جورج إتش دبليو بوش على علاقاته مع السعوديّين بعد خروجه من منصبه – باسمه وبالنيابة عن شركته، كارلايل غروب – كما يعتني البستانيّ بجنس نادر من الأزهار. وهكذا، نهار الثلاثاء، حتّم المنطق على الرئيس الـــسابق الـــبدء باحـــتفالات الأسبوع بمأدبة غذاء في منـــزله في تكساس، في ضـــواحي هيوستن. أتى بندر والأمير سعود الفيصل، وزير الخارجيّة السعوديّ، وكانـــت بربـــرا موجـــودة، والأميرة الأنيقة هيفاء، زوجة بندر؛ استفاضوا في التفاصيل – كيف تغيّر العالم منذ سبعة أشهر بطريقة لم يكن غيبون أو شكسبير ليتـــصوّراها – وتعجّـــبوا كيف نشأ بن لادن وأتباعه بهذه السرعة وقاموا بهذا الاعتداء، محطمين بذلك جميع اللاعبين.

ولكــــن، فهـــم بندر أنّ هذا الحدث فريد - حضور الرئيس السابق - وأنّ جورج اتش دبليو قد يملك معلومات أقلّ من المتوقّع عن مخططات الرئيس الحاليّ. كان قد عرف بندر الرجلين تمام المعرفة منذ زمن طويل. وكان يعلم، أكثر من أي أميركـــيّ مطّلـــع، أنّ علاقتهما كانت باردة وبعيدة، لا تشبه العلاقة الطبيعيّة التي تربط الأب بابنه؛ كما علم يقيناً أن الابن لا يستشير والده - على الرغم من كونه ربّما أفضل مستشار عرفه التاريخ المعاصر - وأنّ هذا الاجتماع لَهو حدث خاص حضّره تشيني، على الرغم من تردّد الرئيس الثالث والأربعين، كفرصة ذهبيّة لتذكير السعوديّين بالروابط القديمة التي تجمعهم بآل بوش وأميركا.

كانت مناقشة الاستراتيجية بين بوش الأب والأمراء السعوديّين مشوّقة، قائمة بشكل عام على العالم الذي محته اعتداءات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وكأنها جـــسر بين الأجيال. وكان الرئيس الحاليّ قد تواطأ، في السرّ، ضدّ تحالفات والده والأخطـــاء الـــتي ارتكـــبها. وكانت معارضة سميّه مبدأً موجهاً في أسلوب عيشه وقـــيادته. ففي معرض الدفاع عن انحيازه نحو إسرائيل مثلاً، أطلع بوش خبيراً قديماً في السياسة الخارجيّة: "لن أدعم والدي وجميع أصدقائه العرب!"

أيقن بندر وبوش الأب أنّ اجتماع كروفورد قد يكون مضطرباً. وقرّر الوفد، في حـــال نجـــاح الاجتماع، البقاء في تكساس لبضعة أيام إضافيّة، وزيارة مكتبة جورج إتش دبليو بوش الرئاسيّة في كولدج ستايشن. أما في حال فشل الاجتماع، قرّر عبد الله العودة للمشاركة في قمّة القادة العرب لتسليم الإخبار السيئة...

"آمل أن أراك الجمعة"، قال الرئيس السابق.

"الأمل متبادل"، أكّد بندر.

لم تكن مأدبة العشاء مع تشيني الليلة التالية أفضل... خاصة مع وصول الأمير الغاضـــب. تلـــك الليلة، صبّ الأمير جام غضبه فيما لم ينبس تشيني ببنت شفة، واكتفى بهزّ رأسه. علم يقيناً عبر تقارير وزارة الخارجيّة وملخّصات الاستخبارات المتعدّدة أنّ السياسة الأميركيّة في الشرق الأوسط أثارت سخط السعوديّين. وكانوا علـــى أهبّة الاستعداد لدفع الدول العربيّة إلى استخدام سلاح النفط ضدّ الولايات المـــتحدة - خطـــوة تشبه إعلان حرب. أكّد عبد الله للقادة العرب أنّه أتى لينقل

شكاوى جامعة الدول العربيّة، التي كانت قد عقدت اجتماعاً في أذار/مارس تغيّب عنه ياسر عرفات بسبب عزل شارون له وفرض حصار عليه في منـــزله في رام الله. وبعـــد سلـــسلة مـــن التفجيرات الفلسطينيّة، طوّقت الدبابات والطوافات المقاتلة الإســـرائيليّة الضفة الغربيّة في التاسع والعشرين من أذار/مارس. "إنها حرب أطفال ضـــدّ دبابـــات"، استـــشاط عبد الله غضباً فيما دعا الرئيس بوش شارون "رجل السلام".

"كـــيف استطاع القيام بذلك؟"، سأل عبد الله، غير مصدق، ولم يكن يتوقّع جواباً من تشيني الذي فاجأه السؤال. حاول رامسفيلد، إلى جانب الجنرال ريتشارد ب. مايـــرز، رئيس القيادة المشتركة، تغيير الموضوع مؤكّدين لعبد الله أنّ الجيش الأميركـــيّ كـــان أقوى بكثير الآن مما كان عليه إبان حرب الخليج. وسلّط مايرز الضوء على الانتصارات الأميركيّة في أفغانستان.

"ولكن تمكّن بن لادن من الفرار"، قال عبد الله بتشاؤم.

"نعم، تمكّن من ذلك، ولكننا نضيّق الخناق عليه"، أجابه تشيني فيما رمقه عبد الله بنظرة شكّ.

وأخـــيراً، انتهـــى الاجتماع. كانت طوّافة في انتظار نائب الرئيس لتقلّه إلى كـــروفورد. وفيما بدت علامات الارتياح على محيّاه، وجّه كرسيّه المتحرّك، دعا سكوتر ليبـــي، وتوجّه مباشرة إلى المخرج.

يوم الخميس، زرع بوش الأرض جيئة وذهوباً وتحقّق من الوقت بغضب. في الخـــارج، انتظـــر عدد من الصحافيّين والمصوّرين على مسافة ليست بالبعيدة، في إحـــدى هذه اللحظات الغريبة من الألفة المفتعلة التي لا تتجزأ عن الحياة الرئاسيّة. انتظـــر بوش. وهم انتظروا أيضاً، يشاهدونه ينتظر. هل من المهمّ أن ينتظر رئيساً يكره الانتظار؟ قد يعني ذلك كلّ شيء، أو لا شيء.

تـــرأس عبد الله باصاً مسرعاً بين حقول تكساس - أمام قافلة باصات مترفة اشـــتراها خصيصاً لاجتماع اليوم - وكان يدخّن سيجارة مع السائق. في الخلف، جلـــس باول، بندر، سعود، وبوب جوردان - السفير الأميركيّ في المملكة العربية السعوديّة. وتبادل الروايتان باول وبندر - رجلان يستمتعان بالحياة لأقصى الحدود

- القصص. صديقان في التحية، التقيا في الوقت المناسب. ماذا يحصل اليوم؟ أجابا بنبرة مازحة: "ما من جديد. الأعمال كالمعتاد".

بالطبع، كانت كل شيء إلا هذه الحال. لم يلتقِ عبد الله ببوش الشاب من قبل، و لم يبهره ما رآه عن بعد.

الآن، لم يفصل بينهما سوى 100 ياردة (90 متراً). وقف بوش وحده في ممرّ منزل متواضع على سهل فسيح. اعتذر عبد الله على التأخير. "ما من مشكلة"، أجاب بوش بعد انتظار دام عشر دقائق.

كان الجمع غفيراً ضاق به المنزل - كوندي وهاريت مايرز، أندي كارد ونائب الرئيس، وسكوتر ليبي الذي "شارك للعناية برجل تشيني" على حدّ تعبير أحد الضيوف. قبل التفوّه بأية كلمة، عرض عبد الله بعض الصور. أخفتت الأنوار في غرفة مكتبة الرئيس، وشاهدوا لمدّة خمس عشرة دقيقة فيلماً كان عبد الله قد أحضره، يظهر الضرر المتعمّد في الضفة الغربيّة، ودبابات أميركيّة الصنع وأطفال قتلى أو ملطّخون بالدماء، وأمهات تصرخن.

ثمّ خرج الجميع، بصمت، إلى الشرفة الزجاجيّة للرئيس، للتنفيس عن الأعمال العدوانيّة التي شاهدوها للتوّ.

حمل السعوديّون مطالب محدّدة. فقد سبق لعبد الله أن قدّم خطّته للسلام: حلّ يرتكز على دولتين، اعتراف العالم العربي بدولة إسرائيل - والعودة إلى حدود 1967، وترك القدس الشرقية عاصمة للدولة العربيّة الجديدة، وسلسلة من المطالب توقّعها في نهاية الأزمة في الضفة الغربيّة. وكانت الولايات المتحدة، الغارقة في رمال "الحرب ضد الإرهاب" المتحرّكة، تواجه مشاكلها الخاصة. وعلى الرغم من كون المملكة العربية السعوديّة مسقط رأس 19 خاطفاً - ومسقط رأس بن لادن - لم تُبدِ المملكة تعاوناً كبيراً، ومنعت الولايات المتحدة من مقابلة عائلات الخاطفين، وقوّضت جهود تقفّي تمويل الإرهاب، الذي مرّ بمعظمه عبر المؤسّسات الخيريّة والحوالات في المملكة. ولكن، بادئ ذي بدء، تلا السعوديّون لائحتهم - الطويلة، والتي تضمّنت إبعاد الولايات المتحدة عن شارون، وإجراءات من شأنها دعم الفلسطينيّين.

استمع بوش إلى المطالب، ولكن بغير إنصات. لم يرد أن يكون هنا. كان يراقب الوقت. "فلنذهب في نزهة"، قال لعبد الله بعد مرور بضع دقائق. "أنا وأنت فقط، سآخذك في جولة في المزرعة".

وتمشّيا باتجاه شاحنة بوش، مخلّفين وراءهم كتيبة من المستشارين يشعرون "بحنين إلى الملكيّة" على حدّ تعبير أحدهم - ترجمة لقول إنّ "مُثل الحكومات الممثّلة تنتفي في مثل هذه الأوقات وتخلّف شعوراً كأن شيئاً لم يتغيّر، بما أن العلاقات الخارجيّة كانت مهمّة الملوك - كيف اتفقوا، أو اختلفوا، أو قرّروا مصير أمم".

ظهرا وكأنهما متفقان داخل الشاحنة، بوش يرتدي بذلة وربطة عنق لاستقبال القائد الأجنبيّ، وعبد الله يرتدي سترة من قماش التّويد فوق ردائه. يعشق بوش القيام بذلك، يحب أن يأخذ ضيوفه في نزهة في المزرعة الممتدّة على مساحة 1.600 أكر (الأكر يساوي 4047 متراً مربعاً)، ويأخذ هذه الطريق أو تلك في وسط تكساس، متخذاً قرارات متسرّعة حول الطريق التي يسلكها، أين يتوجّه أولاً وأخيراً. كان هناك 17 فصيلة من الأشجار. دلّ عبد الله عليها، وأطلعه على حبّه للأرض ورغبته بإحلال السلام. توقّفا وتحدّثا عند أحد مواقع بوش المفضّلة. ورأيا ديك حبش بريّ.

ثم، بعد مرور ساعة تقريباً، عادا لتناول طعام الغذاء. جلس الجميع حول المائدة الطويلة على الشرفة الزجاجيّة - كولن، كوندي، أندي كارد، تشيني، بندر، بوش، سعود، عبد الله وجوردن - وسأل بوش عبد الله إذا باستطاعته أن يصلّي. وافق عبد الله، وتلا بوش الصلاة، ثمّ تناولوا لحم البقر الطريّ مع سلطة بطاطس وكعكة الشوكولا والبوظة.

وعاد عبد الله إلى وعيه ملاحظاً انتهاء كعكة الشوكولا، مربّتاً (ماسحاً) شفتيه - وكأنه فقد المهمّة التي أتى من أجلها - كما شعر بندر وسعود أيضاً. تضمّنت لائحتهم ثمانية بنود. كانوا بحاجة إلى نتائج- مخرجات (تسليمات) يحضرونها إلى الخليج المضطرب لتهدئة العالم العربيّ. هل سيدعم بوش تصريحاته بأفعال؟ هل كان منحازاً إلى شارون؟ أو هل ما زالت الولايات المتحدة مهتمّة بمساعدة أصدقائها العرب؟ هل فقدت أميركا صفة الوسيط الصادق التي تتمتع بها في المنطقة؟

ولكن، لم تكن المناقشات لتؤدّي إلى الهدف المنشود. فأراد السعوديّون ممارسة الضغوط على آريل شارون لتحرير عرفات من سجنه في رام الله. وراجع سعود الخطوات التي يمكن للولايات المتحدة اتّخاذها. لم يُبدِ بوش أية ردّة فعل تجاهها. وفصّلوا بنود الورقة. أومأ الرئيس برأسه تارة، كأنّه وجد شيئاً منطقياً، ولكنّه لم يُبدِ أيّ ردّة فعل.

وبعد مرور ساعة، هَمّ السعوديّون بالرحيل، وعلامات الارتباك بادية على محيّاهم. شعروا أنّ بوش لم يقرأ الرزمة التي أرسلوها إلى البيت الأبيض للتحضير لهذا الاجتماع: وثيقة موجزة ومقتضبة، بضع صفحات فقط، تفنّد المطالب السعوديّة وعدداً من الخيارات المطروحة ليفكّر الرئيس بها. بعد انتهاء الاجتماع، تساءل البعض من الفريق الأميركيّ لماذا بدا وكأن الرئيس لا يملك أدنى فكرة عن المآرب السعوديّة، ولماذا لم يحاول تهدئة مخاوفهم أو يحصل منهم على تنازلات في "الحرب ضدّ الإرهاب". فلم يكن من محادثة أهمّ في "الحرب ضدّ الإرهاب" من المحادثات مع المملكة العربية السعوديّة. وتحقّق العديد من المشاركين مما كان قد حصل.

اكتشفوا أن الرزمة السعوديّة تمّ تحويلها إلى مكتب ديك تشيني. لم يحصل الرئيس عليها أبداً، ولم يقرأها أبداً. في ما قد يكون أهمّ اجتماع في إطار السياسة الخارجيّة، وأكثرهم إثارةً للنزاع، في ولاية بوش الرئاسيّة، لم يكن هذا الأخير على اطّلاع على ما أمل السعوديّون تحقيقه من خلال زيارتهم لكروفورد.

ولكن تعلّم وليّ العهد عبد الله شيئاً. فقد التقى بالرئيس جورج دبليو بوش للمرّة الأولى: لقاء عميق، وعاطفيّ، وخياليّ ومرتكز على الثقة. ذهب مربكاً ولكن متأثراً بطريقة غريبة – تأثر بنزهتهما في الشاحنة، بالأشياء التي أعرب بوش عن حبّه لها خلال النزهة، وبإرادته بالعودة للتعاون معاً من أجل إحلال السلام في الشرق الأوسط، بالصلاة المتقدة التي تلاها قبل الغذاء، وبالطريقة التي سلّم بوش عليه فيما ذهب، بقبضة قوية وتوق غير محجوب. "سيدي الرئيس، اغرورقت عيناي بالدموع!"

"أنا أيضاً"، قال بوش. "أنا أيضاً".

بحلول نهاية نيسان/أبريل، مطلع شهر أيار/مايو، نجح الأطبّاء الأميركيّون بمعالجة الجروح التي أُصيب بها زبيدة – جِراح في الرِجل والفخذ والبطن جرّاء عيار

ناريّ. وأوقفوا النـــزيف الداخليّ، وعالجوا كسراً وعضواً ممزّقاً.

اســـتقرّت حالته في منتصف شهر أيار/مايو، وأصبح مستعداً. وسيرفع الستار عـــن لحظـــة رائعـــة من "الحرب ضدّ الإرهاب". بعد أشهر طويلة من التبادلات الكلامـــيّة الصعبة بين الوزارات حول الاعتقال والاستجواب ومقاضاة المعتقلين في "الحرب ضدّ الإرهاب"- بالإضافة إلى نقاشات حادّة حول تقنيّات "الاستجواب" الـــتي قد تنجح مع القاعدة - ستعذّب الولايات المتحدة رجلاً ذا اضطراب عقلي، وستفصح عن كلّ كلمة تفوّه بها.

ليـــست الأشـــهر الثمانية التي أدّت إلى هذه اللحظة - والتي نُظّمت خلالها النظـــريات القانونـــيّة لتكتسي مرونة أكبر بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر - سوى قصّة صغيرة عن التحضير المقابل لليأس.

خـــلال خريف 2001، حاولت السي آي إي والأف بي آي ووزارة العدل والمكـــتب الاستـــشاري في البيت الأبيض، من خلال المناقشات مع المحامين، رسم الخطوط العريضة لمستقبل غير أكيد: مستقبل تحتجز فيه الولايات المتحدة سجناء، الكثير من السجناء.

وانـــدرجت الأســـئلة في إطـــار تلك التي لا يطرحها المحامون أبداً، حتى في الـــندوات الأخلاقـــيّة على مقاعد الدراسة. هل يمكنك قتل مشتبه به من القاعدة عـــندما تعتقله؟ كلا - اتفق الجميع- إذ يكون ذلك انتهاك فاضح للقانون الدوليّ. ولكن لا يعني أنهم لم يطرحوا المسألة. توافق الجميع على إمكانيّة احتجاز المعتقلين لأطول فترة ممكنة - فهم موارد استخبارات ثمينة، وقد يشكّلون خطراً كبيراً إذا ما أُطلـــق ســـراحهم. وتمحـــور هدف المحامين في الحكومة حول وضع أوسع الأطر القانونـــيّة لـــتوفير الخـــيارات والامتيازات والمرونة القصوى. فمن يعرف ما يخبئه المستقبل؟

وتردّد هذا السؤال في السي آي إي ووزارة العدل في أيلول/سبتمبر 2001- هـــل يخضع المعتقلون للنظام القضائيّ الأميركيّ؟- سؤال أجاب عنه بوش في 13 تـــشرين الـــثاني/نوفمـــبر، عندما وقّع أمراً تنفيذياً ينصّ على: "نظراً للخطر الذي يتعـــرّض لـــه أمن الولايات المتحدة وطبيعة الإرهاب الدوليّ... أجد أنّه، تمشياً مع

الفقـرة 836 من الحق 10 من القانون الأميركيّ، من غير الممكن تطبيق في اللجان العسكريّة في ظلّ هذا القرار مبادئ القانون وقوانين البراهين المعترف بها عادة في محاكمة الحالات الجنائيّة التي تبحث فيها محاكم الولايات المتحدة في المقاطعات". ستجري محاكمة المعتقلين في المحاكم العسكريّة.

سيوفّر ذلك حرية أكبر في العمل. وغالباً ما كانت جداول هذه الدعاوى تتغيّر - بحسب الأحكام العسكريّة المتعلّقة بقيمة اعتقال سجين أو استجوابه. وإذا كان السجين "أجنبيًا عدوًا"- بمعنى أنه ليس مواطناً أميركياً - تُبذل كافة الجهود لضمان حصول أمر بالمثول أمام المحاكم الفدراليّة الأميركيّة.

وأصبح السؤال المتصل، المتمثّل بما العمل بالمعتقلين خلال فترة احتجازهم، مسألة ملحّة في أواخر عام 2001. جرى توقيف بضعة معتقلين قيّمين، وبحلول كانون الثاني/يناير 2002، تم اعتقال المئات من السجناء، غالبيتهم من أعضاء تنظيم القاعدة وجنود الطالبان من المراتب الدُنيا. وبدأوا يتوافدون إلى خليج غوانتانامو. وفي التاسع من كانون الثاني/يناير 2002، في مذكّرة وضعها جون يو - نائب مساعد المدّعي العام الذي وضع التحاليل القانونيّة لدعم نظرة نائب الرئيس المتمثلة بتوسيع مجال الامتيازات التنفيذيّة - أكّد أن اتفاقات جنيف التي ترعى معاملة سجناء الحرب لم تُطبّق على القاعدة أو الطالبان. وارتكز يو وروبرت جاي ديلاهونت، المؤلّف المساعد، على كون القاعدة لاعباً غير دولة، بالتالي لا تدخل ضمن اتفاقات الحرب الدوليّة، ولا نظام الطالبان "مرتبط" بالقاعدة لدرجة يستحيل التفريق بينهما. وأشارت المذكّرة إلى أنّ الرئيس لا يخضع لأيّ قانون دوليّ لأنّ دستور الولايات المتحدة لا يقرّ بذلك صراحة، وفي أي حال، أعطى القرار الصادر في الرابع عشر من أيلول/سبتمبر الرئيس "تفويضاً شاملاً في ما يتعلّق بالأزمة الحاليّة".

أحدثت هذه المذكّرة فوضى بين محامي الحكومة، ما دفع بوزارة الخارجيّة إلى الردّ بقسوة، مؤكّدة أن هذه التحاليل "تشوبها أخطاء كثيرة". لم يوافق الرئيس. ولجأ، في الثامن عشر من كانون الثاني/يناير، إلى "التفويض الشامل" مؤكّداً أنّ اتفاقات جنيف لا تطبّق وأرسل هذه الفقرة إلى البنتاغون. دفع ذلك بكولن باول

إلى التعبير عن مخاوف – وهو الرجل الأكثر خبرة عسكرياً بين المسؤولين الكبار الذين عيّنهم الرئيس. فأكّد أن اتفاقات جنيف ترعى كافة الجنود، من كلّ الأجناس. وإذا ضربنا هذه الاتفاقات بعرض الحائط، سنسبب الأذى لجنودنا، ونتخلّى عن منبر هامّ للاستقامة الأخلاقيّة.

دعا الرئيس ألبرتو غونزاليس، مستشار البيت الأبيض- ذراعه القانونيّة الموثوقة منذ كان حاكم ولاية تكساس – ليشرح لباول السياسة المقبولة تجاه هذه المسألة.

كتب غونزاليس لبوش، "كما قلتَ، إنّ "الحرب ضدّ الإرهاب" هي ضرب جديد من ضروب الحرب. فهي ليست مواجهة تقليديّة بين دول ملتزمة بقوانين الحرب التي قامت على أساسها اتفاقات جنيف 3، المتعلّقة بمعاملة أسرى الحرب. إن طبيعة هذه الحرب تعطي الأولويّة لعناصر أخرى، مثل القدرة على الحصول على معلومات من الإرهابيّين المعتقلين ورُعاتهم بأسرع طريقة ممكنة بغية تفادي اعتداءات ضدّ المدنيّين الأميركيّين، وضرورة محاكمة الإرهابيّين بتهمة ارتكابهم جرائم حرب، على غرار قتل المدنيّين المتعمّد. برأيي، إنّ النموذج الجديد يجعل الحدود الصارمة التي فرضتها اتفاقات جنيف على استجواب السجناء الأعداء قديمة، ويجعل غريبة بعض أحكامها التي تنصّ على إعطاء السجناء امتيازات صغيرة، ومالاً (أي دفعات شهريّة مسبّقة)، وبدلات رياضيّة وأدوات علميّة".

في الوقت عينه، بدأت المناقشات المتعلّقة بالناحية التكتيكيّة: ما الذي نجح. ولم تنهِ الحرب على الليبي، التي ربحتها السي آي إي، والتي أُحيلت إلى غُرف التعذيب في القاهرة، النقاش.

بل استمر هذا النقاش يستعر بين لانغلي ومقرات الأف بي آي في واشنطن، إذ أراد عملاء المكتب – وبخاصة الخبراء منهم في استجواب عملاء القاعدة – الحصول على زبيدة، على الرغم من اقتناعهم باختلاله العقليّ.

"هؤلاء الرجال متورطون في مؤامرة كبيرة"، قال دان كولمان، الخبير في استجواب أهمّ شواهد الأف بي آي في التسعينيّات من القرن الماضي. "تريد السي آي إي الحصول على كافة المعلومات بخمس دقائق، وهذا مستحيل. وهو لا يعطي نتائج. ما تحصل عليه في مثل هذه الأوضاع هو أسرى وآسرين يقومون بما يتوقّع منهما

الطرف الآخر، يؤدّون أدوار تعطيك العديد من المعلومات التي لا تفيدك بشيء".

في أروقة الأف بي آي، فكّر مويلر وفريقه فيما إذا كان وصول الأف بي آي إلى المعتقلين المهمّين يستحقّ الثمن الذي يدفعونه - أي إذا حصلوا على مرامهم بتقليص معايير "الاستجواب" التي تتبعها الأف بي آي. "إذا جرى اكتشاف اعتماد الأف بي آي وسائل خارجة عن القانون، سيلاحقنا عبؤها في كلّ قاعة محكمة"، قال مويلر لإحدى نوابه الرئيسيّين.

أما بالنسبة لمسألة الفعاليّة الكامنة، معرفة ما ينجح، أعدّت الأف بي آي العدّة "لتوقعات الاجتماع" لانتقاد الوسائل العنيفة والمتسرّعة التي تتبعها السي آي إي. تناقل العملاء نسخاً عن كتيّب التدريب الذي اكتُشف في تشرين الثاني/نوفمبر تحت أنقاض منزل محمد عاطف في كندهار. أخبر جنود القاعدة، أنه في حال تم إلقاء القبض عليهم، سيتمّ تعذيبهم وبتر أعضائهم وسيموتون حتماً.

ولكن، ما لم يتوقّعه المعتقلون، وعرف مُستجوبو الأف بي آي ذلك بفضل خبرتهم، هو الاحترام والخدمات المقدّمة بحكمة. ونجح كولمان ومستجوبو الأف بي آي بتقديم الطعام الصينيّ والأفلام الإباحيّة وإجراء عمليّة لزوجة أحد السجناء- مثل وادي الحاج، لاعب أساسيّ في تفجيرات السفارة عام 1998، أو جمال الفضل، مساعدة مقرّب من بن لادن والظواهري الذي تحوّل إلى شاهد نجم. كان العملاء موجودين عندما قالت الزوجة الممتنّة لزوجها "الآن تستطيع إطلاعهم على ما يريدون". وقد فعل.

ولكن لاقت معارضة السي آي إي دعماً من موالين لها بين جيش هواة الاستجواب في الحكومة الأميركيّة، من المكتب البيضاويّ ونزولاً. لا يملك أحد الوقت لبناء "علاقات"- كلمة نفر منها جميع الذين رأوا في عملاء القاعدة المعتقلين تجسيداً لشيطان. أما في النقاش الذي دار بين موات - لارسن وكوفر بلاك، رست الطاقات المؤسساتيّة المتسرّعة في الحكومة الأميركيّة على موقف بلاك؛ القيام بكلّ شيء وبسرعة.

اتخذت الخيارات، واستعاد زبيدة عافيته، وفي أيار/مايو 2002، حان وقت اختبار الحدود.

وفــق مصادر السي آي إي، جرى اعتماد تقنية الماء، إذ وضعت على وجهه منــشفة وســكب المــاء عليها، ما أعطى شعوراً بالغرق. تعرّض للضرب، ولكن بطريقة لا تؤذي جراحه. جرى تهديده مراراً وتكراراً، وتأكيد موته المحتم. أوقفت أدويته. وصُمّت أذناه بسبب الضجيج المرتفع والأضواء القويّة. بالإضافة إلى جراحه الخطرة التي قلّلت من قيمته، كان تحت رحمة المستجوبين أكثر من أيّ سجين آخر.

تحــت هــذا الإكــراه، أطلعهم زبيدة أن القاعدة تحضّر لاعتداء ضدّ مراكز التــسوّق. انتشرت المعلومة في العالم بلمح البصر. وساعد عملاء من الأف بي آي والاستخبارات السريّة والجمارك وغيرها من الوكالات المتعدّدة، الشرطة في تطويق هــذه المراكــز. وقال زبيدة أنّ المصارف - أجل المصارف - هي أولويّة أيضاً. وكانت القاعدة تخطّط أيضاً لتفجير السوبر ماركات المكتظّة، عدّة سوبر ماركات في آن. ســيتوقّف الــناس عن التسوّق. وسيتدهور اقتصاد الأمّة. وكانت الأنظمة المائيّة هدفاً للقاعدة أيضاً. وطبعاً المنشآت النوويّة. والمباني السكنيّة.

وســارع الآلاف من الرجال والنساء في البزات الرسميّة إلى تطويق الأماكن المهــدّدة. مــن دون شــكّ، إذا ضاعفت العدد بعشرة، لن يتوفّر عدد كافٍ من موظّفــي الدولــة في أميركــا لتطويق السوبر ماركات وتأمين حمايتها. أو حتى المــصارف. ولكــنهم حاولوا. وغالباً ما حافظت الأف بي آي على سريّة مختلف الإنــذارات. ولكــن تسرّبت الأخبار إلى وسائل الإعلام، مرّة تلو الأخرى، نظراً لتورّط الآلاف.

أطلــع تينيت وفريقه الرئيس على كافة المعلومات يومياً في تمام الساعة الثامنة صــباحاً. ووصــل مويلــر وفــريقه عند الثامنة والنصف. وقال الرئيس في أحد الاجــتماعات الصباحيّة، فيما أنهى الفريقان موجزهما، إنّ "الهجوم يأتي أولاً ثم يليه الدفاع". وكان من السهل تذكر هذه التشبيهات الرياضية التي استخدمها الرئيس، والمفضّلة عند بوش وتينيت بما أنهما من محبّي الرياضة. كانت منطقيّة. في الأغلب، في مهمّــة إيجــادهم واعــتقالهم في "الحرب ضدّ الإرهاب"، تواجد الفريقان على الأرض. وأدّى معظــم اللاعــبين في الحكومة أدواراً ثانويّة فقط. فحددت وزارة العدل قواعد اللعبة، ولو أنّ الدعاوى القانونيّة لن تُرفَع في المستقبل القريب. وتولّت

عـدّة وكالات، من الهجرة إلى الجمارك، مروراً بالتجنيس، وادارة الملاحة الجوية الفدرالية، مسؤوليّة الأمن القوميّ، والتي أشرف عليها توم ريدج، حاكم بنسلفانيا السـابق. ولكنّها كانت محاولة خاصة ومرتبكة، لا تخضع بعد لإشراف آيّة وزارة. وكانت وزارة الدفاع تحاول إنجاز ما بدأته في أفغانستان، وتحضّر للعراق.

أُعطيت السي آي إي والأف بي آي أدواراً ستحدّد مسيرهما خلال السنوات المقبلة. فكانت السي آي إي تدقّ ناقوس الخطر؛ وتهرع الأف بي آي – مثل كلب يشتمّ رائحة ما. ولكن، أين يبدأ البحث؟ الله أعلم. فليبدأ من أي مكان.

قال زبيدة إن تنظيم القاعدة على قاب قوسين من تطوير جهاز نووي بسيط. أثارت هذه المعلومة موجة تردّدات في الحكومة. ولكنها لم تكن أكيدة.

قاعـدة مُختبَرة وحقيقية: إن المعلومات الاستخبارية الوحيدة القيّمة هي تلك الـتي نـستطيع الـتحقق منها على نحو مستقلّ. ومارس المستجوبون الذين كانوا يرسلون المعلومات غير المحدّدة، كافة الضغوط على زبيدة ليقول معلومات أكيدة. كانوا بحاجة إلى اسم، إلى متعاون. ولكن المعتقل لم يكن ليفصح عن أي اسم.

تحقّق تقدّم بسيط. وفق مصادر راقبت البرنامج، كان أحد مستجوبي السي آي إي ضـليعاً في معاني القرآن، واستطاع أن يخرق تفكير زبيدة. فكان عميل القاعـدة يـؤمن بـبعض أفكار القضاء والقدر – وأن الأشياء تحصل لأسباب مقـدّرة. استخدم المستجوب هذه النقطة، مقتبساً من القرآن. كان زبيدة يؤمن بأنه نجا من الاعتداءات في فيصل أباد لهدف معيّن، فيما قُتل العديد من زملائه. وكـان مقتنعاً بأن هذا الهدف ليس إلاّ التعاون مع آسريه، وهذا ما لا يستطيع ميت القيام به.

وبالطبع هذا ما فعل. تعاون معهم وأعطاهم اسماً: خوزيه باديلا.

انـتقل باديا، الذي وُلد في بروكلين، في صباه إلى شيكاغو. وآل به المطاف إلى جـنوب فلـوريدا، حيث اعتنق الإسلام. ترك الولايات المتحدة باتجاه مصر، وكـان يخـضع لتدريب من محمد عاطف عندما قُتل القائد العسكريّ للقاعدة في أفغانستان في تشرين الثاني/نوفمبر 2001. هاجر باديا قاطعاً الحدود إلى فيصل أباد، ونـاقش بعض أفكاره غير المحتملة مع زبيدة. أراد بناء جهاز نوويّ صغير وتفجيره

في أميركـــا. لم يكن باديلا موضع ثقة في هذا المجال - فهو لم يخضع للتدريب حتى في المبادئ الأساسيّة لمسائل كهذه - ولكن حثّه زبيدة على متابعة مشاريع أخرى. ثم أُرسِل لقائد عمليّات حقيقيّ لمناقشة الاحتمالات الواردة.

كان مختار، أي الترجمة العربيّة لــ "العقل"، الاسم الرمزيّ لذلك القائد. وقد تكـــرّر ورود اسم مختار في العديد من تقارير المعلومات البشريّة التي أوردها وكالة الأمـــن القوميّ خلال السنتين الماضيتين، بما في ذلك المعلومات الناتجة عن التنصّت المـــتعلّق بالحادي عشر من أيلول/سبتمبر. بعد مرور فترة من الزمن، قال زبيدة إن اسم المختار الحقيقيّ هو خالد شيخ محمد.

شـــكّل هـــذا الإفصاح أهمّ تقدّم في الاستجواب. أما بالنسبة لباديلا، تأكّد زبـــيدة من خلال المعلومات الواردة أنّه جرى القبض عليه - نتيجة باللحم والدم لتعاون زبيدة. أطلع المعتقل مستجوبيه على كيفيّة إيجاده، وتحدّد موقعه في باكستان بعـــد مـــرور بضعة أيام. لحق العملاء به. وكان متجهاً نحو الولايات المتحدة. في الـــثامن مـــن أيار/مايو، نـــزل باديلا عن متن طائرة في مطار أوهار في شيكاغو. استقبله عملاء الأف بي آي عند البوابة.

في الـــدور السابع من مبنى السي آي إي، شعر معظم المشاركين بالرضا عن قرار عدم إحالة معتقلين بأهمية زبيدة إلى النظام القضائيّ الأميركيّ.

"تخـــيّله جالساً مع محامٍ"، قال جون ماكلولين خلال أحد اجتماعات الساعة الخامسة في شهر أيار/مايو، حيث تمّ نقاش بعض المعلومات التي أفصح زبيدة عنها. سيكون ذلك بمثابة فشل ذريع وتام. أتتخيّل ما كنا سنضيّع!"

في مسألة الاستجواب، شكّل زبيدة اختباراً أولاً، وقدّم نتائج قابلة للمراجعة الآن. وبـــدا أن الأف بي آي - وبعض عملاء السي آي إي الذين طالبوا باعتماد وسائل استجواب ألطف - كانوا على حقّ. وكانت وسيلة الاستجواب التقليديّة والـــرقيقة تـــبدو أنها قد تنجح. وفي ما يتعلّق بـــ "الوسائل القصوى"- ومنافعها وعـــيوبها - قدّمت حجّة مضادّة. وسأل رئيس في مديريّة العمليات: "هل نجحت لأنّـــه تعرّض للتعذيب أولاً؟ هذا لبّ المشكلة. عندما تبدأ الاستجواب - وتجرّب كلّ شيء- من الصعب معرفة ما نجح".

وتـــوالت الأسابيع، واضمحلّت الإنذارات شيئاً فشيئاً. وبدأت معالم القاعدة الخفيّة تتضح. وسرى تشبيه القاعدة باللغز في لانغلي، وكان التشبيه المفضّل. كانت القاعـــدة أشبه لغز كبير. بالطبع إنها لغز تجمع أجزاءه من دون رؤية الصورة على العلـــبة الخارجيّة، أو معرفة حجمها. "إن الخطوات الأولى تبدأ بمعرفة القطع على الحافـــة"، يقـــول جون ماكلولين للمدراء الرئيسيّين. هكذا، تحدّد الإطار. ويحدّد الإطار الحدود، ويقودك إلى الباطن.

واتـــضح أن آلـــة القبض على الإرهابيّين الكبيرة - أي وكالة الأمن القوميّ وشـــركائها مـــن شركات الاتصالات، مثل فيرست داتا ومختلف الغرف الماليّة - بحاجة إلى معلومات عالية الجودة لأداء مهامها، وإلاّ تكون قد حطّمت كلّ شيء، وسبّبت التضليل والأذى في كلّ الاتجاهات. وبالنسبة لوكالة الأمن القومي، كانت أرقـــام الهاتف وعناوين البريد الإلكترونيّ التي أُخذت من كوخ شاباز بمثابة كنـــز ثمين من المعلومات. وجرى إعادة تقييم جميع المعلومات البشريّة القائمة على كلمة "مخـــتار" والـــتي تمّ جمعهـــا في العالم منذ عام 2000، تحت هويّة خالد شيخ محمّد المعروفة.

وبـــدأت النتائج تتبلور من خلال أرقام الهاتف وأجهزة الكمبيوتر والأقراص المدمجة وعناوين البريد الإلكترونيّة المُصادرة من منـــزل زبيدة اليوم، بعد مرور شهر علـــى اعتقاله. لم تعد هذه المعلومات تافهة، على غرار العديد التي تكشّفت عنها أبحـــاث فيرست داتا في البداية. أُدخلت هذه المدخلات الجديدة العالية الجودة في أجهزة كمبيوتر كراي الفائقة في وكالة الأمن القوميّ؛ وشكّل العديد منها جذور شجرة مراقبة - من الجذع إلى الغصون والبراعم. تفتّح كلّ برعم في ثوانٍ وشكّل شجرة أخرى.

تالياً، أُرسلت التقييمات الأساسيّة إلى السي آي إي، حيث تمّت مقابلة معظم خطـــوط الاتصالات الواعدة بالدوافع المرافقة لها في عالم النظام الماليّ. وفي الأروقة السريّة، عمل "فيل القلق"، سيّد خطة السي آي إي وفريق من خبراء الاتصالات، ومعظمهـــم من النساء، أياما طوال وافترشوا الأرائك. ولاحظ "فيل القلق"، على غـــرار ندّه في الأف بي آي، دينيس لورميل، أنّ السرّ يكمن في تحويل هذه العمليّة

غير الفعالة من الأبحاث، أو التدقيقات في بطاقات الائتمان مع كلّ رجل يحمل اسماً عـربياً واسـتأجر شاحنة. على حدّ قولهم، كان ذلك بمثابة استخدام المنظار من الطـرف الخطأ. من جهة أخرى، إن متابعة الدوافع وراء بطاقة ائتمان محدّدة، أو حساب مصرفيّ، أو رقم هاتف، من شأنه أن يكشف شبكة عالميّة في الوقت عينه. هـذا هـو الوعي الأوليّ الإنسانيّ، الذي تصوغه التكنولوجيا بشكل عام. طارِد الوحـوش، الإرهابيّين، وتأكّد من وجهتهم. لا تعتقلهم. بل إلحق بهم. هل يتسوّق مـشتبه بهما في الوقت عينه في متجر في وامبلي؟ أطلب من السي آي إي الاتصال بـإم آي5، واطلب إرسال عميل إلى الشارع. هل يقف ثلاثة رجال أمام واجهة مصرف واحد في ميونيخ؟ جد المنظمة الأم. وابدأ بنسج شبكة كخيوط العنكبوت، خـيوط الـشبكة الـتي تنـزل على الشاشات أو الملصقات أو حامل اللوحات، واكتشف الأطراف التي يربط الخيط بينها.

كانـت لعبة حاسمة، مستقرّة، ولكن بطيئة. لا يتبلور المنظر إلاّ عندما تحقّق ضـربات كافـية، وتسلّط الأضواء الكافية لعرض الاتصالات الكثيرة، وتكشف المواقع الساخنة التي تجمع الإرهابيّين.

في غـضون ذلك، يجب وصل الخيوط ببعضها بعضاً. خضع معتقل في سجن غوانـتانامو - جمعـة الدوسري، وهو بحرينيّ في أواخر العشرينات - لاستجواب أفـضى إلى الإفـصاح عـن معلومات. اعتقل الدوسري مع مجموعة المعتقلين في أفغانـستان في الخـريف. واحـتاج المحقّقون الأميركيّون إلى بضعة أشهر قبل أن يكتـشفوا أنّه كان من الموظفين في القاعدة الذين وصلوا إلى أميركا قبل سنة، في نيـسان/أبـريل 2001. خلال الاستجواب، أقرّ "جمعة" أنّه كان قد التقى مجموعة رجـال في لاكاوانا، وهي منطقة تقع غربيّ نيويورك تضمّ مجتمعاً يمنياً كبيراً، وأنّه كان قد حاول تجنيدهم.

في الواقـع، انتبهت الأف بي آي لأحد رجال نيويورك هؤلاء بعد مرور وقت قصير على زيارة جمعة في الربيع. فقد أشارت رسالة وصلت إلى مكتب الأف بي آي أنّ مجمـوعة من الرجال من لاكاوانا كانت قد سافرت إلى أفغانستان "للاجتماع ببن لادن والخـضوع لتدريب معه". بعد مرور فترة قصيرة على استلام الرسالة، عاد أحد

الــرجال مــن أفغانستان واستجوبته الأف بي آي في بوفالو. بدت تفسيرات الرجل جديــرة بالتــصديق ظاهرياً؛ فكان مستقراً، مثقفاً ومتزوجاً، له العديد من الأطفال. وضــعت الأف بي آي التقرير جانباً ولكنها استمرّت بالتحقيق فيه وفي المواطنين من مجــتمع لاكاوانا. ولكن تكشّف استجواب الدوسري عن وجود اسم مستعار لرجل آخر في لاكاوانا، كمال الدرويش، وكان حراً طليقاً. وُلد الدرويش في بوفالو، وعاد وعائلــته إلى اليمن في صغره، وبعد مهمّة قصيرة في المملكة العربية السعوديّة، عاد إلى بوفالــو عــام 1998، رجلاً يبلغ الخامسة والعشرين من العمر. كان القائد الروحيّ لمجموعة لاكاوانا، وقادها إلى مخيّم فاروق للتدريب في أفغانستان في أيار/مايو 2001.

بعــد اكتشاف اسمه المستعار، استطاع موظّفو المعلومات البشريّة الأميركيون تحديــد الاتصالات التي أجراها مع سعد بن لادن، نجل أسامة، وتوفيق بن عطّاش، أحــد مخطّطــي تفجيرات الباخرة الأميركيّة، يو أس أس كول، عام 2000. كما اكتشفوا أنّه تدرّب على استخدام الأسلحة المتطوّرة في أفغانستان، وقاتل إلى جانب الثوّار المسلمين في البوسنة في منتصف التسعينيّات من القرن الماضي.

دقّــت هذه المعلومات نواقيس الخطر. كان الدرويش خطراً، مرتبطاً بشكل وثــيق بصانعي القرار التابعين للقاعدة - وبصفته قائداً روحياً ومرشداً ساحراً - وأقــرب ما يمكن إلى مركز قائد خليّة. خلاصة القول إن خليّة الدرويش لا بدّ من أن تتألّف من الرجال في لاكاوانا.

في السابع عشر من أيار/مايو، أُرسلت المعلومات إلى قوّة الإسلاميّين المتطرّفين الــتابعة للأف بي آي، ومنها إلى المكتب الميداني في بوفالو. بعد أشهر طويلة طرح خلالهــا بــوش كافــة أنواع الأسئلة على مويلر - "هل هناك خلايا إرهابيّة في أميركــا؟"- أخــيراً، حــصل المدير في الأف بي آي على الجواب. أجل، سيدّي الرئيس، نظنّ أننا اكتشفنا خليّة منتشرة في أنحاء لاكاوانا في نيويورك، وهي مدينة فقيرة تقع على تخوم بحيرة إيري.

في غــضون ذلك، استمرّ زبيدة بالكلام - ربّما كان كلامه هراءً، وربّما لا. كــان من شبه المستحيل التأكّد منه. قال لمستجوبيه أن جسر بروكلين مستهدف. وهكذا تمثال الحريّة. نعم، الاثنان.

حاولت الأف بي آي المحافظة على سرية المعلومات. ولكنها تسرّبت إلى قسم شرطة نيويورك، التي تضم قسماً لمكافحة الإرهاب.

في نهاية شهر أيار/مايو، كانت التحذيرات سيّدة الموقف في المدينة.

دافـــع ديـــك تـــشيني، علناً، عن هذه التحذيرات. "لقد اعتقلنا العديد من الأشـــخاص حـــتى الآن"، أكّد السيد تشيني خلال حديث مع برنامج لاري كينغ لايف الذي تبثّه قناة السي إن إن. وتابع: "ومع تقدّم هذه العمليّة، نكتشف المزيد عن احتمال وقوع اعتداءات مستقبليّة. ووفقاً لهذا النوع من المعلومات، نحاول أن نبقـــى متنبهين ونحاول تحذير الناس عندما تراودنا شكوك مشروعة عن شخص أو هدف معيّن".

مثَل دونالد رامسفيلد أمام لجنة فرعيّة تابعة للجنة تخصيص الأموال في مجلس الـــشيوخ في 21 أيار/مايو، لعرض الموازنة العسكريّة. ولكن كانت الخطبة الصغيرة التي ألقاها حول "الخطر" جديرة بالملاحظة.

"في مـــواجهة الحقائق، يجب أن نقرّ أنّ الشبكات الإرهابيّة تربطها علاقات بدول إرهابيّة تمتلك أسلحة دمار شامل، وستضع يدها على هذه الأسلحة لا محال، ولن تتردّد دقيقة واحدة في استخدامها. هذا هو العالم الذي نعيش فيه".

وتابـــع مناقشاً كيفية ارتباط الإرهابيّين بإيران والعراق وسوريا وليبيا وكوريا الـــشماليّة و"دولـــة أو دولتين أخريين"، كلها تطوّر أسلحة دمار شامل. وقال إنّ الإرهابيّين ينوون الحصول على أسلحة نووية وكيمائيّة وبيولوجيّة، وسينجحون في نهايـــة المطـــاف رغـــم الجهـــود التي تبذلها الولايات المتحدة للحؤول دون ذلك. وأضاف: "سنمرّ في مرحلة تحذيرات محدودة، إذا توفّرت التحذيرات". وشدّد على أنّ إرهابيّـــي القاعـــدة منتشرون في الولايات المتحدة "وهم على درجة عالية من التدريب".

كانت تُحدث هذه التعليقات التي ترسلها الإدارة منذ عدّة أشهر الأثر المتوقّع. وأكّـــد استطلاع للآراء أجرته سي بي إس نيوز، قبل شهادة رامسفيلد وانذارات مديـــنة نـــيويورك، أنّ 33% من الذين شملهم الاستطلاع اعتقدوا باحتمال وقوع اعتداء إرهابيّ آخر. قبل أسبوع، كانت النسبة تبلغ 25% فقط.

وفيما كانت سلسلة التحذيرات والموجزات والتصريحات العلنيّة المحذّرة تصب السـزيت على نار الخوف الذي ينتاب الرأي العام، كانت نيران الخوف تشتعل في أروقة الإدارة وعلى أعلى مستويات الأمن.

ارتكزت تصريحات رامسفيلد الأخيرة حول وجود إرهابيّين "على درجة عالية من التدريب" في الولايات المتحدة على المعلومات السريّة حول لاكاوانا، التي بقيت مخفيّة عن الرأي العام لأشهر طويلة. ونتجت تعليقاته حول الروابط بين الإرهابيّين والدول المارقة – أو دول تضمّ عناصر غير خاضعة للسيطرة، مثل باكستان – من تقارير متكرّرة وطارئة عن المخيم في كندهار وذيول الجمرة الخبيثة.

تمّ تحقـيق تقدّم في الموضوع الأول. فقد تحرّك الرئيس مشرّف بقوّة ضدّ العلماء الـنوويين الباكـستانيّين وأمة تعمير النو، المنظّمة التي مثّلوها. وأشارت استجوابات سـلطان بشير الدين محمود – واختبارات كاشف الكذب التي أشرفت السي آي إي علـيها – أنّ العلماء لم يمرّروا أية مواد إشعاعيّة إلى بن لادن. وفيما أكّدت اختبارات كـشف الكذب بشدة معلومات اجتماع المخيم، قدّمت أيضاً مساعدة وفيرة لعملاء الاسـتخبارات الباكستانيّة وقادهم إلى أعضاء أمة تعمير النو ومناصريها، بما في ذلك العديـد مـن مـصادر تمويلها من داخل الولايات المتحدة. وبعد أن أبدت الولايات المـتحدة استياءها إزاء عدم مساعدة الجنود الباكستانيّين في السيطرة على طرق الفرار مـن تورا بورا كما وعدوا، تصرّف مشرّف بحزم مع منظمة أمة تعمير النو. في أواخر ربيع 2002، جرى اعتقال العديد من أعضاء المنظّمة، ووضع محمود – العالم الذي لم يزل يتمتّع بصيت مهمّ في باكستان – تحت الإقامة الجبرية في منـزله.

أمّـا مـسألة الجمـرة الخبيثة، فكانت أكثر تعقيداً. فبدا أن عدد المختبرات والقـدرات كانت أكبر وأكثر من المتوقّع. وكان رولف موات – لارسن يطارد أشـباحاً – تتنقّل بين باكستان، وأفغانستان وإندونيسيا. أما في ما يتعلّق بحصول الإرهابـيّين على مواد إشعاعيّة وكيمائيّة وبيولوجيّة، ظنّ نائب الرئيس أنها ليست سوى مسألة وقت وليس قدرة.

ساعدت كلّ هذه التقارير في تعزيز شعور رامسفيلد بعدم جدوى المحاولات الأميركـيّة الآيلـة إلى إيقـاف انتشار أسلحة الدمار الشامل ومنع الإرهابيّين من

الحصول عليها. وأعطى هذا الشعور الزخم لخطط اجتياح العراق... بأقرب وقت ممكن.

وعبّر رامسفيلد عن أفكار تشيني حول كيف يغيّر "ردّنا" التصرّفات – مهما أظهرت البراهين – خلال اجتماع سريّ مع قادة الدفاع في حلف شمال الأطلسيّ في بروكسيل في السادس من حزيران/يونيو. وبحسب ملخّص عن الخطاب الذي ألقاه، أكّد الوزير للمجتمعين أنّ "الدليل الحاسم لا يمكن أن يشكّل شرطاً مسبقاً للتحرّك".

وفقاً للمشاركين في موجزات مجلس الأمن القوميّ حول الخليج في تلك الفترة، كان الدافع الأساسيّ وراء اجتياح العراق جعل صدّام حسين عبرة للآخرين، وإحداث نموذج برهان يُرشد سلوك كل من يسعى بتهوُّر للحصول على أسلحة دمار شامل، أو يستخفّ بسلطة الولايات المتحدة.

خلال الاجتماعات في المكتب البيضاويّ، غالباً ما يطلق الرئيس على العراق لقب "مغيّر قواعد اللعبة". على وجه الخصوص، شدّدت النظريّة على أنّ الولايات المتحدة – من خلال عمليّة قويّة ضدّ حسين – ستغيّر قواعد التحاليل الجيوسياسيّة وقواعد تصرّف عدد كبير من الدول.

على الرغم من ذلك، لم تكشف التقارير المتعلّقة بين لادن والعلماء الباكستانيين، أو الظواهري وبرنامج الجمرة الخبيثة، أيّة روابط واضحة مع هذه الأفكار. فهم لاعبون من خارج إطار الدولة يتعاملون مع علماء يعملون لحسابهم الخاص على مشاريع وضعوها بأنفسهم.

وزاد عدم الارتباط هذا من حجم الضغوط على تأكيد الرابط بين صدّام والقاعدة. فشكّكت السي آي إي بوجود أية علاقة بين الاثنين، ولكن تغاضى عنها نائب الرئيس ودونالد رامسفيلد وموظفوهما.

في النهاية، كانت وحدات المخابرات التابعة لهما تكدّ في العمل. وفي أواخر ربيع 2002، امتلك نائب وزير الدفاع بول ولفويتز سلسلة من البيانات الصورية المساعدة وحملها إلى الاجتماعات الرفيعة – بما فيها ملصقات وبيانات تشير إلى علاقة محتملة لمسؤولين عراقيّين بمحمد عطا وغيره من عملاء القاعدة.

وركّـزت تحالـيل وحدة مساعد وزير الدفاع دوغلاس فايث في البنتاغون، بمـساعدة مكـتب تشيني، على رؤية متظاهرين سعداء يجوبون شوارع بغداد بعد أحـداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. في الاجتماعات المتتالية، طُرحت الأسئلة وفـق مـا عرضـته مخـتلف الفضائيات العربية. هل من المعقول أن تكون هذه التظاهرات - الزاخرة بالعبر - عفويّة؟ وإلاّ، كم يستغرق التخطيط لها وتنظيمها؟ ألا يعني ذلك أن صدّام حسين علم بالاعتداءات مسبقاً؟

أوكلت السي آي إي فريقاً للبحث عن الأجوبة، ورفعها، والحصول على نـسخ جديـدة عن الأسئلة. من غير ضغوط، بطريقة منسّقة فقط. أي بتكرار الأسئلة فقط.

وقالـت مديـرة الاستخبارات جايمي ميسيك: "ما اتّضح أن بعض الأسئلة طـرحت مراراً وتكراراً... وكأن الجواب سيتغيّر بطريقة ما، حتى من دون سبب مقبول - وكأن أية معلومات جديدة سترد".

وكانـت السي آي إي عالقة في ما يعتبره البيت الأبيض العازم على التحرّك عالمـاً قائمـاً على الحقائق الماضية - عالم أمثال سكوكروفت وباول. وفي الوقت الـذي قد فهم فيه محلّلو السي آي إي وقاحة ما كان البيت الأبيض يقترحه - ما أكّدته نظرية تشيني - لم يستطيعوا التصرُّف طبقاً لذلك. أقلّه ليس حتى الآن.

الفصل الرابع

رأس الظواهري

دقّت الساعة الرقميّة في تمام الساعة الواحدة وعشر دقائق صباحاً في 8 حزيران/يونيو، وحاول دان كولمان الوصول إليها لإسكاتها. لا يملك الوقت للتحديق في السقف المزخرف في الشقة المستأجرة بعيداً عن المنزل. لا يملك الوقت ليصحو، في أي مكان.

وقف متأوّهاً، ارتدى سرواله وكنزة سيتون هول، كان يرتديها كلّما أتيح له الأمر - إذ كانت ابنته طالبة في السنة الثانية الجامعية - وبعد بضع دقائق، قاد سيّارة من نوع 2000 أولدزموبيل إنتريغ، سوداء حالكة اللون، كعملاء الأف بي آي، خارج المرآب. كانت الشوارع هادئة، ولكنّ الأنوار تضيء المدينة كالعادة - النصب التذكاريّة، مركز التسوّق، البيت الأبيض- وفكّر في لندن خلال الحرب، وكيف قُطع إمداد التيار الكهربائي عنها. تساءل، هل كلّ هذه الأضواء ضروريّة في منتصف الليل؟ هل من أحد يحمي المدينة خلال ساعات الصباح الأولى الضعيفة؟

مع خلوّ الطرق من السيارات، استطاع أن يقود بسرعة إلى شارع 495 بالتواي، الذي يمرّ في واشنطن وصولاً إلى شارع دولز تول، متجهاً شمالاً غربياً نحو مطار فيرجينيا. فيما مرّت المناظر الطبيعية المتشحة بالسواد أمام ناظريه، أخذته الأفكار إلى زوجته وأولاده في نيو جرسي، وداء الربو الذي يعاني منه، والذي كان يتفاقم، وفكّر بداني، ابنه البكر، الموجود في أفغانستان ضمن القوات الأميركيّة المظلية التي نزلت إلى كندهار. بعث داني رسالة ذلك الأسبوع مؤكّداً أن الأمور تجري على ما يُرام، وأن المهمّة لم تعد طويلة. اعترته فرحة عارمة عندما قرأ الرسالة.

رأى داني آخــر مرّة في كانون الثاني/يناير، عندما استطاع الحصول على إذن قــصير وأقاموا حفلة على شرفه. وصلهم خبر عودته إلى المنــزل قبل الأعياد بفترة قــصيرة، وأصــرّت مــورين على المحافظة على أضواء العيد وجوارب عيد الميلاد وحرصــوا علــى ريّ شجرة العيد للمحافظة على لونها. وهكذا، عندما يصل إلى المنـــــزل، يشعر بأجواء عيد الميلاد. وهذا ما حصل فعلاً. أقلّته مورين من المطار. وقاد دان مثل المجنون من واشنطن للمشاركة في الحفلة. كانت جميلة جداً، خاصة أن ابــنه لا يــرتدي البزة العسكريّة - كعادته، يخلعها بأسرع ما يكون - وتبدو علامات الارتياح واضحة على محيّاه، مبتسماً، مرتاحاً وغير مبال بالأعمال البشعة الــتي قام بها - ما من مشكلة يا أبي. أخبرني، كيف حالك؟ تماماً مثل والد دان، الــذي حالت إصابته في الحرب العالمية الثانية دون أن يصبح شرطيّاً، أو جدّ دان، الشرطيّ الذي لم يهتمّ كثيراً بمدى قسوته. كانت عبارة تتردّد: لقد قمت بواجبك.

دائمــاً نجــد حفنة من الرجال الذين - بسبب ألعاب القدر، أو مجرّد حظّ سيء- يعيشون ليشهدوا لحظات تاريخيّة كبيرة. ويعطينا التاريخ أمثلة كثيرة - على غــرار المزارع من منساس، فيرجينيا، الذي هرب من منــزله المدمّر خلال 1861، إلى بــيت أكثــر هدوءاً في أبومتوكس، وتمّ توقيع وثائق الاستسلام في الحرب في منــــزله؛ أو سيناتور هاواي دانيال إينوي الذي تسجّل للخدمة في الحرب العالميّة الثانــية، فــيما كان الأميركيّون من أصل يابانيّ يُقادون إلى مخيمات الاعتقال، ثمّ حصل على ميدالية الشرف في أوروبا التي تحمل العبارة الشهيرة "go for broke"، أي المخاطرة القصوى، لفوج الجنود اليابانيين - الأميركيّين.

بعيداً عن الأضواء، كان دان أحد هؤلاء الرجال: فعلى الرغم من كلّ الآثار الجانبيّة، حمل في سجّله أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. بالطبع كان هناك، وهــرع مــع بعض زملائه من مقرّات الأف بي آي إلى الأبراج التي كانت تهوي. بذلــوا كلّ ما بوسعهم - كدحوا، وساعدوا الجرحى، صرخوا وبكوا ذلك اليوم، وخــلال الأيام التالية. ثم ركب سيارته الأولدزموبيل السوداء، وتوجّه إلى زوجته مورين وتبادلوا النظرات، وهم يعلمون يقيناً أنّ داني، الجنديّ الأميركيّ، سيذهب إلى أفغانــستان، وســيكون ضمن القوات الأولى التي ستصل. أياً تكن الظروف،

ستكون هذه المهمّة بخطورة المهمات الأخرى. عبّرت مورين عمّا راود أفكارهما: "لا يكفي أنكم لم تستطيعوا إيقاف الاعتداءات. سيُقتل ابننا الآن".

وفيما بدت أنوار مطار دولز، فكّر دان بذلك، بما قالته مورين، ثم بحفلة عيد الميلاد، وبما قالته مورين ثانية – ذكريات وثيقة الاتصال. بُني المطار في أرض مقفرة وبعيدة عام 1962، وما زال قائماً وحده، مهجوراً، على هضاب فيرجينيا، مضاء عند الساعة الثانية فجراً. وجّه سيارته الكبيرة بعيداً عن مبنى المسافرين الكبير، باتجاه مبنى الطائرات الخاصة – الطيران العام – وترجّل من سيارته في ليلة حزيران/يونيو هذه.

كان رجلان في انتظاره في بهو المبنى – أحدهما مقدّم، رجل ضخم لم يعرفه دان؛ وكان قد تعرّف على الرجل الثاني، المدعو ستيف، بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. وكان ستيف عاملاً اجتماعياً قبل أن يصبح موظّف استخبارات مع دلتا فورس. وكانا قد وصلا لتوّهما على متن طائرة من أفغانستان.

صرخ دان، "ستيف". تبادلا الأحاديث لبرهة، وأوصل ستيف الأخبار التي كان دان يأمل سماعها – لقد قابل داني، وكان بصحة جيدة. ترعى شروط سريّة صارمة هذه المسألة. فلا يُسمح للعديد من جنود القوات الخاصة إطلاع أحبّائهم على مكانهم أو طبيعة مهمّتهم – ولكن خالف ستيف القواعد قليلاً لصديقه دان، الذي يخوض معه الحرب عينها.

فقال ستيف، "سمعت أنه رجل رائع". فهزّ دان رأسه وضحك. "أجل، هذا ما سمعت أيضاً".

ثم حان وقت الجدّ.

"تطلّب الأمر بضعة أشهر، ولكن، حصلنا عليه". تناول ستيف من كيس الدفيل علبة حديدية مستديرة، خضراء، عسكريّة اللون، كُتب عليها بحروف صفراء- الحكومة الأميركيّة – بحجم علبة قبّعة.

أعطاها لكولمان. فتحرّك شيء في داخلها.

رفع دان نظره نحو ستيف. "إذاً، إنه في الداخل؟"

"على حدّ علمي"، أجاب ستيف.

رأس الظواهري.

كـيف انتهى رأس الظواهري هنا، في مطار دولز؟ على غرار جميع المسائل، يقـوم تحديـد نقطة بداية على إرادتك في التعمّق في الموضوع. بالنسبة للباحثين المـتعمّقين، يمكـنك أن تبدأ عام 610 بعد المسيح، عندما حبس بائع في منتصف العمر، يدعى محمود ابن عبد الله بن عبد المُطّلب، نفسه في كهف جبلي قرب مدينة مكّة المكرّمة للصلاة والتأمّل، وظهر عليه الملاك جبرائيل. أمر الملاك محمّد باستظهار آيـات طـويلة أنـزلها الله وتلاوتها - مقاطع ستشكّل في النهاية أساس القرآن الكريم.

عندما وافت المنيّة محمد، بعد مرور 20 عاماً، كان قد تغلّب على العديد من خـصومه، وأسـس ديانـة توحيديّة جديدة، جمعت، بالنسبة له ولتابعيه، تعاليم المسيحيّة واليهوديّة معاً، وأنجحتها وأكملتها.

وشـكّل هذا الإيمان حجر الزاوية الذي قامت عليه إمبراطوريّة كبيرة امتدّت مـن مكّة المكرّمة لتشمل، خلال القرنين المقبلين، الكثير من شبه الجزيرة الأيبيرية، وآسيا الوسطى والجنوبيّة، وأفريقيا، ومناطق عدّة من جنوب شرق آسيا.

وطـبع نمـوّ هذه الحقبة مفهوم الاجتهاد، أو التفسير النقديّ للتعاليم الدينيّة لتُطـبّق في الحياة اليوميّة ولتشمل جميع الحالات. ورفع علماء شبه الجزيرة العربيّة الـذين اعتنقوا الدين قبل وصول محمّد، راية مفهوم الاجتهاد بعد موته وساعدوا الـناس، إلى أيـة فئة انتموا، وأياً كانت عاداتهم وتقاليدهم، على إيجاد ملاذ تحت مظلّة الإسلام.

ولكـن يتطلّب بناء إمبراطورية اتخاذ قرارات صعبة. إذ يسعى المسؤولون إلى الـسيطرة علـى الانتصارات. بعد مرور 200 سنة، أي في منتصف القرن التاسع، نشأت أربع مدارس فكر رئيسيّة، يقدّم كلّ منها سلسلة أجوبة لمسائل لم يوضحها القرآن، السنّة، ومختلف النصوص الإسلاميّة، وهكذا أُوصدت "أبواب الاجتهاد". وهكـذا، بـدأت تضمحلّ "الحقبة الذهبية للإسلام" المزعومة، والعديد من الدول "مهـد الحضارات"، التي كانت قد اعتنقت اللاهوت. ولكن، ستستعر المواجهات داخل الديانة حول حقّ الاجتهاد - أو مختلف تفسيرات التعاليم الأولى - على مرّ

الألفيّة المقبلة، وبين المعسكرين الرئيسيّين في الديانة، السنة والشيعة.

تـــرتفع حدّة المواجهات لتتوّج، في مطلع القرن التاسع عشر، بنشوء الحركة الوهابـــيّة، التي حملت اسم مؤسّسها ابن عبد الوهّاب، الذي كان يؤمن أنّ بعض تعالـــيم الإســـلام الأولى والصارمة قابلة للتطبيق، من أجل إعادة إحياء الديانة في العـــصور الحديـــثة. آمن وهّاب وأتباعه بضرورة فتح "الأبواب"، لكي تسمح لهم بفرض التعصّب الشديد القائم على سلسلة من التفسيرات الحرفيّة. والتزمت عائلة ســـعود التي أثبتت سيطرهّا على العربيّة بعد الحروب الطويلة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين بهذه الحركة الوهّابيّة.

وبحلول نهاية القرن العشرين، ازداد عدد الشباب العرب المثقفين الذين هبطت عـــزيمتهم بسبب غياب الفرص والشعور بالاستياء من النظم العربية "المحدّثة"، التي غالباً ما كانت أنظمة ملكيّة تقمع مواطنيها.

مـــن شـــأن هذه المواجهة بين المحدّثين والمتعصّبين أن ترسم التاريخ الحديث لـــبعض الـــدول مـــثل إيـــران، وأفغانستان، والعراق، والمملكة العربية السعوديّة وباكـــستان، ومـــصر، والأردن - أي كلّ دولة إسلاميّة تقريباً - وكأنها مبارزة عنـــيفة تحصل في عدّة بلدان على سطح المصالح الأميركيّة الزلقة والمرتبطة بالنفط. ومن بين هؤلاء الشباب المثقفين والمميزين والمحبطين في هذه الحقبة، برز اسم الجرّاح المـــصريّ، أيمـــن الظواهري، الذي اختار التعصّب والسياسة، إلى أن تمّ اعتقاله مع آخرين إثر اغتيال أنور السادات عام 1981. جرى تعذيب الظواهري في السجون المـــصريّة، وازداد تعـــصّبه، ثمّ برز ليرأس حركة الجهاد الإسلاميّ في مصر، وهي مجموعة انصهرت في نهاية المطاف مع مجموعة بن لادن، لتؤسسا معاً تنظيم القاعدة.

بفـــضل ذكائه وشرّه، ساعد الظواهري في تعميق تعصّب شريكه الشاب والغـــنيّ، وطوّر الجهود التي يبذلانها، بإحضار عدد من الخبراء التكتيكيّين - من مهندســـين وعلمـــاء وأخـــصائيي كمبيوتر - من المثقفين المصريّين. وأشارت المعلومات البشريّة التي تمّ جمعها مباشرة بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر إلى أنّ عملاء القاعدة يطلقون على الاعتداءات لقب "خطة الطبيب". لم يكن ذلك بمفاجـــأة بالنسبة للذين يتابعون أخبار الظواهري. كان لبن لادن بمثابة تشيني،

الـــرجل الأكبر سناً الذي حرص على تنفيذ الأفكار. وسرعان ما تحوّل الطبيب إلى مطلـــوب كمـــا بن لادن، ورُميت المناشير في سماء أفغانستان عندما بدأت الحـــرب، ومقدمةً "مكافأة بقيمة 25 مليون دولار لمعلومات" تؤدّي إلى قتله أو اعتقاله...

اســـتمرّت تقاريـــر موت الظواهري ترد، أقلّه أربعة في أواخر 2001 ومطلع 2002. وبعث كلّ تقرير أملاً في البيت الأبيض، والسي آي إي، وفي نفس كلّ من عرف أي شيء. ولكن، تلاشى كلّ أمل عندما خضعت التقارير للتدقيق.

ولكـــن هذا كان مختلفاً. فقد أكّد وفد من قادة القبائل الأفغانيّة أنّ البرهان أكيد. فقد قُتل الظواهري في كانون الأول/ديسمبر – وقت تزامن مع ورود العديد مـــن التقاريـــر – ودُفـــن في واد، ســـرعان مـــا غمرته الثلوج. بالطبع، طلبت الاســـتخبارات العسكريّة الأميركيّة، بالتعاون مع القوات الخاصة الكنديّة، براهين أكـــيدة قبل تسليم مبلغ 25 مليون دولار. ما من مشكلة، أجاب قادة القبائل. مع بدء ذوبان الثلوج في الربيع، سيكون من السهل نبش الجثة، وهذا ما حصل.

وهكذا، انتهى الرأس المنـــزوع الفكّ في علبة حديدية وضعها ستيف، العامل الاجتماعيّ المتحوّل إلى العمل الاستخباري، بين يديّ دان كولمان القويّة، المنحدرة من سلاسة الأقوياء الأيرلنديّين في نيويورك.

"شكراً"، قال دان كولمان، رغم أن شكره لم يكن نابعاً من القلب.

ودخـــل الرجلان، إلى جانب الضابط الثالث الذي لم يقل الكثير، بل اكتفى بالمراقبة، إلى الغرفة المجاورة.

"فلنرَ"، قال دان.

رفـــع الغطاء، ومدّ يده داخل العلبة الباردة والرطبة، وغرز أصابعه في رمال النهر، ورفع الجمجمة التي تبقى عليها القليل من الجلد على الرأس.

كانـــت أشبه بطابة بولينغ. حملها بين يديه، كما حمل هاملت رأس يوريك. نظـــر إليها الرجال الثلاثة بتقدير، ورأوها في نفس الوقت: في منتصف الجبين، برز انبعاج في الرأس المقلوع الأعين. كان الأمر جلياً: النقطة السوداء التي طبعت جبين الظواهـــري، علامة التقوى والاتضاع الناتجة عن ساعات السجود الطويلة، عندما

كبس رأسه على الحجر، أو الإسمنت، أو الخشب، أو على التراب بكلّ بساطة، بعدما كرّس حياته لمشيئة الله.

"لا أدري"، قال دان. "من دون شكّ يشبه الرأس رأسه".

وافق الرجلان. من دون شكّ.

بعد برهة، تأبط دان العلبة، وفتح صندوق سيارته السوداء. كان الغبار يكسو صندوق السيارة، مثل مواد التنجيد في المقعد الخلفيّ أو السجاد أو الكروم الذي يزيّن الراديو، مع بقايا صغيرة لبودرة بيضاء. لم يحظَ دان بالوقت لتنظيف سيارته بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر.

وهكذا، من وادي نهر في أفغانستان، ووضع الرأس بين كومة الغبار في سيارة، جرّة دفن متحركّة صُنعت في أميركا.

فيما خرج دان من مطار دولز، شعر بالجنون يسيطر على رأسه. كان من الغريب الاحتفاظ بهذا الشيء اللعين في صندوق السيارة. كان ذلك بغاية السريّة. أشارت الأوامر التي تلقّاها بعدم إطلاع أحد، حتى الذين يتمتّعون بتصاريح أمنية رفيعة. ولكن، يا إلهي، ماذا لو أُوقف جانباً وخضع للتفتيش؟ أنّى له تفسير الجمجمة في الصندوق؟

ضغط على الراديو. غيّر المحطّات. لم يجد شيئاً. ثم أخذ الكتاب المسجّل الذي كان يستمع إليه – كتاب القيصر لكولين ماكولو: رواية، وجزء من سلسلة "أسياد روما" التي تكتبها. على غرار العديد من رجال الشرطة، أتاح له وجوده في السيارة وقتاً كثيراً ليتثقف. أحبّ الكتب عن الرومان. ومثل الكثيرين، وجد نقاطاً مشتركة كثيرة معهم. ولكن، ما أثار اهتمامه فعلاً كيفيّة استخدام الرومان لسلطتهم، وكيف أدركوا مخاطر استخدام هذه السلطة.

استمع إلى الرواية فيما قاد مسرعاً باتجاه عاصمة الأمّة، حاملاً رأس عدّونا في صندوق سيارته.

في مقرّات الأف بي آي الإسمنتيّة العملاقة في الشارع التاسع، وهي منطقة متوسّطة بين الكونغرس و1600 بنسلفانيا، كانت الأنوار مُضاءة ولكن خافتة، في مختبر البراهين في الطابق الثالث. كان هناك حاجة إلى طبيب شرعيّ لاستلام الرأس

وتـــسجيله كبرهان – ولم يكن من السهل إيجاد شخص لتسليم الرأس عند الساعة الثالـــثة صباحاً. كان الشخص الذي اتصل به أخصائيّاً في البقايا المدفونة. وكانت أيـــضاً أمــاً عزبة، تبنّت طفلة صغيرة من روسيا قبل بضعة أعوام. دخل دان على رؤوس أصابعه؛ وأشارت الطبيبة، التي تُدعى ميسي، إلى يسارها، ووضعت إصبعاً علـــى شفتيها. كانت الطفلة، البالغة من العمر 8 سنوات، تغطّ في نوم عميق على الأريكة.

"ماذا لدينا هنا"؟ همست الطبيبة.

"رأس"، أجـــاب دان غير مبال، "ونحن بحاجة إلى مطابقة الحمض النوويّ". كان الحديث مختصراً. بالنسبة للأشخاص مثل دان، يعرف أيّ شخص في أية مرتبة في الحكومة وفي أميركا على ما هو "بحاجة لأن يعرف". يطّلعون فقط على ما يجب أن يعرفوه. ولا كلمة إضافية.

فتحت ميسي الصندوق الحديديّ ووضعت يدها المكسوّة بقفاز. "لا يتوفّر لنا كـــلّ ما نريد" لإجراء فحص المتقدّرات للحمض النوويّ، الذي يسمح لنا بتحديد الحمض النوويّ لشخص ما من خلال مقارنة الأغشية الحيّة بعيّنات. رفعت الرأس وألقت نظرة عن كثب، مثل طبيب الأسنان، متفحصة إياه بدقّة. "ربما أجد نسيجاً في أحد الأسنان".

وضـــعت الرأس على خرقة قماش معقّمة، نظرت إلى دان وأخذت استمارة برهان. "تحت أيّ اسم أسجّله؟"

أجاب دان، فيما دوّنت: "265أن ي-259391".

نظـــرت إليه بترقّب. "أليس ملفّ قضية بن لادن؟". هزّ دان برأسه، دون أن تتغيّر ملامح وجهه. فأعطته إيصالاً.

انتظروا في المكان وصمت غريب خيّم عليهم. دان، ميسي، رأس الظواهري والطفلة الصغيرة على الأريكة.

فهمـــست: "آمل أن يكون أياً كنت تأمل". ومن دون إصدار أيّ صوت مخافـــة إيقاظ الطفلة، وُضع الرأس – تحفة "الحرب ضد الإرهاب" وطلسمها – في خزانة.

بعـــد مرور بضعة أيام، ثقب الخبراء الشرعيّون الجمجمة للوصول إلى الضرس الأماميّ. كان يحمل بقايا أنسجة حيّة. حصلوا على عيّنتهم.

وبات بإمكانهم الشروع بتحليل الحمض النوويّ.

أُحضرت السي آي إي، وبدأت عملها. يمكن للحمض النوويّ غير المُقابَل أن يكشف الجنس والعمر، ولكن، من أجل الحصول على هويّة محدّدة، كانوا بحاجة إلى مقابلـــة الحمـــض النوويّ بفرد من أفراد العائلة. كان محمّد، أخ الظواهري، رهن الاعـــتقال في القاهـــرة. فاتـــصل مدير عمليّات في السي آي إي برئيس في جهاز الاستخبارات المصرية.

فسّر له الوضع.

أنـــصت المـــصريّ. وقـــال "ما من مشكلة، سنأتي بأخيه، نبتر يده ونرسلها إليكم".

"يا إلهي... كلاّ!"، صرخ المسؤول في الوكالة. أرسلوا لنا عيّنة دم. سنكتفي بقارورة دم صغيرة".

تـــنهّد المـــصري قـــائلاً: "حسناً، القرار قرارك. تريدون دماً، ودماً سنرسل إليكم".

سافر يسري فودا مثل فارٍ من العدالة، كرجل كان يعرف الكثير.

هذا صحيح. فقد أمضى في منتصف نيسان/أبريل، يومين مذهلين في شقة في كاراتـــشي مـــع خالـــد شـــيخ محمّد، بن الشبح وغيرهما، يتحدثون عن القرآن، ويصلّون، ويناقشون أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر.

أخـــبر خالـــد شيخ محمّد فودا أنّ التخطيط لعمليّة "الثلاثاء المقدّس" بدأ قبل ســـنتين ونصف من تاريخ وقوع الاعتداءات. فقال، "فيما كنا نناقش الأهداف، فكّرنا بادئ ذي بدء ببعض المنشآت النوويّة، ولكنّنا عدلنا عن الفكرة لأننا خشينا أن تخرج عن السيطرة".

فأكّد خالد شيخ محمّد أنّه تقرّر وضع فكرة المنشآت النوويّة جانباً "حتى الآن".

مـــن الواضح أنّ خالد شيخ محمّد، الكويتيّ الجنسية، كان قائد العمليّات في القاعـــدة، القائـــد التكتيكيّ على الميدان بالنسبة لبن لادن الرقيق، أو الظواهري،

المفكّــر الاستراتيجي. أخبر فودا أنّ صفّ الشهداء المجنّدين طويل للغاية – كانوا كــثيرين لدرجــة ضــمّ التنظــيم قسماً يدعى "قسم الشهداء"، حاضرين للقيام باعتداءات ضدّ "الكفّار والصهاينة".

في مرحلة ما، عرض شريكه، بن الشّبح، على فودا حقيبة تضمّ "مذكّراته مــن هامبورغ"،- العشرات من الأغراض، تتراوح بين كتيّبات الطيران الخاصة بطائــرة البويــنغ، إلى كتب باللغة الإنكليزيّة وأقراص مدمجة عن برامج محاكاة الطــيران. في الواقع، اختير بن الشبح ليكون الخاطف رقم 20- وليس الموسوي الذي شُطب اسمه من قائمة الخاطفين بسبب اعتباره غير أهل بالثقة – ولكنه لم يــستطع دخــول الــولايات المتحدة بسبب ورود اسمه على عدّة لوائح "منع الــسفر". كان شاباً، أنيقاً، ومثقفاً – وبطريقة غريبة، كان يساوي فودا ثقافة وفكراً. وتلا صلاة أصابت ضيفه بقشعريرة: "ستبقى كلماتنا ميتة، مثل عرائس مــن شمع، جامدة لا نبض فيها ولا حياة. فقط عندما نموت لأجلهم، ستستفيق من سباتها وتعيش بيننا".

في نهايــة المطاف، أجرى فودا مقابلة مطوّلة مع الرجلين، مكث ليلة ثانية، ثمّ عُصبت عيناه واستعدّ للرحيل. وعد خالد شيخ محمّد للمراسل أنّ الأشرطة ستصله بأسرع وقت ممكن.

إلاّ أنّ الوعد بقي حبراً على ورق. انتظر فودا، وأخذ إجازة للتفكير بما كان قد حصل، وعمل على المشروع بصمت، متقفياً الطريق الذي سلكه بن الشبح في هامبورغ. شارك في مؤتمر "الإعلام والإرهاب" الذي عُقد في القاهرة، ثم سافر إلى بيروت ليقابل عائلة زياد الجرّاح- قبطان الرحلة 93 للخطوط الجوية الأميركيّة التي تحطّمــت في ريــف بنسلفانيا. حلّ مطلع حزيران/يونيو، ولم يستلم بعد أشرطة المقابلة، ولكنّ استلم عدّة رسائل غريبة تفيد بتليم الأشرطة مقابل أموالاً نقديّة. في غضون ذلك، لم يطلع أحداً على ما كان قد حصل في كاراتشي.

تبدو مقرّات الجزيرة في الدوحة في قطر وكأنها بين السي إن إن أو أية شبكة تلفــزيون أجنبــيّة. ولكــن أسلوب إيصال الرسائل إلى الجمهور والمعضلات التي تواجهها تختلف اختلافاً بسيطاً. في حين تلقي الجزيرة بظلالها على الشارع العربيّ،

تشكلّ في الوقت عينه حقل اختبار واسعاً يظهر إمكانيّة تطبيق مُثل الصحافة الحرّة في هذه المنطقة غير المضيافة من العالم.

عندما رأت المحطة النور عام 1996، كمشروع الأمير المفضّل - شيخ حمد بن خليفة آل ثاني من قطر - الذي اعتلى العرش بعد والده المسنّ إثر انقلاب سلميّ - رحّب بها الغرب كقفزة مهمّة نحو المستقبل.

بدأت فكرة إقامة محطة كبيرة وعربيّة مع بي بي سي، التي حاولت إطلاق خدمة ناطقة باللغة العربيّة مع محطّة سعوديّة عام 1994- محاولة تمّ العدول عنها عام 1996.

استفاد الأمير من هذا الفشل، ووظّف العديد من الصحفيّين المدرّبين والناطقين بالعربية الذين عملوا مع بي بي سي في بداية مشروعها. وسرعان ما كبرت محطّته، وأعطت زخماً لمهمّة آل ثاني الأوسع والقاضية بتحويل دولة قطر المنتجة للنفط - وهي دولة بمساحة كونّكتيكوت عائمة على 14 تريليون متر مكعّب من الغاز الطبيعيّ - إلى سويسرا العالم العربيّ. ستكون دولة غنيّة، محايدة، ومستقرّة. ويتساوى إجمالي الناتج المحلّي للفرد، والبالغ 26 ألف دولار أميركيّ، مع معظم الديمقراطيّات الغربيّة. ويعتنق 95% من السكان الإسلام، ولكنّهم ينتمون لأصول مختلفة، إذ يزعم نصف سكّان قطر انتماءهم لأصول باكستانيّة أو هندية أو إيرانيّة. ولكنّ ذلك لا يخفي وجود مجتمع إسلاميّ متعصّب، وبعض الأصوليّة بين سكّان قطر البالغ عددهم 900 ألف نسمة. ويسير الأمير، الذي تحكم عائلته، آل ثاني، قطر منذ أواسط القرن التاسع عشر، في الخط الوسط بين العالم القديم التيوقراطيّ وقبضة العالم الجديد. وهذا يثير تناقضات عميقة: فالأمير يسنّ القانون، وهو وزير الدفاع، في دولة تبلغ نسبة التعلّم فيها 89%، وتتمتّع بنظم رعاية صحية عالميّة، ومحطة تلفزيون فضائيّة.

وسرعان ما برزت التعقيدات. فانتقدت المحطة حكومتها، ما أثار إعجاب وزارة الخارجيّة الأميركية عام 2000. وبعد بثّ قصّة قاسية عن الأردن، أُقفل المكتب في عمّان، واستدعت الأردن سفيرها في الدوحة. ودعم السعوديّون الذين أصابهم مُصاب الأردن، فرض حظر إعلانيّ ضدّ المحطّة. وفي إطار الردّ على أخبار

الجزيـــرة، اتبعت ستّة دول أخرى المثل السعوديّ. واستلمت القناة الفضائيّة حوالى 400 رسالة شكوى رسميّة.

علـــى الـــرغم من كون الولايات المتحدة محور تركيز التقارير القويّة المنتقدة للـــبرامج والأخـــبار الرئيـــسيّة التي تبثّها المحطّة، والتعليقات المناهضة للغرب على طـــاولات الحوار، كانت هذه التكاليف بخسة مقارنة بمنافع الحصول على مصدر إعلاميّ مستقلّ في العالم العربيّ.

ولكـــن، مع اندلاع الحرب ضد أفغانستان، جرى إعادة تقييم الحسابات – على غرار كلّ ما يرسم السياسة الخارجيّة الأميركيّة. ونظراً لعدم حزبيتها وتعاطفها مـــع العـــالم الإسلاميّ، بثّت الجزيرة تقارير مكثّفة عن المجازر التي يسبّبها القصف الأميركـــيّ في أفغانستان. أثارت الصور حفيظة صانعي القرار الأميركيّين، وحثّت كـــولن بـــاول على تشجيع الأمير على كبح جماح المحطّة خلال زيارته للولايات المـــتحدة في مطلـــع شهر تشرين الأول/أكتوبر. أجاب آل ثاني بعظة عن الحريات المحبّبة: "تتطلّب الحياة البرلمانيّة التمتّع بإعلام حرّ وموثوق... وهذا ما نحاول بناءه".

إلى جانب الصور المروّعة – مثل جثث الأطفال الأفغان المحترقة في جلال أباد – اعتُـــبرت المحطّة قاعدة لبن لادن، الذي ظهر على شاشتها لأوّل مرّة عام 1998. بعد مرور ساعات قليلة على بدء قصف الطائرات الأميركيّة للدولة في مطلع شهر تـــشرين الأول/أكتوبـــر، شاهد جمهور عالميّ أسامة بن لادن، الكلاشنيكوف إلى جانـــبه، جالـــساً خارج مخبأه في الكهف واصفاً الحرب بأنها حرب بين الإسلام والغرب. قال، "لن تذوق أميركا طعم الأمن والسلامة إلاّ عندما نذوق طعمها في أرضنا".

وتـــتالت تصريحات بن لادن. أُرسلت الأشرطة مباشرة إلى الجزيرة في مقرّاتها الأفغانيّة في كابول. اشتكت كوندوليزا رايس من أن القاعدة كانت تبعث رسائل مـــشفّرة إلى المنتسبين إليها أو مسانديها، وطلبت من الإذاعات الأميركيّة عدم بثّ أشرطة القاعدة من دون مراجعتها مراجعة دقيقة.

ولكـــنّ الخيـــبة كانت أعمق. فكان بن لادن والقاعدة يظهران أن اللاعبين من خـــارج الدولة يستطيعون أيضاً إرسال رسائل قويّة. فكان منظر بن لادن، مبتسماً أما

مخبئه في الكهف، أو متحدثاً بلغة عربيّة أنيقة عن التحدي الذي يواجهه المسلمون الآن أمـــام الجبار الأميركيّ، عرضاً رائعاً وخيراً قوياً. وبدت الولايات المتحدة، التي تدّعي التمتّع بقوّة إعلاميّة عالميّة توازي قوّتها العسكريّة، منهزمة مجدداً.

في مطلـــع شهر تشرين الثاني/نوفمبر، اعتُبرت الجزيرة مُسهّل طَريق بن لادن. وتـــوجّه الـــرئيس إلى تينيت، بعد لقاء آل ثاني خلال زيارته في الرابع من تشرين الأول/أكتوبر.

لم تكـــن الصداقة التي جمعت الأمير بتينيت سريّة. فقد زار تينيت قطر مرّات عدّة بعدما أصبح مدير الاستخبارات المركزيّة. وكان الأمير، الذي يبلغ طوله ستّة أقـــدام وثمانية أعشار حوالى (180 سم)، ووزنه 350 باونداً (160 كلغ)، والذي يـــرتدي الثـــياب والأحذيـــة المزركشة بالذهب، من رجال تينيت. كانا يتبادلان النكات. ويتحدثان بقسوة إلى بعضهما البعض.

بالطبع، دخل كلّ ذلك ضمن أسلوب تينيت. مع مرور السنين، استحقّ ثقة قـــادة الدول العربيّة – ثقة اعتبرتها الولايات المتحدة في الأشهر الأولى بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر كنـــزاً ثميناً.

"ما هذا الصف الطويل – أتقبّل العديد من الضفادع قبل إيجاد الأمير؟"، قال المديـــر التنفيذيّ بازي كرونغارد عن علاقات تينيت المتعدّدة – مع عبد الله ملك الـــسعوديّة، وأمـــير قطـــر، ومـــشرّف، وإلى ما هنالك. "قبّل جورج العديد من الضفادع".

بدا تينيت وكأنّه البائع الخياليّ الذي يقوم بكلّ ما اقتضى الأمر – من الأكل، والسهر طوال الليل على كأس من المشروب المفضل، إلى إرسال بطاقات معايدة – ليربـــح زبـــوناً. أصبح، بالنسبة للعديد من القادة العرب – مستشاراً غير رسميّ، ينصحهم عن أعمالهم في هذا العالم المعقّد.

في هـــذه الحالة، علم تينيت أن آل ثاني في وضع حرج– محكوم بين واجباته تجـــاه الولايات المتحدة والعالم العربي المضطرب. شعر قادة مختلف الدول العربيّة، أنـــداده، بالغضب تجاه ما تعرّضوا له من الجزيرة في السنوات الماضية، وتجاه عدم شعورهم بالراحة تجاه آل ثاني.

أنّـى لآل ثـاني الآن تقديم تغطية أكبر للولايات المتحدة؟ ضغط عليه تينيت لكبح جماح المحطّة. ففسّر الأمير أن القادة العرب غالباً ما اشتكوا له أيضاً. بالنسبة للأشقّاء العرب والولايات المتحدة، قال الأمير أن المفتاح يكمن في الالتزام بقاعدة قاسية، ألا وهي عدم التدخل أبداً في مسائل التغطية. لا حول ولا قوّة له.

نظـرت الـسي آي إي إلى خياراتها بمنظار أوسع. فقد جرت مناقشات في أواخـر تـشرين الأول/أكتوبر، ومطلع تشرين الثاني/نوفمبر، حول الخطوات التي يجب اتّخاذها.

وعلـى حـدّ تعبير كرونغارد، "تركّز الأمر حول مبدأ سيتردّد على مسمعنا خلال السنوات المقبلة عن العالم العربيّ. تحدّث معهم بلغة يفهمونها".

في الـثالث عـشر من تشرين الثاني/نوفمبر – في هذا اليوم المضطرب الذي سقطت فيه كابول بيد حلف شمال الأطلسيّ، وجابت الاحتفالات شوارع المدينة – دمّـر صـاروخ أميركي مكاتب الجزيرة. وبات صحافيّو الجزيرة الذين يغطون سقوط المدينة على الشارع.

في هـذا الإطـار، قال مدير الجزيرة محمّد جاسم العلي، "يعرف الجميع هذا المكتب، الطائرات الأميركيّة تعرف مكان المكتب. يعرفون أننا نبثّ من هنا".

في الواقع، كان كلّ ذلك صحيحاً.

ولكن السي آي إي والبيت الأبيض شعروا بالرضا الآن وقد استلمت الجزيرة الرسالة.

في صـباح الرابع عشر من حزيران/يونيو 2002، كان أكبر سبق صحفيّ للجزيرة يدخل المبنى. شعر فودا، الذي يملك الملاحظات والتصريحات التي دوّنها – حـتى و لم يحـصل بعـد على الأشرطة التي وُعد بها – بضرورة تقديم تقرير لرؤسائه.

على مأدبة الغداء في مجمّع دبلوماسيّ أنيق مطلّ على البحر في الدوحة، سرد فودا سلـسلة الأحـداث والخداع والمقابلات التي أجراها لمحمد جاسم العلي، مدير تحرير الجزيـرة أيـضاً. صرخ العلي "هذا مستحيل!". قال لفودا أنهما يجب أن يتوجّها إلى المراتب الأعلى، يجب أن يطلعا نائب رئيس القناة الفضائيّة. وهذا ما فعلا بعد الظهر.

في الـصباح التالي، التقيا رئيس الجزيرة، شيخ حمد بن تامر آل ثاني (نسيب الأمير). شرح فودا لمدة نصف ساعة ما كان قد وجده، حتى قاطعه الشيخ طارحاً بعض الأسئلة. "الأشرطة! متى ستحصل عليها؟" أخبره فودا القصة. "كم شخص يعرف حتى الآن؟" أجاب فودا أنّ الأشخاص المجتمعين في هذه الغرفة فقط يعلمون. فقال شيخ حمد: "حافظ على سريّة الموضوع، ولا تخاطر. وإذا احتجت إلى أيّة ترتيبات خاصّة لضمان أمنك، ما عليك إلاّ إخباري".

سأل حمد عن خالد شيخ محمّد. فقبل أسبوعين، عقد رئيس الأف بي آي، بوب مويلر، مؤتمراً صحفياً معلناً رسمياً أنّ خالد شيخ محمد هو العقل المدبّر وراء أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر – أهمّ إفشاء أفصح عنه زبيدة. انتشرت صور الإرهابيّ وتاريخه في كلّ وسائل الإعلام، ورفعت خالد شيخ محمّد إلى مرتبة المجرم العالميّ، وإلى بطل أسطورة في معظم الدول العربيّة.

لأشهر، لم يسمع أحد أخباراً عن بن لادن أو الظواهري – فأتت أخبار خالد شيخ محمّد لتسدّ الفراغ. ووُضع رمزي بن الشبح، عضو خليّة هامبورغ الوحيد الذي لم يزل حراً، في إطاره الصحيح، أي إلى جانب خالد شيخ محمّد. مقابلة مع الاثنين؟ أكبر سبق صحفيّ في تاريخ الجزيرة.

تحدّث فودا ورؤساؤه طوال النهار بأصوات خافتة. فلن يجري الاحتفال بذكرى الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، ونشر وثائق فودا المخطط، قبل 3 أشهر. توجّب القيام بالكثير. سيقوم المراسل بعمل جيّد عن الموضوع بكاميرا صغيرة محمولة. ولن يعرف طاقم المشروع أية معلومة. يجب أن يبقى الموضوع على درجة عالية من السريّة. واتفق الجميع على هذه النقطة الأخيرة.

دخل جورج تينيت إلى اجتماع الخامسة من بعد الظهر وبدا كأنه سينفجر.

قال فيما جلس الجميع، "اليوم، سأبدأ أولاً". تغيّرت العادة التي قضت بعرض جدول التهديدات الذي رفعه مركز مكافحة الإرهاب، والتقارير المختلفة التي تلتها.

ليس اليوم، قال جورج. "ما أحمله اليوم سيكون الشيء الوحيد الذي سيهمّنا".

كان حزيران/يونيو قد انتصف. جلس المشاركون في أماكنهم.

"كمـــا تعلمـــون، واجهنا اختلافات مع صديقنا الأمير. ولكن اليوم، قدّم لنا هديّة رائعة".

ثم عرض القصة الطويلة، والحلوة، مضيفاً لها نكهة خاصّة. قصة اجتماع فودا مع كبار مسؤولي الجزيرة قبل بضعة أيام، وسرد كافة التفاصيل الأساسيّة – بما في ذلـــك احتمال تحديد المبنى وسكّانه، طبيعة المعلومات التي أعطاها خالد شيخ محمّد ورمـــزي، بمـــا في ذلـــك المبادرات العمليّة، مثل خطط القاعدة الأساسية القاضية بـــضرب منشأة نووية أميركيّة. كان فودا يعلم تماماً موقع الشقة في كاراتشي، وفي أيّ دور. وأنهى حديثه بعبارات المحبّة المعهودة الخاصة بتينيت:

"وأخيراً سنلقي القبض على هذا السمين اللعين".

نـــاقش تينيت والأمير شروط تعامل السي آي إي مع هذه المعلومات، كما أكّـــد رجل شارك في الاجتماع. لم يكن أحد، حتى إدارة الجزيرة، يعلم أنّ الأمير قام بهذا الاتصال.

لبرهة، عمّ طابع الاحتفال قاعة المؤتمرات. وعلى حدّ تعبير رئيس في السي آي إي شـــارك في الاجـــتماع: "كانت تلك قضيّة جورج الخاصة، وأحبّ أنّه اســـتطاع تـــسليمها بهـــذه الطـــريقة العظيمة. وكلّنا شاركناه هذه الفرحة – فالمعلـــومات التي أفشاها كانت حتى الآن من أفضل المعلومات الاستخبارية التي حصلنا عليها".

في نهاية المطاف، لم يكن تينيت من الأفراد الذي يكرّسون حياتهم للسي آي إي، ولم يكن مدرّباً على وسائل جمع المعلومات الاستخبارية. كان رجل سياسة، رئيس موظّفين تابع للكونغرس، ارتقى السلّم في الوقت المناسب، وأثار إعجاب بيل كلينتون، ووصل إلى المراتب العليا.

طرحت بعض الأسئلة عندما بدأ الاجتماع. هل كان الأمير يقوم بهذه الخطوة للـــتفوّق على السعوديّين – خصومه الذين زعموا أنهم حاولوا اغتياله قبل سنوات، ولم يتعاونوا مع المطالب الأميركيّة العديدة؟ هل حاول كسب رضا الأميركيّين رغم تـــدميرهم لمركز المحطّة في كابول، أو بسببها؟ هل أنتج عرض القوى في هذه الحالة النتائج المبتغاة؟

قـــدّم مركـــز مكافحـــة الإرهاب تقرير الخطر. وقدّم هانك معلومات عن أفغانـــستان، وورولـــف عن مبادرات أسلحة الدمار الشامل، وفيل القلق عن الخطة الـــشاملة. ثم فضّ الاجتماع وخرج الجميع لاستلام مهام جديدة قائمة على هديّة الأمـــير. ستمـــسح وكالة الأمن القوميّ بعض مناطق كاراتشي. ويجب على قادة المراكز في باكستان وضع استراتيجية لجمع المعلومات البشريّة. والآن، بات بمقدور مركز مكافحة الإرهاب تركيز جميع الجهود المنسّقة على المدينة. وحصل مستجوبو زبيدة على سلاح جديد، على القدرة على مفاجأة زبيدة بمعلومات غير متوقّعة – أنهم يعلمون مكان تواجد "المختار" وبن الشبح أيضاً – ويرون ما إذا سيسدّ المعتقل بعض الثغرات عن طريق الخطأ. هكذا تُجمع أفضل المعلومات شيئاً فشيئاً: يقرّ فرد بمعلومات يقدّر أنّ مستجوبيه يعرفونها أصلاً.

وأردف تينـــيت: "لن يغطّ لكم جفن قبل تحقيق الهدف. فنحن نشدّ الخناق عليهم".

وأصبحت غرفة متابعة الأوضاع- هذه الغرفة في الطابق السفليّ في البيت الأبـــيض، المربّعة والمكسوّة أرضها بالخشب وبشاشات تنـــزل من السقف – بأهمـــيّة المكتب البيضاوي الذي تتناوله جميع القصص في الحكومة الأميركيّة. في تحـــوّل غريب في عصر الإعلام، سيطرت هذه الغرفة الصغيرة المكسوّة بالسجاد علـــى خيال الرأي العام. فقد بثّت شاشات التلفاز أفلاماً دراميّة تدور أحداثها في نـــسخة عـــن هـــذه الغرفة، أو شاهد الحشد، على مدار الساعة، اللاعبين الحقيقـــيّين جالـــسين في بيئتهم الطبيعيّة. يبدو أن الكثير من الأحداث تجري في هذه الغرفة، عندما يلتقي الرئيس بمجلس الأمن القوميّ في أيام التحدي والخطر هذه.

ولكـــن العكس صحيح، إذ لا تجري الأحداث الهامّة في هذه الغرفة. سيؤكّد لك ذلك أي وزير. فغالباً ما تكون اجتماعات غرفة متابعة الأوضاع منظراً فقط، غرفة لإلقاء خطب، فرصة لإطلاع الرئيس على مختلف الخطط التي ترسمها وزاراته الأساسـيّة، ثم طـــرح بعـــض الأســـئلة. وهكذا، تُتّخذ جميع القرارات قبل بدء الاجتماع، أو في بعض التجمّعات الصغيرة في الرواق بعد انتهاء الاجتماع.

أمــا بالنــسبة لحــلّ المشاكل ووضع خطط العمل، غالباً ما يتجاهل الخدّام المدنيّون غرفة متابعة الأوضاع ويجتمعون في غرف أصغر قريبة منها - حيث يجري العمل الحقيقيّ.

مــنذ أواخر تشرين الأول/أكتوبر 2001، وكل أربعاء عند الثامنة والنصف فجــراً، يجــتمع ستة رجال في هذه الغرفة، يشربون القهوة، في أكثر الاجتماعات ســرية وإنتاجــيّة في الحكــومة الأميركيّة. شكّلوا مجموعة شاملة، يديرها دايفيد أوفهاوزر،المستشار العام لوزارة الخزينة، وهو محامٍ أنيق نسّق "الحرب الماليّة" العامة الــتي شــنّتها الحكومة. كما شارك في الاجتماع ممثلون عن مجلس الأمن القوميّ، والــسي آي إي ووكالــة الأمن القوميّ والبيت الأبيض. وشارك آخرون أيضاً في الاجتماع بشكل دوريّ. وكانت مهمتهم الأسبوعية تقضي بالتفكير بطرق جديدة بكيفيّة تدفّق المال في العالم وبكيفيّة استخدام هذا التدفّق ضدّ القاعدة.

وأمــر الــرئيس خلال الاجتماع الوزاري الخاص في 17 أيلول/سبتمبر بأن تخوض أميركا "حرباً مالية" ضدّ الإرهاب. فبدأ موظّفو الخزينة بتجميد أي حساب وجدوه - حسابات كانت كافية ليطلق الرئيس تحدياً منمّقاً الأسبوع التالي في روز غــاردن. "بــدأ هذا الصباح هجوم كبير في الحرب ضد الإرهاب بجرة قلم"، قال بــوش في 24 أيلــول/سبتمبر، كاشفاً النقاب عن لائحة بسبع وعشرين هيئة، 13 مجموعة إرهابيّة مشتبهة، 11 فرداً، وثلاث مؤسسات خيريّة - جرى تجميد أصولها في الــولايات المــتحدة، أو وضع الخطط لذلك. "أطلقنا اليوم ضربة على الأسس الماليّة لشبكة الإرهاب العالمية".

لــيس بالتحديد. لم يكن سوى إطلاق ما دعاه أوفهاوزر وغيره "استراتيجية روز غــاردن"- وهي إعلانات مستمرة عن تجميد أصول المنظمات والأفراد الذين يحملون أسماء عربية.

أراد الــرئيس تجويــع الإرهابيّين - وقطع خطوط الإمداد الماليّة. وقال بوش خلال مؤتمر صحافي آخر عُقد هذه المرّة في السابع من تشرين الثاني/نوفمبر في مقرّ جديــد للحــرب الماليّة، أو الفينسين، في فيينا في فيرجينيا، "من خلال إقفال هذه الشبكات، نعطل عمل القتلة".

ضاعف كلّ تصريح الضغوط للحصول على نتائج. ففي أواخر شهر تشرين الأول/أكتوبر، دعا أوفهاوزر 40 ممثلاً تقريباً من مختلف الوكالات لأخذ لوائح بأسماء أهمّ عشرة أهداف للإرهاب الماليّ. ضمّت العديد من اللوائح اسم باشا وزير. كان وزير الفرد الرئيسيّ في التمويل الظليل، من الإمارات العربيّة المتحدة - بازار الأموال المكشوف في العالم العربيّ. كان يرأس سلسلة حوالات، مصارف ومراكز تحويل أموال في جنوب آسيا وأوروبا. خلال الأسابيع التالية، فيما قابل الجميع معلوماتهم، اتّضح أنّه مدير أموال أسامة بن لادن الرئيسيّ.

في هذه المرحلة، طلب أوفهاوزر من دينيس لورميل المشاركة في اجتماعات الأربعاء. بالطبع كانا يعملان في مجالات مختلفة. فكان أوفهاوزر وزملاؤه يبذلون كلّ الجهود من أجل وقف تدفّق الأموال للإرهابيّين، عاقدين العزم على تحقيق عهد الرئيس في "الحرب المالية". فيما حاول لورميل استخدام الأموال كمصدر استخبارات ومعلومات أساسيّ لإيجاد الإرهابيّين والقبض عليهم.

ولكن بدأت مصالحهم - ومصالح وزاراتهم - تتقارب. قرّرت مجموعة الأربعاء أنّ وزير كنز ثمين، ولا يجب تجميد أمواله بهذه السهولة وإعلان النصر. شطبوا اسمه عن لائحة التجميد والمصادرة التي كان من المفترض أن يكشف الرئيس عنها خلال احتفال وزارة الخزينة في الحادي عشر من كانون الأول/ديسمبر.

في غضون ذلك، طالب مكتب التحقيق الفدرالي ووزارة العدل بادعاء فردي واضح. فكان وزير الأوّل على اللائحة.

وبحلول العام 2002، وضع لورميل فريقاً من مكتب التحقيق الفدرالي في عمق دولة الإمارات العربية المتحدة - الدولة الخليجية الثرية والصغيرة التي تعتبر محور الحياة المصرفية في العالم العربي. وليس غريباً أن تكون دبي نقطة انطلاق للصفقات الضخمة بما فيها صفقة الـ 109000$ التي مرّت بالإمارات ووصلت إلى مصرفي سيتي بنك وتشايس قبل أن تبلغ أخيراً خاطفي طائرات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، المنبعثين من دبي. وقد قرر المسؤولون في مصارف الإمارات المتحدة المركزية أنّ التعاون الهادئ هو السبيل الأفضل وأنّ فريق لورميل في البلاد سيرشدهم في عملية مراقبة التدقيق والمعايير المصرفية الدولية. وفي واشنطن، راح

محامـــو وزارة العدل يبحثون عن حالات جنائية متوافرة حول تبييض الأموال وفي كـــل أسبوع كان أوفهاوزر يسأل لورميل عن آلية انطلاق الادعاء. قال لورميل: "إنها قادمة. كن هادئاً ومستريح البال. إنها قادمة".

وفي هـــذا الـــوقت، ومـــع حلـــول فصل الربيع، كان أعضاء فريق الأربعاء يكتـــشفون شيئاً فشيئاً أنّ الرئيس يمكن أن يكون قد أخطأ في أحاديثه. فبحسب تقديـــرات الحكومة الأميركية الداخلية المختلفة، يأتي ثلثا الأموال الداعمة للأنشطة الإرهابـــية الإسلامية من المملكة العربية السعودية. فيعني وضع حد لتدفق الأموال المتوافرة لتمويل الإرهابيين، و"تفكيك شبكات المجرمين"، على حد قول الرئيس – إرساء نوع من التعاون الذي لن يؤمنه السعوديون أو لن يتمكنوا من تأمينه. فدائماً مـــا كانت تبرز هذه المعضلة مع السعوديّين: النية مقابل المقدرة. في الأشهر القليلة بعـــد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، كانت المشكلة، بلا ريب، النية. وقد أخبر وزراء المالية السعوديون بصراحة مسؤولين في وزارة الخزينة الأميركية أنّه لا وجود لأمـــوال مـــن مـــصادر سعودية تدعم الإرهاب، مشيرين في الوقت عينه إلى عدم قدرتهم على المساعدة في هذا المجال.

وعمـــد الرئيس في المجالس الخاصة إلى تسمية ذلك بـــ "مشكلتنا السعودية". وفي ربـــيع العام 2002، سافرت وفود عدة من وزارات الخارجية والخزينة ووكالة الاســـتخبارات المركزية ومجلس الأمن القومي إلى الرياض لممارسة بعض الضغوط. فبدأ السعوديون بتقديم بضعة تنازلات صغيرة تمثلت بلائحة وثائق واتفاقات وقوات سعودية -أميركية مشتركة، إضافة إلى الحصول على حصص محددة من التبادلات.

ثم حصل أمران. أدرك الأميركيون أولاً أنّ الرغبة، حتى لو كانت صادقة، قد لا تكـــون كافية. فدولة كالمملكة العربية السعودية التي تفتقر إلى مراقبة الحسابات وإلى تقاليد الشفافية المالية – وحيث تخزّن مبالغ طائلة في حسابات حوالى 25000 فـــرد مـــن العائلة المالكة – قد تفتقر أيضاً إلى الأدوات وما يعرف بـــ "المعالجات المالـــية" لملاحقة معظم عمليات تدفق رأسمال البلاد. وقد تم وضع اليد على بعض الأصـــول في المملكة في مطلع العام 2002 ومنتصفه. ولكن الوصول إلى المصادر، عندما توفّر ذلك، ليس إلاّ الخطوة الأولى. فالأموال غالباً ما تكون نظيفة في البدء،

حـيث إنّ جزءاً منها ذهب لدعم المؤسسات الخيرية وتلبية الاحتياجات الأساسية للسكان الفقراء في المملكة أو السودان أو البحرين، ومن ثم تتحول إلى أموال "غير نظـيفة" حيث تأخذ مساراً آخر من حساب إلى حساب ومن شخص إلى آخر. وحين تصل إلى يدي إرهابي محتمل تصبح مدعاة قلق. فيمكن للإرهابيين أن ينفذوا عملـياقم بواسطة مبالغ متواضعة، حيث إنّ كلفة اختطاف الطائرات في الحادي عـشر من أيلول/سبتمبر بلغت فقط 500 ألف دولار بما في ذلك التدريب والسفر والـنفقات. في المقابل، تدخل مليارات من الدولارات السوق السوداء العالمية. إذاً كل ما يحتاج الإرهابي إلى فعله هو إسقاط دلو في ذلك النهر السام الهائج.

ولكن كانت المساعدة شبه جاهزة. فقد سجّلت المبادرات التي أطلقتها وزارة الخـزينة ووكالة الاستخبارات المركزية نتائج إيجابية في مجال ملاحقة الأموال التي تنـتقل مـن حساب إلى آخر حول العالم. كما أنّ الوثائق المصرفية الدولية، التي تترافق مع تحديد أفضل للأهداف واهتمام الدول بهذا الموضوع سواء كانت صديقة للـولايات المـتحدة أم لا، وبصرف النظر عما إذا كانت متهمة بدعم الإرهاب، ساعدت في إرساء تعاون محدد من السعوديين الأقل شأناً إذا ما صح القول.

وبالنـسبة للـذين فهموا آلية عمل النظام البيروقراطي، تكمن المهمة الآن في الضغط من أجل المضي قدماً في هذا المشروع وتجميد الأصول كما ورد على لسان الرئيس والقيام بخطوات مختلفة تماماً.

وقـد فهم الجميع اليوم أنّ المال يعتبر بجزئه الأكبر شكلاً من أشكال الذكاء. فمـوارد العملات تخضع لنقطة محددة. أما سير الأموال فمن شأنه أن يخدم أهدافاً مـتعددة ومتنوعة. لذا تعتبر ملاحقة مسار الأموال السبيل الوحيد لتحديد اللاعبين والمكان، وإن أمكن، النية.

وفي صباح أحد أيام حزيران/يونيو 2002، جلس أعضاء فريق صباح الأربعاء على كراسيهم وهم يحتسون القهوة.

"دينيس أين نحن من قضية وزير؟ هل لدينا قضية هنا أم لا؟"، صاح اوفهاوزر.

أخـذ لورميل نفساً عميقاً. إذ عاد للتو وفد من مكتب التحقيق الفدرالي من الإمارات العربية المتحدة. وقد وافق المسؤولون في المصرف المركزي في البلاد على

التعاون بصورة غير مسبوقة في العالم العربي، حيث بات بإمكان المسؤولين الأميركيين أن يفعلوا ما يريدون باستثناء التدخل في النظام المالي للبلاد وفي تدفق رؤوس الأموال في العالم العربي. وقد عاد وفد الأف بي آي بلوائح تتضمن بعض المسارات المالية المذهلة من خاطفي الطائرات التسع عشر. وبصفتها مركزاً مالياً، كانت دولة الإمارات حريصة على اعتماد نوع من عمليات التدقيق في الحسابات وآليات الوقاية من التزوير التي من شأنها أن تثير إعجاب المؤسسات الدولية في الولايات المتحدة وأوروبا واليابان. أرادوا أن يتعلموا. أما ما تعلمه لورميل وفريقه فهو أنّ وزير هو المسؤول عن التصرّف بأصول القاعدة التي بلغت 67 مليون دولار أميركي في غضون سنتين فقط.

ثانياً، اتضحَ أنّ ملاحقة وزير بموجب القوانين الأميركية شبه مستحيل على الرغم من كونه المسؤول عن أموال القاعدة العامة. وكان هناك القليل من المسارات التي مرّت مباشرة عبر المؤسسات المالية في أميركا والولايات المتحدة. وكل ما استطاع لورميل فعله هو فرض عقوبات جزائية على انتهاكات تبييض الأموال وبعض الجنايات البسيطة. وهذا بالطبع ليس كافياً للقبض على وزير ونقله إلى الولايات المتحدة للادعاء عليه.

وبعد أشهر من التحقيق حول وزير والتوصل إلى الصيغة الأخيرة للمعلومات الأساسية للإمارات، تبيّن أن النتائج لم تأتِ بحسب التوقعات.

وفي هذا الصدد، أخبر لورميل أوفهاوزر والفريق بما يلي: "بالطبع لدينا قضية إنما معقدة للغاية. فبموجب القوانين الأميركية سيكون من الصعوبة بمكان الادعاء على أمثال وزير. فإذا ما استطعنا إدراج جميع أنشطته العالمية، يختلف الأمر. ولكن القانون الأميركي لا يمكن أن يساعدنا على الإطلاق". ثم سرد لورميل بعض الحالات الخاصة واستنتج قائلاً: "يؤلمني أن أقول ذلك لكننا لن نتمكن مطلقاً من الحصول على الإذن بالإدعاء الذي نحتاج إليه في هذه القضية المالية".

في الجهة المقابلة من الطاولة، جلس فيل القلق.

"كله لك، فيل"، قال دينيس.

ابتسم فيل وأجاب بأسلوبه الخاص: "خطتنا لوزير هي امتلاكه".

وبعد ساعة، عاد لورميل إلى مقر مكتب التحقيق الفدرالي واتصل بمسؤول المكتب في دبي – هونغ كونغ العالم العربي والمدينة التي لا تنتمي روحها التجارية إلى أي بلد آخر باستثناء بلد الرغبات.

تلقى أخباراً سيئة.

قال لورميل لتيم، العميل المسؤول: "تراجعوا عن قضية وزير".

"لا أفهم "، أجاب تيم بتعجب. "لماذا؟".

كان لورميل ممزقاً. كأنّه لم يكفه أن يقدّم الهدف الأعلى قيمة بالنسبة إليه إلى وكالة منافسة. فالقضية بحد ذاتها كانت سرية.

"آسف...لا أستطيع البوح بالسبب. فقط تراجعوا".

وفي نهاية شهر أيار/مايو، قدمت وكالة الأمن القومي هدية لوكالة الاستخبارات المركزية وكان مايك هايدن على الهاتف لتسليمها. فكان بحوزتهم هدية ثمينة لم يعرفوا مثيلاً لها منذ الحادي عشر من أيلول/سبتمبر.

كان اتصالاً من رجل معيَّن من بن لادن. فلم يستخدم قائد القاعدة هاتفاً خلوياً أو صناعياً منذ العام 1998. إذ كان حذراً للغاية سيّما وأنّ عدداً من نوابه الأقل مستوى من الظواهري أو خالد شيخ محمد كانوا يحملون له الرسائل. وقد حددت الولايات المتحدة هوية بعض هؤلاء الذين أجروا اتصالات أو أرسلوا رسائل إلكترونية باسم بن لادن.

وقد مُرر أحد هذه الاتصالات إلى شخصية غامضة في المملكة لقّبت بعدة ألقاب، وفق تقارير الإشارات الاستخبارية. أما اللقب الأكثر إثارة فكان "السيف السريع". وكان هناك أمران واضحان؛ بدا أنّ أسامة بن لادن ما زال حياً وبصحة جيدة، يعطي التوجيهات اللازمة من إحدى المواقع في المناطق القبلية على طول الحدود بين باكستان وأفغانستان. وكان السيف السريع بالفعل ممثّل القاعدة في شبه الجزيرة العربية. وبدا أنّ بصماته موجودة في عدة أماكن دفعة واحدة في المملكة حيث يوجه خلايا عديدة من أعداء النظام الغاضبين. أما توجيهات رأس الهرم في القاعدة فهي تتجلى بما يلي: حوّلوا تركيزكم التنفيذي إلى الإطاحة بالحكومة السعودية.

كان عدم شرعية النظام السعودي الموضوع المفضل بالنسبة إلى بن لادن الذي كان يحلم بالإطاحة به وبالأنظمة في مصر والأردن وبعض البلدان في المنطقة، حيث يسعه عندها أن يُحكم الإمبراطورية الإسلامية وأن يعيد الخلافة إليها بعد جعل حدودها تمتد من طهران إلى القاهرة ومن الخليج إلى الأطلسي. غير أن هذا الاتصال لم يتطرّق إلى التصاميم الكبرى والأحلام البعيدة بل كان خطة عمل لتحديد الضحايا والأهداف.

وتحديداً، قتل أفراد من العائلة المالكة وتدمير حقول النفط.

ففكروا في تخريب حقول النفط السعودية التي تعتبر أكبر مخزون للنفط في العالم بضرب مباشرة عمق علاقة الاعتماد المشتركة بين البلدان المنتجة للنفط في الخليج وزبائنها الجشعين في العالم المتطوّر. والواقع أنّ 15 في المئة من النفط الأميركي يأتي من المملكة العربية السعودية، لذا تعتبر استراتيجية فكر بن لادن في هذا الصدد واضحة للغاية بالنسبة إلى صانعي القرار الأميركيين. ولم يكن يوماً هدف بن لادن الدخول في صراع دائم مع أميركا. بل ركّز على حث الولايات المتحدة على وقف دعمها لعدة أنظمة عربية على رأسها المملكة العربية السعودية، تاركة الساحة خالية للثورات الهشة.

وثمة أمر سعت وكالة الأمن القومي إلى النظر فيه: آراء علماء الدين السعوديين الذين يحظى عدد منهم باحترام شريحة واسعة من الأتباع وإمكانية أن تستعمل أسلحة الدمار الشامل ضد غير المؤمنين أو المرتدين المسلمين بمن فيهم أفراد العائلة المالكة في السعودية.

وقد قام تينيت وموات-لارسن بإطلاع تينيت على المعلومات المتوافرة، ثم توجهوا لمقابلة الأمير بندر.

وكان السفير قد استجمع قواه منذ أيام الخريف الحارة حين كان يظهر بصورة منتظمة على الشبكات التلفزيونية ليعرب عن سخطه وحزنه العميق. وقد عمد السعوديون والحكومة الأميركية إلى تقديم ضمانات علنية متكررة مفادها أنّهم حلفاء وأصدقاء يعملون معاً في "الحرب ضد الإرهاب". كما وطّد ولي العهد علاقته ببوش في كروفزد فيما كان صانعو القرار الأميركيون يعملون خلال الأيام

والأسابيع التي تلت الاجتماع على الاستجابة لبعض المطالب السعودية. فضغطوا على إسرائيل للسماح لعرفات بالخروج من مقره كما عملوا على إنهاء الحصار الذي فرضه الإسرائيليون على كنيسة المهد في بيت لحم. إضافة إلى ذلك، غابت بعض العبارات عن التداول شأن شارون "رجل سلام". وكان واضحاً أنّ عبد الله لديه ما يحمله للعالم العربي.

ألقى الأمير بندر التحية على الوفد الذي وصل إلى دارته الملكية في شمال فيرجينيا والذي تألف من تينيت وعدد قليل من نوابه.

تعانق الجميع، فتينيت يحب المعانقة. وقد أمضى ساعات طويلة مع الأمير بندر لبناء الثقة وهو أمر من اختصاص تينيت. ثم أدخلهم الأمير برفقة نائبه الحاضر دوماً رياض مسعود إلى مكتبته الفسيحة.

وبعد تبادل قصير لعبارات التحبب، بدأ تينيت عمله، فانحنى إلى الأمام وظهرت على وجهه قسمات التجهم، وقال: "أخبار سيئة. لقد غيّر بن لادن هدفه، وأصبحتم أنتم الهدف، المملكة العربية السعودية".

بدا الأمير بندر متوتراً ثم قال: "أتود كأس من المشروب المفضل؟".

وأحضر بعض المشروبات واحتسوا المشروب المفضل فيما كان تينيت يطلعهم على الأخبار السيئة. فوصف المعلومات الاستخبارية - الاتصال الذي أجرته قيادة القاعدة بممثلها في المملكة. لقد أصبحت العائلة المالكة الآن هدفاً للمنظمة، فيما بدأ درس الحقول النفطية استعداداً لشن الهجوم.

"أيمكننا أن نرى الشريط؟" سأل الأمير بندر.

لكن جواب تينيت كان سلبياً قبل أن يضيف: "لكنني سأخبرك بكل ما تحتاج إلى معرفته".

وكان ذلك بداية تحوّل سري في العلاقات بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية، جعل السعوديين يتكلمون بعيداً عن الحدود المتعارف عليها وعلى الميدان. وهذا ما لم يسفر عنه الاجتماع الغريب بين بوش وعبد الله، كما لم يستطع فعله المسؤولون الأميركيون الذي زاروا الرياض وطلبوا من السعوديين السماح للأميركيين باستجواب عائلات الإرهابيين، أو على الأقل، فتح حسابات من شأنها

أن تؤدي إلى اكتشاف ممولي الإرهابيين.

وبالفعـــل كان الخوف هو الذي حرّك السعوديين. فعمليات القاعدة كانت تهدف إلى زعزعة توازن الخوف والمصالح الهش والمسالم عامة في البلاد بين الأمراء وعلماء الدين في إطار علاقة من التقوى والمال. وكانت الحقول النفطية المستهدفة ركيـــزة كل معادلة. كما كان بيت آل سعود مهدداً بشكل مباشر، ما أظهر أنّ العنف وجد طريقه أخيراً إلى المملكة.

تجهّم وجه الأمير بندر فصب لنفسه كأساً أخرى وقال: "من أين نبدأ؟".

ولا يتمحور السؤال الطبيعي لكبار المسؤولين في كل إدارة حول إحدى نقاط قـــضية واترغايت الشهيرة إنما على الطرح التالي: "ما الذي يجب أن يعرفه الرئيس ومتى يجب أن يعرفه؟".

غالـــباً ما يترك الرؤساء هذه المشكلة لكبار الموظفين لديهم، فيصرخون دائماً بتوتـــر شديد "تأكد من أنني أعرف ما ينبغي أن أعرفه". وفي نهاية المطاف، هناك الكثير الكثير مما يجب أن يعرفوه وسيحتاجون في مرحلة ما إلى النوم".

ومـــا كـــان واضحاً بحلول صيف 2002 هو أنّ الرئيس جورج دبليو بوش ســـيعرض مقاربـــته الخاصة لهذه المعادلة كما فعل سابقاً في مواجهة خصوصيات "الحرب ضد الإرهاب".

يـــبدو الأمر غريباً في البداية بالنسبة إلى شريحة كبيرة من الحكومة الشاملة التي تملك موازنة بقيمة 2 تريليون دولار والتي ستلتزم بالبحث عن مجموعة من الـــرجال. لقـــد قمنا بذلك مرات عدة في السابق حين أرسل وودرو ويلسون الجـــيش الأميركي لملاحقة بانشو فيلا وعصابته. ولكن ظروف هذه الحقبة، في أعقـــاب أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، قد تعني أنّه يتعيّن علينا القيام بذلك بصورة منتظمة. فالأسلحة المدمرة التي يمكن أن يحصل عليها بعض الأفراد ســـتفعل ذلـــك. سينشئون مجموعة قوية من الأشخاص الذين يشكلون تهديداً موازياً لتهديد جيش غازٍ.

وكان جورج دبليو بوش قد ذكر ذلك بوضوح في الخطاب الذي ألقاه في مطلع شهر حزيران/يونيو في الأكاديمية العسكرية الأميركية في ويست بوينت، نيويورك.

فقال:" ارتكز دفاع أميركا على عقائد الحرب الباردة المتعلّقة بالردع والاحتواء. وفي بعض الحالات، ما زالت هذه الاستراتيجيات تطبق في بعض الحالات، لكن التهديدات الجديدة تتطلب أيضاً تفكيراً جديداً. فلا يعني الردع - أي التعهد برد شامل ضد الأمم - شيئاً ضد الشبكات الإرهابية التي ليس لديها دولة لتحميها أو مواطنون للدفاع عنهم. ولا يمكن تطبيق نظرية الاحتواء حين يستطيع طغاة غير متوازنين يملكون أسلحة دمار شامل أن يستخدموا هذه الأسلحة ضد الصواريخ أو أن يؤمنوها سراً لحلفاء إرهابيين. لا يمكننا الدفاع عن أميركا وأصدقائنا من خلال تمني الأفضل، ولا نستطيع ربط إيماننا بكلام الطغاة الذين يوقعون رسمياً على معاهدة حظر الانتشار ومن ثم ينتهكونها بشكل منهجي. إذا كنا ننتظر أن تترجم هذه التهديدات على أرض الواقع، فعلينا إذاً أن ننتظر طويلاً". ألقى بوش خطابه على وقع تصفيق طلاب المدرسة الشرطية المحتشدين في ملعب كرة القدم في ويست بوينت.

وتابع بوش: "يعتبر الدفاع عن الأمة والدفاع الصاروخي جزءاً من عملية تعزيز الأمن وهما أولويتان أساسيتان بالنسبة إلى أميركا. غير أنّنا لن ننتصر في "الحرب ضد الإرهاب" عن طريق استراتيجية دفاعية. بل علينا نقل المعركة إلى أرض العدو وتفكيك خططه ومواجهة أسوأ التهديدات قبل حدوثها. فوسط هذا العالم الذي نعيش فيه، يعتبر طريق التحرّك السبيل الوحيد لتحقيق الأمان. وأمتنا ستتحرّك لأنّ أمننا سيتطلب أفضل القدرات الاستخبارية لكشف التهديدات المختبئة في الكهوف والمتنامية في المختبرات. سيتطلب أمننا أيضاً تحويل الجيش الذي ستقودونه إلى جيش على أهبة الاستعداد لتسديد الضربة في الوقت المناسب في أية زاوية مظلمة من العالم. كما سيتطلب أمننا أن يكون الأميركيون عازمين فعلاً على المضي قدماً وأن يكونوا مستعدين للتحرك الاستباقي عند الاقتضاء للدفاع عن حريتنا وأرواحنا".

وبدا جلياً أن الكلمة التي اختيرت بتأن بالغ كانت كلمة "استباقية"- عبارة تُفهم عامة على أنّها تحرك ناجم عن الدلائل شأن الصواريخ في كوبا، معقل النظام الذي أعلن عداءه للولايات المتحدة من على بعد 90 ميلاً من شاطئ فلوريدا. وهذا عنى أيضاً ردع الأمم المناهضة للولايات المتحدة عن اكتساب قدرة تدميرية.

وفي التصاريح العلنية التي تم الإدلاء بها خلال الأسابيع والأشهر التي تلت، تلافى بعض المسؤولين في الإدارة الدخول في هذا التفويض الواسع؛ وبالتالي بدا واضحاً أنّهم لن يستخدموا هذا المصطلح مطلقاً. ولكن في الواقع، تعتبر سياسة الوقاية ركيزة نظرية تشيني الشاملة التي تقول بأنّه يجب التعامل مع احتمال بنسبة واحد في المئة على أنّه "حقيقة" وأنّ الدليل القاطع سواء أكان من حيث النوايا أو القدرات هو نقطة انطلاق حتمية. باختصار، ترتكز هذه العقيدة بشكل جوهري على مبدأ الوقاية القائم على الاشتباه.

أمّا بالنسبة إلى القدرات الأساسية للدولة الأقوى في العالم، فيعتبر ذلك ثغرة كبيرة. فما هي كلفة على سبيل المثال - اليد العاملة وعمال الإطفاء وربما الدم والكنز - ملاحقة احتمالات لا تتخطى نسبتها الواحد في المئة؟ وماذا عن ألف احتمال؟ أو عشرات الآلاف؟

وأين الرئيس من هذه الجهود اليومية؟ في الواقع، تتعدى مسألة الوقت إطار التفضيل الشخصي: فهو يمثل جميع المواطنين وقد انتخب لمعالجة جميع المسائل المهمة سواء كانت خارجية أو محلية.

ولهذا السبب تساءل كبار المسؤولين في السي آي إي والأف بي آي عما إذا كان يستحسن أن يتدخل الرئيس في تفاصيل عدد لا يحصى من المبادرات والتحقيقات والتي لا تفضي بمعظمها إلى شيء.

وفي كل صباح، كما هو معروف يستيقظ جورج دبليو بوش عند الساعة الخامسة والنصف، يمارس بعض التمارين الرياضيّة، ويحضر فنجان قهوة لزوجته قبل أن ينصرف إلى قراءة نص ديني - من الإنجيل أو العظات الصغيرة - ويصل إلى مكتبه عند الساعة السابعة والنصف.

وفي هذا اليوم، رأى فريق تينيت عند الساعة الثامنة. ومن المتوقع أن يليه فريق مويلر الذي يضم وزير العدل جون آشكروفت وتوم ريدج.

"ماذا نعرف عن السيف السريع؟"، سأل تينيت.

أجاب الأخير: "لا شيء أكثر من معلومات البارحة. ولكننا نبحث في المصادر السعودية... وفي الإشارات الاستخباريّة... وآمل أن نعرف المزيد بحلول الغد".

وسؤال الرئيس ليس مجرّد سؤال. حيث إنّ إيجاد الجواب يمكن أن يرتبط بمسائل حكومية عديدة حتى لو لم يكن السؤال على قدر كبير من الأهمية بالنسبة إلى الخبراء المعنيين في الصراع اليومي. ولكن هل تعتبر رغبة الرئيس في الحصول على إجابة السؤال الأكثر أهمية؟

ورداً على هذا السؤال، أجاب مسؤول رفيع في السي آي إي: "حسناً، بطريقة ما، يمكن القول إنّ هذه الحالة تشبه تماماً خضوع مسؤول في السي آي إي يتمتّع بصلاحيات مطلقة للتدريب. فمن شأن ذلك أن يعيث الكثير من الفساد".

وبحسب العديد من الأشخاص العاملين في وكالات الاستخبارات وتطبيق القوانين الذين تولوا عملية إطلاع بوش على ما يجري، فإنّ الرئيس مهتم بالأشخاص الذين يعملون على الأرض أكثر منه بالذين يتولون مهمة التفكير. أما تشيني فهو مهتم أكثر بالفريق الثاني ويطرح عليه المزيد من الأسئلة النظرية. بينما يركز الرئيس على سير الأمور على الأرض.

وفي خضم المعارك الدائرة حول هذه المواضيع، يحوّل بوش هذه المسألة إلى مسألة شخصية. فيطرح أسئلة عن تفاصيل الاعتقالات شأن "مَن مِن رجالنا قام بهذه المهمة؟". وكان يرغب دائماً في لقائهم. كما كان يركز بشدة على كيفية جعل زبيدة يتفوه بالحقيقة حيث قال مرة لأحد المقربين: "هل تنجح بعض تلك الأساليب القاسية فعلاً" قبل أن يسأله: "كيف يعزز بن لادن الولاء؟"

بالطبع، في ظل ارتباطات كهذه بين رجال يقاتلون جيداً تنشأ علاقة وطيدة. وفي هذا السياق، قال بوش في أحد الاجتماعات: "إذا ما تبيّن أنّ هذا الرأس هو للظواهري فآمل أن تحضروه إلى هنا".

وفي هذه المرحلة كان الرئيس يبدي اهتماماً ملحوظاً بقضية لاكاوانا حيث سأل مويلر مرة بلهجة يشوبها بعض الإحباط: "اسمع، هل هؤلاء الأشخاص خطرون أم لا؟ لِمَ لا يوجد سبيل لمعرفة ذلك، إذ يبدو أننا نحلّق كالعميان في أحيان كثيرة".

لطالما كان بوب مويلر يحب أن يصل أولاً إلى المكتب أي عند الساعة الخامسة والنصف صباحاً عندما كان مدعياً. وقد لاحظ الناس ذلك واعتبروه تفانياً مفرطاً بعض الشيء، ثم انصرفوا إلى شؤونهم.

ولكن في قلب الثقافية الملتزمة للأف بي آي، كان يتم توارث عادات الرئيس تماماً كما يحدث مع وثائق الأدلّة. لذا بدأ الموظفون بالقدوم عند الساعة الخامسة فيما حتى إن البعض أصبحوا يصلون عند الرابعة والنصف.

ولم يكن هذا النمط وليد فكرة رجل من مكتب التحقيق الفدرالي أو امرأة متمسكة بمدونة سلوك ولباس.

بل كان يرتكز بشكل رئيسي في هذه المرحلة على الجهود التي شكّلت محور آلية عمل هذه الوكالة بحلول صيف 2002، كطالب يجلس حائراً، يحضر مختلف الصفوف، ولكن يطلب من المدرّس إعطاءه دروساً إضافيّة.

والواقع أنّ حوالى ألفي شاب من أصل عربي احتجزوا في الولايات المتحدة منذ الحادي عشر من أيلول/سبتمبر أو وضعوا في منشآت مختلفة أو حتى رُحلوا. وقد جسد ذلك المشكلة الكلاسيكية التي تتمثّل بتصنيف المشتبهين. فإما يبقون في الولايات المتحدة أو يتم ترحيلهم فوراً. من يُرحّل؟ فلنقل من يتسوّق من متجر في شمال فيرجينيا ارتاده سابقاً محمد عطا ومن يحمل من الأميركيين اسماً شائعاً على غرار خان ومن يقوم بنشاط مثير للشبهات سيّما إذا انتمى إلى بلد مخيف.

كان الأمر شبيهاً بما حصل مع الأوروبيين الشرقيين في بداية العشرينيات من القرن الماضي - أيام الخوف من أن يبلغ البولشيفيون الجدد شواطئهم - أو خوف اليابانيين الأميركيين بعد بيرل هاربور، أما اليوم فهو وقت الذنب العربي الأميركي. فإذا كان أحدهم متحدراً من أصل عربي يمكن لأي تصرّف غريب يقوم به أن يشكّل إنذاراً بحد ذاته. والأمثلة التالية خير دليل على ذلك: استؤجرت سيارة قبل الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ثم أعيدت بعد فترة. أعاد رجال ثلاث شاحنة مستأجرة بسرعة ولكن بدا عليهم التوتر. أخبر رجل رب عمله أنّه طيار مجاز وأنه يود توفير بعض المال ليقود طائرات مدنية. رجل آخر استخدم بطاقة اعتماد الخطوط الجوية الأميركيّة.

هناك أمثلة حالية عن رجال من أصول عربية تم القبض عليهم وأودعوا السجون في بروكلين أو نيو جرسي أو منشآت أخرى خلال الأشهر التسعة التي تلت الاعتداءات. وقد قُبض على العديد من الأشخاص من خلال سجل بطاقات

الاعـــتماد أو العـــنوان أو رقم الهاتف أو العمر أو غيرها من البيانات ذات الصلة الـــواردة في النص– بطاقة هوية إلكترونية مع نقاط بيانية أكثر شمولية وإقناعاً من المعلومات التي يملكونها. أوماها – المدعومة من بعثات وكالة الأمن القومي كانت كـــشركة كهـــرباء ترسل التيار من خلال شبكة عدالة جزائية كاملة تضيء طرق الشرطيين والمدعين ما يشكل صدمة للنظام.

وبحلول فصل الصيف، كان واضحاً أنّ نسبة الاعتقال للادعاء ستكون أكثر غـــرابة مـــن أي وقت مضى في تاريخ المكتب. ولن يكون هناك إدعاءات عملياً. وكما هي الحال بالنسبة إلى سائر النقاط في "الحرب ضد الإرهاب"، كان الانحراف يحـــصل باتجـــاه سفلي. أما اللازمة التي أملاها مكتب التحقيق الفدرالي على إدارة الهجرة والتجنيس: إذا كانت تصرفاتهم مثيرة للشبهات رحّلوهم.

ومـــع اكتشاف أوّل خلية محتملة في لاكاواما، كان مكتب التحقيق الفدرالي مجـــدداً علـــى ميدان جديد. فهل يزج المكتب هؤلاء الرجال في السجون لضمان الأمن – المبدأ الذي وجّه أعمالهم المصادفة حتى ذلك الحين، أو يضعهم تحت المراقبة الشديدة لاكتشاف حجم التهديد الذي يشكلونه؟ والاحتمال الأخير يعني التعرّض للخطر إذا ما كان هناك خلايا حاضرة للتعذيب – حيث يمكنهم التسلل من شباك الأف بي آي والقيام بأعمال أكثر خطورة.

اختار مويلر الأسلوب الأخير مع الإشراف الكامل الذي يؤمنه الخيار الأوّل. ومن شأن ذلك أن يكون مهماً إذا ما حصل أي سوء. وبالمقارنة مع آلاف الأبحاث المـــسموح بها والمعدة (أو غير المعدة) التي وضعت خلال الأشهر التسعة الأخيرة، تحوّل الأف بي آي إلى محكمة FISA للحصول على مذكرات المراقبة. أما الرجال فكانوا في النهاية مواطنين أميركيين.

ومـــع بزوغ الشمس في صباح أحد أيام الصيف الأخيرة، بدأ مقر مكتب التحقـــيق الفـــدرالي يمتلئ، حيث أصبح الطابق الرابع شبيهاً ببحر من البدلات الزرقاء.

وغالباً ما كان الاتصال الأوّل في اليوم يأتي من مكتب الـــ "أف بي آي" في بافالو، كما يمكن تلقي هذا الاتصال في فترة ما بعد الظهر. وقد احتشد 25 عميلاً

في قـــسم مكافحة الإرهاب وعددٌ كبيرٌ من المسؤولين في السي آي إي في ما كان سابقاً مركزاً نائماً في غرب نيويورك.

وفي هـــذا الـــيوم الواقع فيه الثاني عشر من آب/أغسطس استدعى مويلر إيد نـــيدهام ودايف بريتان، العميلَيْن (الموظفين) المسؤولين عن القضية، من بافالو إلى مكتبه في واشنطن، إذ كان بوش يضغط عليه للحصول على إجابات.

وقـــد نـــاقش نيدهام وبريتان المسألة مع مويلير في غرفة المؤتمرات وتبيّن أنّ المشكلة هي التالية: طلب الرئيس المهتم كثيراً بالقضية إجابات ومزيداً من التحرّك قدماً. وأحياناً لا يحصل ذلك في حالات المراقبة مهما كنت تريد حصوله.

وكان عملاء مكتب التحقيق الفدرالي يناقشون مسألة لاكاوانا، المجتمع الضيّق الـــذي يتعـــرّف بـــسرعة إلى الغريب، أي غريب. وفي هذه الحالة، كان السكان يـــشاهدون عملاء في سيارات مشبوهة. وقد أخبر أحدهم صحافياً محلياً أن الجميع يعـــرفون أنّهم من واشنطن. كيف؟ العملاء، الذين يجلسون في سياراتهم ويقرأون صحيفة واشنطن بوست.

وقد قال نيدام لمويلر: "رجال لاكاوانا يعرفون أننا هنا، لذا إن كنت تريدهم أن يستريحوا وأن يفعلوا ما كانوا ليفعلوه لولا وجودنا، عليك التراجع قليلاً".

فكّـــر مـــويلير في الأمر رابطاً جميع المسائل الرئيسية بعضها ببعض. فإذا كان عمـــل الـــــ "أف بي آي" يرتكز على جمع المعلومات الاستخبارية، فالتحرّك الآن يكمـــن في التـــراجع: دع المشتبه بهم يتنفسون أو حتى يسافرون وراقب إلى أين يذهبون. فإن كان الهدف هو الإدعاء، فاجمع المعطيات وابدأ ببناء القضية. وإن لم تكن المعلومات المتوافرة كافية للقضية، وشعرت بتخوف مما قد يفعلون، أذار/مارس الضغوط – وليكن التحقيق وسيلة للوقاية.

وقـــال مويلر لنيدام: "إبقَ فقط معهم، إبقَ قريباً فلا نستطيع تركهم يهربون وينفذون مخططاتهم".

وهـــذا بالطـــبع هو محور الأسئلة المتكررة التي كان يطرحها الرئيس في هذا الصدد. فإعداد تقارير مفصلة عن الوقائع الميدانية يولّد نفوراً من المجازفة، وهي تبعد المعنيين عن المهنية (الخبرة) وتجعلهم ينشغلون فقط بتسليم تقرير هدّام للمسؤول.

وفي هذا السياق قال مسؤول استخباري رفيع: "لكن أنت لا تريد ان تكون علـــى خطأ وأن ترى الناس يموتون - فهذا كابوس بحد ذاته. لذا عليك إحالة كل التقارير إلى الأعلى".

وهـــذا يعني أنّ المعلومات الوافية أو غير الوافية تحال إلى المكتب البيضاوي كي تكـــون في مكـــان آمـــن فقط. فالرئيس يتمعن جيداً في التقارير اليومية والإنذارات والمبادرات الطويلة الأمد والمعقدة التي ترده. وخلال فصل الصيف، كان بوش متفائلاً تمامـــاً كالآخـــرين بعدما تأكّد من أن نتيجة فحص الحمض النووي لرأس الظواهري ستظهر قريباً. غير أنّه لم يتم تحديد مكان الظواهري أو الحصول على معلومات حول مـــصيره خـــلال الأشهر التالية. وتساءل أحد المحللين في السي آي إي علناً في أحد الاجـــتماعات عما إذا كان شعور الرئيس بأنّ الظواهري قد يكون ميتاً يشجّعه على الاعتقاد بأنّ العملية ضد القاعدة أشرفت على نهايتها وأنّ الوقت قد حان للتحوّل إلى العـــراق. وفي نهاية المطاف لم يكن الحمض النووي مطابقاً، فعرف المكتب البيضاوي يوماً سيئاً. وتم نقل الجمجمة التي عُلّقت عليها آمال عالية، بدءاً من الرئيس ونـــزولاً، إلى مستودع تابع لمكتب التحقيق الفدرالي على جزيرة ستاتن.

ومـــع دنـــو نهاية الصيف، تم جمع العديد من الرسائل الإلكترونية المرسلة من مخـــتار البكـــري، أحـــد رجال لاكاوانا الذين غادروا بافالو وعادوا إلى الشرق الأوسط، وتبيّن أنّه تطرّق فيها إلى زفاف قريب. في الماضي، كانت كلمة "زفاف" تـــستخدم كرمز لهجوم ما وقد اعتبر محللو السي آي إي ذلك إنذاراً فأبلغوا البيت الأبـــيض به على الفور. وكما في حالات الإنذار الأخرى، تعيش أعلى مستويات السلطة ساعات من الذعر، فتُعقد جلسات للاطلاع على المعطيات ويُنظر أيضاً في إمكانـــية نشر تحذير عام. كما تتشاور وزارة العدل مع البنتاغون للنظر في إمكانية بوصف رجال لاكاوانا "بالمقاتلين الأعداء" وقد تم إبلاغ الرئيس بالأمر. ففي هذه البيـــئة تتحوّل سريعاً كل أزمة إلى أزمة بالنسبة إلى الرئيس، إذ يصبح قائد القوات العسكرية رجلاً يركب على أفعوانية على ريتالين Ritalin.

ولم يتحقق أحد من ذلك مع مكتب التحقيق الفدرالي، إذ علموا أنّ البكري كان في الواقع يحضّر فعلاً لزفافه.

وفي الـثامن من أيلول/سبتمبر، نشرت صحيفة سانداي تايمز اللندنية مقابلة أجـراها يـسري فـودا مـع خالد شيخ محمد وبدأت الجزيرة ببث أخبار حول الفضيحة، على أن تعرض وثائقياً كاملاً لفودا في الثاني عشر من أيلول/سبتمبر.

وفي هذا الوقت، عمدت الشرطة الباكستانية وعملاء السي آي إي إلى إقفال المـبنى الذي وضع تحت المراقبة الشديدة لمدة شهر تقريباً. وكان التوقيت جزءاً من التـرتيب القائم بين تينيت والأمير. فدخول الشقة قبل نشر قصة فودا كان ليحمل المراقبين على الاعتقاد بأنّ وكالة الاستخبارات خرجت من الشبكة. والآن، يمكن القـول إنّ هذه التغطية ساعدت السي آي إي عن غير قصد على معرفة أين يختبئ خاطفو طائرات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر.

وفي الساعة الثالثة من فجر الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، دخلت الشرطة عدة شقق فوجدت في إحداها زوجة خالد شيخ محمد وأولاده الذين اعتُقلوا. أما الإرهابي بحـد ذاتـه فكان من المستحيل العثور عليه. وفي شقة أخرى، وجد ابن الشبح وستة رجال آخرين. وهنا، كانت المقاومة فورية وشرسة حيث عمد أحد الرجال إلى رمي قنبلة يدوية على الشرطة، فيما أصيب آخر أثناء محاولته الوصول إلى حقيبة تحتوي على قـنابل يدوية وغيرها من الأسلحة. وحين قبضت الشرطة على ثلاثة رجال، بدأ ابن الشبح ورجلان آخران بإطلاق النار ورمي القنابل. ولم تكن السلطات مستعدة لمقاومة كهذه فتراجعت الشرطة مع المعتقلين الثلاث والجَرحَى الأربعة من أفرادها.

وخلال الساعات القليلة التي تلت الحادثة، أطلقت الشرطة النار وقنابل الغاز على الشقة، ولكنّ ابن الشبح وشريكيه لم يتحركوا فشعر رجال الشرطة بالخوف بعـدما أجـبروا على دخول الشقة مجدداً. وقال شهود لصحيفة نيويورك تايمز أنّ رجالَ الشرطة قاموا بتلاوة الصلاة أثناء صعودهم السلالم.

أمـا الإرهابـيون الـثلاثة المتبقون، فقد تجمعوا في المطبخ الخالي من النوافذ وعمـدوا إلى إطلاق النار على الشرطة في الممر الداخلي، وحين أمروا بالاستسلام صاحوا "أوغاد!" ثم ظهر في المطبخ وخرج منه فأردي قتيلاً على الفور.

أمـا ابـن الشبح فقد حارب حتى النهاية، حيث استولى على مسدس أحد الشرطيين وصرخ في وجه الجميع بالعربية: "ستذهبون إلى الجحيم!".

وفي وقـــت لاحـــق من ذلك اليوم، وعلى بعد ألف ميل إلى الجنوب الغربي، اعتقلت الشرطة البحرينية مختار البكري في يوم زفافه.

وجاء توقيفه بأمر من الرئيس ونائب الرئيس اللذين واجها بعض المعارضة من السي آي إي والـــ "أف بي آي" على السواء.

وبعـــدما تم إطـــلاع الرئيس لحوالى أربعة أشهر على الوضع في شمال ولاية نـــيويورك، أعطى بوش الأمر بذلك فيما كان يحضّر لخطابه الذي سيلقيه في الثاني عـــشر مـــن أيلول/سبتمبر في الأمم المتحدة لمناقشة مسألة الحرب في العراق. وقبل يوم، أي في العاشر من أيلول/سبتمبر، أمر الرئيس برفع مستوى إنذار الإرهاب في الولايات المتحدة.

وقد تكون كل هذه الأحداث قد نجمت عن المعادلة التالية: اشتباه زائد وقت يولّد اعتقال. وفي هذا الصدد، يمكن أن تكون الرسالة الإلكترونية المتعلّقة بالزفاف والرسالة الأخرى التي أرسلها بكري إلى لاكاوانا حول تقديم "وجبة كبيرة" (عبارة وردت علـــى لائحة الجمل المتواترة التي أثارت شكوك السي آي إي) قد رجحتا كفـــة التحـــرك الفـــوري. كما يمكن أن يكون هذا التحرك - كما اقترح بعض المـــسؤولين في الـــسي آي إي والـــ "أف بي آي"- لحظة من تلك اللحظات التي يمـــارس فيها الرئيس ونائب الرئيس صلاحياتهما الواسعة والخلاقة في "الحرب ضد الإرهاب"، كي يفعلا تحديداً ما يريدان، ومتى يريدان، ولأي سبب يقررانه.

أعطـــيت السي آي إي أمراً بالاتصال بشرطة البحرين التي ألقت القبض على البكري في العاصمة منامة وأرسل مكتب التحقيق الفدرالي محققاً إلى هناك - رجلاً صودف أنّه أوّل عميل مسلم في المكتب.

وتبيّن أنّ البكري يبدو كرجل خائف في الثالثة والعشرين من عمره أكثر منه مجاهد ملتزم مستعد للشهادة. وبدا وكأنه دخل مخيم القاعدة التدريبي العام الماضي - ثم حاول التراجع قائلاً لبن لادن إنّ والديه قلقان عليه.

وفي الـــيوم الـــتالي، في البحـــرين، وصف للمحقق كيف كان قد تدرب في الفاروق، مخيّم القاعدة في باكستان، برفقة خمسة من أصدقائه من لاكاوانا. وتحدّث أيـــضاً عن لقائه ببن لادن وعن كيفية تعلمه استخدام الكالاشنيكوف. وقد أعطى

أسماءهم: جابر البنة 36، سهيم علوان 29، يحيا غوبا 25، فيصل غلب، 26، شفال موصد 24 وياسين طاهر 24.

وكانــوا أعضاء في منطقة المجتمع اليمني، وكان غلب شريك في محطة وقود محلية. من جهته كان طاهر الألطف بين طلاب السنة الدراسية الأخيرة وكان أيضاً لاعب كرة قدم موهوباً. كانوا جميعاً يحبون رياضة كرة القدم التي كانوا يمارسونها في الأنديــة المحلــية. وفي الــثالث والرابع عشر من أيلول/سبتمبر، أصبحوا جميعاً أشخاصــا محظورين. كان البنة خارج البلاد وهو لم يعد إليها أبداً منذ مغادرته إلى المخــيم العــام الماضي. أما الخمسة الآخرون الذين كانوا في أعمالهم فقد اعتقلوا بــسرعة. ومــع بكري الموجود في السجن أصبحوا يعرفون لاحقاً في أنحاء العالم كافة، بـــ "رجال لاكاوانا الستة".

وخــلال الأيام التي تلت خطاب بوش في الأمم المتحدة – حين ربط الرئيس رسمــياً بين العراق والتهديد الإرهابي العالمي – تصدرت اعتقالات لاكاوانا عناوين الصحف وشكلت محور المناقشات التي دارت بين مختلف المسؤولين في الإدارة.

وفي النهاية، اختتمت الأشهر الأربعة من الجهود الرامية إلى إيجاد تحديد فعلي لهــذه المجمــوعة والى التعامل مع أول خلية إرهابية مشبوهة بشكل منطقي بسؤال واحد كان قد طرحه بوش على بوب مويلر وفريقه مع اقتراب ذكرى الحادي عشر مــن أيلول/سبتمبر: "أيمكنكم أن تضمنوا لي أن هؤلاء الرجال لن يفعلوا شيئاً؟". وجاء رد المكتب بحسب ما صرح به رئيس قسم مكافحة الإرهاب في الأف بي آي دايــل واتــسون إلى صحيفة ذي نيويورك تايمز: "نحن متأكدون بنسبة 99% أننا نــستطيع أن نضمن عدم قيام هؤلاء بعمل ما – إذا ما كانوا يخططون لذلك. أما جــواب الرئيس وفقاً لاقتباس واتسن فكان "هذا ليس مقبولاً بموجب القواعد التي نرتكز عليها حالياً لذا تم اتخاذ قرار واعٍ يقتضي بإخراجهم من هناك".

وكانــت "القــواعد" التي يتحدث عنها هنا قد طوّرت بالطبع على يد نائب الرئيس. كان قد تلقى الأف بي آي لتوّه كتاباً حول نظرية شيني.

جــاء اتــصال طــارئ لدينــيس لورميل من دبي، في الأسبوع الأخير من أيلول/سبتمبر حيث استدعاه مساعده من الاجتماع لإبلاغه بالأمر. وكان المتصل

تيم، عميله الرئيسي من الإمارات العربية المتحدة الذي قال بصوت منخفض: "وزير هنا ويريد الاجتماع بنا".

"هل أنت جدي؟".

كان تيم يتحدث بسرعة محاولاً اطلاعه على الوقائع الرئيسية. الصيغة المختصرة: لقد أبلى المصرف المركزي في الإمارات العربية المتحدة بلاءً حسناً حيث تصرف المسؤولون فيه على طريقتهم وعمدوا إلى تجميد أصول وزير. وكان ذلك البداية فقط. فبعدما رأى وزير أنه تم تجميد الملايين التي بحوزته، اتصل بالمصرف المركزي وهو يستشيط غيظاً. وعندها أخبره رئيس المصرف بأنه يدخل في إطار التحقيق الذي يجريه الأف بي آي.

ولما كان وزير عميلاً هادئاً أعرب عن استيائه. "هل هناك عملاء أف بي آي في البلاد؟". وجاء رد المصرفي ايجابياً حيث أكد له أنهم في دبي. عندها قال وزير:" حسناً إذاً، سأجتمع بهم وأشرح كل شيء فأنا متأكد من أن الأمر لا يعدو كونه مجرد خطأ".

فما كان من المصرفيين الإماراتيين الفخورين بإنجازهم هذا إلا أن اتصلوا بفريق مكتب التحقيق الفدرالي. أقفل تيم الخط مذعوراً واتصل بدينيس.

فقال لورميل لنائبه: "لقد نجحنا، لا تفعل أي شيء".

واتصل فوراً بلانغلي ونقل إليهم الخبر.

"وزير موجود في الإمارات"، قال دينيس.

فأجابه فيل القلق: "كلا، وزير ليس هناك بل هو موجود في باكستان".

"ثق بي فيل. لقد اتصل برجالنا، وقد جمد المصرف المركزي حساباته وهو يريد أن يجتمع بنا لمناقشة المسألة".

"اللعنة!".

أخذ فيل بعض الوقت لاستعادة أنفاسه. فمنذ منتصف الصيف وهو يعد إحدى أكثر مبادرات السي آي إي جرأة. وكان من المفترض أن يكون وزير محور هذه المبادرة. والآن عليه أن يبدأ بالتنفيذ... مهما أرجأ الأف بي آي رصد الأموال اللازمة لإنجاح هذه العملية من دون جعله يشك في الأمر.

فصرخ فيل: "اطلب من رجالك ألا يفعلوا شيئاً. أرجئوا المسألة فقط وسأقول لكم كم من الوقت نحتاج".

وكانـــت السي آي إي بحاجة إلى التحرك بسرعة، فالإمارات العربية المتحدة المزدهـــرة علـــى الصعيد النقدي تملك أنظمة مراقبة الحدود الأكثر تطوراً في العالم العـــربي - جميع تجهيزاتها إلكترونية ومركزية. وكان كل من السي آي إي والأف بي آي يعـــتمدان على هذا النظام لمعرفة من يدخل إلى البلاد ومن يخرج منها. لكن النظام لم يفِ بالغرض المطلوب خلال الأسبوع المنصرم حيث استطاع وزير التسلل من باكستان إلى الإمارات من دون أن يتم اكتشاف ذلك.

ولكـــنه لـــن يتمكن هذه المرة من الإفلات من قبضتهم، إذ غادر في الصباح التالي مصرفي إماراتي بارز بعباءته البيضاء وكوفيته التقليدية قصره في دبي للاجتماع بـــالأف بي آي في وســـط المدينة. وفي طريقه إلى هناك، لقي ترحيباً من فريق من عملاء السي آي إي قبل أن يكمل السير نحو وجهته من دون أي مشكلة.

وقـــد حصل أمران بشكل سريع: لم تعد حسابته مجمدة وتم نقله إلى إحدى المنشآت في الإمارات للاستجواب.

وكانت تتوقع أوساط السي آي إي أن يكون هذا الاجتماع مثمراً حيث إن وزيـــر العلمـــاني لم يكـــن وهابياً بل مجرد وصولي. ولكن بالنظر إلى معايير نجاح استجواب السي آي إي، لم يكن وزير أفضل من ابن الشبح، لذا كانوا بحاجة إلى معرفة كل شيء عن عمليته. إلا أنّه لم يخبرهم بشيء.

وكـــردة فعل غاضبة، قام فريق تابع للسي آي إي في ألمانيا باختطاف شقيق وزيـــر - شـــريكه في شبكة الحوالة الواسعة. سيتكلم، لكنه لم ينبس ببنت شفة. وانقضت أيام وظل الوضع على حاله.

كـــان فـــيل يتوقع المزيد ولكنه كعادته كان مستعداً للأسوأ، الأمر الذي لا يحصل دائماً في الوكالة.

الخطوة الثانية.

كـــان فـــريق تابع للسي أي إي يراقب المكان حين أقدم رجلان على إقفال واجهة مصرف وزير في المدينة المزدحمة. وقد استقل كل رجل في طريقه إلى البيت

سيارة مارة بشكل سريع قبل أن ينقلا إلى منــزل آمنٍ في كراتشي. وكان العملاء بحاجة إلى التحرك سريعاً. إذ كان لديهم ليلة واحدة للعمل. وقد تم اقتراح عرض، يقــضي بأن يتعاونا مع الــ سي أي إي لقاء تعويض مالي. ولكن رفض الرجلان ذلك، حيث إنهما على غرار وزير وشقيقه اعتبرا ذلك ابتزازاً من الوكالة.

الخطوة الثالثة.:

في الــصباح التالي فُتحت واجهة المصرف عند الساعة المعتادة. أما أصحاب المــصرف الجــدد، وهم عملاء تابعون للسي أي إي من أصل باكستاني خضعوا لـتدريب خاص على يد الوكالة خلال الأشهر الماضية، فقد كان شرحهم لذلك جاهزاً. إنهم أقرباء بعيدون لوزير وسيحلون مكانه لفترة.

وفي تحرك يحمل في طياته الكثير من المجازفة بدأوا باستقبال الزبائن.

وكــان مــتوقعاً أن تحصل اعتقالات رئيسية عديدة خلال الأشهر المقبلة في باكستان وخارجها بعدما احتلت السي أي إي مصرفاً على ارتباط بالقاعدة.

ولم تكــن الــسرية مجــرّد أسلوب معتمد. بل كانت وسيلة لرؤية التفاعل البــشري. فعندما يتبع عدد من الأشخاص قواعد هذا الأسلوب يصبح ثقافة بحد ذاتــه. وفي حالة "الحرب ضد الإرهاب"، عمدت مجموعة من الفرق الصغيرة التي تعمــل سراً مستعينة بمعطيات قليلة إلى شن هذه الحرب. وكانت تعاني من ثغرات كثيرة. فمن مطّلع على الأسرار؟ من ليس مطّلعاً؟

كانــت حكومة الولايات المتحدة، بعد عام على اعتداءات الحادي عشر من أيلــول/سبتمبر، عالقة في دوّامة ثغرات معلومات. فكان أناس يعقدون اجتماعات مــن دون أن يتمكــنوا مــن قول ما يعرفون. وكانوا يحتشدون في الممرات بعد الاجــتماعات ويتذمــرون قــائلين" لــيس لدي الحرية بالتكلم" غير واثقين من التطمينات الأمنية لزملائهم القدامى التي ترتكز على المقولة الشائعة "من الأفضل أن نكــون بأمان" أي الابتعاد عن الشرطة والسياسة قدر الإمكان. أما المشكلة: هذا السلوك يعتبر غالباً مفتاحاً للنجاح في الحكومة الأميركية.

وفي الــسادس من تشرين الأول/أكتوبر التقى دينيس لورميل ببروس جيبهارد نائــب مدير الأف بي آي. وكان متوقعاً أن يجتمع بمويلر في الصباح التالي لإطلاع

الـرئيس علـى مجريات عملية وزير. والواقع أنها لم تكن إحدى عمليات مكتب التحقيق الفدرالي أقله بعد الآن. ولكن على مدى عام تقريباً، حاول الأف بي آي إعداد قضية ضد وزير، مستخدماً الموارد المتوافرة واليد العاملة المطلوبة. والآن وقد أحـيلت القـضية رسمياً إلى السي أي إي، أصبحت العملية مسألةً فاعلة وناضحة لإطلاع الرئيس عليها.

"لَمَ لم اسمع بذلك من قبل"، سأل جيبهارد، "يبدو أن أحداً لم يسمع بها".

هـز لورميل كتفيه ببراءة وكانت اجتماعات صباح الأربعاء في غرفة الجلوس سرية. فبالنسبة إلى أشخاص "خفيين" مثل لورميل - خبراء معنيين بالحرب كل يوم - كـان مفتاح النجاح يكمن في إشراك أقل عدد ممكن من المسؤولين والمواطنين العـاديين والفـاعلين الأساسيين في هذه المسائل. فالمسؤولون السياسيون الرفيعون والموظفـون الـذين حـضروا الاجتماعات العديدة للنواب أو المسؤولين والذين أصبحوا على علاقة وطيدة بالوزراء دخلوا دوامة الفوضى. إذ إنّ هؤلاء الأشخاص برأي العديد من "الخفيين" يجب أن يتم اطلاعهم على ما ينبغي أن يعرفوا به فقط - وهـو قرار يأخذه بالطبع الذين يملكون المعطيات السرية. لم يعرف جيبهارد بذلك بعـد مـرور ستة أشهر كاملة على إطلاق مبادرة وزير - لأنه بحسب ما سرب لورميل لاحقاً "لا داعي لأن يعرف".

الفصل الخامس

التنفيذ

احـــتدم نقاش غير مسبوق على المستوى الرفيع في أوساط الحكومة الأميركية في صيف وخريف عام 2002.

وكـــان هذا النقاش خفياً على الرأي العام وسيظلّ كذلك في المستقبل، لكن آثـــاره ســـتبقى فاعلـــة لسنوات. إذ كان يتمحور حول مسألة تحديد واستخدام مصطلح قديم ومعقد ألا وهو الدليل.

فالدليل كلمة تُستخدم بطرق متعددة ولكن التحديد الأوّل له في الاستخدام الـــشائع هو نفسه دائماً. وكالعادة فسّر قاموس ويبستر هذا المصطلح بشكل ممتاز على أنّه "مجموعة من البيانات يمكن أن يرتكز عليها استنتاج ما أو حكم ما".

وكان لدينا القليل من هذه البيانات في "الحرب ضدّ الإرهاب".

كـــان هـــناك بالطبع سلسلة صغيرة من الدلائل التي تربط خاطفي طائرات الحـــادي عشر من أيلول/سبتمبر بالقاعدة والمنظمة بمضيفها الطالبان. واستناداً إلى ذلـــك، شُـــنت حرب على أفغانستان – حرب ارتكزت على "استنتاج أو حكم" سرعان ما لاقت دعماً واسعاً من الأسرة الدولية.

وبعـــد ذلـــك، بـــدأت الدلائل الحالية تشحّ بشكل ملحوظ ما جعل إحدى المقوّمات الرئيسية لنظرية تشيني تحرّر أسلوب التحرّك من معايير مقبولة كهذه في ما يتعلّق بالدلائل وقد أثبتت فعاليتها.

وبات الاشتباه في أميركا وخارجها أساساً للتحرّك.

وقـــد أدى التوتـــر الناجم عن ذلك، في أمة تحكمها القوانين لا الرجال، إلى تصدّع أسس الدولة التي تقوم على المبادئ القائمة وذلك بصورة منتظمة شهراً بعد

شــهر وعلى مر السنوات حيث كان يتم توقيف المواطنين الأميركيين أو التنصت علــيهم في حين كان الأجانب يُجمعون ويُرحّلون. وكانت مسألة وجود "غطاء" قانوني لهذه الأنشطة أم عدمه أشبه بنقطة تقنية: فقد تم تجاوز قواعد الدلائل القائمة منذ زمن ومعيار "القضية المحتملة" المرتبط بها. ولكن لا يعني ذلك أن تخفيض سقف المعيار يؤدّي إلى الحصول على نتائج قابلة للإثبات. وعلى الرغم من لاكاوانا، وبعد عام من النشاط الكبير الذي قامت به الأف بي آي، وبمؤازرة السي آي إي ووكالة الأمن القومي لم يتم العثور على أي إشارة بوجود خلايا فاعلة للقاعدة في الولايات المتحدة. ولم تستطع الوسائل التكنولوجية العالية المستوى ولا التكاليف الباهظة أن تأتي ثمارها في هذا الصدد.

أما على الجبهة الخارجية، فكان الافتراض وافراً لإطلاق العنان للتحرّك. ولكن هــنا أيضاً وصلت الدروس المستخلصة من مخاطر التحرّك على أساس الاشتباه إلى الداخل الأميركي خلال الصيف والخريف.

فــرأس الظواهــري الذي علّق عليه البيت الأبيض آمالاً كبيرة ودفع بالإدارة الأميركــية إلى الــبحث في المرحلة التالية من "الحرب ضدّ الإرهاب"، أي العراق تحديــداً – أكّــد فــشل الحرب في أفغانستان. وكانت المشكلة الفعلية تكمن في الاستناد إلى وقائع معدودة وغير حسية أفضت إلى اعتماد مقاربة حربية غير مناسبة على الإطلاق. فإذا كان الرئيس يشتبه بأمر ما ويطالب منطقياً بالتحقق منه يؤثّر في عملــية صنع القرار التي ترتكز على عبارة هذا قد يؤدي إلى ذلك أو يعني ذلك في نهايــة المطاف ". وكان نتيجة ذلك أن ذهبت المعطيات التي استغرق التوصل إليها ساعات رئاسية طويلة أدراج الرياح.

فقد أدى القبض على رمزي بن الشبح إلى استخلاص عدد من الدروس حول القــيمة الحقيقــية لمجموعة وقائع لا ترتبط بسياق محدد، إذ كان الاعتقال بحد ذاته انتــصاراً حيث لن يتكمن بعد الآن مسؤول القاعدة المهذار من الاضطلاع بمهمة الــتدمير. ولكن عقب اعتقاله بأسابيع أصبح واضحاً أنّ استجوابه لن يؤتي نتيجة. فقــد اســتُعملت معه جميع الوسائل من التعذيب بواسطة المياه والحرمان بأشكال مخــتلفة وصــولاً إلى التهديد بالموت وتشويه أحاديث قرآنية من دون جدوى. أما

القيمة الأكبر لاعتقاله فكانت الحصول على أرقام هواتفه والمحرّكات الصلبة ومعلومات رقمية أخذت من منزل كاراتشي الآمن. وعلى غرار قضية زبيدة، أُدخلت هذه الدلائل الصغيرة في نماذج فيل القلق، للإضاءة على الشبكة العالميّة، وإحداث أدلة جديدة ومشتبه بهم جدد. عنوان ولقب ورجل قد يكون على علم بأمر ما أو على معرفة بشخص ما، عزل شبكة من البيانات، كل ذلك كفيل بإحداث خطوط اشتباه جديدة.

الجوهرة في هذه الحالة كانت دفتر تسجيل الدخول. وقد وُجد واحدٌ في شقة كاراتشي. وكان زوّارها يستعملونه - وفي بعض الحالات كانوا يستندون إلى أسلوب محاسبة يستخدمه أعضاء القاعدة - حيث كانوا يدونون أرقام جوازات السفر خاصتهم. وكانت الأرقام المدوّنة على جوازات السفر تنقل سريعاً إلى استخبارات حليفة حول العالم... مع بعض الاستثناءات الرئيسية. فقد أرسلت ثلاثة أسماء، وأرقام جوازات سفر، إلى مكاتب تينيت ورايس ونائب الرئيس لمعالجة المسألة بشكل خاص. ومن بين هذه الأسماء، ورد اسم ابني بن لادن وزوجته الذين كانوا حصلوا على جوازات سفر سودانية جديدة.

وصدرت جوازات السفر في الأشهر التي تلت أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، بعد فترة طويلة على خطاب الرئيس الذي أعلن فيه العبارة الشهيرة "إما أن تكونوا معنا أو مع الإرهابيين"، مبرراً بذلك عملية الإطاحة بالطالبان في أفغانستان. وقد أصدر هذه الجوازات مسؤولون في السفارة السودانية في إسلام أباد التي تعتبر أكبر مكتب تمثيلي للسودان في الخارج، وهي على اتصال مباشر بالخرطوم.

كانت هذه الوقائع مثيرة للاهتمام. ولكن ما هي المرتبة التي يحتلها هذا الاكتشاف على سلّم الدلائل، هذه الدلائل التي ستؤدي إلى "الاستنتاج أو الحكم"؟. وكيف تمكّنت السفارة من إصدار جوازات سفر لزوجة بن لادن وابنيه في مطلع العام 2002 من دون معرفة القادة السودانيين؟

هذا كان السؤال الذي طرحه الرئيس حين قدّم تينيت عرضه للوقائع في منتصف شهر أيلول/سبتمبر بعد إلقاء القبض على بن الشبح. ماذا يعني ذلك؟ في

الحقيقة، أعربت الحكومة السودانية عن دهشها عندما تمت مواجهتها بهذه الوقائع حيث صرّحت أنّ هؤلاء المسؤولين ربما تقاضوا رشوة - وأنّها لن تدخر جهداً لكشف ملابسات ما حصل. وكانت السودان في تلك المرحلة تنضوي تحت اللواء المعروف بدول "الناحية المظلمة" التي كانت تتعاون مع الولايات المتحدة. فهل قدّم اكتشاف دفتر تسجيل الدخول دليلاً معاكساً للتعاون الجاري بسبب إشارته إلى اضطلاع السودان بدورين متناقضين تماماً: من جهة مساعدة بن لادن، ومن جهة أخرى التعاون مع الولايات المتحدة أو حتى أسوأ من ذلك؟ وبالفعل ولّد هذا الاكتشاف موجة جديدة من التشكيك في أوساط المسؤولين الأميركيين حيال النوايا السودانية. لكن الرد الذي جاء من السودان لتأكيد حسن النية كان تعهداً بتقديم مساعدة أكبر إلى السي آي إي بمختلف مبادراتها.

ويبدو جلياً في نهاية المطاف أنّ هناك سلوكاً تحكمه مصالح. فقد عرض السودانيون ما عجزنا عن رفضه بمعنى وقائع إضافية، منها ما هو قليل الأهمية، وقائع - شأن دفتر تسجيل الدخول بحد ذاته - لم تؤدِّ إلى أي استنتاج أو حكم.

والواقع أنّ "الحرب ضدّ الإرهاب" كان يوجهها فقط "مبدأ الاشتباه المحرّك" على حد تعبير أحد مسؤولي الاستخبارات السابقين الذي صرّح بما يلي: "كان كل شيء يحصل في الظل لذا لم يكن يجري أي نقاش حوله. كنا نعمل بجهد كبير في حقل خالٍ تماماً من الأدلّة. ولكن المفهوم بكامله ارتكز على فكرة مفادها أنّ غياب الدلائل القاطعة يجب أن لا يعيق العمل لأنّ المسألة برمتها تتمحور حول التحرّك والتحرّك المستمر".

في الوقت عينه - أي خلال الفترة الممتدة بين منتصف الصيف والخريف - بدأ التحضير لتجربة موازية وأكثر علنية في تطبيق العقيدة الجديدة والجريئة لتحرّك أميركا.

وقد حاول خطاب الرئيس في شهر حزيران/يونيو في ويست بوينت حول الحرب الاستباقية وضع مجموعة جديدة من القواعد الدولية بالرغم من أنّه لم يتطرّق إلى القاعدة الرئيسية - التي تعتبر أنّ الولايات المتحدة ستتعامل مع أي معلومة عن تقديم أي دولة أسلحة دمار شامل للإرهابيين على أنّها حقيقة حتى ولو كانت

صحة هذه المعلومة 1% فقط. ولو ذكرت هذه المقولة في الخطاب لكانت أدت إلى حصول نقاش واسع النطاق حول العراق.

وفي وقت كانت السي آي إي ووكالة الأمن القومي تلاحقان الإرهابيين، كـــان المخططون العسكريون في صيف 2002 يضعون اللمسات الأخيرة على خططهم لاجتياح العراق. وقد شكّلت المسائل المرتبطة بهذا الاجتياح، بحد ذاته، نواة لصراع تكتيكي. فقد كان كل من تشيني ورامسفيلد والفرق التي تساندهم يدفعـــون باتجاه اجتياح العراق في أي وقت تختاره أميركا. ومن جهته، أعرب كولن باول الذي لم يكن ضمن الحلقة المقربة من الرئيس عن موقفه الرافض لهذا المخطط في مطلع شهر آب/أغسطس بعدما تمكّن من مقابلة بوش وإطلاعه على مخاوفه حيال مخاطر مبدأ "فرّق تسد" في العراق. ومن النقاط الأساسية التي أشار إلـــيها بـــاول في حديثه إلى بوش أنّ الولايات المتحدة لا تستطيع القيام بتغيير النظام مهما كانت الذريعة لذلك من دون دعم دولي، فأميركا تحتاج إلى الموارد والمهـــارات المختلفة إضافة إلى شرعية الأسرة الدولية للقيام بهذه الخطوة. كان بالفعـــل نقاشاً تكتيكياً تمحور حول كيفية معالجة المسألة بدلاً من التطرّق إلى أســـبابها. وقد استطاع باول إقناع بوش بضرورة إشراك الأسرة الدولية في قرار الحرب لطلب مساعدتها.

كـــذلك عمـــد بـــرانت ســـكوكروفت، عضو الحرس القديم للبراغماتيين الجمهـــوريين الذين ينتمي إليهم باول، إلى الإعلان عن موقفه الرافض للاجتياح في الأســـبوع التالي في صحيفة وول ستريت جورنال، حيث كتب مقالاً تحت عنوان "لا تهاجموا صدام" اعتبر فيه أنّ اجتياحاً كهذا سيتطلب من الولايات المتحدة متابعة اســـتراتيجية "أحاديّـــة"، و"سيؤدي إلى تدهور جدي في التعاون الدولي معنا ضد الإرهـــاب. وتابع: "لا تخطئوا، لأننا ببساطة لا نستطيع الفوز بهذه الحرب من دون تعاون دولي متحمس خاصة في مجال الاستخبارات".

ويوم نشر المقال، كان الرئيس يمضي عطلته الصيفية السنوية في كروفرد. لكن في الـــيوم الـــتالي وأثناء مشاركته في اجتماع لمجلس الأمن القومي بواسطة الفيديو الآمن، وافق بوش على إلقاء خطاب الشهر التالي في الأمم المتحدة.

ولكن كان واضحاً أنّ تشيني، مهندس سياسة الإدارة الشاملة، سيضع الإطار العام للنقاش. ففي خطاب في ناشفيل، في تينسّي، في السادس والعشرين من آب/أغسطس أمام قدامى الجيش في الحروب الخارجية، تحدّث الأخير بإسهاب عن مخاطر الالتباس. فقال: "على القادة المنتخبين في هذه البلد أن يضطلعوا بمسؤولية النظر بجميع الخيارات المتوافرة، وهذا ما نفعله". أما ما يجب ألا نفعله أمام تهديد مميت فهو الاستسلام للتفكير بوحي من الأماني والرغبات أو الجهل المتصلّب. ببساطة، لن نغضّ الطرف ونتمنّى الأفضل فقط تاركين المسألة هذه لواحدة من الإدارات المستقبلية كي تحلّها. وكما قال الرئيس بوش "الوقت ليس إلى جانبنا"، فوجود أسلحة دمار شامل في أيدي شبكات إرهابية أو وجود طاغية مجرم في سدة الحكم أو تعاون الاثنين معاً عوامل تشكل تهديداً خطيراً أكثر مما نتوقع. فمخاطر عدم التحرّك هي أكبر بكثير من مخاطر التحرّك".

هذا ما شدد عليه تشيني مركّزاً على اقتناعاته. فالحرب الاستباقية التي تمثّل الحالة التي تدفع الولايات المتحدة إلى استباق هجوم واضح ووشيك هي بحسب تشيني استثناء نادر للغاية، إذ اعتبر أنّ أي دولة تمتلك مؤشرات تدميرية لن تفصح عن الضربة التي تنوي تسديدها. لذا يجب الإمساك بالدليل لكن بالطبع في الوقت المناسب للتنفيذ. في الواقع، ارتكز مفهوم التنفيذ على "الوقاية"- على استخدام القوة ضد أي دولة لديها نية تدميرية واستراتيجية جغراسية تقوم بشكل واسع النطاق على الافتراض. فالوقاية كانت ببساطة تشكّل فصلاً فرعياً أخيراً من عقيدة تشيني التي تعتبر بمثابة مصطلح عام يوجّه تحركات القوة العظمى على ساحة المواجهة بين دولتين. وفيما لم يتم التوافق مع باول حول الأهمية التكتيكية للدعم الدولي، اعتبر الأخير ورامسفيلد أنّه يمكن للولايات المتحدة إذا ما اقتضى الأمر أن تعالج مسألة العراق على طريقتها، ومن المستحسن أن تقوم بذلك من دون نفوذ الأسرة الدولية المشوّش. عندها كان على نائب الرئيس أن يركّز جهوده على قرار الرئيس لمناقشة مسألة الحرب في الأمم المتحدة.

وانتقل إلى إعادة تحديد مسألة الشبهات التي تعتبر الوقود السري "للحرب ضد الإرهاب" على أنّها دليل خاضع لمعايير النقاش الدولي الصارمة.

فقال تشيني في خطابه: "كان النظام العراقي في الواقع منهمكاً جداً في تعزيز قدراتــه في حقل الإنتاج الكيميائي والبيولوجي وما زال مستمراً في برنامجه النووي الذي بدأه منذ سنوات طويلة".

كان وحده في هذا الموقع ولكن قريباً سيتبعه آخرون.

تذكّــرت جايمــي ميسيك، نائبة رئيس مديرية الاستخبارات، أنّها استمعت لخطــاب نائب الرئيس الذي حصل على تغطية إعلامية لافتة بفعل ادعاءاته حول صـــدام والأســـلحة الـــنووية حيث كانت تلك المرة الأولى التي يحكى عن هذه الإدعـــاءات بـــثقة كبيرة. و لم يقم تشيني بإرسالها أوّلاً إلى السي آي إي كما فعل الرئيس بخطاباته. فسارعت إلى الحصول على نسخة من النص.

"قال إنّ صدام كان يعد برنامجه النووي. أما ردة فعلنا فكانت من "أين يحصل على المادة؟ هل يملك مصدر معلومات نجهله؟".

وكـــان هـــذا الالتـــباس المدوي شبيهاً بالارتباك الربيعي الذي حصل عقب الإعلان عن القبض عن زبيدة. غير أنّه تمّ التعامل مع هذا الالتباس بسهولة أكبر إذ إنّ المعـــرفة بالدور المحدود لزبيدة في القاعدة وجنونه الظاهر أدّيا إلى معالجة المسألة بعمق.

أمـــا بالنسبة إلى نائب الرئيس، الذي وُضع تحت المجهر، فقد شكّل التحدّث عن أمور كهذه تتعلّق بصدام حسين وأسلحته النووية أمام الإعلام مصدراً إضافياً للقلق.

والحقيقة أنّ أصوات الإنذار دوّت في العديد من أقسام السي آي إي التي بدا جلـــياً أنّهـــا استبعدت عن القرارات العامة التي يتم اتخاذها على أعلى المستويات. فسارع المحللون إلى جمع ما تعرفه الوكالة عن صدام والأسلحة النووية ومراجعته من دون تأخير. فلم تكن الشعبة الخاصة بالعراق في مديرية الاستخبارات على جانب كـــبير من الأهمية. حيث كانت السي آي إي تملك عدداً قليلاً من المصادر الموثوقة في العـــراق؛ في وقت كان صدام يستشير فقط حلقة ضيقة للغاية من المقرّبين منه. وعلـــى الرغم من أنّ وكالة الاستخبارات المركزية قد تلقت أمراً رئاسياً في شهر شباط/فبراير للبدء بالتركيز على العراق، إلاّ أنّ فريق عملها لم يستطع اكتشاف أي دليل حسي لوجود أسلحة دمار شامل.

فبدأ المحللون في الوكالة بطرح المزيد من الأسئلة حول الأماكن التي اعتبرت مصدر التهديد لربطها بالهدف الرئيسي ألا وهو إيجاد الإرهابيين والقبض عليهم. وقد ركّزوا بصورة أكبر على "كورفبول" "Curveball" الاسم الرمزيّ لمصدر عراقي له علاقة بمسؤولين في الاستخبارات الألمانية، والذي كان يعطي معلومات مفصّلة عن برامج أسلحة الدمار الشامل في العراق. كما جرى وضع تقارير عديدة مع مسؤولين كبار في السي آي إي حول الرحلة التي قام بها السفير الأميركي السابق في غابون جوزيف ويلسون، إلى النيجر في فبراير/شباط 2002 للتأكد من صحة الشائعات الصادرة عن مكتب نائب الرئيس، والتي أشارت إلى أنّ صدام حاول شراء اليورانيوم من المناجم الفرنسية في البلد. كانت بالفعل قصة معقدة تتمحور حول وثائق نيجيرية بيعت إلى عملاء استخبارات في إيطاليا والتي أوردت أنّ صدام كان يسعى إلى شراء اليورانيوم الخام والمسامي. وكان لصدام مصدر معروف لتموين اليورانيوم يشرف عليه مفتشو الأمم المتحدة. وقد شكّل تخصيب هذه المادة لتناسب صناعة الأسلحة، مشروعاً شاقاً لا مبرّر له. على كلٍ، لِمَ سيحتاج إلى أكثر من 500 طن لم يستعملها حتى الآن؟

في هذه الأثناء كانت الأجواء تزداد توتراً في أوساط الإدارة، فكان تشيني ورامسفيلد يتجادلان مع باول حول ما سيقوله بوش في الأمم المتحدة. فعدا عن انتقاد صدام حسين وربطه بالنطاق الأوسع "للحرب ضد الإرهاب"، كان باول يحض الرئيس على المطالبة بقرار جديد للأمم المتحدة لدعم التحرّك ضد القائد العراقي. لكن تشيني ورامسفيلد هاجما بشراسة هذه الفكرة. فقد اعتبر نائب الرئيس أنّ مناقشة هذه المسألة هناك أمر غير مجدٍ وأنّ طلب الإذن هو الأسوأ.

وفيما كانوا يختلفون على محتوى خطاب الرئيس في الأمم المتحدة قبل أيام قليلة فقط، ظهرت رايس على شبكة السي إن إن وارتجلت ما يلي: "المشكلة هنا تتعلّق بوجود بعض الشك دائماً حيال مدى سرعة حصوله على الأسلحة النووية، لكننا لا نريد أن نبقى مكتوفي الأيدي حتى وقوع الكارثة".

وقد أثار هذا التصريح موجة عارمة من ردود الفعل المستغربة، إذ انتُقدت رايس على اقتراحها بأنّ هناك دليلاً يثبت أنّ صدام قد يملك أسلحةً كهذه. غير أنّ

الذرائـــع المـــتعلّقة بالبرهان لم تقدّم الجواب الشافي، حيث ارتكزت ذريعة رايس المتكررة على أنّ الولايات المتحدة يجب أن تتحرّك سواء وجدت هذه الأسلحة أو لم تجـــدها. وكانت تكشف بذلك عن سقف السياسة الأميركية الحالية أي فصل التحالـــيل القائمـــة على الوقائع عن الرد بواسطة القوة واعتبار التحرّك استناداً إلى اشتباه ما خطوة مناسبة الآن، وذلك للشعور بالأمن والاطمئنان وللنيل من الخصم قبل أن يتمكن من تطوير قدراته فيردع الآخرين عن القيام بالمثل.

وعلى الرغم من استمرار النقاش بصورة يومية وانحرافه عن المسائل الجوهرية للأجندة الأميركية المبطنة – ألا وهي خطة اللعبة المبنية على استنتاج غير معلن يفيد بـــأنّ "الدلـــيل" نقطة انطلاق غير منطقية، إلاّ أنّه لم يفضِ إلى نتائج مهمة في نهاية المطـــاف. وبـــدلاً من ذلك، ظلّت الذرائع تتمحور حول توفّر أدلّة تؤكّد وجود أسلحة مدمرة أو عدم وجودها.

وبعـــد أيام قليلة، تحدّث بوش أمام الأمة وعدّد أخطاء صدام حسين والمخالفات التي قام بها، مؤكّداً على أنّه إذا لم تتحرّك الأمم المتحدة فتصبح عندها مؤسسة لا صلة لهـــا بما يحصل في العالم. كما أشار إلى أنّه كان قد قرّر بعد المحادثات التي أجراها مع رئـــيس الوزراء البريطاني طوني بلير وعدد من القادة الأجانب أن يطلب اعتماد قرار جديـــد. غـــير أنّ هذه المسألة التي تعتبر الأهم – وعلى الرغم من مواجهتها اعتراضاً واســـعاً مـــن تشيني وآخرين – لم ترد في النص. ولما لاحظ بوش غياب هذه النقطة البارزة سارع إلى ارتجالها بشكل عفوي للغاية في منتصف خطابه.

وهكـــذا بغية انتزاع الموافقة الدولية والحصول على الدعم المنشود بات على الولايات المتحدة أن "تبني قضية" لحرب، ارتكزت على ذريعة امتلاك صدام حسين أسلحة دمار شامل.

وكـــان واضحاً أيضاً بالنسبة إلى المقرّبين من الرئيس أنّ المهمة هذه لن تجدي نفعـــاً وأنّهـــا مجرد عرض مسرحي، بما أن الحكومة الأميركيّة تكتفي بمجرّد الشك لإطلاق العنان لتحرك وقائي.

وليس واضحاً ما إذا كان كولن باول يكتسب صلاحية كأحد أعضاء الحلقة المقربة من الرئيس إلى درجة أن يعرف بذلك.

وبالطبع، كان تينيت على علم - فكان شاهداً على الإنجاز الذي حققه تشيني قبل عام تقريباً. ولكن الآن وبعدما أصبحت معايير الدلائل التي تخلت عنها الحكومة الأميركية محور النقاشات في المنتديات الدولية، يجب على مدير السي آي إي أن يقف على مسافة واحدة من التفسير القديم لمصطلح الدليل ومبدأ التحرّك الجديد.

يعني أن تكون جورج تينيت في هذه المرحلة هو أن تشعر بالمخاطر الناجمة عن دوي صاعقة وسط عاصفة هوجاء.

فكان اليوم العادي يبدأ بإطلاع الرئيس على الأوضاع، يليه عرض أمام الكونغرس، ثم اجتماع مع رايس أو تشيني أو ربما مجموعة من قادة مجلس الشيوخ، ثم مراجعة مسودات خطابات الرئيس المزمع إلقاؤها، إضافة إلى مزيد من الاجتماعات في البيت الأبيض تسبق لقاءات في لانغلي قبل حلول الساعة الخامسة من بعد الظهر، موعد انعقاد الاجتماع الاستخباري الذي أصبح من أبرز الأحداث في واشنطن، إذ يشارك فيه ممثلون من البيت الأبيض والعديد من الوكالات. في معظم الأيام، أصبحت غرفة المؤتمرات التابعة لتينيت ملتقى متكرراً لستين شخصاً.

هذا حين لا يكون تينيت مسافراً - إذ إنّه يغادر البلاد كل ثلاثة أيام على اعتبار أنّه الشخص الوحيد في الحكومة القادر على المزاح مع ولي العهد الأمير عبد الله أو الرئيس الباكستاني برويز مشرف أو حتى التحدث طويلاً مع أحد قادة استخباراتهما بغيابهما.

كان على هذه الجهود أن تأتي بثمارها - وهذا ما حصل بالفعل، شيئاً فشيئاً. فمعضلة الدور الذي اضطلع به تينيت كانت شيطانية، حيث تعتبر الاستخبارات أكسجين "الحرب ضدّ الإرهاب"، إذ كانت السي آي إي تأخذ على عاتقها جمع المعلومات وتحليلها والقيام بعمليات تتخطى بأشواط الإطار التنسيقي للسلطة الاستخباراتية. وفي ذلك الحين، لم تكن الوكالة جاهزة للدخول في متاهات محاربة الإرهاب وانتشار الأسلحة كما أنّها لم تكن تتمتع بقدرات تنسيقية مهمة. أما تينيت فلم يكن يتحلى بمواصفات المدير الحقيقي إذ كان جيداً في الاندفاع نحو هدفه، على سبيل المثال لأنّه من الأشخاص الذين يحبون التملق وإحداث الضجيج

وعند الحاجة رفع الصوت خاصة في ما يتعلّق بالمسائل الهامة ليملي على الآخرين ما يفعلون ويقول لهم متى ولماذا قبل أن يصرخ "ما التالي؟".

وقد تزعزعت ركائز الوكالة معه حيث كان يترك أحياناً بعض المسائل عالقة وغير واضحة المسار.

وبعدما ألقى الرئيس خطابه وأصبح اعتماد قرار جديد للأمم المتحدة وشيكاً، شعر معظم أعضاء الحكومة الأميركية بأنّ تياراً قوياً يجرف البلاد نحو حرب في العراق. وكان سكوكروفت قد توقع أنّ الاجتياح سيبعد السياسة الخارجية والمؤسسات الاستخباراتية عن "الحرب ضدّ الإرهاب"- ولكن ذلك كان يحصل يوماً فيوماً قبل أن يستعد الجيش للمواجهة بوقت طويل.

وكان هذا التوتر الناجم عن تنافس الأولويات ينضح من كل مبنى في حرم لانغلي. فأولوية الوكالة ما زالت قيادة "الحرب ضدّ الإرهاب" وإلقاء القبض على المطلوبين وهي مهمة جعلت مديرية الاستخبارات تدخل سباقاً محموماً لم تعهد مثيلاً له من قبل. وقد عكف محللوها ليلاً نهاراً على التدقيق في أخبار التهديدات العاجلة ووضع تقويم سريع لتحركات الإرهابيين في مناطق من العالم لا تملك فيها الولايات المتحدة أجهزة استخبارية فاعلة، وإدراج آلاف المعطيات التي تمكنوا من جمعها في سياق عملي نوعاً ما. أما تركيزها فقد انصب على ما أصبح يعرف بوكالة "تقود حرباً".وقد شكل هذا التغيير الذي طرأ بعد ساعات قليلة على هجمات الحادي العشر من أيلول/سبتمبر صدمة بالنسبة إلى مديرية الاستخبارات التي تخصص تقليدياً القسم الأكبر من مواردها لإجراء تحاليل لأحداث ماضية بعد مرور وقت على وقوعها ورسم أطر معقدة لمجموعة من البلدان والمناطق المختلفة حول العالم.

ومن باب المفارقة، عادت لتقوم بذلك لاحقاً بالنسبة إلى العراق، حيث كان التحدي يكمن في تقويم سريع ودقيق للسنوات الإحدى عشرة التي تلت انتهاء حرب الخليج عام 1991 للنظر في ترسانة صدام حسين.

وقد تسلّم البيت الأبيض التقييم الاستخباري القومي حول العراق وأسلحته والمؤلّف من تسعين صفحة في الأول من تشرين الأول/أكتوبر - ويحوي، على

غــرار جمـيع تقاريــر التقيـيم الاســتخباري القومي – تحاليل مستقاة من عالم الاستخبارات برمته. وفي هذه الحالة، وبالنظر إلى موضوع هام كهذا في ظل الحرب القائمة والاهتمام البالغ الذي أصبح الجميع يولونه إياها، بات التقييم الاستخباري القومــي يشبه طبخة كبيرة تضمّ كلّ المكونات الموجودة في المطبخ. فبسبب نصه الكثــيف والملاحظات التوضيحية الكثيرة التي يحويها، اشتمل التقرير الاستخباري القومي على مروحة كاملة من المقالات حول مختبرات الأسلحة المتنقلة التي يملكها صــدام، إلى قنوات الألمنيوم التي اعتبرت الوسيلة المثلى لتصنيع اليورانيوم، وصولاً إلى الإشــارة في الصفحة الرابعة والعشرين إلى أنّ "العراق قام أيضاً بمحاولات عدة للحــصول علــى اليورانيوم المخصب". وقد أدت كل نقطة من هذه النقاط إلى إحداث انقسامات منطقية.

تاريخــياً، كــان تقرير على هذا القدر من الأهمية – بفعل ارتباطه بما أصبح يُعــرف بنواة "قضية الحرب" الدوليّة – يُدرس بدقة بالغة من قبل الرئيس مما حدا بقائــد القــوات الأعلى إلى أن يصبح مسؤولاً عن تصريحاته العلنية وتحاليله المبطنة حول ضرورة شن الحرب.

غير أنّ رئاسة بوش استطاعت ابتكار مفاهيم جديدة في ما يتعلّق بالمحاسبة الرئاســية بعــدما كــان نائب الرئيس وراء هذه التغييرات التي طرأت في هذا الصدد.

وكان تشيني، تماماً كما حصل في ظل رئاسة فورد، قد اختبر مفهوم الحفاظ على بعض المسائل بعيداً عن رئيس السلطة التنفيذية – الأمر الذي يعتبر بمثابة قلب للمعــادلات التي كانت سارية قبل أن يرغم عصر الإعلام الرؤساء على التحدث كــثيراً أمام الأضواء. لكن رأي تشيني، بحسب موظفين عملوا في ظل عدة إدارات جمهــورية، يعتبر أنّ الرؤساء الذين يواجهون تحديات علنية بسبب تسريبات بغير محلها حول أنشطة الحكومة الأميركية يحتاجون إلى فسحة آمنة بعيداً عن الأضواء. كانــوا بحاجة إلى إظهار عدم معرفتهم بالحادثة وألا يكتشف كذبهم. فالكذب أمر يلجأ إليه الرؤساء حين يكونون في خطر، أما الثقة فهي في نهاية المطاف عامل ثمين ترتكز عليه مصداقية الرئيس وسلطته.

وكان هذا النوع من التفكير يشكل بطريقة أو بأخرى رداً استراتيجياً لتشيني وآخرين على فضيحة واترغايت، حيث أظهر التصريح المسجل لريتشارد نيكسون حول التحقيقات المتعثرة في قضية واترغايت أنّه لم يستطع آنذاك أن يكذب بشأن مـا كان يعرف. وهذا ما جعله يُتهم بانتهاك القوانين المتعلقة بإعاقة عمل القضاء. فكانت النتيجة أن خضع للمساءلة التي وضعت حداً لرئاسته.

ولم يكـن عدد من المسؤولين السابقين في إدارة نيكسون، بمن فيهم تشيني، يعتـبرون أنّ التدخل وما شابه من الأعمال هو لب المشكلة. حيث كانوا يعتقدون أنّه ما كان يجب أن يعرف الرئيس بحصول أنشطة كهذه.

فالـرئيس، في حالة كهذه، يستطيع أن يقول بطريقة عامة أنّه يسعد لحصول شـيء ما، وأنّ أتباعه يحققون له هذه الأمنية من دون أن يفرّط مطلقاً بما عرف في ظـل إدارة ريغان بإمكانية "الإنكار المعقول". وهذا ما فعله رونالد ريغان بالفعل حين أخبر مستشاريه بأنّه لا يمانع أن يجدوا طريقة للالتفاف على الحظر الذي فرضه الكونغـرس على مساعدة المتمردين المناهضين للشيوعية في نيكاراغوا. غير أنّه عاد وأكّـد رداً على سؤال ذات الصلة في حديث مصوّر أنّه لا يملك أدنى فكرة عما فعلوا بالحقيقة.

أما بالنسبة إلى بعض الرؤساء، على غرار الرئيس بوش الأب، فلم ينجح هذا الأسـلوب على الإطلاق. إذ إنّه كان يطلب أن يبقى على علم بكل ما له علاقة بصنع القرارات تلافياً لاقتراف الأخطاء. فالرؤساء بشكل عام لا يحبون أن يفاجأوا أو أن ينتهـي بهم الأمر بالسعي إلى إثبات عدم معرفتهم بواقعة ما. فهم يشمئزون مـن فكرة التذرع بعدم المعرفة لإبعاد شبح المساءلة أو إلقاء اللوم على الإجراءات الحكومية غير الفعالة لمواجهة شفافية عصر الإعلام العالية.

إلاّ أنّـه ومع رئاسة جورج دبليو بوش الجديد، أصبح تشيني قادراً على بلورة اسـتراتيجيته الوقائـية بشكل فاعل للغاية. فإغفال بعض المعلومات عن بوش عن طـريق تغطية معظمها عن أن الرئيس الذي يجوب كلامه الكرة الأرضية يستطيع وضع استراتيجيات مختلفة من خلال قول كل ما هو مطلوب. كما يمكنه أيضاً أن ينفي بنفسه تصريحاته الخاصة.

وســـواء كانـــت ابتكارات تشيني مفصلة لتتلاءم مع ميول بوش أو العكس، فالأمـــر غير هام إذ إنّه تجسيد لانسجام قوي. وفي ظل هذا النموذج الاستراتيجي، يـــبدو أنّ قراءة التقييم الاستخباري القومي بأكمله تعتبر إشكالية بحد ذاتها بالنسبة إلى بوش حيث يمكن أن تطوّق خطابه البليغ الذي يعتبر السلاح الرئيسي في السير نحو الحرب، فهو سيكون على علم بالكثير.

وإذا ما تم الكشف عن محتوى التقييم الاستخباري القومي بطريقة ما، فيمكن للبـــيت الأبيض أن يقول إنّ التقرير كان ثقيلاً وأنّ بوش قرأ صفحة الملخص فقط. غـــير أنّ الملخص بحد ذاته عرض مشكلتين اثنتين: أوّلاً احتواؤه معلومة مفادها أنّ الفـــرع الاســـتخباري في وزارة الطاقة ومكتب الاستخبارات والأبحاث في وزارة الخارجـــية مقتنعان بأنّ أنابيب الألومنيوم التي أكّدت معظم الوكالات أنّها كانت مـــرتبطة بمحاولة تخصيب اليورانيوم استقدمت لتصنيع أسلحة تقليدية. وثانياً عدم تطـــرقه إلى الأســـلحة النووية. إذاً لم تكن هذه المسائل واردة بين "الاكتشافات الرئيـــسية" التي تضمنها هذا الملخص الذي يعتبر واهياً للغاية وعاجزاً عن إحداث تغيير نوعي في مجرى الأمور. ومع ذلك فقد وضعت السي آي إي الضغوط الآيلة إلى تأكـــيد خـــبر لقاء محمد عطا بالعراقيين في براغ، وأصبحت أنابيب الألومنيوم والأسلحة النووية القضيتين الأبرز في تبرير هذه الحرب.

وفي هـــذا الـــسياق، سبق للسي آي إي أن حذرت البريطانيين في منتصف أيلـــول/ســـبتمبر من أنّها قد حققت في مسألة ادعاءات فريق M16 المماثلة بشأن الأسلحة النووية التي أظهرت بعض الشبهات.

وفي أيلول/سبتمبر أيضاً أخبر تينيت بوش وتشيني أنّ وزارتي الخارجية والطاقة اســـتنتجا بأنّ أنابيب الألومنيوم كانت تهدف إلى صناعة الصواريخ وقد وافق على ذلك عدد من محللي السي آي إي.

وكـــان كل جزء من هذه التحاليل والتقارير يحرج السي آي إي أمام البيت الأبـــيض. فبنظـــر مكتب تشيني وقيادة البنتاغون المدنية، كان العائق الرئيسي أمام الحـــرب بعـــد قرار بوش تناول القضية علناً هو السي آي إي. وكان ذلك بالفعل حلاً تنظيمياً كلاسيكياً. ففي حين عرفت الذراع التنفيذية للوكالة أنّ من الأفضل

لها أن تتحرك بناء على ما هو أكثر من افتراض، لم تستطع مديرية الاستخبارات أن تفهم أنّه يتعيّن عليها القيام بالمثل. فكان هناك الكثير من الإشارات التي تدل على غياب ما يعرف "بالآلية السياسة" في الإدارة. وبحلول خريف 2002، بدأت أطراف حكومية أخرى من المحللين الاقتصاديين في وزارة المال إلى الخبراء في مجال تسخين كوكب الأرض في وكالة الحماية البيئية وصولاً إلى خبراء العناية بالأطفال في مركز الخدمات الإنسانة والصحية يدركون أنّ مهامهم لا تكمن في صنع السياسة بل في تثبيتها.

وقد صرّح أحد المسؤولين في مديرية الاستخبارات ما يلي: "فهمنا أن الحكومة كانت تتبع أيديولوجية محدّدة أكثر من أي شيء آخر وأنّها لم تكن تُعر اهتماماً للمحللين بمن فيهم محللون من وزارة الخارجية، وأحيانا من وزارة الدفاع أيضاً. لم نكن نعتقد أن هذا الأمر سيطبق حين سرنا باتجاه الحرب، على اعتبار أنّ هذا المعيار يختلف تماماً عن سياسة الموازنة أو تخفيض الضرائب. أما عملنا فيكمن في إطلاع الرئيس على الحقيقة كي يتمكن بالتالي من اتخاذ القرارات الصائبة حين تكون أرواح الناس على المحك. هذا ما نفعله. أما تجاهل ذلك فيعني عدم الحاجة إلى السي آي إي".

وفي ما يتعلق بفترة التحضير للحرب، كان البيت الأبيض يقول ذلك أيضاً. وهذا ما ترك تينيت وسط أوجه متضاربة لولاء لأطراف متعددة – أي للرئيس الذي كان يستطيع إقالته بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ولكنه لم يفعل ذلك، ولمحلليه الذين يعتبر أنّه ملزم بالدفاع عنهم مؤسساتياً وعاطفياً.

وفي الخامس من تشرين الأول/أكتوبر، جلس تينيت على مكتبه، وهذه مصادفة نادرة، وراح يقرأ مسودة الخطاب المقبل للرئيس الذي سيلقيه في سينسيناتي والذي سيدعي فيه أنّه تم ضبط نظام صدام حسين يحاول شراء اليورانيوم من النيجر.

وقد عمدت السي آي إي فوراً إلى إحالة مذكرة إلى نائب مستشار الأمن القومي ستيفن هادلي ومُعِدّ الخطابات الرئاسية مايك غيرسون تقول فيها إنّ هذه المعلومة هي غير صحيحة. وقد كررت رسالة أخرى في اليوم التالي-هذه المرة

كانت موجهة لرايس - أنّ دليل النيجر كان ضعيفاً وأنّ أي عملية شراء كهذه في أي حدث لم تكن لتأخذ أهمية كبيرة بما أنّ صدام حسين يمتلك أساساً كمية كبيرة من اليورانيوم المخصب وأنّه عاجز عن تصنيعه إلى مادة يمكن استخدامها للأغراض المذكورة.

ولم يكن ذلك كافياً لطمأنة تينيت أنّ المسألة واضحة في هذا الصدد. فهو كان يعرف جيداً السياسية التي تحكم العمل: إن الدليل، إذا لم يجري تحديده بدقّة، يتغيّر بما يناسب الأوضاع. وفي هذه الحالة، يعني ذلك إقناع الأسرة الدولية بما ترغب في سماعه. لذا اتصل بهادلي في ساعة متأخرة في 6 تشرين الأول/أكتوبر أي قبل يوم من إلقاء الخطاب. وقد فهم تينيت أنّ السؤال لا يتعلّق بصحة الادعاء حول النيجر أو لا، بل كان يتمحور حول إمكانية إثبات عدم صواب إدعاء الرئيس.

غير أنّ هادلي قاوم ذلك على أساس أنّ هذا الادعاء هو الادعاء الرئيسي في قضية الحرب. كما عرف تينيت كيف يقدم الجواب بمصطلحات سياسية، حيث قال: "ستيف، أنت حقاً لا تريد أن يكون الرئيس شاهداً حسياً على ذلك. صدقني".

وبعد أسبوعين، تسلل تينيت إلى غرفة التداول الواسعة في مبنى مكتب هارت في مجلس الشيوخ. كانت حيِّز الوقوف فقط؛ الظُلّة، جلسات الاستماع المتلفزة للجان استخبارات مجلسي النواب والشيوخ المشتركة في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر والتي عرفت بـ "جلسات لجنة الاستخبارات المشتركة". وبرئاسة كل من بوب غراهام العضو الديمقراطي السابق في مجلس الشيوخ من فلوريدا وبورتر غوس، النائب الجمهوري من فلوريدا الذي سبق أن شغل منصب مسؤول قضايا في السي آي إي، كانت جلسات الاستماع هذه مسألة دقيقة للغاية وصعبة في الوقت عينه. فكان غراهام الذي استعد لإنهاء مسيرته المهنية في مجلس الشيوخ وخوض سباق الرئاسة نَزِقاً وكان يشعر بأنّ أحد الشهود يعمد إلى تضليله كما تم تضليل البلاد. أما غوس فكان في ذلك الوقت مصراً على التقدم في هذه القضية وكأنّه انتهى من وقت طويل من إحدى مهمات مديرية الاستخبارات المركزية.

واليوم كان يوماً عظيماً: تينيت والمقدّم مايك هايدن رئيس وكالة الأمن القومي وبوب مويلر كانوا جميعاً موجودين على طاولة الاستماع.

وكان قد سبق لتينيت أن أمضى ساعات طويلة تحت أضواء مبنى الكابيتول، بحيث أصبح ممثلاً لمجمل أجهزة الاستخبارات - أي الوكالات الخمسة عشرة المنفصلة - من جهة ورمزاً للفشل المدوي بسبب عدم معرفة أميركا بما كان يجب أن تعرفه في الوقت المناسب من جهة أخرى.

وقد عمل لثلاثة أيام على تحضير خطابه الذي قال عنه لأحد زملائه إنّه سيكون "بيانه الرسمي".

وبعدما أدى تينيت القسم، أعلن غراهام أنه سيطلب من "أعضاء اللجان أن يلخصوا بياناتهم كي لا تتجاوز المداخلات مدة العشر دقائق كي تخصص الفسحة الأكبر لطرح الأسئلة".

وأجاب تينيت: "شكراً، سيدي الرئيس. أعتقد أنني لن أستطيع الالتزام بعشر دقائق، لذا سأحاول أن أسرع قدر الإمكان وأشكرك من جديد على تفهمك..." ثم غاص في مداخلته.

"في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، زهقت 3000 روح بريئة تقريباً في أشنع مظهر من مظاهر الإرهاب. وأقول لرجال ونساء الاستخبارات في أميركا إنّ الحزن الذي نشعر به، الحزن الذي نتشاطره مع آخرين كثر يزداد عمقاً بسبب معرفتنا بحجم الجهود التي بذلناها من دون جدوى لتلافي هذا الهجوم...".

ويبدو أن أسلوبه الخطابي الشبيه ببلاغة قادة شرطة من برنامج سي آس آي لاقى أصداء إيجابية على الشاشة، فكان بمثابة هدية ثمينة بالنظر إلى الأجواء السائدة التي سلّمت بعدم كفاءة أجهزة الاستخبارات. وقد عرض بإسهاب شريط الأحداث وصولاً إلى الحادي عشر من أيلول/سبتمبر والأخطاء التي ارتكبت إضافة إلى شرح كيف تم تصحيح المسار الآن.

غير أنّ غراهام قاطعه في الدقيقة العاشرة. ومجدداً بعد عشر دقائق، وفيما كان تينيت يصف كيف لم يدرك المسؤولون في السي آي إي أهمية المعلومات بشأن الحمزي ومهدار الموجودة في ملفاتهم خلال شهر آب/أغسطس من العام...".

السيناتور غراهام: سيد تينيت لقد مضت حتى الآن إحدى وعشرين دقيقة.

السيد تينيت: حسناً سيدي، أردت أن أقول إنني كنت أنتظر هذه اللحظة منذ عـــام. وقد حصلت على عشرين دقيقة أخرى وأنا أريد أن أقول هذا للتاريخ. إنّه أمر مهم ويندرج في سياق محدد وهو أيضاً واقعي لذا أريد أن أكمل مداخلتي.

وهب السيناتور الجمهوري أورين هاتش من ولاية يوتا إلى نجدة تينيت حيث قال: "سيدي الرئيس، أود أن أستمع إلى القصة كاملة".

وأضافت السيناتور الديمقراطية ديان فاينشتاين من كاليفورنيا: "أنا أيضاً أريد ذلك".

وعندها علت الهتافات الداعمة للسي آي إي في الأماكن التي تجمع فيها الناس لـــمشاهدة الجلـــسات. وعلـــى بعد خمسة عشر ميلاً سمعت هتافات مماثلة في قاعة محاضرات في الأفق بي آي أيضاً.

فمـــنذ وقـــت طويل لم تشهد الذاكرة العامة نـــزعة مماثلة لإلقاء اللوم على أحـــدهم، لإيجاد هذا الشعور المريح الناجم عن تحديد المخطئين ومساءلتهم. وكان الكونغرس يسير بهذا الاتجاه، تماماً مثل البيت الأبيض الذي فعل ذلك على طريقته. أما السي آي إي ومكتب التحقيق الفدرالي فكانا لب هذه القضية.

استعاد غراهام زمام الأمور فيما تمكّن تينيت من إنهاء خطابه المكتوب الذي أعده بشكل دقيق. بعدها، وعقب تخصيص 15 دقيقة لطرح الأسئلة، حان وقت الاستراحة. فـــشعر تينيت ببهجة عارمة إذ استطاع أن يقول كل ما عنده وأن يظهر أنّ السي آي إي على الرغم من أخطائها قادرة على الاضطلاع بالمهمة المناطة بها في هذه المرحلة.

وقـــف تينيت فيما كانت الفوضى تعم الصالة بعدما تجاوزت فترة الاستراحة الوقت المحدد لها، وجمع الملاحظات التي دوّنها بالقرب من الطاولة التي وضع عليها المـــذياع. فاقتربت منه سيدة متوسطة العمر ذات شعر بني اللون، فانحنى باتجاهها بشكل تلقائي وكأنه يعرفها. فوقفت قريبة منه ونظرت إليه بعينين دامعتين وقالت: "لقد قتلت زوجي".

وكان عطلة نهاية الأسبوع الأولى من تشرين الثاني/نوفمبر 2002 لحظة تحمل في طياتها بعضاً من الرضا بالنسبة إلى جورج دبليو بوش.

كان يجوب البلاد باسم المرشحين الجمهوريين لمدة شهر، وقد أثمرت جهوده علـى مـا يـبدو. فيوم السبت الذي سبق الثلاثاء الذي جرت خلاله انتخابات منتصف الولاية، أظهرت الاستطلاعات التي أجراها الجمهوري ماثيو داود ارتفاعاً لأسـهم الجمهـوريين، ما أدى إلى قلب المعادلة التقليدية التي كانت تشهد دائماً خسارة حزب الرئيس لبعض المقاعد في انتخابات منتصف الولاية.

ووسـط صخب الموسم السياسي، تبيّن أنّ فكرة بسيطة إنما شخصية للغاية بالنسبة للأميركيين تراود الجميع: لم نتعرض لهجوم ثانٍ.

وإذا مـا اعتـبر النجاح بشكله الأسمى قضية نتائج تفوق التوقعات، فيمكن القـول إنّ هناك تنهيدة ارتياح، أو امتنان، لعدم وقوع أحداث متوقّعة على أرض الولايات المتحدة.

مـاذا كان يعرف الأميركي المطّلع بشكل مقبول على الأحداث؟ أيعرف أنّ ريتشارد ريد البريطاني الذي حاول تفجير طائرة بواسطة قنبلة في حذائه اعتقل على يد ركاب ومضيفين أبطال؟ أيعرف أنّ داني بيرل الصحافي في وال ستريت جورنال الوسـيم والجاد عرف نهاية بائسة تظهر مدى بربرية أعدائنا؟ هؤلاء الأعداء كانوا يعيشون بيننا - أمثال خوزيه باديا وخلية لاكاوانا التي تم التهليل لخياناتها المزعومة بالرغم من غياب الأدلة القاطعة على ذلك. وقد شكّلت الإنذارات الأمنية برموزها الملوّنة مادة دسمة للكوميديّين، ولكن، فأظهر ذلك سعي الحكومة الحثيث إلى القيام بكـل ما في وسعها أثناء مواجهة خطر حقيقي وتركيزها على ما يريد الرأي العام أن يعـرف. ألا يعتبر بث الخوف في النفوس نوعاً من الفشل؟ أيهما أفضل؟ معرفة ماذا يجري أم جهل ذلك؟ في الواقع، بقت هذه الأسئلة معلقة من دون إجابات.

ولكـن، في غضون ذلك، كان التهديد في الخارج يبدو فعلياً وحاضراً خلافاً لأي وقت مضى. فبالرغم من وجود بن لادن وبقاء أنشطته محط تكهن في أوساط المسؤولين، أطل الظواهري ثانية في مطلع شهر تشرين الأول/أكتوبر حين تعرضت قوات المارينـز الأميركية إلى هجوم في الكويت. وقد ظهر على قناة الجزيرة ليؤكد أنّ هجمات جديدة ستطال الولايات المتحدة واقتصادها وحلفاءها. وقال: "أعدكم أنّ الشباب الإسلامي يُعد لكم ما سوف يملأ قلوبكم رعباً".

ولكن لم يحصل شيء في أميركا، لا شيء حتى الآن. وإن حمل ذلك في طياته بعض الطمأنينة إلى الرأي العام الواسع، إلاّ أنّه لم يشكل عزاء للمتورطين في الحرب. فعدم حصول هجوم آخر على الولايات المتحدة يعود بنظرهم إلى وجود مروحة كبيرة من القرارات الاستراتيجية لدى القاعدة، من بينها الفكرة القائلة بأنّ الرعب الذي خلّفته أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ستبقى كما الصدى في الأذهان، إلى حين إتباعها بهجوم آخر من شأن حجمه المدوي أن يثبت قدرات القاعدة ونواياها. فالقاعدة لا ترغب في التحرك إلاّ إذا ما استطاعت التخطيط لهجوم يتخطى بحجمه الهجوم الذي طاول مركز التجارة العالمي والبنتاغون بحيث يكون أكثر تدميراً ويزيد من حدة القلق حيال التوقعات المستقبلية. وهذا الشعور بالذعر الذي يتضاعف مع مرور الأيام سيستمر حتى الهجوم التالي وهكذا دواليك. إنّها استراتيجية "الحدث الخاص"، إذ إنّها تهدف إلى إظهار أنّ الحرب ضد الإرهابيين ليست مجدية وأنّها لن تنتهي أبداً بل ستُصعّد بشكل يدفع الأميركيين إلى الإدراك بأنّهم قادرون على العيش بهناء من دون دعم الولايات المتحدة لأنظمة فاسدة في الشرق الأوسط أو وجود جنودها في شبه الجزيرة العربية.

وعندها سيفعل الناس المستحيل لوضع حد للخوف - لذا يعتبر إحداث الذعر هدف الإرهابي.

لكن الخوف هو مركزي أيضاً بالنسبة للترسانة الأميركية.

وصباح الثالث من تشرين الثاني/نوفمبر، بينما كان الرئيس يتأمل أرقام الاستطلاع التي بشرّت بفوز الجمهوريين في الانتخابات الجزئية، كان جورج تينيت يحتسي القهوة في مقر وكالة الاستخبارات بعدما أمضى ليلته هناك.

ومع ذلك كان عليه أن يبقى متيقظاً لساعات بعد.

فقد توجه عدد من عملاء الإشارات الاستخبارية، بمن فيهم هؤلاء الذين يعملون مع وكالة الأمن القومي والأقمار الصناعية الأميركية الخاصة بالمراقبة، مع عملاء في السي آي إي أيضاً إلى مركز مكافحة الإرهاب مع تينيت.

وقد شخصت عيون الحاضرين جميعاً على شاشة كبيرة لمشاهدة شريط فيديو يظهر سيارة رباعية الدفع رمادية اللون تسافر عبر منطقة قاحلة من صحراء معرب

في اليمن. أما من يستقل السيارة فكان، بحسب قوى الأمن اليمنية والاستخبارات الأميركية قاعد سليم سنان الحارثي المعروف بـ "أبو علي"، أحد أعضاء القاعدة المشتبه بهم في التخطيط للهجوم على السفينة الحربية الأميركية يو أس أس كول. وكان بصحبة الحارثي ستة مرافقين يعتقد بأنهم ينتمون جميعاً إلى القاعدة. وقد رصدتهم طائرة Predator من دون طيار وهم يعبرون الحدود المؤدية إلى دولة جيبوتي. وأثناء سلوك السيارة قسماً منعزلاً من الطريق السريع، كان أحد الركاب يتحدث على الهاتف مع جندي من القاعدة أصبح في أحد السجون في الولايات المتحدة. ولكن الراكب لم يكن يعرف ذلك بالطبع إذ كان يعتقد أنّ الرجل موجود في مكان قريب فحاول تحديد مكانه ليتمكن من لقائه. فقال له: "لقد انتهينا. ألا يمكنك رؤيتنا؟ نحن هنا في مكان قريب".

وكان قد مر 14 شهراً بالتحديد على مشاركة تينيت في اجتماع مجلس الأمن القومي المخصص لمكافحة الإرهاب في الرابع من أيلول/سبتمبر من العام 2004، حيث صرح بما يلي أمام الحضور: "من المهم بالنسبة إلينا مناقشة ما إذا كنا نريد أن تطلق مديرية الاستخبارات المركزية سلاحاً كهذا. أنا لا أقول إنني مع هذه الفكرة أو ضدها، بل الإشارة فقط إلى أنّها تغيّر طبيعة عمل مديرية الاستخبارات المركزية. فهي تتجاوز الخط التي لم نجتازه نحن". وقد عمدت المجموعة إلى تأجيل هذا اليوم من اتخاذ قرار.

فبعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، لم يكن الاجتماع ضرورياً لمناقشة المسألة بشكل أكثر تفصيلاً. فقد قام الجميع بكل ما في وسعهم على أمل نجاح خطوة ما.

وما من شك في أنّ طائرة Predator المسلّحة قد حققت نجاحاً في هذا المجال. فأعطى تينيت الأمر بتنفيذ العملية فانطلق صاروخ Hellfire من الطائرة مدمراً السيارة وقاتلاً الأشخاص السبعة الذين كانوا على متنها بمن فيهم الحارثي. ومن بين القتلى، وجدت السي آي إي كمال درويش الذي يعتبر مرشد رجال خلية لاكاوانا وصديقهم الملهم إضافة إلى كونه أحد أبرز المطلوبين في العالم لأنه قادر على توضيح ما إذا كان أفراد لاكاوانا الستة خلية تابعة للقاعدة بالفعل ينزعون

إلى التدمير أو أنّهم مجرّد ستة أصدقاء مشوشي التفكير من بافالو يتصرفون من تلقاء أنفــسهم. وقد تم التوصل إلى توافق حول المسألة الأخيرة بالرغم من النقاش الحاد الــذي دار بهذا الشأن والبيانات الصحفية الصادرة عن البيت الأبيض. أمّا النقطة الموازية الوحيدة في هذا الإطار فتجلّت في الجثة القابعة في الصحراء اليمنية.

وقد أقلق هذا التحرّك تينيت في حين أفرح الرئيس لأنّه شكّل صدمة بالنسبة إلى القاعدة على نحو خاص وفقاً لبعثات المتابعة الاستخباراتية التي أكّدت أيضاً أنّ ما حصل زرع الرعب في أوساط قادة دول عربية رئيسية.

وفي هذا السياق، قال بوش لمستشار رفيع الجملة التي يكررها دوماً: "نتحدّث إليهم بالطريقة التي يفهمونها فقدرة كهذه من شأنها أن تغيّر اللعبة".

وقد أصبح إطلاع بوش كل صباح على كل ما يحصل بالتفصيل جزءاً من آلــية عمــل وكالــة الاســتخبارات. لــذا أحضر تينيت مجموعة متنوّعة من الأخــصائيّين في هذا المجال. وقد بدا جلياً أنّ بوش تجاوب مع بعضهم أكثر منه مــع بعضهم الآخر. فمعظم الرؤساء يجلسون مع محللين مختصين خلال جلسات الاســتماع الــصباحية حــيث يتم وصف تفاصيل العمليات في البدء قبل أن ينــصرف المحلــل إلى هندسة إطار الدولة والمنطقة والاستراتيجية الأميركية وقد قابــل بــوش العديد من المحللين لهذه الغاية. ولكنه فضّل العاملين على الأرض، الــناس أو بصورة عامة جميع الرجال المتورطين في هذا النضال مرجحاً ميله إلى العلاقات المباشرة مع المعنيين.

وقــد شــعر كل من تولى مهمة إطلاع الرئيس على مجريات الأحداث من المــسؤولين إلى رؤساء الأقسام باستعجال بوش وعدم تحليه بطول الباع لذا تكيّفوا مــع مقاربــته هذه. فبدأ الجميع بالتحدّث كالعاملين في الميدان بصرف النظر عن محــتوى تقريــرهم إلى الرئيس. وكان من بينهم من لم يختبر أبداً المفاعيل المنشّطة والــسامية إلى رفع المعنويات التي كان يتطلبها التحرك العسكري. أما القلائل على غــرار باول ونائبه ريتشارد أرميتاج الذين حاولوا التخفيف من حدة الخلافات من خــلال المــشاركة في السجالات الحادة فقد أدركوا من خلال خبرتهم الطويلة أنّ النقاش فارغ تماماً في جوهره.

اختـــر أي يوم تريده من هذه المرحلة. بعدما انتهى تينيت وفريقه من عملهما ذات صباح، دخل بروس جيبارد نائب مدير مكتب التحقيق الفدرالي وحل مكان مويلـــر الـــذي كان في طريقه إلى المكتب. وقد كان الإنذار عالياً في المكتب ذلك الصباح ما دفع جيبارد إلى الغوص في تفاصيله وفقاً لمعايير مكتب التحقيق الفدرالي الدقـــيقة. وقـــد وصـــل المكتب تقرير بشأن مجموعة من الرجال من أصول شرق أوســـطية في كنساس. وقد أطلع جيبارد بوش على أنّهم كانوا يعمدون إلى الدفع نقـــداً لمنشأة تخزين كبيرة تكلّف آلاف الدولارات، ما استدعى اجتماع المسؤولين الستة لحضور جلسة الاستماع.

مـــن جهـــته، أطلـــع جيبارد على جميع المعلومات التي كانت بحوزة مكتب التحقيق الفدرالي والتي لم تكن كافية. وتبيّن أنّ المشتبه بهم لم يكونوا مزارعين إنما أشـــخاص يبحـــثون عن مستودع كبير. غير أنّهم أثاروا الشكوك بشكل لافت. وكانوا أحراراً طلقاء.

وكـــان بـــوش يضع نظارتيه ويصغي جيداً إلى هذه المعلومات فيما بدأ جميع الموجودين في الغرفة بتصوّر سيناريوهات متعددة.

ويمـــيل عملاء الاستخبارات والمحققون الجنائيون إلى التقاط أنفاسهم جيّداً في لحظـــات كهذه بعد مرور ألف يوم حافل بالإنذارات المختلفة والتوجيهات المضللة والمـــسائل المنسية التي تبيّن أنّها على جانب كبير من الأهمية. ما الذي لا أعرفه؟ ما الـــذي أعتقد أنني أعرفه من دون التحقق منه؟ ما هي مروحة الأشياء التي يمكن أن تجيب على هذا السؤال بدلاً من الإجابة الوحيدة الأكثر رعباً؟

قال بوش: "شرق أوسطيون في كنساس، علينا متابعة ذلك فوراً".

بالطبع، من شأن خبر كهذا أن يشغل أفكار الرئيس في ذلك اليوم وأن يحمله علـــى الانـــتقال مباشـــرة من مكتبه الخاص في البيت الأبيض إلى مكتب التحقيق الفدرالي لمقابلة المسؤولين عن تطبيق القانون في البلاد.

وفي الصباح التالي، عاد جيبارد وقابل الرئيس الذي سأله: "ماذا أحضرت لي بـــروس؟". فما كان من جيبارد الرئيس السابق لمكتب الـــ "أف بي آي" في سان فرانسيسكو إلاّ أن يجيب آخذاً وضعية رجل يحمل سلاحاً.

"سيدي الرئيس لقد طوّق مكتب التحقيق الفدرالي كنساس!".

عندها صاح بوش عالياً: "هذا ما أحب سماعه". هذا ما أحبه فعلاً.

عمـــلاء سوق لبيع السلع القديمة. استغرق الأمر بضعة أيام لإيجادهم. وقد كان هؤلاء الرجال المتحدرون من أصول شرق أوسطية – وهم قلائل جداً في كنساس – يخططـــون لفتح سوق لبيع السلع القديمة والمستعملة. وكانوا بحاجة إلى مستودع كبير لتخزين البضائع من مجوهرات مصنوعة يدوياً وقمصان قطنية قديمة ولوازم المائدة إضافة إلى اسطوانات للمغني فرانك سيناترا. باختصار إنه عمل يتطلب سيولة.

وتـــتالت السيناريوهات المشابهة وانهالت على الحكومة تقارير حول تهديدات داخلية ما حوّل الحكومة عن اهتمامها الرئيسي الذي يتجلّى بالتحرك على الأرض. وكان ينتظر المزيد من مكتب التحقيق الفدرالي حيث لم تستطع أي من الوكالات المعنـــية تـــسجيل تقدّم ما، بل جلّ ما فعلته هو استعمال الشبهات في غير مكانها والتحرّك على هذا الأساس.

غيّـــر اجـــتماع الثالث عشر من كانون الأول/ديسمبر الذي عقد في صالة الحكومة حياة كتيبة من الجنود عالية المستوى لأشهر عدة.

حاول أن تجمع المسؤولين الأربع والعشرين الأعلى رتبة في الحكومة الأميركية لمدة ساعتين في منتصف يوم عادي.

وكانـــت الفكرة ترمي إلى مراجعة نهاية العام لحالة "الحرب ضدّ الإرهاب"، فرصـــة لـــبلورة الاســـتراتيجيات المقبلة خلال غداء عمل استمر حتى فترة ما بعد الظهر.

وقـــد تـــرأس هذا الاجتماع الجنرال جون غوردن الذي شغل لفترة طويلة منـــصب رئيس القوات الجوية والذي كان أيضاً الرجل الثاني في السي آي إي قبل أن يصبح اليوم رئيس قسم مكافحة الإرهاب في مجلس الأمن القومي.

ويمكن القول إنّ بوش هو من ترأس فعلاً هذا الاجتماع. أو كان يفترض أن يفعـــل ذلك. أو ربما تشيني الذي كان حاضراً أيضاً. وقدم الجميع تقاريرهم حول مظاهـــر "الحرب" حيث تم تسجيل تقدم ملحوظ من دون أدنى شك: تدمير معقل القاعـــدة في أفغانـــستان، التحقيق مع العلماء النوويين الباكستانيين ومناصريهم في

باكـــستان، اعـــتقال بعض العملاء البارزين بالرغم من أنّهم لم يدلوا بالكثير من المعلـــومات خلال عمليات الاستجواب الوحشية، والقبض على ممولي مادة الجمرة الخبيـــثة المـــرتبطين بالإرهابيين. وكانت عملية كاراتشي وعمليات السي آي إي حول العالم المدعومة من وكالة الأمن القومي والعديد من المؤسسات المالية المتنوّعة تلقى أصداء إيجابية تضيء ساحة الحرب. غير أنّ الظواهري وبن لادن ما زالا على قيد الحياة وأنّ الأخير لم يتورّع عن نشر تسجيل مصوّر يصف فيه بوش بـــ "طاغية العصر الحديث" قبل أسابيع قليلة. كما لوحظ تواتر اسم لاعب يدعى الزرقاوي - تتم ملاحقته منذ العام 2002- الذي أنشأ مختبرات للأسلحة البيولوجية والكيميائية في منطقة خارجة عن العدالة في العراق، أرض غير مأهولة لا تخضع لسيطرة صدام حـــسين. وبدا أنّه كان وراء العديد من الهجمات البيوكيميائية في أوروبا بما فيها الإنـــذار بوجود مادة الريسين المكوّنة من معجون سام مصنوع من حبوب نبات الخِرْوَع في بريطانيا خلال الصيف الماضي.

استمع فقط بوش إلى هذه المعلومات وهو يتناول سندوتشاً. وبالعودة إلى ربيع 2001، دخـــل علـــيه كـــل من تينيت وريتشارد كلارك خلال إحدى جلسات الاســـتماع الصباحية - كأسلوب لاستخدام تقرير تينيت اليومي لمواجهة مقاربة رايـــس ومجلس الأمن القومي التحذيرية حيال تهديد القاعدة. وقد حذروا بوش في ذلـــك اليوم من التهديد العالمي ومن قدرات الخصم المتفرعة. أما بوش فلم يتمكن بحـــسب كـــلارك من تفنيد كل المعطيات التي عرضت أمامه لأنّها اشتملت على مروحة واسعة من الأسماء والدول العربية التي لا يعرف عنها الكثير. واعتبر بوش أنّه لا يريد أن ينتظر طويلاً متسائلاً عما إذا كان هناك من وسيلة للقضاء على القاعدة بضربة واحدة.

لكن الحركة في صالة الحكومة كانت نشيطة للغاية كعادتها، وذلك منذ أكثر من عام.

واســـتدار بـــوش بـــشكل عفـــوي نحو كينيث دام، نائب وزير الخزينة من الجمهوريين القدامى الذي عمل في إدارتي نيكسون وريغان.

"كين، ما الجديد بخصوص أموال الإرهابيين؟".

قلّب دام بعض الأوراق وقال: "سيدي الرئيس، معظم ممولي القاعدة هم من السعوديين".

وقد شكلت هذه المعلومة واقعة رئيسية تم تدوينها على مذكرة من صفحة واحدة قام دام بتمريرها في بداية الاجتماع. وكانت عبارة عن مذكرة تعدد حوالى خمسة عشر اسماً من أبرز ممولي القاعدة الذين تبيّن أنهم سعوديون بمعظمهم.

نظر بوش إلى دام بقلق وكأنّه إما لم يقرأ ما كتب على الورقة أمامه أو أنّه تفاجأ نوعاً ما بما قرأه على الرغم من أنّ هذه المعلومات معروفة من الجميع.

فسأل: "كيف نعلم بذلك؟".

التزم دام الصمت للحظات ثم أجاب: "كل شيء مذكور في الورقة التي سلمتها إليك الآن والتي تتضمن معلومات مستقاة من الوكالة". ثم استدار نحو ماكلولين الجالس على كرسي بالقرب منه. فهز نائب المدير برأسه إيجاباً في إشارة إلى أنّ السي آي إي هي المصدر.

ابتسم بوش قبل أن يحوّل تفكيره إلى مكان آخر. فلم يكن هناك من استراتيجية شاملة "للحرب ضد الإرهاب" ولا معايير منطقية لتحديد التقدّم ولا فكرة واضحة حول كيفية المواجهة أو الفوز في نضال "القلوب والعقول". كانت مواجهة يومية أسفرت عن تقدّم بطيء وانتصارات تحوّلت إلى هزائم، وكانت عبارة عن "الوجه المظلم" لتحالفات مع أنظمة خطيرة تتصرف تارة كصديقة وطوراً كعدوّة إضافة إلى مجموعة من الإنذارات المتواترة في الولايات المتحدة والتي لن تفضي إلى شيء إطلاقاً. وبعد بضع دقائق قال الرئيس بشكل فاجأ الجميع: "هذا يكفي لليوم".

انتهى الاجتماع بعد ساعة، ولم يكن هناك من مسائل أخرى للتطرق إليها. باستثناء العراق.

كان المفهوم المحرك يشكّل عامل ضغط مستمر ومعطّل، فالوطن الأم غير محمي، فيما يتوجب على أعداء أميركا أن يبقوا دائماً في وضعية رد الفعل، لذا لن يفكروا أبداً في التوقف قليلاً للتخطيط لمبادرتهم التالية. كما أنّ "الحرب ضدّ الإرهاب" التي استندت إلى عبارة "جدهم واردعهم" وبالرغم من نجاحاتها المتواضعة

وسعي الحكومة الدؤوب إلى فهم كيفية مواجهة هذا النوع من الحروب لم تشكل أداة الضغط الكافية لتغيير سلوك المنافسين والأعداء المحتملين.

العراق كان، بشكل من الأشكال، التقصير. التقصير عن التحرّك.

فالتسويق للاجتياح لطلب دعم الأسرة الدولية، كان موضوع الاجتماع الذي عقد هذا الصباح في الكتب البيضاوي في البيت الأبيض.

كان ذلك في الحادي والعشرين من شهر كانون الأول/ديسمبر. كان عيد الميلاد يقترب، مع ما يرافقه من حفلات ومناسبات رسمية يترأسها الرئيس.

ولكن قبل كل ذلك، وتحديداً قبل حلول نهاية العام، أراد بوش سماع القرقعة الأولى لعملية تبرير الحرب.

دخل ماكلولين وتينيت المكتب البيضاوي، وتبادل الجميع النُكات والتمنيات قبيل حلول العطلة المنتظرة.

وكان الرئيس قد وصل صباح هذا السبت بصحبة كل من رايس ورئيس الموظّفين أندرو كارد ونائب الرئيس.

أما ماكلولين، المسؤول السابق في السي آي إي والجندي السابق في الجيش الذي يتميز بهدوئه وحكمته - فقد فتح مجموعة من الرسوم البيانية أمامه.

بصفته محللاً منذ ثلاثين عاماً، أدرك ماكلولين حجم الضغط الذي تمارسه عبارات الحكومة وتحركاتها المخطط لها على عرضه. فقد قرأ ما استطاع قراءته والتقى أوّلاً بكبار المسؤولين في مجلس الأمن القومي. فتبيّن أن الدلائل الحسية والوقائع التي تم التحقق منها كانت قديمة وتعود إلى حقبة عمليات التفتيش العادية التابعة للأمم المتحدة بين العامين 1991 و1998، العام الذي طرد خلاله صدام المفتشين من العراق. ومنذ ذلك الحين، أصبحت المعلومات تقريبية ويستحيل التأكد من صحتها. وكما كان ماكلولين يخطب دائماً أمام محلليه، لا يمكن اعتبار المعلومات الاستخباراتية جيدة إذا لم تكن قابلة للتحقيق بطريقة ما.

وخلال الدقائق الثلاثين التالية قدّم ماكلولين مجموعة واسعة من الاحتمالات إضافة إلى سلسلة كبيرة من الوقائع حول وجود أسلحة دمار شامل في العراق.

وكـــان بحوزته رسماً بيانياً لمركبة جوية غير مزودة بالرجال التقطتها الأقمار الـــصناعية الأميركية الخاصة بالمراقبة وهي تطير بشكل دائري مجتازة 500 كلم، ما يعـــني أنّهـــا خرقت بذلك سقف الـــ 150 كلم الذي حددته الأمم المتحدة. وقد تكـــون أو لا تكـــون مجهزة لحمل سلاح، ولكن قدرتها على اجتياز هذه المسافة اعتبرت انتهاكاً بحد ذاته.

كما تم التقاط محادثة على جهاز الراديو بين جنديين استخدما عبارة "عناصر للأعصاب" قد تكون مستخرجة من كتيب أو من الاتصالات المستقبلية.

كما ذكر مصدر إنساني – الليبـــي، مدرب القاعدة الليبـــي الأصل الذي تم تحديد هويته على يد موس كوسى وألقي القبض عليه بعد عدة أشهر على أحداث الحـــادي عـــشر من أيلول/سبتمبر – أموراً بشأن قيام صدام بتدريب القاعدة على استخدام الأسلحة البيولوجية والكيميائية، ما حمل بعض المسؤولين في السي آي إي على التشكيك في أنّ الليبـــي سوف يعترف بخطئه في السنة التالية.

"محاولـــة جيدة" قال بوش بحسب مصدر اشتهر لاحقاً، وهو بوب وودوارد. وأردف قـــائلاً: "لا أظـــن أنّ المـــسألة هي بهذه البساطة – فهذا ليس بأمر يمكن للمواطن العادي أن يفهمه أو أن يكتسب الكثير من الثقة منه".

ثم استدار بوش نحو تينيت وقال: "أُطلعت على جميع المعلومات الاستخباراتية حول امتلاك أسلحة الدمار الشامل وهل هذا أفضل ما لدينا؟".

عـــندها، وقف تينيت بحسب مصدر وودوارد ورفع يديه وقال: "إنّها قضية فاشلة!".

أما محضر الاجتماع الذي انتهى مع طلب بوش من تينيت أن يحرص على ألا يـــستعدى أحد على هذه القضية، فقد حصل عليه وودوارد من مسؤولين في البيت الأبـــيض، قبـــيل مقابلـــة الصحافي الأخيرة مع بوش في الحادي عشر من كانون الأول/ديسمبر 2003 لبرنامج خطة الهجوم الذي تقرر عرضه في شهر نيسان/أبريل التالي.

وكـــان الرئيس، الذي استعد بشكل مكثف خلال اجتماعاته مع وودوارد، قد أطلع الصحافي المخضرم بكل وضوح على أنّ تطمينات تينيت المتكررة "مهمة للغاية".

وبالفعل كانت كذلك، إذ إنّها أمنت للرئيس غطاء يحميه من أكبر تهمة كان يمكـــن أن توجه إليه: جر البلاد إلى حرب استناداً إلى ادعاءات واهية. كانت هذه غلطـــة تينـــيت. فعبارة قضية فاشلة ستلاحق تينيت إلى الأبد وستكون أوّل جملة تكتب على قبره.

لا يتذكـــر تينـــيت وماكلولين مجريات الاجتماع جيداً. غير أنّ تينيت الذي اســـتاء مـــن التساؤلات التي طرحها الرئيس ومستشارون آخرون حول بعض ما سمعوه، لا يتذكّر حتى إنّه تفوّه بعبارة "قضية فاشلة". لا داعي للنقاش حول ذلك. فقط عدم تذكر العبارة. من جهته، قال ماكلولين إنّه لا يذكر أبداً أنّ تينيت تفوّه بعبارة "قضية فاشلة". وهو إلى ذلك لا يذكر مطلقاً أنّ تينيت قفز ورفع يديه. فقد أخـــبر كـــل منهما أصدقاءهما المقربين أنّ الاجتماع كان اجتماعاً تسويقياً لا يمت للـــبحوث الحالية بصلة، إذ إنّه ارتكز على العرض فقط. قد يكون ذلك نقطة تمايز جيدة، ولكن حين تُعطى كلمتان أهمية بهذا الحجم، يمكن القول عندها إنّ السياق مهـــم أيضاً. أما في يتعلق بسؤال الرئيس، فيتذكر ماكلولين أنّ الأخير تساءل عن إمكانية الحصول على نتائج أفضل ما يعني أنّ الاجتماع كان نموذجاً عن العلاقات العامة، التي لا تتعلّق حتماً بطبيعة الدلائل.

وثمـــة أمـــر آخر يتذكره ماكلولين بوضوح ألا وهو العودة إلى لانغلي بعد الاجـــتماع المنعقد في المكتب البيضاوي كالعادة. وحضر تينيت وماكلولين برفقة المستـــشارين المقربين من الرئيس فقال ماكلولين أمراً كرره عدة مرات: "جورج، أحياناً أعتقد أنه يجب أن نكون حذرين حيال ما نقول في هذه الغرفة".

لم يوافق تينيت على ذلك إذ أجاب: "لا ما نقوله هنا لن يراودنا لاحقاً. هذا ما ندوّنه، وهذا هو المحضر الدائم لذا ما نقوله يعتبر الأهم".

يعتبر الضغط المفرط استراتيجية بحد ذاته، وهو يؤتي ثماره في معظم الأحيان. وقـــد استعمل على السواء في "الحرب ضدّ الإرهاب" ضد القاعدة وفي الحرب التي شنّها البيت الأبيض على السي آي إي.

اســـتخدم القـــوة في المـــناطق الأضعف، وسيبدأ خصمك بالبحث عن سبل لتحـــسين مـــوقعه. وقـــد ساد افتراض شائع مفاده أنّ صدام حسين يملك ترسان

أســلحة. كما لوحظ وجود قناعة ثابتة في أوساط السي آي إي تعتبر أنّ الرئيس سينفذ الخطوات التي يقررها في نهاية المطاف وأنّ الاجتياح سيحصل لا محالة. وفي هــذا الــسياق، صــرّح مــسؤول رفــيع المستوى في السي آي إي في مديرية الاســتخبارات التي تشرف على مسألة العراق: "بدأنا نشعر بالقلق حيال المخاطر الــتي قد تواجهها قواتنا. وهذا كان جزءاً من الآلية التي دفعت الأمور بهذا الاتجاه، فكــنا نحاول أن نتخيّل ماذا يملك صدام كي تستعد قواتنا لمواجهة كل ما يمكن أن تتعــرّض لــه. ويمكن القول أننا فضلنا أن نحمي أنفسنا على أن نندم لاحقاً. وقد انعكــس هذا التفكير على عمليات التقويم. فكل مرة كنا نقترح سلاحاً يمكن أن يكون جزءاً من ترسانة صدام كنا نشعر بامتنان من القمة".

وقــد تم تفعيل دور مديرية الاستخبارات في الحرب وذلك باسم الحملة على العــراق. في غــضون ذلك، استمر ليبــي وهادلي في الضغط على المحللين وظلا يطرحان عليهم السؤال نفسه الذي كان يطرح على تينيت في الاجتماعات العالية المستوى. إن كانت هذه التهديدات مجرد احتمالات فلم اعتبار الاجتياح ضروري؟ هــل هناك احتمال بسيط ولو بنسبة واحد في المئة أن يكون اليورانيوم قد استقدم مــن النيجر وأن أنابيب الألومنيوم قابلة للاستخدام في عملية تخصيب اليورانيوم أو أن محمد عطا استطاع أن يلتقي بعراقي، أي عراقي في براغ؟

أما الأمر الذي يجب الحذر منه في ظل ضغط مستمر لا يرحم فهو ردة الفعل.

يــوم الجمعة بعد الظهر في العاشر من شهر كانون الثاني/يناير، مشت جيمي ميــسيك رئيسة مديرية الاستخبارات إلى القاعة في الطابق السابع وهي تستشيط غيظاً.

فرآها جون موسيمان، رئيس مكتب تينيت، فيما كانت تمر أمام مكتبه.

"هل أنت بخير؟".

"لا لست بخير. لست بخير على الإطلاق!".

وبعد لحظات توجهت إلى جناح تينيت.

وقــد كانــت شبه عاجزة عن التفوه بأية كلمة. عندها صاح ستيفن هادلي مساعد كوندوليزا رايس، من مكتب ليبــي "سكوتر"، رئيس مكتب تشيني.

كانوا يريدونها أن تنـزل إلى مكتب ليبـي في البيت الأبيض بحلول الساعة الخامسة مساءً. وكان على بساط البحث مسودة التقرير الأخير من سلسلة التقارير التي لا تنتهي حول علاقة صدام حسين بالقاعدة. ما هو عدد المسودات؟ لم تستطع ميسيك التذكر. فقد بدأ الضغط يمارس من البيت الأبيض ومن مختلف شعب الاستخبارات التي تخضع لسلطة نائب الرئيس ووزير الدفاع بعد أسبوع على الحادي عشر من أيلول/سبتمبر.

وقد ادعى مكتب تشيني بأنه يملك مصادر. وكذلك فعل مكتب رامسفيلد. وظلوا يمارسون ضغوطاً على ميسيك والسي آي إي. المعلومات نفسها إنما بخمس طرق مختلفة. ولم ينتبهوا إلى أنّه تم حذف جزء رئيسي وأنّ المصدر أنكر. نحن آسفون، إنّها غلطتنا. ثم تظهر من جديد في مذكرة الأسبوع التالي. أما السي آي إي فقد ظلّت متمسكة بموقفها: الاجتماع في براغ بين عطا والعميل العراقي لم يحصل.

لم تكن ميسيك غبية. فهمت ما يجري من حولها. لم يكن الأمر مرتبطاً بالحقيقة أو بإمكانية التحقق. بل كان يتمحور حول الموقف الذي يمكن الدفاع عنه أو على الأقل الموقف الذي يمكن أن يبقى ثابتاً حتى انطلاق القوات العسكرية إلى بغداد حيث سيستقبلون استقبال المحررين.

وقبل أيام قليلة، حين أرسلت المسودة الأخيرة إلى ليبـي وهادلي، أخبرتهما أنّها وجدت ما كانت تبحث عنه. لذا لن يكون هناك من مسودات بعد الآن ولا اجتماعات يجلس فيها المحللون مقابل هادلي أو فايث أو الموظفين في مكتب الأخير فيما يحاول الفريق المضاد تمرير أمر ما عبرهم. ولم يمثل التقرير ما أرادوه وكانت تعرف ذلك. فغياب الدلائل قاطع.

فقالت ميسيك: "لن أعود إلى هنا ثانية، جورج. إن كان علي أن أعود لسماع أفكارهم وإعادة كتابة تقرير فارغ... سأستقيل الآن".

وحبست دموع الغضب في عينيها.

فالتقط تينيت الهاتف ليتصل بهادلي.

فصرخ في الهاتف: "لن تأتي إلى هنا. ولن نعيد كتابة هذا التقرير اللعين مرة

جديـــدة. انتهـــى الأمر! هل تسمعني؟ وإياك أن تتعامل مع فريقي بهذا الأسلوب مجدداً. أبداً!".

و لم يعيدوا كتابة التقرير.

لـــذلك، وبعد ثلاثة أسابيع وأثناء تناوله موضوع الحرب في خطابه عن حال الاتحـــاد، لم يكـــن جورج دبليو بوش قادراً على قول ما كان يتمنى قوله في لحظة مماثلة: أي تأكيد وجود ارتباط بين القاعدة وصدام يعود إلى ما قبل أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر.

ذريعة تذهب أدراج الرياح. ولكن مسألة أسلحة الدمار الشامل ظلت واردة في الـــنص: "قد علمت الحكومة البريطانية أنّ صدام حسين حاول مؤخراً الحصول علـــى كميات كبيرة من اليورانيوم من إفريقيا. وقد أطلعتنا مصادرنا الاستخباراتية على أنّه حاول شراء أنابيب ألومنيوم صلبة وملائمة لإنتاج أسلحة نووية".

وقـــد أبقي على هذين التصريحين للحفاظ على مساحة للدلائل وكان ذلك معـــروفاً ســـواء في أوساط السي آي إي أو البيت الأبيض للابتعاد كثيراً عن هذا المعيار.

الفصل السادس

دواعي الحذر

يعتــبر العديــد من السعوديّين – المتديّنين منهم وغير المتدينين – الجسر العريض الذي مدّه الملك الفهد بين المملكة العربية السعودية والبحرين جسر عبور غير شرعيّ.

هو بصلابة الفولاذ وبقوة الإسمنت بالمعنى المجازي – مرتبطًا من ناحية بالهدنة المعقــودة بين العائلة الملكية الحاكمة والمتدينين التقليديين في المملكة. في الواقع، لا تقــدّر ثروة السعوديين برقم، هذه الثروة التي يتقاسمون جزءاً كبيراً منها مع رجال الدين والوهّابيين. في المقابل، يحصلون على غطاء رجال الدين وتأييدهم، على أنهم الحامــون الشرعيون للحرمين الشريفين، مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة. كما يُسمح لــــ 25 ألف عضو تقريبًا من العائلة الحاكمة بتحقيق مرادهم أيًا كان، في الوقت الــذي يخـضع فيه أكثر من 26 مليون من سكان المملكة للقوانين الدينية الصارمة والمتــشدّدة وإلزامية ارتداء الزي التقليدي وتحجيب النساء ومنع تناول الكحول أو إقامة علاقات جنسية قبل الزواج. أما الخيانة فعقوبتها الإعدام.

وبغية الهروب من هذه القوانين والنظم والمهاودة، ولأسباب أخرى لا تحصى، تعبر الجسر باتجاه إمارة البحرين – بلد يبلغ عدد سكانه الــ 700 ألف وتكثر فيه الفنادق ويحكمه ملك منغمس في ملذّات الدنيا ويحتضن قاعدة للأسطول الأميركي الخامس، كما تتدفق فيه الأموال بشكل ملحوظ بسبب الدور الذي يلعبه سرًا كـــ "مقدّم خدمات" للمملكة السعودية العربية.

تندرج حياة السعوديين والبحرينيين بشكلٍ عام ضمن إطار هذا الاتفاق ورياء المشاركين فيه. كما يعاني البلدان من المشاكل المتفرّعة منه: جماعات عاملة بالخفاء تحرص على دقة إتباع الشرع باستعمال العنف وتتمتع بفرص عديدة لتبرير أفعالها.

وضبطت الشرطة البحرينية إحدى هذه الجماعات خلال عبورها جسر الملك فهد إلى البحرين في 13 شباط/فبراير 2003.

وكانـــت الولايات المتحدة الأميركية، والسي آي إي على وجه الخصوص، وراء هـــذا التوقـــيف. وهـــذا فعـــل مألوف في هذه البقعة من العالم. لدينا قسم استخبارات، وخاصة الإشارات الاستخبارية، وهم لا؛ وحدودهم قريبة لا نستطيع مقارنتها. في هذه الحالة، التقطت وكالة الأمن القومي مكالمات ورسائل عبر البريد الإلكتـــروني مـــن مجموعة بحرينية مثيرة للقلق – تضمّنت كلام متبجح عن كيفية التعامل مع الخونة، وجمل تثير المشاكل كجلب "أقدار العسل". وغالباً ما يستعمل الإرهابيّون كلمة "العسل" كرمز من رموز المواد المدمّرة.

في أوائـــل عام 2003، راح قادة السعودية والبحرين يبحثون عن الردّ الملائم لهـــذه الإساءات العنيفة والأصولية. فخلال الأعوام المنصرمة، سلّم البلدان إرهابيين محليين إثر الاتفاق الشفوي الغامض الذي عقداه مع الأئمّة المتطرفين. في حال وجد عناصـــر مشكوك فيهم، كان رجال الدين الوهابيّين يعتنون بهم – لكنّها خدمة قد يستفيدون منها لزيادة تعويضاتهم من الدولارات النفطيّة.

ولكـــن، قدّرت الحكومتان العلاقة بالولايات المتحدة، التي أكّدت، إثر أحداث الحـــادي عشر من أيلول/سبتمبر، أن الوضع القائم لم يعد مقبولاً. وكانت الإجراءات الصارمة التي اتخذت – خاصةً في المملكة العربية السعودية، التي تعاني من تهديدات من الـــداخل والخارج – غير منتظمة وفاترة الهمة. فقد كان يتم تبليغ الأميركيين بعمليات التوقيف، ومتى يتم التنويه بذلك، سرعان ما يعود المشتبه بهم إلى الشوارع.

لذلك، خلال العام المنصرم، راحت الولايات المتحدة الأميركية تطلب المزيد: أي الـــتدخل مباشرة بعد القيام بعملية التوقيف. دعونا نتدخل، تلك كانت رسالة السي آي إي. دعونا نتحقق من المعتقلين، فنساعدكم في تقييم مدى أهميتهم.

هـــذا بالـــضبط ما فعلته فرق السي آي إي في المنطقة خلال الأيام التي تلت عملية التوقيف هذه. تألفت المجموعة البحرينية من خمسة أشخاص: اثنين منهم من تجـــار السلاح التقليدي الذي يستعمل لإتمام الجرائم، والثلاثة الباقين من المجاهدين المتمرّســـين. فرضت عليهم إجراءات تنفيذ قوانين لم يسبق لها مثيل في هذه المنطقة

مـــن العالم. احتجزت كل ممتلكاهم - من سيارات وهواتف نقّالة ومحافظ نقود - علّها تدلّ على خيوط جديدة، وجرى تفتيش كلّ زاوية من شققهم.

وقد قام أحد الجهاديين، وهو بسام بوخوا، بروفسور مثقف في الخمسين من العمر، يتمتع بمهارات استخدام الكمبيوتر، بزيارة شقة في المملكة العربية السعودية. هـــناك، عثرت وحدة مشتركة أميركية - سعودية لمكافحة الإرهاب، تشكّلت إثر الاجـــتماع الذي عقد مع بندر في مكتبه، على جهاز كمبيوتر. كانت محتوياته قد حُفظت على محرك أقراص ثابت أُرسل إلى الولايات المتحدة الأميركية لتصويره - وهي طريقة لاستخراج البيانات الرقمية المشفّرة وغير المشفّرة.

وهـــنا عثروا على مبتغاهم: خطط تركيب جهاز يسمّى بالمبتكر. وهو كناية عن شيء مخيف وحقيقي للغاية.

حرصاً على الدقة في الوصف، المبتكر هو نظام تسليم تركيبة كيميائية متوفرة في كـــلّ مكان - وهي سيانيد الصّوديوم التي تستخدم كسمّ للجرذان وفي سوائل تنظيف المعادن، والهيدروجين الموجود في أيّ مكان. وينتج عن مزج هاتين المادتين ســـيانيد الهـــيدروجين، وهي تركيبة من دون لون ومتطايرة جدًّا وتذوب في الماء وتثبت فيه. لديها رائحة خفيفة كرائحة لبّ الدرّاق أو اللوز المرّ. عندما تتحوّل إلى غـــاز ولـــدى تنـــشقها، تصبح فتّاكة. وأمضى الإرهابيّون سنوات طويلة محاولين اكتشاف كيفية تحويل هذا المزيج من المواد الكيمائيّة إلى غاز.

حـــاول رمزي يوسف إطلاق الغاز في نظام تهوية مركز التجاري العالمي قبل تفجيره عام 1993، غير أنّه فشل في ذلك. وتلا الهجوم الكيميائي الشهير على قطار أنفاق طوكيو الذي نفذه أوم شنريكيو في أذار/مارس 1995 - والذي تمثّل بإطلاق الغـــاز الـــذي قتل أحد عشر شخصاً وأدخل ألف شخص تقريباً إلى المستشفيات القـــريبة من المكان - هجوم بغاز السيانيد بعد شهرين. اندلع حريق صغير في حمام في طوكيو يصبّ نظام تهويته في أحد أرصفة محطّة قطار الأنفاق، كان من المخطط أن ينشر الغاز في الأجواء، غير أنّ حرس المحطة المنتبهين قاموا بإطفائه.

يـــبحث الخبراء في الإرهاب التابعين لعدد من الحكومات عن حلّ لهذه الحواجز الهندسية. واليوم، وجدت السي آي إي هذا الحلّ. ترجمته إلى العربية هي "الاختراع"

وإلى الفارسية "الابتكار". يحمل الجهاز هاتين السمتين. فهو كناية عن علبة معدنيّة من وعاءين داخليين: يحتوي أحدهما على سيانيد الصّوديوم والآخر على مادة ناتجة عن الهيدروجين كحمض الهيدروكلوريك؛ وسلك كهربائي يكسر الحاجز بين الوعاءين. يمكن التحكّم بالسلك عن بعد - كما تُفجّر القنابل بواسطة الهواتف النقالة - لفتح الغطاء وإحداث الغاز ليتم إطلاقه فيما بعد. ويعتبر غاز سيانيد الهيدروجين عاملاً كيميائياً يؤثر في الدم، مما يعني أنّه يسمّم الخلايا عن طريق منعها من استخدام الأكسجين في الدم. يسبّب التعرّض لهذا الغاز الشعور بالدوار والغثيان والانحلال الجسدي وفقدان الوعي والتشنّجات. ثم ينقطع التنفس ويموت الإنسان. (أما ترياق العوامل الكيميائية المؤثرة بالدم فهو نيتريت الآميل. وبما أنّ هذه العوامل تنقل عبر جهاز التنفّس، فالحماية الوحيدة المطلوبة هي القناع الواقي من الغازات).

في بيئة محصورة، مثل نظام تهوية مباني المكاتب أو الأنفاق، قد يسبب سيانيد الهيدروجين وقوع عدد كبير من الضحايا. ومن أكثر الصور إثارة للاشمئزاز والتي قد توضّح ما يحصل في مكان مغلق، هي صور الإبادة الوحشية التي ارتكبت في القرن العشرين. فقد استخدم النازيون غاز زيكلون بي، وهو من مشتقات سيانيد الهيدروجين في غرف الإعدام بالغاز في معسكرات الاعتقال.

عندما تمّ اكتشاف الخطط على محرّك الأقراص الثابت الخاص ببوخوا، قرر كلّ من رولف موات-لارسن وزميله المحلّل ليون المسؤول عن قسم الأسلحة الكيميائية والبيولوجية والإشعاعية والنووية للمجموعات الإرهابيّة (ويختلف عن القسم القديم المعنيّ بالدول التي تطوّر هذا النوع من الأسلحة) القيام بأمر خطر جدًا. جمع ليون من حوله فريقًا لتنفيذ نموذج عن الجهاز لاختباره فور جهوزه.

عند الساعة الخامسة من بعد الظهر من مطلع شهر أذار/مارس، في قاعة اجتماعات تينيت، كان ليون بانتظار الجميع ليأخذوا أماكنهم. فأخرج من حقيبته أسطوانة بحجم علبة التلوين تحتوي على حاويتين. ووضعها في وسط الطاولة الكبيرة المصنوعة من خشب الماهوغاني، وجلس في كرسيّه. وكان قد ذاع مؤخراً خبر اكتشاف نظام تسليم.

ولكن رؤيته بأم العين أمر مختلف.

"اللعنة،" همس تينيت بعد وقت قصير.

انتصب ماكلولين في مقعده – وراح يفكر بسهولة نقل هذا الشيء في حقيبة ظهر أو حقيبة يد أو حقيبة تسوّق ويمعن نظره في شكله غير المؤذي.

وجمدت الصالة.

"عليه أن يرى هذا،" قال تينيت وسارع إلى الاتصال بالبيت الأبيض ليزوّد موجز السي آي إي بتعليمات دقيقة إضافية يثيرها خلال الاجتماع الرئاسي الصباحيّ.

في أوائل شهر أذار/مارس، كان البيت الأبيض يعيش في حالة جنون شديد وترقّب. فقد تمّ أخيرًا تخطّي عتبة "بناء القضية"، بفضل كولن باول. فبعد إقصائه عن عملية صنع القرار في البيت الأبيض، وبعد صراع مع تشيني ورامسفيلد دام سنتين، أخيراً كُلّف باول في 4 شباط/فبراير بمهمة قيّمة بالنسبة لبوش: تحويل أسلحة الدمار الشامل إلى "قضية" وجيهة تبرّر للعالم شنّ حرب. مجمل القول، كان تحوّل أحداث بشع لباول، خاصة أنّه يضع مصداقيته، التي جهد في بنائها، على المحك – وأمامه أيام قليلة فقط للتحضير لأهم خطاب قد يلقيه في حياته. عندما استقر في السي آي إي لمراجعة معلومات استخبارية سرية عن أسلحة الدمار الشامل في أواخر شهر كانون الثاني/يناير، كان بمثابة وزير يزور بيت ثنائي تابع لأحد رعايا كنيسة ما، ليحاول إيجاد حلول لإنقاذ حياتهما الزوجية بعد فوات الأوان.

سنح ملف "النتائج" المؤلف من اثنتين وستين صفحة الذي استخدم للخطاب والذي أرسله سكوتر ليبي إلى السي آي إي، الفرصة أمام البيت الأبيض لإعادة إحياء كلّ الإدعاءات، من بينها تلك التي أخمدها الوكالة. وصرّح جون ماكلولين فيما بعد، وهو من الأشخاص الذين مثّلوا السي آي إي في الأمم المتحدة إلى جانب باول، أنّه تمّ رفض نصف اقتراحات البيت الأبيض على الفور. والآن، مع دنو موعد إلقاء الخطاب، حاول وباول وآخرون باهتياج شديد للحصول على الفصل. وكأن صراع السي آي إي مع البيت الأبيض الطويل على براهين مقدّمة احتدم خلال الثمانية والأربعين ساعة هذه. وأخيراً خرجوا بمجموعة ادعاءات واقتراحات فاشلة. وإذا بباول يشعر بالخطر، فطلب إلى تينيت الجلوس وراءه. وفعل. سيغرقان معاً. ولكن في النهاية، ستُلقى المسؤولية على عاتق باول. وبعد

مـــرور شـــهر على تقديم عرضه، كثرت تساؤلات الفرق المحلّلة التابعة للحكومة وللـــسي آي إي حـــول بعـــض التأكيدات التي قدّمها باول في خطابه إلى الأمم المـــتحدة. تأزمّ الوضع، وأخيرا واجه باول ليبـــي. وسجّل محامي البيت الأبيض، رجـــل تشيني، اعتراضًا مفاده أنّ الهدف من وراء العرض الذي قدّمه باول لم يكن التوضـــيح أو القـــيام بـــبحث متوازن، بقدر ما كان "مرافعة يقوم بها المحامي في المحكمة". وبالطبع، من دون الاستفادة من طرح الرأي المعارض.

غـــير أنّ البـــيت الأبيض اعتبر أن عرض باول حقّق نجاحاً باهراً. أما الجمعية العامة للأمم المتحدة فقد منحته الثقة، وكان الجيش الأميركي من ناحيته ينتشر في الخليج حيث بلغ عديده 150 ألف جندي.

في النهاية، ستساهم وزارة الدفاع والجيش الأميركي القوي في إحداث ساحة حـــرب في العـــالم العربي وفي كونها عاملاً فاعلاً في تغيير النظام ونـــزع السلاح وتعزيز الديمقراطية ودعم نظام العالم القديم... واللائحة طويلة.

غـــير أن الأسباب المنطقيّة لم تكن بذي أهميّة. وسيشهد الوضع الراهن قريباً تغيراً فيتحوّل السلام القلق إلى حالة حرب.

في الوقت عينه، كانت حدّة الصراع الأصلي والجوهري - أي العثور عليهم وتوقيفهم - تزداد بشكل مضطرد.

دخـــل تينيت المكتب البيضاوي أولاً، ليطلع الرئيس على كلّ المجريات لأربع أو خمس دقائق. كانت هذه الإجراءات المعهودة: اجتماع مغلق سري مع تينيت، يسمح لبوش بالإمساك بزمام الأمور وعارفاً بمجريات كلّ الأمور قبل وصول الآخرين.

تم اســـتدعاء محاضري السي آي إي المتجمعين في قاعة الانتظار للدخول. قام أحدهم بوضع المبتكر على طاولة صغيرة في قاعة الجلوس.

نظر بوش إليه. كان تشيني والآخرون جالسين. رفعه الرئيس - متحمساً وزنه.

ثم قال بصوت خافت، كأنّه يكلّم نفسه: "إنّه كابوس"، وأعاده إلى مكانه.

ثم باشـــر أحـــد محاضـــري السي آي إي بشرح مفصّل حول الجهاز، وعن المـــشاكل التقنـــية الـــتي حلّها، وعن استعمالاته المحتملة، وعن سلسلة التجارب والأخطاء الذي مرّ بها ليصل إلى حاله اليوم.

لكــن كسر هذا الجهاز قوانين الفيزياء في هذه الغرفة. فكان جميع الموجودين في المكتب البيضاوي ينظرون إليه - يفكرون في هذا العصر وتحدياته، ولا ينطقون ببنت شفة.

اختــراع كهذا ليس وليد الحاجة فقط. فإن سكان العالم، الذين يعيش أكثر مــن نصفهم على أقلّ من دولار واحد في اليوم، لطالما كانت لهم حاجات كبيرة، وطاقــة تذهب هباءً، وصلابة خلاّقة. ولكن تغيّرت سهولة توفّر المعلومات القابلة للتحميل - والمنتجات القابلة للشراء بسرعة في اقتصاد عالميّ لم يشهد تنوعاً مماثلاً مــن قــبل - سهولة من شأنها تلبية حاجات الإنسان الطارئة. هذا بالتأكيد أمر إيجــابي؛ فــبات باستطاعة الناس، في كلّ بقاع العالم، وأكثر من أي وقت، تجنيد مهــاراتهم لحــلّ مشاكلهم الخاصة. ولكن، يظهر المبتكر، الذي جمع بسهولة هذه المنتجات السهلة المنال في تركيبة مميتة، ليكون من أفظع الترجمات لكلمة "اختراع".

بعــد اجتماع المكتب البيضاوي، أمر بوش بإطلاق إنذار الخطر في الحكومة الأميركية. وعقد تينيت اجتماعات عدّة مع مسؤولين في الاستخبارات. أما رولف ولــيون، فقــد قاما بعرض الجهاز للأشخاص المعنيّين بتنفيذ القانون وآخرين من أجهــزة الاستخبارات. اقتضت الضرورة نشر الخبر. إذ كان من المستحيل إيقاف هــذا الجهاز - وحماية الناس المارين بسياراتهم تحت الأنفاق أو في محطات سكك الحديــد أو في أية منطقة مزدحمة ومغلقة. وبدت التوعية الانتقائية، الخاضعة لمعايير سريّة صارمة، الردّ الوحيد.

ففــي عالم الأسلحة الإرهابية، كان ذلك بمثابة انشطار الذرّة. فاحصل على القليل من المواد الكيميائية المتوفرة في أيّ مكان، ويمكنك تطوير الجهاز في طريقك إلى متجر هوم ديبو، وقتل كل المتواجدين فيه.

حان الوقت كي يعود دان كولمان إلى بيته.

لــيس لأنــه منهك، وهو بالفعل كذلك. أو لأنه لم يعد لديه عمل يقوم به كمــبعوث خــاص للأف بي أي، لا يملك ملفاً في السي آي إي أو في أي مكان آخــر، لكونه شخصاً يعرف بعض المعلومات التي هي ذات أهمية كبيرة في المعركة ضد القاعدة. ففي هذا الصدد، الطريق ما زال طويلاً.

لا، فقد قرّر في ليلة من منتصف شهر شباط/فبراير أن يذهب إلى البيت – في الحال!– بسبب ألم في ضرسه.

أو بـــسبب غـــياب ضرســـه. فقـــد اقتلع ضرس العقل في الثالث عشر من شباط/فبراير، ولم يشفَ بعد. فعندما راجع طبيب أسنانه بعد أيام من العملية، قال لـــه هذا الأخير أنّه يعاني من التهاب يعرف بالـ "تجويف الناشف". فالتجويف في لثّـــته لم يلتئم، كما يحصل طبيعيًا. لهذا ضمّد الجرح بشاش، وسكّن آلامه بحبوب بيركوسيت.

أما الآن، وبعد مضي خمسة أيام، ليلة الجمعة، عندما دقت الساعة الرقمية عند الثانية صباحاً، راحت الحبوب ترتد عليه. كان يعاني من نوبة بسبب هذا المخدر، ومن دوار من حدّة الألم ويذرع الغرفة المستأجرة جيئة وذهاباً كالمجنون.

عـــندها، تجلّت الحقيقة الروحية المخلّصة: عليه العودة إلى بيته، ليعاينه طبيبه القديم في نيو جرسي. فهو بالتأكيد يملك الحلّ.

كانـــت الطـــرقات فارغة خلال منتصف الليل – لا أحد على وجهتي بوابة المرور إلى نيو جرسي عند الساعة الرابعة صباحاً. فتمكّن كولمن من القيادة بالطريقة الوحيدة التي بعثت فيه الراحة اليسيرة: مخرجاً رأسه من النافذة وفاتحاً فمه.

وعاش في الأسابيع الثلاثة التالية جحيم ألم الأسنان. فكان عليه تغيير الشاش يومـــياً، وتجربة مسكنّات ألم جديدة، ومن حدّة الألم كان يدور في البيت يهذي بصيحات صاخبة دافعاً مورين إلى الجنون.

"هل بإمكانك العودة إلى هنالك، وتولي أي مهمة؟" سألته يوماً.

"بالتأكيد، هنالك الكثير من العمل، بالتأكيد"، أجابها والشاش في فمه.

كـــونه بقي في واشنطن لسنة ونصف، دلّ على أنه لم يقم بالكثير ليعود إلى نيويورك. فهو لم يعد يعمل هناك بعد الآن.

لكنه ركب سيارته من طراز أولدزموبيل وعاد أدراجه من نيوجرسي مرورًا بنفق هـــولاند وصولاً إلى مبنى الأف بي أي العصيّ الوصف في جنوب مانهاتن وإلى الموقف السفلي. أزيل مكان ركن سيارته الخاص. اختفت جميعها. الرجل الذي عرّف أميركا على بن لادن – والذي أمضى 30 سنة في المكتب، يدفع لركن سيارته.

لقد تغيّر المكتب. فالمكاتب تتغيّر سريعًا مع تعاقب الأحداث. ولكن أعطته العودة شعوراً جيداً. فكولمان بطل هناك. فقد توفّى جون أونيل ملاحق القاعدة العنيد. ولكن دان ما زال حيًا يرزق.

دخل الرجل الذي شوّشت الأدوية ذهنه إلى ما يشبه عاصفة هوجاء.

كان جو بيلي، المسؤول عن مكتب الأف بي أي في نيويورك في لبس من أمره، لا يعرف ما العمل. فمنذ قليل اتصل مكتب السي آي إي في نيويورك. أحدهم قادم إلى البلد من وراء البحار. كان رجل سيء في طريقه من بريطانيا. سترسل الوكالة "المعلومات الضرورية"- اسم الرجل، رقم الرحلة، صورة له. واقتصرت مهمة الأف بي أي على ملاحقته.

وأصدرت السي آي إي توجيهاتها في هذا الصدد. هنالك شخص قادم، تعقبوه. من السهل إعطاء الأمر بذلك، لكن من الصعوبة بمكان تنفيذه. فمتى يدخل المشتبه به إلى أميركا، من الصعب أن تقوم السي آي إي أو أي من الأقسام الحكومية في تعقبه. في الواقع، خلال الأشهر الثمانية الماضية، فقدت الأف بي أي بعض الأشخاص.

تجادل جو بيلي مع رئيس مكتب السي آي إي، وهي امرأة. "اسمعيني جيدًا، تزوّدوننا ببعض المعلومات الأساسية – وتأمروننا بالملاحقة. هذا ليس بالأمر السهل. على الأقل، نحتاج إلى معلومات أكثر قبل الموافقة. من هو؟ ماذا تُمسكون عليه؟"

في الأساس، لعبت السي آي إي دور "موجد" المعلومات التي تسمح بتقفي الآثار. وغالباً ما وصلتها هذه المعلومات من وكالة الأمن القومي، بيد أنها لا تعترف بذلك. فعند وقوع أيّ حدث، توضع الأف بي أي في وسط التيار – وذلك يقع في مصلحة السي آي إي. كان الوضع محبطًا بالنسبة إلى بيلي. فالسي آي إي ليست كلب صيد يشتمّ الرائحة ويتقفاها. فقد أوكلت إليها مهمة صعبة تتطلّب مراقبة خطيرة جدًا – من النوع الذي اختبرته سابقًا ولم يؤت نتائج متكافئة – فقد احتاجت أن تستدعى إلى غرفة التحكم. وتوجّب استبدال المعلومات الضرورية بمعلومات كاملة.

كان هذا موقف الأف بي أي: كان بمثابة إنذار نهائي. أقفلت المسؤولة عن مكتب السي آي إي الخط، واتصلت بمركز مكافحة الإرهاب، التي كانت تنفذ

أوامره. وثارت مديرة في المركز ذات الشعر الأشعث، غضبًا. هذه الحادثة هدمت كـــل الجـــدران الـــتي بنيت بين الوكالة والمكتب. لم تحصل الإدارات الأخرى في الحكـــومة إلاّ علـــى الاستخبارات الرئيسيّة التي أرسلها "الموجد". لكن لم تتراجع الأف بي أي عن موقفها. بعد مشاورات محتدمة مع مسؤولين آخرين من لانغلي، أُرسل ملف المشتبه به البريطاني إلى مكتب الأف بي أي في نيويورك.

ومباشـــرةً إلى يد دان كولمان الذي راجعه مع أحد ممثلي جو بيلي. وكثرت الاتصالات مع وكالة الأمن القومي عبر الهاتف والبريد الإلكتروني.

لقد عكس هذا الملف طبيعة النفوذ الذي اكتسبته وكالة الأمن الدولي في ظلّ إدارة بوش. كان المشتبه به مواطن بريطاني. وكان على اتصال بمواطنين أميركيين. وتبادل الرسائل الإلكترونيّة مع مواطنين أميركيين. أتت المعلومات كرزمة، الرسالة تلو الأخرى، وجميعها لا تسوّغ شيئًا.

أحد الأميركيين كان أحمد عمر أبو علي - المقيم في شمال فيرجينيا، ويبلغ من العمـــر الـــواحد والعـــشرين سنة فقط، وكان خطيب الدفعة في الكلية السعودية الإســـلامية في الإســـكندرية في فيرجينيا. وأولت الولايات المتحدة اهتماماً خاصاً بعلي، الذي سافر إلى العديد من الدول العربية قبل أن يعود إلى فيرجينيا. فهو ذكي وقائـــد ومقـــدام. تـــضمنّت بعض الرسائل معلومات عن إسلاميين متطرفين من بروكلين، بمن فيهم أميركيون سبق أن اتصلوا بعلي.

اسم المواطن البريطاني محمد صديق خان.

تـــبادل خـــان وعلي وآخرون رسائل تمحورت حول رحلة هذا الأخير إلى الـــولايات المتحدة الأميركية، وخطط تنفيذ عدّة أعمال عنف. اشتملت على رغبة في "تفجـــير عدّة كنيسات على الساحل الشرقي". أظهرت سجلات أخرى وجود خان في الولايات الأميركية ثلاث مرات على الأقل خلال السنتين الماضيتين، جاء فيها للقاء إخوانه المتطرفين.

انكـــبّ دان على قراءة الرسائل. قال لأحد زملائه في الأف بي أي: "نتعامل مـــع شخص خطر جداً. يجب أن نتعاون مع البريطانيين للقبض على هذا الرجل. ولكـــن علينا القيام بذلك بطريقة صحيحة. إذا لم ننسق جهودنا مع السي آي إي

لإنهاء أمره - والقبض عليه بتهمة منطقية، ومراقبته مع الأفراد الذين يتعامل معهم عندما يأتي - لا يمكننا المخاطرة. لنفترض أنّه قام بتفجير معبد في واشنطن. هل سنقول للرئيس أنّنا كنا على علم بمخططه وتركناه يدخل البلد بكل الأحوال؟"

وتتكلّم الأحداث التي تلت عن هول "الحرب ضد الإرهاب"، وعن مخاطر حرب تخوضها بيروقراطيات متنافسة. إن كولمان عميل سريّ، رجل أمضى ساعات لا تحصى، وجهًا لوجه، مع متطرفين إسلاميين عنيفين. يعرفهم على أنواعهم، ويعرف عاداتهم وميولهم وتاريخهم - ويتعرّف إليهم بمجرد النظر إليهم. غالباً ما لا يصل أشخاص مثل كولمان، يتمتعون بهذا المستوى من الخبرة، إلى منصب الرئاسة في هذه البيروقراطيات. فهم لا يتحملون الأغبياء. بيدهم الحلول الصحيحة، لأنهم حصلوا على معلوماتهم بصعوبة، ووصلوا ليلهم بنهارهم. كلّ ذلك يساهم بالطبع في إضعاف سلطة أي مدير بيروقراطي الذي عليه فعل المستحيل ليحافظ على منصبه - ليبرّر زيادة راتبه ومنصبه ونفوذه - بالرغم من أنهم لم يتواجدوا على الجبهة، أو على الأقل ليس مؤخرًا. فردّ المدير الوحيد هو شنّ المعارك باسم جماعته ضدّ مدراء الأقسام الأخرى وجنود الياقة البيضاء.

وتثير مناقشة سير هذه الإجراءات وآلية عمل هذه المنظمات الكبيرة الخيبة. ولكن في المعارك التي تعتمد على امتلاك المعلومات، والقرارات المتخذة في البيروقراطيات الكبيرة، الإجراءات مهمّة. فليست الإجراءات السيئة والتواصل شبه المعدوم ووسائل الحماية الذاتية المؤسساتية مجرّد إضافات في تقارير لا تُقرأ أبداً. بل قد تكون قاتلة.

أُرسلت تخمينات دان كولمان على جناح السرعة إلى جو بيلي الذي اتصل بمركز السي آي إي في نيويورك. ركّز بيلي على الصراع بين الأقسام. ونقل تخوّف دان، غير أنّه لم يقل الكثير عن بداية تعاون واعد بين الأف بي أي والسي آي إي لتعقّب البريطاني. دارت المناقشات حول من سيتحمل مسؤولية البريطاني وعلى من سيلقى اللوم في حال قام بأي عمل إرهابي. فقال لرئيسة السي آي إي في نيويورك "سنقوم بمراقبة خان عن كثب". ففي حال نجح خان في تنفيذ مخططه، "سيلقي الجميع اللوم على الأف بي أي - بمن فيهم لانغلي. لذلك سيحرص كلّ الحرص على ألا يحصل ذلك".

كـــان علـــيهم اتخـــاذ قرار. فقد دلّت الإشارات الاستخبارية إلى أنه من المفتـــرض أن يـــسافر خان إلى الولايات المتحدة الأميركية في اليوم التالي خلال فترة بعد الظهر. وبعد إجراء بعض اتصالات بين السي آي إي والأف بي أي - تأزمت المحادثات وصولاً إلى المسؤولين الكبار في واشنطن - أثمرت بوضع خان علـــى لائحة الممنوعين من السفر. خطوة تهدف أساساً إلى تعطيل نشاطه. ولو بصورة افتراضية.

في الـــيوم الـــتالي، وصل إلى هيثرو للذهاب في رحلته إلى الولايات المتحدة الأميركـــية. عند نقطة ملاحظة التذاكر، أُعلم خان أنّه يواجه مشكلة مع الولايات المـــتحدة الأميركـــية. لقد وضعته على لائحة الممنوعين من السفر. لم يكن له أن يـــذهب لأي مكـــان. لـــشدة ارتباكه ولإنذاره للمرة الأولى بكشف أمره لدى الـــسلطات الأميركـــية، عاد أدراجه إلى منـــزله في ليدز. عرف الآن أن عليه أن يـــتوارى عن الأنظار وأن يتحاشى أي نشاط يمكن أن يثير الشكوك، ناهيك عن الاســـتغناء عن إجراء المكالمات الهاتفية أو استعمال البريد الإلكتروني لتفادي اقتفاء أثـــرهما. إن المعلومات التي حصل عليها خان الآن هي في غاية من الأهمية بالنسبة لشخص يضمر الدمار والتخريب.

كان قرار الاستخبارات الأميركية والمسؤولين الأمنيين - إضافة إلى المسؤولين الـــبريطانيّين الذين أُطلعوا على خطط خان وقرار وضعه على لائحة الممنوعين من السفر - خياراً من بين مجموعة واسعة من الاقتراحات. توقيف خان لحظة وصوله إلى مطـــار كينـــيدي. وضعه تحت المراقبة المشددة من قبل مختلف الأقسام الأمنية والاســـتخبارية، بما فيها الأف بي أي والسي آي إي ووكالة الأمن القومي باعتماد إجـــراءات مراقبة متطورة - كما وصفها أحد المسؤولين في السي آي إي. ما عنى صـــعود عملاء فدراليين متخفين إلى جانب خان في المترو أو الجلوس على طاولة بالقرب منه في المطعم الذي يقصده؛ وبالتالي استحضار مجموعة متنوعة وعديدة من العملاء المتخفين مدعّمين بمراقبة إلكترونية على مدار الساعة. أينما ذهب، سيكون مـــرافقاً. الأمر الكفيل بالإضاءة على أماكن من أنحاء أميركا قد يقصدها الرجل، تأوي في أحيائها جهاديين عازمين على التدمير.

غـــير أنّ الأمور أخذت مجرى مختلفاً، فقد عاد محمد صديق خان إلى مزاولة مهنـــته في التعلـــيم في لـــيدز، وعمل بشكل حثيث مع ثلاثة شبان مسلمين قام بتجنـــيدهم. في السابع من تموز/يوليو 2005، قام بتخطيط وتنفيذ سلسلة هجمات إرهابـــية في محطات قطار الأنفاق في لندن أدت إلى قتل 56 شخصاً وجرح 700 آخرين، اعتداءات أخضعت بريطانيا.

رنّ جرس الهاتف في غرفة ماكلولين عند منتصف الليل.

بالنـــسبة للمـــواطن العادي، فإن اتصالاً في وقت مماثل ينذر بوقوع مصيبة. تـــوعك أحد الأقارب أو أسوأ. اندلاع حريق في بيت الجيران. أو أي حالة طارئة كفيلة بمنع النوم.

أما بالنسبة لماكلولين، وبعد 29 سنة من الخدمة مع السي آي إي، فلا يختلف هـــذا الاتصال عن اتصال إلى المكتب وهو خارج لأخذ استراحة الغداء أو مسرعاً للحاق باجتماع دعي إليه. اتصال إزعاج. هذا كل ما في الأمر.

مع ذلك، رفع السماعة.

"أمسكنا بالسافل". كان صوت تينيت.

فصاح ماكلولين هاتفاً.

"من الجيد أن يحالفك الحظ أحياناً"، أجابه فرحاً.

تمحور اليومان السابقان حول اغتنام الفرص المتاحة.

تكـــثّف الـــبحث عن خالد شيخ محمد لاسيما بعد أن أفلت من الاعتقال في أيلول/سبتمبر الماضي، بعد تطويق عائلتي بن الشبح وخالد شيخ محمد.

خـــلال الأشهر الستة التالية، تمكنت السي آي إي بالتعاون مع قوات الأمن الباكـــستانية مـــن إحكـــام الطوق على حوالى مائتي شخص بين جنود القاعدة ومؤيديها. وأتى الكثير من التقدّم المحرز نتيجة لعملية مداهمة محل وزير للصرافة.

قـــدم العمـــلاء السريون الذين عملوا على تلك العملية معلومات قيّمة يمكن العمل عليها ميدانياً. كان التحدي الأكبر في نسج مخططات من دون الكشف عن إدارة الـــسي آي إي لمحل الحوالة. حتى الرسائل الإلكترونية الموقعة من وزير كانت مزوّرة. فكان العملاء الذين يقومون بالتحويلات المالية قادرين على كشف توقيت

العمليات وهوية منفذيها. وحتى كانوا قادرين على اكتشاف من بالتحديد كان يموّل عمليات القاعدة. وبعد الإمساك بالممولين، واحد تلو الآخر، راحت الموارد المالية لشبكة القاعدة المنتشرة المخصصة لتنفيذ العمليات وشراء التجهيزات الأساسية تجفّ تدريجيًا.

ولكن لا أثر لخالد شيخ محمد بعد. وتكرّر وضع الملصقات – بعد كشف أمير قطر عن مكان تواجد كل من خالد الشيخ محمد وبن الشبح– التي تقدّم مكافأة للمتعاونين في القبض على الرأس المدبّر لهجمات 11 أيلول/سبتمبر. سواء كان خالد الشيخ محمد أو بن لادن، أو الظواهري، لم تتلقَّ السي آي إي أي ردّ على هذا العرض. جلّ ما توصلوا إليه كان الرأس الذي لم يكن رأس الظواهري.

في أواخر شهر شباط/فبراير 2003، تغيّر الوضع. نجحت السي آي إي في تحقيق "خرق"–على حدّ تعبير عدد من المسؤولين في لانغلي. كان هنالك شخص ينتمي إلى القاعدة وعلى اتصال بمسؤولين فيها من كافة المراكز، يتحرك بين العمليات المنفذة في إسلام أباد عاصمة باكستان، وروالبيندي، وهي محطة تجارية على طريق الحرير القديمة يسكنها اليوم ثلاثة ملايين نسمة.

قام الرجل بالاتصال بالسي آي إي، التي تملك أكبر مكتب لها – يضمّ قرابة خمسين عميلاً – في إسلام أباد.

في تلك الليلة، كان من المفترض أن يلتقي كبار عملاء القاعدة في المنطقة، ومسؤول كبير في المنظمة. دار حديث عن المكافأة. وجرى إعداد نظام لإرسال إشارة إلى العميل.

اتصل الرجل وكان منتصف الليل قد حان. كان جالساً إلى جانب خالد الشيخ محمد على مائدة العشاء، ورافقه مع رجلين آخرين في السيارة ودخلوا جميعاً إلى أحد أحياء روالبيندي للبحث عن منزل آمن يستطيع مسؤول القاعدة قضاء الليل فيه. عثروا على المنزل. وأنزلوا خالد الشيخ محمد هناك.

بعدها قام المصدر بالاتصال. فتدفّق عملاء السي آي إي، أقلّوا المخبر، وأمضوا الساعات التالية يقودون بسرعة فائقة في هذا الحيّ، فيما حاول المخبر إيجاد العلامات التي حددها. قبل طلوع الفجر بقليل، تم تحديد موقع البيت. تجمّع حوله

عمـــلاء السي آي إي إضافة إلى بعض عناصر قوى الأمن الباكستاني. واتضح أنّ مالك البيت من مؤيدي القاعدة.

المهم هو القبض على خالد الشيخ محمد حيًا. أيقظت الوحدة التي دخلت إلى البـــيت خالد من النوم، الذي شرع مسدسه في وجههم. أُطلقت بعض العيارات الـــنارية وأصـــابت عنـــصراً باكستانياً في رجله، غير أنّ خالد استسلم وتمّ اقتياده والتقاط صورة له - ما لبثت هذه الصورة أن جابت العالم بعد ساعات قليلة تظهر رجلاً متسخًا وزائدًا في الوزن يرتدي ملابس داخلية مع لحية خفيفة.

ســـافر تينيت إلى إسلام أباد بعد أيام قليلة. وهناك، التقى بالفريق الذي داهم المنـــزل في مكتب مسؤول في الحكومة الباكستانية. اجتمع خمسة عشر شخصاً من الفريق في قاعة الاجتماعات على رأسهم قائدهم الحازم - رجل لائق ورشيق يبلغ طوله الخمسة أقدام وسبعة إنش (167 سم) - أعرب باسمه وباسم فريقه عن شرف لقـــاء تينيت الذي بادلهم بدوره هذا الشرف. وأضاف أنّ الصراعات التاريخية التي تـــتخللها دمـــوع وعناق هي ما يجمعهم. بعدها قام القائد بإعطاء تينيت بندقية. كانـــت بندقية خالد شيخ محمد التي صودرت أثناء المداهمة. تينيت، الذي يعتبر من أفـــضل المحاضرين، حمل البندقية في يديه كأنّها كمان فريد - وشكر الجميع على الهديـــة - وخـــرج. ثم التفت صوب مساعد إلى جانبه وقال له: "حقاً بالله، هلا فعلت شيئًا بهذا الشيء؟"

وكـــان لتينيت اجتماع آخر، رسمي أكثر من سابقه. كان مع المخبر. وتخلّل هذا اللقاء تبادل عبارات العرفان. وسأله تينيت عن سبب إقدامه على هذا العمل. أجـــاب الرجل أنّه لديه تحفظات حول هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وأن قـــتل الأبرياء هو خرق لشريعة القرآن. ثم سأل تينيت، "هل تظن أنّ الرئيس على علم بما فعلت؟"

أجابه تينيت: "نعم، هم على علم، لأنني أخبرته."

وربّما ارتكز هذا السؤال على الفضول والضمان.

خلال المعركة ضد القاعدة، كان هذا الرجل بمثابة أكبر اختبار للسي آي إي في دفع الرشاوى والترحيل. في حال عرف الرئيس، يعتبر المخبر أنّ الاتفاق الذي توصل

إلى عقده، هو اتفاق رائع، سيبقى دائمًا نافذاً ولن يُعدّل. على الأقل، يعرف لمن يلجأ.

يعـيش المخبر الآن في أميركا، في مكان ما من أميركا، في حسابه 25 مليون دولار أميركـي، إضافة إلى مزايا أخرى كتأمين على حياته وتأمين التعليم الخاص لأولاده وأقاربه وأولادهم.وسيكون، وعائلته الكبيرة، تحت الحماية الأميركيّة طوال حياتهم. وصرّح أحد المسؤولين في السي آي إي: "أعرف أنّه مبلغ كبير من المال، لكـن مقارنـة بالملايين التي دفعت لإيجاد هؤلاء الأشخاص – على رأسهم خالد الشيخ محمد – لم يعد لهذه الأموال قيمة. هذا الرجل ساعدنا على الإمساك به. هو بطل. يجب استنساخه مئة مرة."

وجـدت الـشرطة البحرينية في سجلات بسام بوخوا رقماً هاتفياً لعنوان في المملكـة العربية السعودية. فتم إلقاء القبض على ثلاثة أشخاص في الرياض ينتمون إلى جماعـة واسعة الانتشار من الناشطين الإسلاميين المتطرفين داخل المملكة، ولم يعرف عنهم أكثر من أنهم على صلة بالبحرينيين. واتضح أنّ هذا الثلاثي السعودي متصل بثلاثي آخر من الجهاديين في المملكة. وقد جرى إلقاء القبض عليهم أيضاً.

كانـت كافـة هذه العمليات تحت إشراف ودعم السي آي إي التي تملك مكاتب واسعة في البلدين.

أصـبح التحقـيق الآن أولـوية. وأكّد العثور على تصاميم المبتكر في جهاز الكمبيوتر الخاص ببوخوا هذا الأمر.

ولم يكـن مـن السهل أبداً الحصول على الضوء الأخضر من السعوديين، حتى الآن، وبعـد مرور تسعة أشهر بعد قيام تينيت بتحذير بندر. وبدأت الاستجوابات. وجـلّ ما تمكّن عملاء السي آي إي فعله هو مشاهدتها تحصل. فالأسئلة التي طرحت على السجناء – المجموعتين البحرينية والسعودية – كانت معيّنة. على الرغم من ذلك، ومقارنـةً مـع مـا حصل مع زبيدة أو بن الشبح في "المواقع السوداء"، جرت هذه الاسـتجوابات بطريقة مهذّبة ومحترمة. فالأسرى كانوا رجالاً متدينين. يوماً بعد يوم، يـسبّحون الله ويـتكلمون عـن عمق التزامهم الديني الذي يربطهم بعضهم بعضاً. فبحسب أحد عملاء السي آي إي المعيّنين على هذه القضية، هذه مشكلة. "ينظر إلى بعضهم على أنهم من رجال الدين. ومن الصعب استجواب رجال الدين."

كـــان بوخــوا ذكياً. فكان متقدّماً في السن ولا يسمح له عمره بأن يكون مرســالاً؛ وكان محللاً أكثر منه منفذاً للعمليات. ولديه أصدقاء مرموقون في مجتمع الناشطين الإسلاميّين في الدولة.

وفي حال وجد مخطط آخر وأكبر، لم يكن.

مـــن الواضـــح أنّ المجموعتين البحرينية والسعودية مرتبطتان بعضهما ببعض، ولكـــن لم يتـــضح موقعهما من شبكة الجهاديين الأوسع في المنطقة. لم يبدُ أنهما متـــصلان بشكل وثيق بعدد من الخلايا السعودية التي تتعقبها أجهزة الاستخبارات الأميركية – السعودية. ولا يبدُ أنهما متصلان بالسيف السريع الغامض، الذي أتى علـــى ذكـــره في الكثير من الرسائل التي جمعتها وكالة الأمن القومي، والذي بدا وكأنه وراء العديد من المسائل في شبه الجزيرة العربية.

في كـــل صـــباح، عـــند الاجتماع الرئاسيّ الصباحي، يسأل الرئيس تينيت السؤال المعتاد: "هل من مستجدات عن المبتكر؟"

فيجـــيب تينيت، "لا شيء جديد، لكننا نبذل ما بوسعنا لكشف هوية هؤلاء الرجال."

في منتصف شهر أذار/مارس، وفيما حوّل بدء اجتياح العراق الطاقات وتركيز الإدارة إلى تلك المنطقة، أجرى مسؤولو السي آي إي مشاورات سرية في لانغلي. فهم ببساطة، لم يجدوا سياقًا لأي من المجموعتين البحرينية والسعودية.

ردد كـــلّ من البيت الأبيض والسي آي إي على المسؤولين في البلدين رسالة واحدة واضحة. نحن نعمل على القضية. لا تطلقوا سراح هؤلاء الرجال.

في صـــباح 19 من أذار/مارس، ترأس دينيس لورميل وفداً إلى السي آي إي. رافقه مسؤولون من وسترن يونيون ورئيس مكتب السي آي إي في شيكاغو، وقلة آخرون. الهدف من هذه الرحلة هو الحصول على تصريح – لتوفير ثروات وسترن يونيون في المعلومات للعالم السري الواسع.

كـــان أهمّ تنسيق للموارد واليد العاملة والمهارات وأكثره فعّالية في الولايات المتحدة موجوداً في العالم المالي. وكان لورميل اللاعب الأساسيّ، إضافة إلى دافيد أوفهاوزر من الخزينة أي منسق "الحرب المالية" وفيل القلق من السي آي إي.

لا يكمن مفتاح النجاح في "حرمان الإرهابيين" عبر قطع عنهم الإمدادات المالية، كما أوصى الرئيس. فقد تسجّل تطور متواضع: خرجت الاجتماعات التي لا تحصى بين مسؤولين من السي آي إي والخزينة ومجلس الأمن القومي مع السعوديين بنتائج محمولة. كان قرار المملكة في أواخر 2002 مفيداً ونافعاً، ويقضي بإيقاف المساهمات المالية الآتية من الجوامع عبر إجبار رجال الدين على تعيين محاسبين للتدقيق في كيفيّة توزيع المساهمات التي تقدم يومياً مما صعّب المجال أمام القاعدة في تمويل العمليات وتسديد الفواتير. فقد اعتبروا أنّ الحاجة إلى السيولة المالية قد تدفعهم إلى تقليص العمليات، هروباً من ارتكاب الأخطاء والوقوع في شرك القانون.

ولكن، تحت هذا الغطاء، جرت اختبارات سريّة حول كيفيّة إدارة الخلاف بين المنع والذكاء. يوماً فيوماً، اقتنع المسؤولون في الولايات المتحدة بأنهم يريدون تدفق الأموال - تدفقاً متواضعاً ويمكن إدارته - ليتتبعوا الخيوط. وفي حيّز الاستخبارات النادرة، المال هو الاستخبارات.

تعتبر فيرست داتا، بطريقة أو بأخرى، الخطوة الأولى. فقد كان الحصول على البيانات المهمة، غير الدقيقة، خرق خصوصية عشرات الآلاف من الأميركيين للعثور على قدر قليل من المعلومات الاستخبارية القيّمة أو دليل مهم لتقديمه إلى المحكمة. فقد وضعت رسائل الأمن القوميّ ومذكّرات الجلب وعدد التفتيشات الكبيرة التي جرت، الحمايات التي وفّرها التعديل الرابع ضدّ "عمليات البحث والمصادرة غير المبرّرة" على المحكّ. ولم تكن انتقادات محكمة FISA للأف بي آي صارمة، فلم تطلب تبريرات لضرورة مع الملاحقات والاستخبارات لـ 75 قضية لا يكترث لأمرها الأشخاص الذين يتمتعون بتصاريح أمنية عالية في السي آي إي، الأف بي آي أو وزارة العدل. خمس وسبعون قضية؟ سلة مليئة من محيط هائج. سيتم التعرّف على عدد لا يحصى من الأميركيين من خلال أسمائهم وسيرهم المالية والشخصية - هوية إلكترونية - محفوظة في أجهزة كمبيوتر الأف بي أي وبيانات عديدة متعلقة بالـ "الحرب ضد الإرهاب". لن يتخلّصوا المعلومات. سيحفظونها كما هي، في حال احتاجوا إليها في المستقبل.

بذلت وسترن يونيون المجهود الأكبر والأكثر فعالية. فمقارنةً بعمليات تقدم حسابات بطاقات الائتمان، فإن تحويل المعلومات السلكي يتطلب نوعاً مختلفاً من

الاتـــصالات. فنظام تحويل المعلومات السلكي الذي وجد في شقة زبيدة ومنـــزل كاراتـــشي الآمن حيث أقام خالد الشيخ محمد وبن الشبح، قد وفّر خيوطًا رئيسية في التحقيق وتعقّب المرسلين والمتلقّين. طلبت الأف بي أي مساعدة وسترن يونيون عـــبر السي آي إي. فقد طُلب من وسترن يونيون توفير بيانات الزبائن التاريخية في كثير من المجالات المهمة.

بالطـــبع، في حرب المعلومات الحادة هذه، هنالك رغبة بطلب المزيد. طلب لورميل وزملاؤه في الأف بي أي معلومات إضافية. ماذا عن المعلومات المباشرة – الـــصفقات عـــند حصولها؟ والصور؟ وضعت وسترن يونيون كاميرات في بعض مكاتـــبها. وكما يجري تصوير أحدهم يجري عمليّة بواسطة آلة الصرف التلقائية، غالـــباً مـــا يجري تصوير الشخص الذي يحوّل الأموال والمتلقي، بالرغم من عدم معرفته بالأمر. هل بإمكان الشركة توسيع استخدامها لهذه الكاميرات؟

ومـــع تطور هذه المبادرات، تكلّم لورميل أكثر مع فيل القلق وازداد اقتناعه بـــضرورة إطلاع السي آي إي على علاقته الثمينة – رغم أن الأف بي أي تقدّر الزمالة السرية.

على الأقل، هذه كانت الفكرة. فعندما عرضت في أوائل 2003، توترت وسترن يونـــيون وانـــتقلت العدوى إلى مسؤولي الشركة الأم، فيرست داتا. أما الأف بي أي فكان وضعها مختلفاً. فتقاليد المكتب الواضحة وتوجهه القانوني وفروا غطاء أمان.

وكانت الشركة تشتكي من الأسرار التي تشوب السي آي إي، وتدهور هذا الوضع مؤخراً.

لـــذلك، شعر لورميل بأهمية اللقاء بـــ "عاقد الصفقات". فرتب موعدًا للقاء تينيت. في هذا الوقت اكتسبت مديريّة الاستخبارات المركزية شهرة واسعة – فهي مـــن الوجـــوه المعـــروفة والتي لم يتم انتخابها مثل رامسفيلد ورايس وباول – في "الحرب ضد الإرهاب". لقد كان لذلك أثرًا آنياً على اللقاءات الأولى، وتينيت – بفضل قدرته على الإقناع بالفطرة والإلفة التي يتمتع بها – عرف ذلك.

بعـــد أن قطع المسؤولون في وسترن يونيون حرم لانغلي مصدومين، توجهوا إلى مكتب تينيت. دار الحديث حول عدم التوازن بين القطاعات الخاصة والعامة،

هــذا أمــر شعر به المسؤولون في شركات الاتصالات السلكية واللاسلكية خلال اجــتماعهم مــع وكالة الأمن القومي. المقدمة الأولى، التي تم اقتراحها ولم يتداول فــيها: أيها الأصدقاء تحسنون الاعتناء بأنفسكم... بينما أقوم بالاعتناء بالآخرين. هناك مجموعة من الرجال (وهم يشكلون حالياً الأغلبية) الجالسين ببدلاتهم القديمة وربطات العنق الملطّخة ببقع القهوة – مع أنهم كانوا من الأوائل في صفهم – بينما من الجهة الثانية من الطاولة وفي اتجاه آخر، مجموعة من الرجال الراضين في بدلات مفــصّلة من تصاميم سافيل رو أو زغنا أو أرماني، الذين اعتقدوا مرّة أنّ الفوز في المنافــسة بــين الــشركات سيكون قياس القوة أو النصر – مثل الفوز بميدالية في الألعاب الأولمبية – غير أنه ليس الحال. لا بل أكثر، يبدو أنه يتم قياس اقتران الحظ والخيبة الماكرة.

بعكس بعض المسؤولين العامين، مثل المسؤولين في الخزينة، ولكن على غرار كبار الضباط العسكريين، يضيف تينيت لمحة قوة إلى أفعاله. بالرغم من أن جورج تــتلمذ في معركة بيروقراطية، تشبه أفعال المحارب: إطلاق النار ردّاً على ضربات المعتدي، وأسر العدو والتصرف كجنرال أكثر منه من جامع أسرار.

تبادل مدراء وسترن حزيران/يونيو ولورميل ورجال السي آي إي الحاضرون أطراف الحديث، جالسين على مقاعد وأرائك مريحة. كان المكتب مزيّناً بمجموعة ملهمة من المعروضات – علم أميركيّ كبير تظهر عليه آثار الحريق، رُفع من تحت أنقــاض مركز التجارة العالمي وعلّق على حائط مكتب تينيت وقبعة حمراء لفريق أوكلاهــوما ســونرز موقعة من المدرّب بوب ستوبز. أبدى أحد المدراء إعجابه بالقبعة، فأجابه تينيت "إنه رجل عظيم، إنه منتصر."

ثم بدأت المحادثات. فنوّه لورميل بإخلاص وسترن يونيون منذ وقوع أحداث التاسع من أيلول/سبتمبر. وتحدّث فيل القلق عن الخطوات التي يجب اتخاذها للمضي قــدماً. فــتملك وسترن يونيون حوالى 12 ألف مكتب في العالم، منهم 1300 في باكستان فقط. إنه البلد الأهم لمواجهة الإرهابيين.

أومــأ الجمــيع برأسهم، علامة على الإجماع على الرأي، إلى أن طلب أحد مدراء وسترن يونيون الكلمة.

نظر إلى تينيت. وشرع في القول: "إليكم ما يقلقني. في حال ثبت أنّ وسترن يونيون هي ستار السي آي إي في العالم، سنفلس."

تقدم تينيت في مقعده، ولعب الورقة الرابحة.

وأجابه: "أعلم أننا نطلب الكثير. لكن هذا البلد يصارع لبقائه. جلّ ما أطلبه منك ومن شركتك هو القيام بواجبكم الوطني."

بعدها دار الحديث حول الأمور اللوجستية.

إلى أن قام أحد المدراء بطرح السؤال التالي إلى تينيت: "هل تظن أننا سنجتاح العراق؟"

فضحك تينيت وقال: "ستكون ضربة قاضية."

في تلك الليلة ظهر رئيس الولايات المتحدة الأميركية ببذلة زرقاء وربطة عنق زرقاء اللون وتوجّه إلى الأمة من المكتب البيضاوي.

"إخواني المواطنين، في هذه الساعة، تحضّر أميركا وقوات الائتلاف المراحل الأولى للعملية العسكرية الآيلة إلى نزع سلاح العراق، وتحرير شعبه وتجنيب العالم أجمع خطراً وشيكاً... بأمر مني، بدأت قوات الائتلاف بضرب مراكز عسكرية محددة لتقليص قدرة صدام حسين على الردّ بشن حرب. هذه هي المراحل الأولى لحملة واسعة النطاق ومنسّقة."

أعلنت بداية الحرب على العراق نهاية حقبة ردّ فعل معقدة على أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وبداية حقبة أخرى. منذ الأيام الأولى بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، تمحورت المسألة حول كيفية إدخال تغيير النظام في العراق ضمن مهمّة "الحرب ضدّ الإرهاب" الواسعة و، حتى الآن، غير محدّدة بشكل دقيق – من أجل العثور على الإرهابيين العاقدين العزم على إلحاق الأذى بالولايات المتحدة الأميركية وتوقيفهم.

يستطيع الأميركيّون وسكّان العالم أجمع مراجعة كافة محاولات إحداث حبكة متقطعة وتقييمها: إدخال الديمقراطية إلى العالم العربي المضطرب والقضاء على أي ملجأ آمن يتخذه الإرهابيون – علماً بأن بريطانيا وباكستان وبلدان أخرى لا تحصى من الديمقراطية إلى الديكتاتورية، هي ملاجئ للإرهابيين. للتأكيد على أن ما من قائد يهزأ

من القانون الدولي وقرارات مجلس يستطيع البقاء (مع العلم أن العديد من القادة نجحوا في ذلك). لنــزع أسلحة الدمار الشامل من أيدي الديكتاتور، مع العلم بأن العديد من الــبلدان ذات الــنظام الدكــتاتوري -من كوريا الشمالية مروراً بإيران ووصولاً إلى باكستان - لديها أسلحة أقوى من تلك الذي أذيع أن صدام حسين يمتلكها.

في الــنهاية، لم يكــن أي من تلك الأسباب السبب الجوهري - كان سبباً افتراضياً، كالإطار الذي حاولنا وضع فيه فكرة واسعة النطاق وصعبة المنال كفكرة شنّ "حرب ضد الإرهاب".

هذا الاستنتاج الافتراضي كان وليد أمور أكدها الإدارة، غير أنّه لم يتم التداول بها في العلن. كان أحد هذه الأمور - استنادًا إلى ما كتبه رامسفيلد إلى الرئيس ومدراء مجلس الأمن القومي في كانون الثاني/يناير 2001- فهم أنّ "تحرير التجارة وتقدّم السلع والخدمات التكنولوجية في فترة ما بعد الحرب الباردة سمح للدول الأكثر فقرًا في العالم بالحصول على أكثر الأسلحة تدميراً، بما فيها النووية والكيميائية والبيولوجية إضافةً إلى وسائل إطلاقها. لا يمكننا منعهم من القيام بذلك."

تم التداول بهذا العبث أثناء الاجتماعات التي عقدت مع الرئيس بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. مخيّم كندهار ومختبرات الجمرة الخبيثة في أفغانستان وفي كلّ مكان، والآن المبتكر - كارثة محمولة يسهل تركيبها.

لم تتفق هذه الوقائع الصعبة مع مجال عبثيّ آخر: إذ اتضح للأميركيين أنّه لا يمكن الدفاع عن أرضهم. فعلى الرغم من الضمانات الضرورية والعادية العامة، لم يشك أي مــسؤول رفــيع في الحكومة بذلك. عندما ازدادت الضغوط، أقرب الأقوال إلى هذه الحقيقة المخبّية كانت التي تفوّه بها توم ريدج خلال جلسة الاستماع في الكونغرس، إذ قال:"بإمكاننا وضع العصي في الدواليب لتصعيب مهامهم، لكن لا يمكننا إيقافهم."

هذه الهفوات والكشف عن سلسلة حقائق صعبة والخيارات الضئيلة، أدّت إلى ردّ في لــيل التاسع عشر من أذار/مارس، ردّ طبيعيّ صدر من بوش وتشيني، كلّ بحسب تصوّره.

إلى ذلك، ما يشوب هذه الرئاسة من خطأ أيضاً أنّ تشيني هو المفكّر العام في هــذا الثنائيّ. عادة، يؤدّي الرؤساء هذا الدور، مثلما فعل نيكسون، أو ريغان -

الـــذي كـــان باستطاعته التحدّث عن التاريخ السوفييتي لأيام - أو كلينتون، أو كينيدي أو جونسون. أمّا بوش، فأفكاره شاملة، ينبع بعضها من إيمان شخصيّ أو دينيّ، مثل إحلال السلام في العالم، أو نشر الديمقراطيّة، أو القضاء على الإرهاب. هــذه آمال - آمال كبيرة، يرومها الجميع- إلاّ أنها ليست سياسات، أو تقييمات صلبة لأمّة ولمكانتها في العالم.

يــؤدّي تشيني هذا الدور. جعل هذا الواقع الواضح من البداية، والذي تبلور أكثـــر بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، القادة في الإدارة والكونغرس يتردّدون. وشمل هذا التردّد أيضاً مسؤولين في السي آي إي، الذين تقضي مهمّتهم المؤسّساتيّة، لحسن حظّهم أو لسوئه، بخدمة رئيسهم مثل وسيط صادق لا مصلحة لـــه، يرتكـــز فقط على البراهين. أمّا هذا الرئيس الذي يعوّل على أفكار نابعة من "الغريزة" على حدّ تعبيره، فليس بحاجة إلى هذه الخدمة؛ وبما أنّ تشيني يؤدّي دور الرئيس، وهو دور غير مناط به، فلا يحصل على هذا الامتياز.

وفيما اتجهت الدولة نحو الحرب في الأشهر الأولى من عام 2003، برز تبادل الأدوار هذا بسخرية واضحة. في هذه المرحلة، كان تشيني ملقباً باسم "إدغار" في السي آي إي. كما في بيرغن. وبالطبع، سيكون الرئيس في دور تشارلي ماكارثي. ما من عدل في ذلك، ولكنّه على الأقلّ حقيقيّ.

فكّر نائب الرئيس بإعلان الحرب ضدّ العراق بشكل عام. وكانت فكرة اقتناء صـــدام حـــسين أسلحة دمار شامل وإعطائها لإرهابيّ ما فكرة "غير محتملة ولكن أثرها كبير"، وهي، وعلى الرغم من ندرة براهين دامغة تشير إلى وجود أسلحة أو روابط مع تنظيم القاعدة، قد تصل إلى عتبة الاحتمال بنسبة واحد بالمئة. وهكذا، فـــإن النظـــرية تنصّ على وجود "الردّ" مع هذا الاحتمال كأنّه "أكيد". ولم يكن المُطالبون بإيجاد براهين وأدلّة، أو بتأكيد غيابها، قبل شنّ الحرب، يفهمون الفكرة. وكمـــا أخبر رامسفيلد قادة حلف شمال الأطلسي قبل سنة، لن يتمّ الحصول على "أدلّـــة دامغة" في هذا المجال أبداً. ولم يكن الرئيس صادقاً في الكشف عن النظريّة الإستباقيّة التي طرحها في حزيران/يونيو 2002 في ويست بوينت، والتي تنصّ على ضـــرورة بروز تهديد قبل شنّ الهجوم. ما من أحد من القريبين من مركز السلطة

صـــدّق ذلـــك. فقد وقع "تأليف قضيّة لشنّ حرب" تحت خانة العلاقات العامة، والتـــسويق، لـــيس البحث والتطوير، وهي نظريّة مضلّلة ومثبطة للهمم، لجأ إليها محلّلـــو السي آي إي، وكولن باول أيضاً. وبمعزل عن مشاركة تينيت في مباريات الإنكـــار هـــذه، كان واضحاً أنّه في قلب نـــزاع، من السهل الوقوف على أيّ جانب منه. وقد يقول تشيني إنّ "التبرير والشرعيّة" نظريّتان من تفكير العالم القديم.

واتّـــبعت نظريّة تشيني سبيلاً آخر، أكثر وقاحة في تحدّي الشرعيّات الدوليّة. وفـــيما شـــكّل وقوع اعتداء قابل للتمييز ضدّ أميركا أو مصالحها الوطنيّة عتبة ردّ عسكريّ أميركيّ، بات الآن الدليل على وجود تهديد معياراً مقيّداً.

خلاصة القول إن أميركا كانت مستعدّة للردّ، إن توفّرت أدلّة دامغة أو لم تتوفّر، لإحـــباط أيّ تحدٍّ محتمل. ولذلك، ولكي تبقى أية دولة بمأمن، يجب أن تتفادى جميع التكالـــيف، وحـــتى الانخراط في نشاطات لا تتّسق ومصالح الولايات المتحدة. ونظراً لاعتـــبار ولفويتـــز وفايـــث صدّام مسألة سهلة، فإنه كان مجرّد نموذج عرض لقرار الولايات المتحدة الجديد وقواعد التصرّف الدولي ما بعد العصريّ التي حدّدها. هكذا تغيّـــر الـــسلوك. ويؤكّد علماء السلوك أنّ كيفيّة القيام بذلك تنتج السلوك المرجوّ، بالتكرار وأياً يكن سلوك الفرد. وهكذا، يتجذّر السلوك المرجوّ ويصبح طبيعياً.

هذا هو الطريق لتكسب الوقت في صراع تافه – أكان محاولة إيقاف انتشار أسلحة الدمار الشامل أو السيطرة على الإرهابيّين، وهي مهمّات مستحيلة، توفّرت دول راعـــية أو لم تتوفّر وإبقائهم خارج أراضيك. لا تستطيع محاربتهم كلّهم. إذ يجب أن تغيّر أسلوب تفكير الجميع في كلّ أنحاء العالم.

ويكمـــن الـــسبيل الوحيد لتحقيق ذلك في اتخاذ إجراءات – مستمرّة وقويّة بدون كلل أو ملل. هذا هي الوسيلة إلى "تغيير قواعد اللعبة"، وحيث يتناسب تماماً طبع جورج دبليو بوش مع الاختبار السلوكيّ العالميّ.

يحتاج هذا البروتوكول إلى قائد من نوع خاص لقيادته.

مـــن بين جميع القصص التي تؤكّد ملاءمة جورج دبليو بوش لمهمّة كهذه، قصّة كبيرة بقيت مخفيّة عن العلن. تعود هذه القصة إلى أيام جلوسه على مقاعد الدراسة في جامعـــة هارفـــارد للأعمـــال عام 1975، عندما دخل حقاً في سنّ الرشد. أكّدت

المقابلات التي أُجريت مع العديد من زملائه في الصفّ أن بوش لم يكن يتمتّع بمهارات أكاديمــيّة، ولكنّه شجاع وصاحب شخصيّة جذابة. ميّز نفسه في الألعاب الرياضيّة في الملاعــب المغلقة، واستحقّ أن يصبح قائد فريق كرّة السلّة الرابح في صفّه، الذي لعب ضـــدّ الفرق المنتصرة من الصف الأدنى، أي صف عام 1976. كانت اللعبة محتدمة. وحاول قائد الفريق الآخر، غاري أنغل تسديد رمية - وهو صورة عن بوش، رياضيّ، يــساويه بالطــول، متهوّر، وغير قادر على المحافظة على تركيزه. صدّه بوش، مسدّداً ضـــربة إلى فمه، موقعاً إياه على الأرض. يتذكّر أنغل قوله، "ماذا تفعل بحق الله؟ هل تحاول دفعنا إلى الشجار، لينتهي بنا الأمر في غرفة الطوارئ؟" اكتفى بوش بالابتسام.

بعد لحظات، في الطرف الآخر من الملعب، حاول أنغل مجدداً تسديد ضربة، وشعر بأحد يضربه على رجله. بوش مجدداً. قفز أنغل وسدّد الكرة إلى وجه بوش. تشاجر الاثنان، وسرعان ما وجد أعضاء الفريقين أنفسهما يحاولان إبعاد قادتهما، قــادة شركات مستقبليّين. تساءل أنغل الغاضب والمستاء مما حدث، عن الأسباب التي دفعت ببوش إلى التصرّف كما فعل. لقد جنّ جنونه، وفقد الفريق قائده.

بعد مرور بضع سنوات، التقى أنغل الذي كان يجني ثروات في مجال العقارات في فلــوريدا، بجيب بوش. حصل ذلك عام 1980، عندما كان بوش الشاب يعمل مع أرماندو كودينا، رجل الأعمال من ميامي الذي كان يرأس حملة ترشيح جورج إتش دبليو بوش عن المقعد الجمهوريّ. كان أنغل، وهو مساهم جمهوريّ، يتذكّر أحــياناً اللعــبة ضـــدّ جورج. إذ لم يحصل معه أيّ حدث مشابه قبلها أو بعدها. وكانت هذه فرصته الوحيدة لفهم أسباب ما جرى. يتذكّر أنغل أن جيب ضحك. "في تكـــساس، يطلقون على أمثال جورج لقب "صعب المراس. كما لم يكن من السهل أن تكون أخاه. فهو يستمتع بإخضاع الآخرين".

اختـــرع تشيني النظريّة، ولكن عرف جورج دبليو بوش كيفيّة تنفيذها. فإن ضـــربة صاعقة من دون سبب أفضل من ضربة مبرّرة. فهي تدفع خصومك للشكّ في قدراتهم. وحينها يخطئون.

هـــذا عالم خطر. فالفريق المقابل يتمتّع بميزات طبيعيّة. إذا خشيتها، توّجب عليك ابتكار طريقة لكي يخشاك - لتنتصر عليه في لعبته.

بعــد مــرور يومين على خطاب الأمّة الذي وجهه بوش، وفيما كان الجنود الأميركـيّون يهرعون إلى بغداد، حضر نفسه للتوجّه إلى كروفورد. كان سيلتقي جونيــشيرو كويزومي، رئيس وزراء اليابان. وكانت اليابان إحدى الدول الكبرى القلـيلة الــتي أعلنت دعمها للتحالف، حتى ولو تردّدت قليلاً. وانتهى بها المطاف بإرسال 600 عنصر وتخصيص بضع مئات ملايين الدولارات.

توجّب على بوش أن يفسّر لكويزومي ما كانت الولايات المتحدة – والعالم المتحضّر – تواجهه، والأسباب التي فرضت اتخاذ خطوات كبيرة، ربّما غير منطقيّة، بكامــل إرادتها من أجل تغيير سلوك أعداء الولايات المتحدة، ودفعهم إلى الشك بقدراتهم وسحقهم في اللعبة.

لماذا توجّب ذلك؟ وضّب المبتكر. بالتأكيد، سيكون هذا كفيلاً بإظهار الخطر الذي نواجهه لكويزومي. ألقِ نظرة فقط.

تحدّث العالم عن عدم امتلاك الولايات المتحدة أية مصادر بشريّة مهمّة – أو أصول معلومات بشريّة – داخل تنظيم القاعدة.

ولكن لم يكن ذلك صحيحاً.

في الواقــع، لم يكــن ذلك صحيحاً في مطلع عام 2003. فقد كانت تملك مصدراً في باكستان على علاقة وثيقة بإدارة القاعدة.

سمّته علي.

ولا تأتي مفاجأة أن علي شخصٌ ذو شخصية معقّدة. فيعتقد أن بن لادن ارتكب خطأ عندما شن الاعتداء ضدّ الولايات المتحدة. ولم يكن هذا شعوراً تبادله المسؤولون الكــبار في إدارة التنظــيم. بــل هو مسالة نقاش داخليّ مستمرّ، بحسب ما أكّدته الإشــارات الاستخباراتيّة الواردة حتى هذه المرحلة. فقد ارتكزت حسابات بن لادن علــى أنّ الولايات المتحدة إما لن ترد على هذه الاعتداءات، أو سيكون ردّها غرق جــيش جديــد، الجيش الأميركيّ، في المستنقع الأفغانيّ. بالطبع لم يحصل ذلك. فقد نجحــت الولايات المتحدة – على الرغم من المشاكل في القيادة – في الإطاحة بنظام طالــبان وطــرد القاعدة من مخبئها. وتفرّقت المجموعة. قُتل بعض قادتها والعديد من جنودها، أو اعتُقلوا. وكما مع أيّة منظّمة أخرى، مرّت الأيام وبدأت مرحلة الشكّ.

شكّل ذلك فرصة ملائمة. فكان من السهل الاستفادة من الشعور بالنقمة من أجل تجنيد بعض المخبرين. وعكست عمليّة بناء العلاقات هذه حرفة التجسس على النمط الأوروبيّ - بالرغم من تحذيرات كوفر بلاك. بناء علاقات مشتركة. إظهار تعاطف مع مخاوف المصدر. بناء الثقة. فيما كان جنود القاعدة مستعدّين للشهادة، بدا وكأنّ مسؤوليها الرفيعي المستوى لم يحبّذوا الأمر. فعلى حدّ قول مدير في السي آي إي، "إن العقـول المدبّرة أثمن من أن تستشهد". أياً تكن دوافع علي، كانت التقارير التي أرسلها - خلال الأشهر الستّة المنصرمة - صحيحة تقريباً، بما في ذلك المعلومات التي أفضت إلى اعتقال العديد من الأعضاء.

اليوم، في أواخر شهر أذار/مارس 2003، كانت السي آي إي في ورطة. كان السعوديّون يشتكون من عدم قدرتهم على إبقاء السجناء قيد الاعتقال من دون دليل على ارتكابهم خطأ. كان باستطاعتهم إبقاء الثلاثيّ المرتبط بالبحرينيّين لبضعة أسابيع إضافيّة فقط. وأطلقوا سراح ثلاثة رجال من المجوعتين السعوديّتين. لم يملكوا أدلّة تدينهم.

حان وقت استدعاء علي.

اتـصل به موجّهه عبر سلسلة إشارات مدروسة، وتمّ التحضير لعقد اجتماع. ذكـر عمـلاء السـي آي إي أمامـه أسماء المعتقلين في المملكة العربية السعوديّة والبحرين، وذكروا وجود رسوم مبتكر.

قـال علـي أنه ربما بإمكانه المساعدة. أخبر موجّهوه من السي آي إي أن أصولياً سعودياً زار الظواهري في كانون الثاني/يناير 2003. جاب هذا الرجل شبه الجزيرة العربيّة من أجل القاعدة، ولُقّب أيضاً "بالسيف السريع". قال علي أن اسم الرجل يوسف العياري.

وأخـيراً، حصلت الولايات المتحدة على اسم "للسيف السريع"، الذي كان في الوقت عينه محيراً ومتواجداً في أيّ مكان، غالباً ما يظهر في الإشارات الاستخباراتيّة.

أثار هذا الاكتشاف الابتهاج- فقد جرى حلّ لغز، والكشف عن قضيّة - ثم صـرخات ألم. كان العياري ضمن المجموعة السعوديّة التي أُفرج عنها. كانوا على قاب قوسين من الإمساك به. وأفلته السعوديّون.

ولكـــن، مـــن شأن ما سيطلع علي موجهيه الأميركيّين عليه أن يعيد رسم السياسة الأميركيّة، ويطلق سنوات من النقاشات في البيت الأبيض.

قـــال إن العـــياري أتـــى ليخبر الظواهري عن مؤامرة تُحاك في الولايات المتحدة. كان اعتداء بقنابل سيانيد الهيدروجين ضدّ أنفاق مدينة نيويورك. سافر أعـــضاء الخلـــيّة إلى الـــولايات المتحدة من أفريقيا في الخريف ودرسوا أماكن الاعتداءات.

ستكون الآلة المبتكر. سيتمّ وضع العديد منها في قطارات الأنفاق وغيرها من المواقع الاستراتيجية، وسيتمّ تشغليها عن بعد.

وكانـــت مـــرحلة التخطيط قد ولّت وبدأت مرحلة التنفيذ. كانت المجموعة فعالة بكامل عناصرها.

كانت الاعتداءات ستقع بعد 45 يوماً بدءاً بمنتصف الليل.

ثم أطلـــع علـــي موجّهـــيه علـــى معلومات أغاظت مسؤولي الاستخبارات وأسكتتهم. ألغى الظواهري الاعتداءات. لم يعرف علي الأسباب الواضحة. جلّ ما علمه أن الظواهري أوقف الاعتداءات.

ثم قدّم علي معلومات عن شبكات إسلاميّة إرهابيّة ناشئة. كانت القاعدة أو العياري يقودان المجموعة السعوديّة في الولايات المتحدة. وكانت هذه الخليّة قسماً مـــن خلايا مستقلّة في أوروبا والخليج، تربط في ما بينها عقيدة الأصوليّة والعنف، والمحـــبة لبن لادن. كانت متفرّعة من القاعدة ولكن غير مرتبطة بهيكليّتها الأشمل، ولكـــنها تلبّي رغبات بن لادن أو الظواهري. بعث العياري رسالة الظواهري إلى خليّة الإرهاب في أميركا. فتراجعت عن مخطّطها.

خـــلال الأيـــام المقـــبلة، اجتمعت فرق من متحدّثي السي آي إي والمحلّلين والعمـــلاء في المكتب البيضاوي. جلس الرئيس ونائبه على كرسيّين على الطرف، يدير كلّ منهما ظهره للموقدة.

قال بوش: "يجب أن نحلّ المسألة مهما تطلّب ذلك. يجب أن نسيطر على هذا الوضع".

أولاً، نظام تسليم جهنّمي – محمول، سهل البناء وفتّاك.

والآن، - هـذا - دليل على اعتداء حقيقيّ جرى التحضير له على الأراضي الأميركيّة، منذ الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. مبتكرات في أنفاق نيويورك؟ وفيما ناقش الجميع السؤال وحلّلوه، فكّر كلّ منهم بسيناريوهات مميتة للذعر تحت أرض نيويورك، وأعادوها في تفكيرهم.

كـان نائب الرئيس غاضباً. "السؤال هو لماذا ألغى الظواهري الاعتداء؟ ماذا يقول لنا ذلك عن استراتيجية القاعدة؟

قاطعه بوش. كان مهتماً أكثر بعلي.

"لماذا يتعاون هذا الرجل معنا؟ هذا ما لا أفهمه".

حاول محلّلو السي آي إي الإجابة عن هذا السؤال - وكان كلّ سؤال يعبّر عـن خصائص طارحه، وعلاقتهم ببعضهم بعضاً. يحاول تشيني البحث عن الرابط الإيديولوجـيّ الأوسـع، عن نظام أفكار متماسك يرسم أطر النوايا والعمل. من جهـته، يحـاول بـوش تحويل المسائل الشاملة والمعقّدة أحياناً، شخصية. يربطها بإحساسه وغريزته ويتّخذ قراراً سريعاً. من هم أعدائي؟ ما هي طبيعتهم، وطبعهم؟ ماذا نفعل معهم؟

واستمرّ الاجتماع منعقداً. ولم تجد العديد من الأسئلة أيّ جواب.

ركّـز بوش على اللاعبين. الآن، وبعد أن اكتشفت الولايات المتحدة هويّة "الـسيف السريع"، كيف دخل في هذه المعادلة؟ فسّر محلّلو السي آي إي نواحي مـثلث العلاقـات هذا - وذكروا أن العياري اعتُقل ثم أُطلق سراحه: "لم يعرف السعوديّون من كانوا يحتجزون". ولكن، ساعد اكتشاف هويّة العياري السي آي إي علـى إقامة الروابط بين قائد القاعدة السعوديّ والمجموعة السعوديّة التي لم تزل محتجزة. كانت الخليّة الأميركيّة، التي لم تزل مخفيّة، مرتبطة بالمجموعتين.

ضـغط بوش عليهم، بأسلوبه التكتيكيّ. "من أتى إلى نيويورك؟ هل لم يزالوا هنا؟"

أجاب مخبرو السي آي إي "لا نعرف".

وفـيما عمّـق بوش أسئلته، حاول تشيني إعادة تحديد أطر النقاش. هل ألغى

الظواهـري الاعـتداءات لأن الولايات المتحدة كانت تمارس ضغوطاً كبيرة على تنظيم القاعدة؟ أو "لأنه شعر أها ليست كافية لإحداث تردّد ثانٍ؟"، سأل تشيني. "ألهذا السبب ألغى الاعتداء؟ ألأنه لم يكن كافياً؟"

وفـيما استمرّ شريط الدمار في رأس كلّ واحد منهم، بدأوا يحسبون نتائجه. عـشرة قطـارات نفقية في ساعة الذروة - 200 شخص في كلّ باص- الآلاف مـسحوقون تحـت الأرجل في الأنفاق، خلال ساعة الذروة فيما ينتشر الغاز في المحطـة. عـدد قتلى يساوي الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، بسلاح دمار شامل، ينشر ذعراً مدمراً؟

ليست ضربة ثانية كافية؟

"ما أريد قوله إنّ هذا سيء للغاية. ماذا يقول لنا إلغاء الاعتداء عمّا يخططون له تالياً؟"، أردف بوش. اتسعت عيناه، وشدّ قبضته.

"ما هي العملية الأكبر التي لا يريد الظواهري إفسادها؟"

الفصل السابع

المحادثات مع الدكتاتوريين

ماذا كان يعني فتح رجال معمر القذافي مناقشات في شأن نـــزع السلاح في شـــهر أذار/مارس، في الوقت الذي كانت تحتشد فيه القوات الأميركية في الخليج العربي لاحتياج دولة مارقة؟

هـــل كان ذلك برهاناً على نجاح التجربة السلوكية، وأن دولة خارجة على القانون كانت مستعدّة للرضوخ للقواعد الأميركية الجديدة ونظامها الجديد؟

أم أنّ الأمـــر كان مسألة جدولة، أي أنه بعد أعوام عدّة، جاء ببساطة دور ليبيا، لتخطو خطوتها التالية، وربما الأخيرة للعودة إلى الأسرة الدولية؟

ما كان واضحاً أنّ موسى كوسى، رئيس جهاز الاستخبارات التابع للقذافي، اتـــصل بالحكومة البريطانية. وكذلك فعل نجل القذافي، سيف الإسلام. وحصلت الاتـــصالات الأولى قـــبل أســـابيع قلـــيلة من الإعلان عن اجتياح العراق في 19 أذار/مـــارس. ووصـــلت الرسالة إلى طوني بلير ومضمونها أن القذافي نفسه كان مستعداً للتحدّث مع ممثلين للولايات المتحدة وبريطانيا.

اتّصل بلير ببوش.

أخـــبر بوش تينيت بمضمون الاتصال خلال اجتماع صباحي، فطلب تينيت يـــوماً أو اثنين ليستوعب المعلومات وليضعا معاً خطة عمل. القذافي بنفسه؟ كان ذلك مشجعاً، رغم عدم كونه مفاجئاً.

كان نـــزع السلاح هدف محادثات طويلة وحثيثة تعود إلى فترة المفاوضات الـــسرية بين الولايات المتحدة وليبيا في عام 1992 في شأن حادثة لوكربي، وعرض الأمير بندر على تينيت وماكلولين في عام 1998 في جدة، واتصال بن بونك بموسى

كوسى في شأن مسائل استخبارية بعد أشهر من أحداث 11 أيلول/سبتمبر 2001. إلا أن محادثات بونك وكوسى، ورغم ما حقّقته، كانت تسلك مساراً منفصلاً عن مسار حوار هام آخر: تسوية نهائية مع العائلات المعنية بحادثة لوكربي. فقد كان من الضروري إتمام هذا الأمر أولاً. ووافق الدبلوماسيون الأميركيون والبريطانيون على ذلك، وبدأت المفاوضات في هذا الشأن قبل انطلاق تلك الخاصة بنزع سلاح ليبيا بشكل جدّي. وقال مسؤول رفيع في وزارة الخارجية الأميركية معني بالمحادثات إنه "كان يجب إتمام الخطوة الأولى قبل الشروع بالخطوة التالية. لم نكن نريد خلط المسائل الخاصة بالعائلات وتعويضاتها بمسألة تفكيك منشآت الأسلحة الكيميائية". وتمّ وضع اللمسات الأخيرة على تلك الخطوة الأولى بهدوء في شهر أيار/مايو 2002، ولم يكن الأمر يقتصر على تهدئة روع العائلات أو تخفيف الغضب والغمّ الذي جلب العقوبات على ليبيا لنحو 15 عاماً، بل كان يتعلّق بالمال. كانت كل عائلة ضحية من ضحايا لوكربي لتحصل على 10 ملايين دولار، مما يجعل المبلغ الإجمالي الذي يتعيّن على ليبيا تسديده 2.7 مليار دولار.

ألقى تينيت بمسؤولية الإفشاء عن المعلومات في شأن الخطوة التالية الممكنة على لانغلي، مما ولّد فوضى كبيرة في الوكالة. فقد سبق لتينيت أن وصف في جلسة خريفية سابقة من جلسات لجنة الاستخبارات المشتركة "الحرب ضد الإرهاب بالمهمة ذات الطابع الشخصي المشدّد"، مشدداً على أن العلاقات في هذه المعركة، كانت بالمقدار نفسه من الأهمية تقريباً الذي تكتسبه الأحلاف التقليدية بين الأمم والجيوش في حرب تقليدية. من يعرف من؟ من بنى أساس ثقة؟ ترك بن بونك مركز مكافحة الإرهاب في شهر كانون الثاني/يناير 2002 لترؤس قسم الشرق الأوسط في السي آي إي الأميركية، وتمّت إعادة النظر في دور همزة الوصل الرئيسية مع الليبيين وموسى كوسى - كما يقول البيروقراطيون. وطوال عام 2002، لم تتكلّم السي آي إي كثيراً مع الليبيين.

كان هذا الوضع على وشك أن يتغيّر. فقد عاد تينيت على وجه السرعة إلى المكتب البيضاوي مع رجل ليتولى المهمة. كان اسمه ستيف كابيس - خبير يحظى بالاحترام وصاحب تجربة تربو على 20 عاماً في الخدمة السرية، وهو حكم خط

(مساعد الحكم) في كرة القدم وجندي سابق في مشاة البحرية، يتمتّع ببنية صلبة وصوت رخيم وبموهبة البلاغة والدقة الشفهية. وكان حتى ذلك الحين نائب المدير المساعد للعمليات والرجل الثاني في مديرية العمليات التابعة لوكالة الاستخبارات الأميركية - وقد تمّ تكليفه الحلول مكان جيم بافيت.

ناقش بوش وتشيني وتينيت وكابيس خلال الأيام التي تلت بعض التعقيدات التي شابت مفاوضات نزع السلاح مع الزعيم الليبي. وقد رأى الجميع فرصاً وإنما أيضاً مخاطر كبيرة. فقد كان التعاطي مع القذافي يمثل تحدياً، نظراً إلى تمتعه بسلطة مطلقة في ليبيا وإلى قدرته على التحكّم بأي وضع وبمن هم تحت سلطته، كما يحلو له. وكان يصعب الأخذ بتطميناته، في حال كان هناك من تطمينات.

كان تشيني على وجه الخصوص يميل إلى الشكّ، وكان يفكّر في استراتيجية الولايات المتحدة الواسعة النطاق وغير المعلنة لتغيير سلوك الدول السيدة باللجوء إلى قوة الولايات المتحدة. وقال إن القذافي "تصرّف بشكل سيء لمدة طويلة، ونحن لا نريد مكافأته على سلوكه السيئ" بالتوصل إلى اتفاق معه أو باقتراح الصفح عنه.

في الوقت عينه، اعتبر بوش عرض القذافي إثباتاً على أن العراق ساهم في تغيير قواعد اللعبة. لكن قيل له إن ذلك لا يشكّل علة مسببة واضحة، بمعنى أن العراق كان عاملاً مساهماً متواضعاً، لكن لو لم تصرّ الولايات المتحدة طويلاً على إتمام التسوية المالية قبل الانتقال إلى نزع السلاح، لكان القذافي أقدم على هذه الخطوة قبل عام. لم يبدِ بوش اهتماماً لكل ذلك واعتبره عديم الشأن. فالخصوصيات في مجال سريّ، وتوقيت انفتاح القذافي كان لهما الأثر الأهم، مهما كان الواقع الفعلي. وقال إنّ العامل الأساسي كان "التأكّد من الحصول على بعض المخرجات من هذه العملية". ثم يمكن الإعلان عن نجاح الديمقراطية الأميركيّة، أو "باكس أمريكانا" الجديد، وأخذ ليبيا دليلاً على ذلك. كان ذلك وحده ما يحرّك السلوك. لم يكن الأمر مجرّد مسألة تقديم، بل كان الهدف إدارة المفهوم.

وسط الزهو لتوقّع مطاوعة ليبيا، ركّز بوش على الشخصيات. فقد أعجب فوراً بكابيس الذي بدا رجلاً من غير السهل التأثير أو السيطرة عليه. كانت تلك

خصائص مهمة في تصوّر كل من بوش وتينيت، في حال كان كابيس سيجلس مع القذافي الكثير الكلام والمهووس بالسلطة.

كما كان من الواضح أن كابيس رجل يمكنه الاحتفاظ بالأسرار، فأمّنه بوش على أحدها، وكان من غير المسموح لأي كان، في وزارة الخارجية أو وزارة الدفاع، ولا حتى رامسفيلد أو باول، الاطلاع على هذه المبادرة الرئيسية.

"العملية السياسية" واحدة من العبارات المسطّحة والسائغة التي تخفي بعضاً من المفاهيم الأكثر بلاغة للحكم الذاتي.

يقضي المبدأ الأول بأنّه رغم انحصار القرارات النهائية والمساءلة بالرئيس، فإنه من غير الممكن أن يتولى شخص واحد بشكل ملائم العمل الذي يتطلّب أياماً طويلة. فقد فرض ما عرف بـ "معضلات الحجم" خلال العقود القليلة الماضية أعباءً حادة على عملية تحليل المسائل ومناقشتها تمهيداً لتقديمها بشكل تام وناجز للرئيس ليتّخذ قراراً في شأنها. وغالباً ما يكون حراس هذه العملية بذاتهم رؤساء، فأعباء القيادة التي تفترض اتخاذ الكثير من القرارات في شأن مجموعة واسعة من المسائل الخارجية والداخلية، تجبر الرؤساء على إدراك ما يجري في كواليس مكاتبهم. هل هم يستمعون إلى جميع وجهات النظر المعروفة أو القابلة لذلك؟ هل يحصلون على خلاصة مركّزة للخيارات والنتائج؟ يشكّل الخوف من ارتكاب الأخطاء – التي يمكن تجنّبها – القوة التي تدفعهم بشدّة لتحقيق هذه النتيجة.

كان التعبير عن هذا القلق أكثر وضوحاً في الساحة الدولية. ففي حين تُعتبر الهموم المحلية، على أهميتها، سلسة وقابلة للتحكّم ومسيّسة في غالبية الأحيان، فإنّ سلوك أميركا في الخارج – وهو مجال خاصّ يندرج بقوة ضمن إطار التعريفات الحالية للسلطة التنفيذية – يكتسب وزناً إضافياً. وهنا قد يعني ارتكاب الأخطاء مسألة حياة أو موت إلى حد بعيد.

لذلك كان العديد من مسؤولي وزارة الخارجية في بداية عهد الإدارة مأخوذين بالطريقة التي تبدو فيها العملية السياسية التقليدية – للدوائر السياسية في الوزارات المختلفة التي تصدر التقارير وتراجعها كمسائل يتم النظر فيها على صعيد

يبدأ بلجان مساعدي الوزراء مروراً بنوابهم وصولاً إلى كبار مسؤولي مجلس الأمن القومي - خطيرة أكثر منها منتجة.

كـــان وزير الخارجية باول وصديقه الحميم وشريكه ونائبه ريتشارد إرميتاج يتذمران غالباً لدى بوش وتشيني ورايس من انهيار عملية السلام، وأن عدم معالجتها قــد يــؤدي إلى الهلاك، ومن احتمال أن يكون الرئيس قد أهمل المشورة التي كان يحتاج إليها ويستحقّها.

أنجـــز القليل وكانت الملامة في نظر باول تقع في غالب الأحيان على رايس، لعـــدم تأديتها المهام الملقاة على عاتقها - وهي شخص يعرفه باول عن قرب - أو تشيني، لقيادته حواراً في شأن السياسة الخارجية محصوراً ضمن نطاق إشرافه.

لكن بحلول ربيع عام 2003، كان قد أصبح واضحاً أن الطريقة التي تدار أو لا تــدار بهـــا السياسة داخل البيت الأبيض كانت امتداداً لأسلوب القيادة الخاص بجـــورج دبلـــيو بوش. وغالباً ما يقال إنّ الرئيس يحصل على البيت الأبيض الذي يريده ويستحقّه.

بالنسبة إلى جورج دبليو بوش، كان هناك تطور في شأن مسائل مماثلة - بدءاً بالـــرئيس في بدايـــة عهده قبل أحداث 11 أيلول/سبتمبر، حيث كان قليل الإلمام بالسياسة الخارجية وكانت القرارات الرئيسية التي اتخذها في هذا الإطار قليلة، إلى الرئيس بعد أحداث 11 أيلول/سبتمبر، حيث تمكّن من مواجهة التحديات الخارجية لأميركـــا بعزم مبنيّ على حزم خارق وراسخ وذاتي. في الواقع، لم يطرأ تغيير كبير علـــى العملـــية السياسية، إذ كان من النادر رفع المسائل التي كانت تتمّ مناقشتها بـــصورة صاخبة في غالبية الأحيان، على مستوى نواب الوزراء وكبار المسؤولين، بـــصورتها الكاملة إلى الرئيس. وفي حال تمّ ذلك، فقد كان يحصل غالباً بعد اتخاذ بـــوش قـــراراته بـــناء على ما كان يوصف بـــ "غريزته" أو "حدسه". في مرحلة لاحقة، بعدما غادر كل من إرميتاج وباول منصبيهما، قال إرميتاج بصريح العبارة وبصورة وجيزة: "لم يكن هناك قط أية عملية سياسية لكسرها على يد كوندي أو غيرهـــا. لم يكن هناك أية عملية من البداية. لم يكن بوش يريد واحدة لأي سبب كان. لم تبدأ أي عملية سياسية".

أحد الأسباب العديدة والأكثر تعبيراً التي قادت الرئيس في هذا الاتجاه هو ما قد ينبع من إيمان جورج بوش في حزمه الذاتي، وخصوصاً بعد أحداث 11 أيلول/سبتمبر، وحاجته إلى حماية القدرة على اختيار حزم كهذا في وجه التعقيد المهيب. كانت الأهمية التي تكتسبها وجهة نظره الخاصة بالصواب والخطأ، وأفعاله الصائبة - مثل مهاجمة الشر أو نشر الديمقراطية "الهدية من الله" - تتراجع بفعل التحليل التقليدي والرمادي الذي شكّل العمود الفقري لسياسة غالبية الرؤساء.

كان يوم هذا الرئيس يبدأ بقراءة الكتاب المقدس عند الفجر، تتبعها الرياضة فتناول الفطور، فالاجتماعات المقتضبة الخاصة بالتهديدات الأجنبية والمحلية، مع تينيت ومويلر على التوالي. أما التحليل الصعب والمعقّد وفق هذا النموذج، فإما أن يكون غالباً عرضاً خفيفاً يمرّ عبر مصافي تشيني أو رايس، أو لا يقدّم أبداً.

كان ذلك انحرافاً جديداً عن أفكار تشيني التي صمدت طويلاً والمنادية بـ "حماية" الرؤساء من بعض المعلومات - ووضع عبء غير معهود على نائب الرئيس، الرقم اثنين المثالي الأكمل، ليتصرّف كرئيس في إجراء تحليلات رئيسية في السياسة الخارجية.

لكن في الوقت عينه، كان هذا يضمن بعض المنافع الفريدة من نوعها لبوش. فمع اطلاع عدد أقل من الأشخاص على القرارات الفعلية، يمكن المحافظة على سرية أكثر تشدداً والحد من التسريبات. ويمكن للقرارات السريعة - التي إما أن تسبقها مناقشة مفصّلة أو يتمّ تجاهلها - الانتقال مباشرة إلى التنفيذ، وتسريع وتيرة التنفيذ والتركيز على أسئلة الـ "كيف" بدلاً من التركيز على أسئلة الـ "لماذا" الأكثر تعقيداً.

ما كان بوش يعرفه قبل أو عند اتخاذ قرار رئيسي، كان يبقى سراً إلى حد بعيد. كان فريق صغير - يضمّ تشيني ورايس وكارد وروف وتينيت ورامسفيلد - قادراً على كسر حاجز الكتمان هذا. وبالنسبة إلى الحلقة التالية من أولئك الذين يعرفون كلمات الرئيس أو أفكاره من مصدرها الأصلي - أي مويلر وولفوفيتز وماكلولين وفايث - كان الإنذار مبكراً وواضحاً: إن أحداً يجب ألا يسمع أي شيء يقال في حضور الرئيس مجدداً. وكل مخالفة كانت عقوبتها النفي الدائم.

أحدث هذا الترتيب المتصلّب ثغرات في العديد من المجالات. فمسؤولو الإدارة مثل بول أونيل في وزارة الخزينة أو كولن باول أو مفوضة وكالة حماية البيئة كريستين تود ويتمان، قد يتذمّرون من أنّهم "لم يكونوا على علم بما يفكّر فيه الرئيس"، مما يصعّب عليهم تأدية مهامهم. كانوا ليقولوا إنّهم يريدون معرفة السبب الحقيقي - إن كان هناك من سبب حقيقي - إن كان عليهم الدفاع فعلياً عن السياسات. غير أنّ الإعلان عن الرغبة في عملية سياسية أكثر تقليدية وشفافية - التي يشرف عليها الرئيس بفاعلية - يسرّع من اتهامات عدم الولاء. وبالنسبة إلى المسؤولين الأدنى مستوى من مسؤولي الإدارة، أي كبار الخبراء في المجالات المختلفة، فقد بدأوا بمغادرة الإدارة اعتباراً من عام 2003، بعدما أدركوا أنّ المسؤول التنفيذي لم يكن يقدّر خدماتهم بالشكل الملائم.

في الواقع، يمكن التأكّد من السلطة والصلاحية التنفيذية عبر جمع المعلومات برصانة وإلقاء نظرة على الطريقة التي عالجت بها الإدارات السابقة مجموعة نموذجية من التحديات التي واجهت الولايات المتحدة. ورغم أن "الحكومة الدائمة" كانت دائماً عرضة لشتائم السياسيين من كل الاتجاهات، لم تجنح سفينة الولايات المتحدة سوى بدرجات قليلة في أي من الاتجاهات، بفضل النقاشات السياسية الرئيسية الطويلة والملائمة والسنوية، وهو أمر يكتسب أهمية خاصة عندما يمكن أن يؤدّي تحوّل مفاجئ للقوة العظمى الوحيدة في العالم إلى تعكير صفو الكون.

لكن هنا أيضاً يمكن التمييز بين الإدارة الحالية وسابقاتها - أي في اعتناق مبدأ "الاستقرار البنّاء". هذه هي العبارة التي استخدمها العديد من كبار المسؤولين في ما يتعلّق بالعراق - وهي عبارة تعود جذورها إلى أفكار للمحافظين الجديد سبقت أحداث 11 أيلول/سبتمبر، تناولت الحاجة إلى موقع أميركي جديد وصلب وغير مقيّد. كما أنّ النتائج المترتبة على الهجمات سهّلت جعل كل ما سبق أحداث أيلول/سبتمبر تاريخاً غابراً. فالماضي - مع المداولات ذات الأسلوب القديم المرتكزة على السبب أو الأثر أو على سوابق متوافق عليها - لم يكن يهم كثيراً، ولا أولئك المطلعين على الدراسات السياسية السائدة أو الاتفاقات بين الأمم أو الترتيبات القائمة منذ زمن بعيد والتي تحدّد المشهد الكوني.

مـــا يهـــم، لعدم وجود شيء آخر، هو "غريزة" الرئيس لقيادة أميركا على أرضية طرية العود بعد أحداث 11 أيلول/سبتمبر - وهو أسلوب قيادة يمكن وصفه ضمن حلقات صغيرة وسريّة.

كان يقود أميركا غير المقيّدة رئيس غير مقيّد.

بعـــيداً عـــن الأفخاخ التقليدية للمساءلة ومن دون وجود إثبات على إصغاء الـــرئيس مباشـــرة للمـــداولات في الغرف المكتظّة، كان في إمكانه عندها ابتكار "قصص" المبادرات المختلفة ما إن تنجز.

كان من شأن فرص ابتكارية كهذه السماح بالتمييز بين تجربتي نـــزع سلاح رئيـــسيتين، كانتا تقفان جنباً إلى جنب. الأولى تصدح في اتجاه بغداد، وقد تطلّبت عاماً من المداولات الشاقّة والمضنية والمغلقة - وهو نقاش كبحت جماحه في النهاية تأكيدات مشكوك فيها مدعومة بالقوة والإخلاص والمراقبة. وقد تورّط فيها 150 ألـــف رجـــل وامرأة من القوات المسلّحة الأميركية، والأمة الأميركية المفعمة بأمل حذر وسكان العراق، وزرعت الذعر في غالبية أقطار العالم.

أما التجربة الثانية فقد جمعت ما يكفي من الناس لملء المكتب البيضاوي وترك مقاعد قليلة شاغرة.

ورغم أنّ المفاوضات مع ليبيا استغرقت أكثر من عقد من الزمن، فقد كانت النهاية خاضعة لرغبة بوش - وبوش وحده - أياً كانت هذه الرغبة.

وقـــال بوش مع استعداد كابس للانطلاق في رحلته إلى طرابلس: "نضع هذا تماماً خارج نطاق حسابنا. ولا أحد يعرف".

بعـــد عـــام ونـــصف من البحث المضني - لمحللين وعملاء سريين ومفكرّين وفاعلين عملوا على مدار الساعة في أميركا وخارجها - تمكّنت الولايات المتحدة من احتجاز أحد أهم زعماء تنظيم "القاعدة" وأبرزهم، وبات جاهزاً للاستجواب.

كـــان خالد شيخ محمد الغنيمة والهدف والنموذج التيوقراطي، حتى في غيابه، لتبرير "التدابير الاستثنائية".

قد تكون عبارة تدابير يائسة الأكثر دقّة، وهي ربما تدابير أكثر يأساً نظراً إلى فشل استجواب الشخصيتين الرئيسيتين اللتين تمّ اعتقالهما.

ومع استلام السي آي إي التقارير عما يجري مع خالد شيخ محمد وكيف يتم الحصول على نذر قليل من المعلومات، احتدمت النقاشات في الطبقة السابعة من مبنى لانغلي.

في أحد اجتماعات الساعة الخامسة من بعد الظهر يوم من أيام شهر نيسان/أبريل، تطرّق بازي كرونغارد إلى مسألة "ما تعلّمناه حتى الآن، ما الأمر المختلف الذي يمكن أن نقدم عليه؟" ما الذي تعلّموه؟ وذكر كرونغارد لاحقاً أنه "كان هناك إعجاب مهني حاسد برباطة جأش هؤلاء الأشخاص. فقد كانوا جنوداً حقيقيين، وقد عانوا أقصى ما يمكن من المعاناة و لم يستسلموا إلا قليلاً، قليلاً جداً".

كان هذا ينطبق بصورة خاصة على المعتقل الأكثر تقديراً والذي كان يهاب خالد شيخ محمد: رمزي بن الشبح. ففي الشهر السادس لاعتقاله، تلقى تهديدات بالقتل، وطبق عليه أسلوب "إغراق المعتقلين"، ورميت عليه المياه الساخنة والباردة، وعانى من قلّة النوم والضجيج، وتلقى المزيد من التهديدات بالقتل. لم ينجح أي شيء من هذا. اقترح العديد من مدراء السي آي إي تهديده بتحريف المعلومات: في حال عدم تعاون رمزي، سوف يشيعون كلاماً على أن بن الشبح قد تحوّل تماماً، وبات يعمل بحماس مع الولايات المتحدة، وقد حصل على المال وهو ينعم بالرخاء، وينشط في الوشاية على معاونيه. وكانت الاستخبارات لتعدّ وثائق عن مساعدته – ناسبة إليه معلومات حصلت عليها بوسائل أخرى – مما قد يؤدّي إلى ردّة فعل عنيفة من "القاعدة" ومؤيديها حيال عائلة بن الشبح وأصدقائه. وفي نهاية المطاف، نقضت الاستخبارات هذه الاستراتيجية فقرّرت بشكل أساسي تهديد عائلة المعتقل لإجباره على التكلّم.

بينما نجح بن الشبح في إقناع مستجوبيه بأنه يعرف أقل مما كانوا يعتقدون، لم تحصل ممانعات مماثلة مع خالد شيخ محمد. فقد كان يعرف كل شيء، بما في ذلك أماكن تواجد بن لادن والظواهري، ووضعية العديد من العمليات الفعلية.

خلال الأسابيع الأولى من ضغط الاستجوابات الكثيفة، كانت الطريقة الأكثر فعالية المنع عن النوم. فبعد أيام قليلة من عدم النوم، كان الشخص ليقول أي شيء لإنقاذ نفسه. كان خالد شيخ محمد شبه هاذٍ، فوصف العديد من المؤامرات التي

كان يجري الكلام عليها، بما في ذلك احتمال خطف طائرات أخرى في هجوم على لـــوس أنجلـــس في عام 2002. وذكر مؤامرات أخرى لم تتجاوز مرحلة التحضير الكلامـــي. وقال في إحدى المرات: "هناك رجل يدعى الهندي في لندن". كان هذا ما قاله، فهبّت جميع الأجهزة الاستخبارية وجميع حلفاء الولايات المتحدة في الحرب الاســـتخبارية، بـــدءاً ببريطانيا، للبحث عن أحد "يدعى الهندي". لم تتضمن تلك الجملة الشيء الكثير و لم تقد إلى أي مكان.

لكن مع انقضاء أيام الصمت الصالد، ومع إرسال المحققين التقارير اليومية إلى لانغلـــي، بدأ الضغط يزداد. فطوال أيام، كان بوش يسأل تينيت في الاجتماعات المقتضبة الصباحية "ما الذي نحصل عليه من خالد شيخ محمد؟". كان تينيت يجيب بأن لا شيء يذكر. وفي اليوم التالي، كان السؤال عينه يطرح.

هكـــذا ويوماً بعد يوم توسّعت الحدود، وبدأ الرئيس أو نائبه يكرّران التعبير عـــن رغبتهما أو حاجتهما إلى مسؤول كبير. وكان واضحاً أنّ أياً من المسؤولين المنتخبين لم يكن يريد معرفة الكثير عن أسئلة الـــ "كيف". كان يريدون فقط أن تـــتم وتنجـــز، كانوا يريدون القيام بشيء ما – كما كان الرئيس يردد غالباً على مسامع مساعديه – "ما كنتم تعتقدون أنكم مؤهلون".

مـــع تحفيـــز كهذا، كانت الولايات المتحدة لتنـــزلق إلى الهوة الأخلاقية الأكثر سواداً.

كـــان طفـــلا خالد شيخ محمد، صبي في السابعة من العمر وفتاة في التاسعة، معـــتقلين أيضاً في الولايات المتحدة، بعدما استهدف منـــزلهم الآمن في كراتشي بغـــارة في أيلـــول/سبتمبر الماضي. وقد بعث لانغلي برسالة إلى المحققين في مركز اعتقال سريّ في تايلاند حيث كان يعتقل خالد شيخ محمد، مفادها القيام بكلّ ما هو ضروري.

ويشير العديد من مسؤولي الاستخبارات السابقين إلى أن المحققين قالوا لخالد شـــيخ محمد إن أولاده قد يتعرّضون للأذى في حال عدم تعاونه. وكانت إجابته، بحسب أحد مدراء الاستخبارات المطلعين على الحادثة: "قال بشكل أساسي، حسناً إذاً، سوف يوافون الله إلى مكان أفضل".

كانت النماذج التقليدية للاستنطاق التي يعتمدها مكتب التحقيقات الفدرالية والسي آي إي، تفترض بناء علاقة، مهما كانت العملية طويلة وشاقّة، لأن الغلبة في النهاية للحاجة إلى بعض التواصل الإنساني والراحة الأساسية وليس لمجرد الخوف الإنساني الذي لا إدراك لغوره. وبذلك تبدأ حياة المعتقل السابقة بالاندثار وتحلّ مكانها ببطء حياة أخرى يبنيها آسروه بإبداع. وقد تمّ التخلي عن هذه الطريقة التي لا يزال يوصي بها مكتب التحقيقات الفدرالية في حالة خالد شيخ محمد. هذا هو الرهان. فبعد الإقدام على شيء فظيع كتهديد أطفال أحدهم وعدم نجاحه، لا يعد هناك أية وسيلة أخرى.

كان أفي ديشتير، رئيس جهاز الاستخبارات الإسرائيلية "شين بيت"، عميلاً مختلفاً، ولاعباً بارزاً ومهماً في "حرب أميركا ضد الإرهاب". فبعد ظهر يوم 11 أيلول/سبتمبر، تحدّث ديشتير مع صديقه الحميم تينيت على الهاتف وقال له: "نحن مستعدون لفعل أي شيء لمساعدة أميركا يا جورج. فنحن نعتبر وكأننا نحن من ضربنا".

خلال رحلات ديشتير المتعدّدة إلى أميركا منذ ذلك الحين، كان يتردّد غالباً على مكتب التحقيقات الفدرالية، ليطلع على التقنيات الجديدة التي يجري اختبارها. وفي إحدى هذه الرحلات، كان يتحدّث مع لورميل، فقال له دينيس إن هناك "فرصاً غير مستغلة وفعلية" متاحة للحكومة بواسطة شركة "ويسترن يونيون". وشرح له كيف يمكن نجاح الأمر.

وبالعودة إلى أوائل شهر نيسان/أبريل، بعد أسبوعين على لقاء تينيت مسؤولي "ويسترن يونيون"، هاتف ديشتير مكتب التحقيقات الفدرالية من تل أبيب وسأل لورميل: "إذاً، هل تعتقد أنّه يمكننا تجربة ما قلت أنه يمكنك فعله بواسطة ويسترن يونيون؟".

قال ديشتير أن الشين بيت يملك معلومات عن احتمال إجراء تحويل سلكي من لبنان إلى إسرائيل. وكانت لديهم فكرة كبيرة عمن يمكن أن يكون المرسل. وكان المرسل إليه بطبيعة الحال الغنيمة.

كانت غنيمة يصعب إدراكها. فالتألّق التكتيكي للتفجير الانتحاري يكمن في

عـــدم وجـــود حواجز تمنع الدخول، أو مؤهلات يمكن التعرف إليها بسهولة، أو شروط مسبقة أكثر من مجرد الرغبة. في عصر التكنولوجيا الرخيصة والصور العالمية الـــسائدة والسريعة الانتشار، ولّد شعور المشاركة الذي ينتاب أي شخص يجلس أمـــام شاشة التلفزيون نافذة مظلمة من التفاعل. لم يعد الأمر يقتصر على مشاهدة الأخـــبار بـــل التحوّل إلى مادة إخباريّة، أي تأدية دور في دراما التاريخ والإصغاء للخلـــود. فللـــتفجيرات الانتحارية - سواء على يد فوضوي في بودابست خلال القـــرن التاسع عشر أو شاب يحمل حقيبة على ظهره في تل أبيب - جذور قديمة ولكـــنها سجّلت أخيراً نمواً ملفتاً. ففي عام 2003، لاحظت مؤسسة راند أنه من أصل نحو 500 تفجير انتحاري حصلت خلال الأعوام الثلاثة الأخيرة، وقعت ثلاثة أرباعها منذ عام 2000. وساهمت الانتفاضة الفلسطينية التي اندلعت في عام 2000، علـــى أيدي مجموعات مثل كتائب شهداء الأقصى وحماس والجهاد الإسلامي، في بلوغ هذا العدد، وشكّلت أيضاً حقلاً ابتكارياً لهذه التقنية.

في حين كان في ما مضى شبان يتمتّعون بخصائص يمكن التعرف إليها بشكل عـــام مصدر خشية، دخلت النساء والرجال المسنّون وحتى الأولاد ساحة المعركة خـــلال الأعـــوام القليلة الماضية. وتنكّر بعض الإرهابيين بزيّ الشبان الإسرائيليين العصريين، بينما تنكّر آخرون بثياب اليهود المتطرفين. وفي بداية عام 2002، بدأت وتـــيرة النـــشاط بالارتفاع، واتسعت دائرة الأهداف متخطية إطار التقليد المروّع لـــتفجير حـــافلات الركاب في وسط المدينة، فاستهدفت أماكن غير مألوفة مثل الأســـواق والمكتبات الصغيرة؛ وباتت القنابل متناهية الصغر وقوية المفعول -داخل الثـــياب أو على شكل أحزمة مخفية يسهل لبسها - يمكن للانتحاري السير بها في الشوارع بحثاً عن مكان مكتظ. وبحلول شهر أذار/مارس 2002، تأزّم الوضع. ففي ذلك الشهر، قتل 119 إسرائيلياً، أي ما يعادل 5000 أميركي، فباشر جيش الدفاع الإسرائيلي عملية أطلق عليها تسمية "الدرع الواقي".

كانـــت عملية عسكرية شرسة تضمّنت فرض حظر تجوّل وقيود على الحركة في الأراضـــي الفلسطينية، فضلاً عن بذل جهود استخبارية كبيرة هدفت كلّها إلى الحـــؤول دون وقـــوع تفجـــيرات انتحارية. أظهرت الاستراتيجية نتائج راسخة،

سمحت بتراجع التفجيرات لفترة 9 أشهر، حتى شهر كانون الثاني/يناير 2003، عندما تبنّت حركة الجهاد الإسلامي وكتائب شهداء الأقصى تفجيراً انتحارياً مزدوجاً في تل أبيب، أدى إلى مقتل 23 شخصاً وجرح أكثر من مئة آخرين. كان على الشين بيت العمل، وكانت تدرك أنها في حاجة إلى تعزيز قدراتها الاستخبارية إذا أرادت منع التفجيرات. كانت الاستخبارات العامل الرئيسي، كما كانت عليه الحال في المعركة التي قادتها أميركا.

عندما تحدّث ديشتير مع لورميل عبر الهاتف، قال له دينيس أن التوقيت مثالي. فأجاب ديشتير أنّ احتمال التحديد السريّ لـ "متلقّي" أموال العملية في الوقت المناسب - من دون أن يشكّ المستلم في ذلك - يمكن أن يشكّل قفزة نوعية باهرة. ويمكن تعقّب المتلقي إلى منزل آمن، حيث يميل السائسون و"القواد" إلى التجمّع. وكما أعطت المراقبة الإلكترونية الأولية لمنزل زبيدة الآمن في فيصل أباد دلائل عن الاتصالات في المنطقة، كان يمكن للإسرائيليين تحديد المخبأ في الأراضي الفلسطينية.

أعطى ديشتير للولايات المتحدة معلومة استخبارية لبدء العملية: اسم أحد داعمي حركة الجهاد الإسلامي الذي كان من المتوقع أن يحوّل المال من لبنان إلى مكان ما في إسرائيل. في مطلع شهر نيسان/أبريل، تلّقت مكاتب ويسترن يونيون في لبنان الأمر المتوقّع. كان قسم الإرهاب في وزارة العدل يعمل على مدار الساعات الأربع وعشرين. وفي ترتيب مع المحكمة الفدرالية في المقاطعة الشرقية في ولاية فرجينيا القائمة في ألكسندريا، جرى إصدار استدعاء خطي فوري إلى المحكمة. وسمح هذا الاستدعاء لويسترن يونيون - شركة مركزها الولايات المتحدة - بإخطار مكتب التحقيقات الفدرالية والسي آي إي عن المكان الذي تحوّل إليه الأموال والجهة التي تحصّلها. ظهر كل شيء خلال دقائق. جرى استدعاء مسؤولي الاستخبارات الإسرائيلية. أسرعوا بهدوء إلى مكتب ويسترن يونيون في هيبورن، وتعقّبوا ساعي حركة الجهاد الإسلامي إلى منزله الآمن في الضفة الغربية. ومن هناك، تعقّبت أجهزة المراقبة الاستخبارية الإلكترونية بشكل حثيث الاتصالات إلى خلايا أخرى في الأراضي الفلسطينية.

استُهدف تحويلان سلكيان إضافيان في بداية شهر أيار/مايو. وفي كل مرة، كانت الحكومة الأميركية تحوّل المعلومات المكتشفة إلى القوات الإسرائيلية، لتبديل ميزان القوى في حرب ذات مستوى متدن.

في حين كانت هذه المعدات تعمل بعيداً عن الأنظار، كان من الواضح علناً تصاعد ما سمّته إسرائيل "اغتيالات مستهدفة" للقادة الإرهابيين في قطاع غزة والضفة الغربية. بدت إسرائيل وكأنّها تعرف بدقّة الأماكن التي يختبئ فيها قادة الانتفاضة.

في 8 نيسان/أبريل، أدى هجوم "مستهدف" إلى مقتل القائد العسكري في حماس سعيد عربيد، مع ستة آخرين في قطاع غزة. في الأول من أيار/مايو، اقتحمت القوات الإسرائيلية معقلاً لحماس في غزة في محاولة لاعتقال أحد كبار صانعي القنابل لحماس، ويدعى يوسف أبو هين. قتل أربعون فلسطينياً بينهم أبو هين فضلاً عن العديد من القادة الإرهابيين الآخرين.

استمرّت العملية خلال الربيع مع مقتل المزيد من القادة. وكانت ردود فعل الفلسطينيين، بما في ذلك أعمال الشغب والمظاهرات، تزداد ضراوة أسبوعاً بعد آخر. وكانت وتيرة العنف تشهد ارتفاعاً.

قبل عامين، في أول اجتماع لمجلس الأمن القومي في عهد بوش، قال هذا الأخير إن تركيزه سيتمحور على العراق، وإنه على الولايات المتحدة الانسحاب من الصراع الإسرائيلي الفلسطيني المنغمس من دون طائل في وحول التوافه والارتياب. وقال باول في حينه إن انسحاب الولايات المتحدة قد يطلق العنان لشارون ويزيد الفلسطينيين قساوة. وكانت إجابة بوش: "أحياناً يمكن لعرض قوة من أحد الأطراف توضيح الأمور فعلياً".

كان ذلك الربيع الذي تم اللجوء فيه إلى تجارب استخدام القوة لـ "توضيح الأمور" في المنطقة الأكثر اضطراباً في العالم، الممتدّة من نهر النيل إلى نهر الغانج.

في 9 نيسان/أبريل، بعد هجوم مضيء، قهرت القوات الأميركية الجيش العراقي، وتحطّم تمثال صدام حسين أرضاً في بغداد. وكما كانت عليه الحال قبل

عـــام مـــع القوات الأفغانية، عادت المعارضة المسلحة المناهضة للوجود الأميركي ورسّـــخت أقـــدامها للانتفاض في وجهه - في تكتيك أكثر إدراكاً من الاصطدام المباشر مع قوة عظمى.

في إســـرائيل، تكرّرت أفخاخ التحويل السلكي، ووجد الإسرائيليون أنفسهم أكثر فأكثر ضمن غرفة تحكّم الإرهابيين.

تغيّرت قواعد اللعبة.

في حـــين كانت غالبية أنظار العالم مسلطة على العراق وعلى الصور الحيّة - المرضية بطبيعة الحال للغرب - للدبابات الأميركية المنتشرة في شوارع بغداد، كان محلّلـــو الـــسي آي إي ومدراؤها يرسلون رسائل طارئة إلى السعوديين مفادها أن شيء ما سيحصل.

تعتـــبر المملكة العربية السعودية التي تتمتّع بنظام خطوط ثابتة متطور، أرض الهواتف المحمولة، ولكن ليست تلك الهواتف التي تنـــزع منها البطاقات وتستبدل بـــشكل حصيف، وهي التقنية المستعملة في العمليات الجهادية الأكثر مهارة. يحب الـــسعوديون "هـــواتفهم الجـــوالة". وكـــان هذا الحب يعني أنّ نظام الإشارات الاستخبارية كان قوياً وأصماً.

بـــدأت الولايات المتحدة تكتشف دلائل على وجود آلاف المقاتلين المؤيدين لتنظـــيم "القاعدة"، الذين ربما ينـــزعون إلى العنف، يعملون داخل المملكة. ومنذ إبلاغ الأمير بندر بالتهديد في صيف العام المنصرم، توسّع نطاق التعاون بين السي آي إي والاســـتخبارات الـــسعودية. كانت لا تزال هناك نواة ارتياب - لم تكن الولايات المتحدة لتظهر للسعوديين كوابل الإشارات - وغالباً ما كانت المعلومات الاســـتخبارية الفعالة المتداولة تتلاشى عند وصولها إلى صالونات العائلة المالكة التي تتداخل مصالحها غالباً بشكل بالغ التعقيد.

اتصل تينيت بالأمير محمد بن نايف الذي يدير وزارة الداخلية لصالح والده - الأمير المتغطرس والمتديّن نايف بن عبد العزيز، وزير الداخلية والمسؤول عن المسائل الاســـتخبارية. واتـــصل المعنـــيون بملف الشرق الأوسط في مجلس الأمن القومي بمـــسؤولين سعوديين متوسطي الشأن. طلبت وزارة الخارجية والبيت الأبيض إلى

الـــسفير الأميركـــي بـــوب جوردن الاتصال مباشرة بالمعنيين في الرياض. لم تكن الـــولايات المتحدة على علم بالوقت أو المكان – لكن جيش "القاعدة" السعودي كان يتجمّع.

كانت هناك رسالة مرافقة أخرى، هي رسالة تشكّل مصلحة كبيرة للولايات المتحدة: العثور على العياري.

مـــنذ أن حدّد الأميركيون "السيف السريع" المحيِّر في بداية شهر أذار/مارس، بعـــد فترة قصيرة على إطلاق السلطات السعودية سراح يوسف العياري، توسّعت دائرة عمليات "القاعدة" بسرعة.

يـــساهم اســـم في هـــذا الأمر، إذ يسمح بكشف الهوية. أولاً، اكتشف أنّ العـــياري كـــان الرأس المدير للموقع الإلكتروني "النداء"، الذي طالما استوحى منه المحقّقون الأميركيون بعضاً من التحليلات الأكثر تخصصية والتوجيهات المرمّزة عن حوافـــز "القاعـــدة" وخططها. وكان أيضاً الكاتب المجهول لعملين استثنائيين – كـــتاباي صـــغيرين جداً بات في الإمكان الاطلاع عليهما مؤخراً على الانترنت، يتـــناولان الاســـتراتيجيات الأساسية للقاعدة. يقول كتاب مستقبل العراق وشبه الجزيرة العربية بعد سقوط بغداد، الذي كتب إبان إعداد الولايات المتحدة لهجومها على العراق، إن الاجتياح الأميركي للعراق قد يكون النتيجة الأفضل للقاعدة، التي تلهب التطرّف في الخليج الفارسي وجنوب آسيا، وتحدث تماماً الورطة الراديكالية التي كان قد أمل بن لادن في حصولها في أفغانستان. ويشير الكتاب الثاني وعنوانه حـــرب الصليبـــيين إلى نموذج تكتيكي لمحاربة القوات الأميركية في العراق، بما في ذلك "الاغتيال وتسميم طعام العدو ومشروبه"، والتفجيرات المتحكّم بها عن بعد، والتفجيرات الانتحارية، وتنفيذ الكمائن الهجومية. كان كتاب العمليات.

بعـــدما بـــات واضـــحاً أن الكاتب لم يكن متحمساً للتملّق للقاعدة وإنما للمـــسؤول عن التنظيم في شبه الجزيرة العربية، اتخذ مضمون الكتاب أهمية توقعية. فقد كان العياري يدير نوعاً من الحديث عبر الانترنت مع بن لادن والظواهري.

وكانـــت أحاديـــث أكثـــر تخصـــصاً أيضاً. كان ما تضمّنه جمع المعلومات الاســـتخبارية بواســـطة الإشارات في نيسان/أبريل عن هجمات محتملة في المملكة

دليلاً على حوار حثيث بين العياري ومسؤول أقل أهمية في الخليج، علي عبد الرحمن الفقاسي الغمدي، تساءلا فيه إن كان عدد رجال القاعدة السعوديين وأسلحتهم وتنظيمهم كافياً لمواجهة النظام السعودي فعلياً والإطاحة به. أجاب العياري بالنفي معتبراً أنه من المبكر جداً الحديث عن أمر كهذا، لأن التنظيم لم ينضج بعد، بينما أوصى الغمدي بشدّة بالمضي قدماً. وقف الظواهري الذي كان يدير أطراف الحديث في صفّ الغمدي.

قال الظواهري الذي كان يتحدّث من خلال وسطاء جرى التقاط اتصالاتهم بواسطة الإشارات، إنّ الوقت قد حان لمهاجمة النظام السعودي. واستشهد بالقرار الأخير لإدارة بوش والقاضي بسحب القوات الأميركية من المملكة – وهو أمر كان يأمل السعوديون أن يهدّئ الفتنة المحلية التي يثيرها الوجود الأميركي. كان هدف "القاعدة" دائماً وضع حد للدعم الأميركي لأنظمة المنطقة "الفاسدة والمرتدة". كان الظواهري يرى أن الهجمات ستدفع بالأميركيين في المملكة إلى اللحاق بالجيش الأميركي إلى حدود البلاد، مما يساعد على قطع الروابط الأميركية السعودية الرئيسية. وقال إن بن لادن أعطى موافقته على هذا التقييم.

غير أن الولايات المتحدة – التي كانت تطبّق نظامها الخاص لجمع المعلومات الاستخبارية بواسطة الإشارات الخاصة بها، حتى لو لم يفعل السعوديون ذلك – أمرت في 1 أيار/مايو جميع المواطنين الأميركيين الذين يعتبر وجودهم غير أساسي بمغادرة المملكة. وفي 6 أيار/مايو، بدأت تباشير الاضطرابات بالظهور، إذ وقعت مواجهة مسلّحة بين إرهابيين مدججين بالسلاح وقوات الأمن السعودية. وأصدرت الحكومة السعودية قائمة مطلوبين تضمّنت أسماء 19 متمرداً مع صورهم، بينهم العياري والغمدي.

بعد ستة أيام، في 12 أيار/مايو، استهدفت انفجارات مجمعاً سكنياً في ضواحي الرياض، أودت بحياة 35 شخصاً، بينهم 9 أميركيين، وأدّت إلى جرح 309 آخرين. بدأت الحرب في شوارع الرياض، مع اشتباك قوات الأمن السعودية مع جنود "القاعدة" المدججين بالسلاح. وفي النهاية، ظهرت على الصفحات الأولى للصحف الخاضعة للدولة صور المباني المحترقة والمسلمين يحاربون مسلمين.

وأجمعت تصريحات رجال الدين في البلاد على الأمر عينه - وهو رأي ترددوا في التعبير عنه في السابق ومفاده أنّ قتل المواطنين السعوديين ليست الطريقة التي يدعو إليها الإسلام.

كانت السي آي إي تراقب الأحداث على مدار الساعة. كان "امتلاك العراق" البلد المضطرب الذي توقفت آبار نفطه عن الإنتاج مسألة، بينما كان سقوط المملكة العربية السعودية - همزة الوصل الحقيقة للنفط والإسلام، المصدّرة لـ 25 في المئة من كميات النفط عالمياً، وللإرهاب الأبلغ أثراً حول العالم بحسب ما تشير إليه بعض التقديرات الأميركية - مسألة أخرى مختلفة تماماً. اجتمعت الإدارة العليا للسي آي إي في الخامسة من مساء أحد أيام منتصف شهر أيار/مايو. كان تشيني في ذلك الصباح قد أمطر تينيت أسئلة عن وضعية تحقيقات الاستخبارات عن خلية المبتكر الشهيرة في الولايات المتحدة.

"ماذا نعرف؟". كان ذلك سؤال تشيني الضاغط لمسؤولي الاستخبارات. "يمكن أن يكون هذا 11 أيلول/سبتمبر آخر. لا يمكننا تفويت هذا".

كانت إجابة تينيت مثبطة للعزيمة. فقد أطلع بوش وتشيني على أن التحقيقات مع كل من الثلاثي البحريني والسعودي، لم تثمر عن أي شيء رغم بلوغها أماكن متقدّمة. كان قد أطلق سراح الثلاثي السعودي مؤخراً بعد توقيف لحوالى 3 أشهر. لم تظهر أية أدلّة دامغة ضدهم، رغم إعلان الاستخبارات السعودية عن الاستمرار في تعقّب مخابئهم. في غياب الظواهري، كان العياري الوحيد الذي يمكنه تحديد خلية المبتكر. كان تشيني متجهماً، وكانت الأولويات واضحة بالنسبة إليه. فالعياري - الذي كتب تحليلات صائبة عن مستقبل العراق، وقابل الظواهري شخصياً، وأدار شؤون "القاعدة" في السعودية، وقاد ربما الهجوم الوحيد بأسلحة الدمار الشامل في أميركا - قد يكون العضو الفعال الأكثر أهمية في "القاعدة". توجّب العثور عليه. ومع احتدام الأحداث في المملكة، كانت دعوات البيت الأبيض والسي آي إي إلى أعلى الهرم السعودي ملحّة وواضحة: التأكّد من اعتقال العياري حياً.

في 31 أيار/مايو، مرّت سيارة فيها شبان بحاجز سعودي قرب مكة، فألقى السائق قنبلة يدوية على الحراس. فطاردت قوات الأمن السعودية الرجال

وحاصرهم في أحد المباني وعمدت إلى صدّهم. طلبت قوات الأمن تعزيزات، وأُرسلت قوة قاهرة للسيطرة على الوضع. قُتل جميع الإرهابيين، بينهم رجل كان من السهل التعرف عليه من الصور المنتشرة في المملكة وهو يوسف العياري.

في الجيب الأعلى للجثة المزروعة رصاصاً، كانت هناك رسالة من أسامة بن لادن. كانت رسالة ود شخصية عمرها ستة أشهر، يهنئ فيها الشاب على عمله الجيد، وعلى الاحتفال الناجح بعيد الفطر، العيد الذي يقع في نهاية شهر رمضان. باتت هذه الرسالة الآن ملطخة بدماء العياري.

لم يصدر السعوديون أي تقارير صحافية في الأيام التي تلت الاشتباك المسلّح. فقد استغرق الأمر بضعة أيام قبل إطلاع الولايات المتحدة عليه. فهم لم يتكبدوا عناء جمع المعلومات الشخصية عن العياري - رقم هاتفه المحمول ودفتر عناوينه وسجل سيارته، أو اقتفاء أدلّة كهذه للوصول إلى شقة قد يجري البحث عنها.

كان وقع الأخبار قوياً على السي آي إي، وما لبث الأمر أن تحوّل إلى صورة مجازية، وكأنها لعبة صينية تستعرض معضلات "الحرب ضد الإرهاب". كان للسعوديين - شأنهم بذلك شأن الباكستانيين واليمنيين والسودانيين، والعديد من دول "الناحية السوداء" المتحالفة مع الولايات المتحدة في المعركة - طريقة لإحباط الولايات المتحدة في غالبية الأحيان. فبعيداً من المصافحات الحارة والكلمات المؤثرة، كانت هناك دائماً تلك المشكلة الجوهرية المتمثلة بانعدام الثقة. أين يكمن التحالف الفعلي بين مصالحنا؟ بماذا كانوا يخبروننا، وماذا كانوا يخفون عنّا؟ كل هذه البلدان يحكمها ديكتاتوريون يرون السلطة وطريقة المحافظة على أنفسهم بأشكال مغايرة للديمقراطية.

لقد أخبرنا السعوديين بطبيعة الحال عن اكتشاف خلية المبتكر، وعن التقرير الذي يتناول خلية سعودية عاملة في أميركا تملك أسلحة كيميائية. لكننا لم نطلعهم تماماً كيف عرفنا ذلك. لم نخبرهم قط عن المصدر الداخلي من "القاعدة" في باكستان الذي أرشدنا إلى العياري ويدعى علي. لم نقوَ على ذلك لأننا في قرارة أنفسنا لا نثق في أصدقائنا السعوديين. وهم لا يثقون فينا.

لكــن في أيــام شهر أيار/مايو الملحة، لفتت السي آي إي إلى إمكانية معرفة العياري بخلية المبتكر - وإلى أنه قد يكون الوحيد الذي يعرف بذلك. وفي مرحلة الفحوصات التي أجريت بواسطة لانغلي، اعتبر الجزء الأخير ربما خطوة ناقصة.

وتسببت أحداث 11 أيلول/سبتمبر التي شارك فيها 19 خاطفاً، بينهم 15 من المملكــة، بأكــبر شــرخ في العلاقات الطويلة الأمد والودودة بين المملكة العربية الــسعودية وأميركــا. وكــان أثر الكارثة الثانية - الخاصة بالأسلحة الكيميائية وارتباطها الواضح بالمملكة - لا يُسْبَر غورُه.

"كان يوماً سيئاً. تسألنا إن كان مقتله عرضياً أم لا؟ اكتفى السعوديون بعدم المبالاة، وقالوا إن قوائمهم شعرت بالحماسة الشديدة"، على حد قول أحد مسؤولي الــسي آي إي الــذين تولوا مراقبة العياري، على أمل السير بالمحققين على مسار سعودي يقود إلى خلية أسلحة الدمار الشامل الهجومية في أميركا. "خلاصة القول: كانت الحلقة المفقودة ميتة وقد اندثرت مؤثراته الشخصية التي يمكن أن تكون بالغة الأهــية. وكما تكون عليه الحال في كثير من الأحيان عندما يتعلّق الأمر بالتعاطي مع بلدان مشابهة، لا نكون واثقين أبداً - هل هي مسألة إرادة أو قدرة ؟ لنحاول فقط إيجاد حلول لهذين الأمرين".

أطلع تينيت بوش وتشيني على الأخبار السيئة في اجتماع صباح اليوم التالي.

كــان بوش غاضباً. وقال لتينيت بإيجاز بليغ أنه كان من المفترض على الأقل إرسال أحدهم إلى الرياض لحض السعوديين على إعادة توقيف الثلاثي الذي سبق لهم أن أطلقوا سراحه.

بعــد أيام قليلة، قصد موات لارسن الأمير نايف بن سلطان في البلاط الملكي في الرياض.

كــان يعرف أنه يجب ألا يتوقع الكثير، إذ إن الاجتماعات مع الأمير نايف غالباً ما تكون قصيرة وغير مثمرة.

تخلّى موات لارسن عن أي مزاح.

قــال إنه "بعد مقتل العياري، نريد منكم توقيف الآخرين مجدداً واحتجازهم لأطول مدة ممكنة"، في إشارة إلى الثلاثي الآخر.

فهز الأمير نايف رأسه قائلاً: "حسناً. ولكن لا يمكننا احتجاز أشخاص لفترة غير محدّدة من دون توفر أدلة واضحة أو ثبوت تهم عليهم".

بعد دقائق قليلة من هذه المطالعة - حول أهمية الإجراءات المطبقة والحقوق المدنية للسعوديين - قال الأمير نايف إنهم سيعيدون توقيف الرجال، ولكن سيكون في إمكانهم توقيفهم لأشهر قليلة إضافية فقط. "نحن نقوم بهذا لأنكم تطلبونه منا. لكن إن كانت لديكم أية أدلّة ضدهم، فمن الأفضل أن تكشفوها".

دام الاجتماع خمس دقائق.

ابتسم موات لارسن، وارتسمت على شفتيه ابتسامة متوترة. ثم شكر الأمير على وقته الثمين وتعاونه.

كان قد بدأ يتضح بحلول شهر حزيران/يونيو 2003 أنه لم يتم العثور على أية أسلحة دمار شامل في العراق. فقد مضى على احتلال القوات الأميركية لهذا البلد أكثر من شهرين، من دون العثور على شيء. كانت ادعاءات وثيقة التقييم الاستخباري القومي وتلك التي أشار إليها باول في خطابه في الأمم المتحدة تذهب أدراج الرياح.

في ذلك الوقت، سمع أحد أصدقاء جورج تينيت شائعات مفادها أنه يجري التحضير لاستبداله بشخص آخر. نقلت بعض الأقاويل إلى جون موسيمان، رئيس جهاز موظفي تينيت.

لم يبالِ تينيت المنشغل في مكان آخر لهذا الأمر. فهناك قاعدة فريدة تعتمدها السي آي إي تقول إنه ما لم يتم التحقق من أمر ما، يكون غير ذي قيمة.

لذلك بحث موسيمان عن تأكيدات. فكان للسي آي إي في نهاية المطاف اتصالات في كل مكان. وعلى أثر بعض التمحيص، تبيّن له أن الأمر حقيقي. فقد طلب جيم لانغدون، الصديق المقرب لبوش، والمساهم و"الرائد" - وهو لقب يطلق على كل من ينجح في حصد 100.000 دولار أو أكثر لحملة الحزب الجمهوري - من شركة أكين وغامب وشتراوس وهوسر وفيلد، الشركة القانونية النافذة في واشنطن - البدء بالتخطيط لغيابه.

كان للانغدون سجل مميز رغم عدم علاقته بالمسائل الاستخبارية. فوالده كان عضواً في لجنة تكساس لسكك الحديد، وهي لجنة أنشئت في عام 1891 للإشراف

على السكك الحديدية، ثم ما لبثت أن بدأت بتنظيم إنتاج النفط والغاز الطبيعي في الـــولاية، ممـــا أثر بقوة في الأسعار والعرض في جميع أنحاء الولايات المتحدة. تابع لانغـــدون تحـــصيله العلمي ونال شهادات في القانون من جامعة تكساس وانتقل للعمـــل في شـــركة أكـــين وغامب، متخصصاً في المسائل المرتبطة بالنفط والغاز والطاقـــة. وأمضى الأعوام الثلاثين التالية من حياته في معالجة كل شيء، من بناء الأنابـــيب مـــروراً بتمثـــيل مجمعات الطاقة الأميركية وصولاً إلى الضغط لصالح حكـــومات الدول المنتجة للنفط حول العالم – من أميركا اللاتينية إلى روسيا إلى الخلـــيج الفارسي – الأمر الذي مكّنه من الاضطلاع بمسؤولية الطاقة على صعيد الشركة.

أصـــبح هـــو وزوجـــته ساندي صديقين حميمين لجورج ولورا بوش. كان لانغـــدون أحـــد الممولين الرئيسيين لحملة عام 2000، وقد ساهم في إدارة الفريق الانتقالي لوزارة الطاقة، وهو الفريق الذي ما لبث أن تحوّل إلى أسطورة في واشنطن لعقده اجتماعات لمجموعات الضغط المعنية بالطاقة في المدينة لتحيل "قائمة رغباتها" المـــتعلقة بسياسة الولايات المتحدة في مجال الطاقة. انعكست بعض هذه الالتزامات تـــصلّباً في التحقيقات التي تناولت كيفية تأثير مجموعات الضغط بشكل غير ملائم في مجمـــوعة العمل المعنية بالطاقة لربيع عام 2001 التي ترأسها نائب الرئيس، والتي كانـــت إجابـــة تـــشيني في شـــأنها – وكان مصيباً في ذلك – أن سجلات هذه الاجتماعات بقيت سريّة.

في بدايـــة عـــام 2001، عُيّن لانغدون في منصب جديد، فأصبح واحداً من الأعضاء الستة عشر للمجلس الاستشاري للاستخبارات الخارجية – المجلس الذي كـــان يرأسه سكوكروفت والذي نادراً ما كان يلجأ إليه بوش، والذي قد نصح الرؤساء في المسائل الاستخبارية منذ خمسينات القرن العشرين.

انتظر موسيمان الوقت المناسب لإطلاع تينيت على الأخبار المضطربة. وبعد ظهر أحد الأيام، دخل مكتب جورج بوش وأقفل الباب وقال: "إنه لانغدون. وهو يقـــول للـــناس أنه متفرغ تماماً للعمل لحسابك، وأنه قد انتهى من جميع إجراءات التفتيش الأمنية".

جلس تينيت لبرهة مستمعاً للخصوصيات التي عرضها موسيمان. وكان استبداله بلانغدون - المحامي وصاحب نفوذ في مجال الطاقة، وصاحب الخبرة الرسمية في مجال السياسة الخارجية والاستخبارات التي تقتصر على عضويته في مجلس لم يستشره بوش قط - إهانة. كان من الواضح أنه صديق لبوش ومخلص ومساند له؛ وكان خبيراً في الاحتياجات النفطية أكثر منه شخصاً قادراً على تأدية الدور المعقدّ لرئيس الاستخبارات الذي يتعامل مع عدد كبير من الأمم الأجنبية. هل هذا ما أراده الرئيس لهذا المنصب الأهم في نظر تينيت للنضال بثبات من أجل مستقبل البلاد؟

هزّ تينيت رأسه.

قال لموسيمان بنبرة من التسليم: "إذا كان الرئيس يريد استبدالي، أقترح أن يقوم هو بذلك". فكّر تينيت بعدد قليل من الأشخاص الذين سيفرحون للأمر. لقد ذاق تينيت المر من تشيني - وربما ورجاله - خلال الأعوام القليلة الماضية. لقد كانوا هم وراء هذه الخطوة في رأيه. كانت زوجته مزهوة، فهي لم تفكر قط في أنه سيشغل منصب مدير السي آي إي عندما تقدّم بوش بالعرض في عام 2000. فقد قالت له وللأصدقاء أنها لم تكن تثق في مجموعة بوش، وكانت تعتقد أنهم سيستفيدون من جورج وينبذونه. كما كان هناك ابنهم، الذي بلغ الصف الأول ثانوي، وكان في الصف الخامس عندما تبوأ تينيت منصب مدير الاستخبارات. لذلك قال تينيت بعد برهة: "لن يكون الأمر الأسوأ في اعتقادي أن أمضي المزيد من الوقت مع ستيفاني وابني. يا إلهي، قد يكون هذا جيداً".

دقّ جرس هاتف جون موسيمان بعد ظهر يوم 4 حزيران/يونيو. كان مقسماً يعرفه جيداً - منزل صديقه القديم في مجلس الشيوخ. قبل قدومه إلى السي آي إي في عام 1996، كان موسيمان، شأنه بذلك شأن تينيت، واحداً من رجال الـ "كابيتول هيل" - وقد شغل طيلة 11 عاماً منصب رئيس جهاز الموظفين والمدير التشريعي لدى السيناتور الجمهوري عن ولاية ألاسكا فرانك مركوفسكي. كما كان مدير موظفي الأقلية في لجنة مجلس الشيوخ لشؤون الاستخبارات.

كـــان المستشار الحالي للجنة - التي يرأسها السيناتور بات روبرتس - على الهاتف.

كانت اللجنة قد انتهت من أحد التحقيقات في شأن الأحداث التي قادت إلى اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر. في وقت سابق من ذلك اليوم، كان روبرتس قد أعلن عـــن تحقيق جديد: أسلحة الدمار الشامل في العراق. كان من الواضح أنه لم تكن هناك أية أسلحة دمار شامل في العراق. غير أنّ روبرتس وعضو اللجنة المنتمي إلى الأقلـــية، السيناتور الديمقراطي عن ولاية فرجينيا الغربية جاي روكفيلير، كان في نيتهما اكتشاف مكمن الخلل.

قال موسيمان: "أي شيء تريده، بأسرع ما يمكننا العمل عليه معاً. أريدك أن ترى كل شيء وكن على ثقة في أن هناك الكثير من الأمور لتراها".

كانت الـسي آي إي قد أطلقت، من دون أن يطلب منها ذلك، تحقيقاً داخلياً عـــن الأخطاء التي وقعت. كانت جايمي ميسيك تتولى الأمر مع مجموعة من كبار المحللين الذين اختارهم تينيت.

خلال الأسبوعين التاليين، كانت عشرات الصناديق المليئة بالملفات المستفيضة بالـــشروح تنقل إلى مجلس الشيوخ. "كنا متحمسين لها. وكان الشعور أن نعطيهم كل شيء في الحال" على حد قول موسيمان.

تطلب الأمر أسابيع قليلة قبل أن يرد الاتصال الأول. كان من محقق من مجلس الشيوخ.

أشار هذا الأخير إلى كايبل شيفرات سري. "جون، هي لا تقول ما قلتم أنتم أنها قالت".

أجاب موسيمان: "طبعاً تقول. دعني أذهب وأحضرها". قام بذلك واتصل مجـــدداً. قـــال: "أنـــت على حق. هي لا تقول ما ادعيتم أنها قالته. نعم هذه مشكلة".

يتذكّر موسيمان أنه أقفل السماعة وهو يشعر بالاضطراب.

"كانـــت تلك اللحظة التي أدركت فيها للمرة الأولى وجود مشكلة. لم يجرِ التحلـــيل على ما يرام، ففي بعض الحالات، كنا نبحث عما أردنا رؤيته - ما كنا

نحـــن وجميع الآخرين نعرف أن البيت الأبيض يريد رؤيته – وليس دائماً عما كان عليه الواقع فعلاً".

دقّ جـــرس الهاتـــف في غـــرفة مظلمة في ردهة "سان فالي" القابعة في تلال أيداهو.

جلس تينيت وسط الظلام. كم الساعة الآن؟

كان منتصف الليل.

رفع السماعة فسمع صوت امرأة.

"جورج؟"

"كوندي... ما الأمر؟"

كانت رايس تتصل من إفريقيا. اعتذرت عن اتصالها في تلك الساعة المتأخرة، ولكنها أشارت إلى ضرورة التحدث فوراً.

كـــان تينـــيت يمـــضي الأسبوع في "المخيم الصيفي" لكبرى وسائل الإعلام ورؤســـاء الـــشركات والوجهاء المختلفين الذين يقدّمهم سنوياً مصرف الاستثمار القائم في نيويورك "ألن وشركاه". كان يفترض به إلقاء خطاب عن الاستخبارات الأميركـــية في ســـاعة متقدّمة من يوم الجمعة 11 تموز/يوليو، تتويجاً لأسبوع من الاستجمام والأحاديث الودية والمناقشات التي تناولت مسائل كبرى.

لكـــن العـــالم كان تجاوز ذلك سريعاً. فقد نشرت صحيفة "ذي نيويورك تايمز" الصادرة يوم الأحد 6 تموز/يوليو مقالاً لجوزف ويلسون السفير الأميركي الـــسابق في الغابـــون. أرســـلت الـــسي آي إي ويلـــسون بأمر من تشيني في شباط/فبراير 2002، للتحقق من الادعاءات القائلة بأنّ حسين كان يحاول شراء يورانـــيوم قلـــيل الخصوبة من النيجر بما يدعم برنامج تسلح نووي. وقد أثار عاصـــفة في مقالـــه المؤلف من 1.452 كلمة والذي بدأ بالقول: "هل تلاعبت إدارة بوش بالمعلومات الاستخبارية في شأن برنامج التسلح لصدام حسين لتبرير اجتـــياح العراق؟ بناء على تجربتي مع الإدارة خلال الأشهر التي سبقت الحرب، لا يـــسعني إلا القول إنه جرى التلاعب بالمعلومات الاستخبارية المتعلقة ببرنامج التسلح النووي العراقي للمبالغة في التهديد العراقي".

مــنذ شهر أذار/مارس، عندما أصدرت الوكالة الدولية للطاقة الذرية تقريراً يبـيّن أن الوثائق المتعلقة بادعاءات اليورانيوم القليل الخصوبة - التي أعدها كل من البريطانيين والأميركيين - كانت مزوّرة، كانت الإدارة تعمل جاهدة للتملص من هذه المسألة، والانتقال من النفي إلى القبول والمفاجأة المتصنّعة. كان هدفهم تجنّب الإقرار بإصرارهم على الادعاءات الخاصة بمسألة النيجر قبل وقت طويل من اعتماد بوش عليها لتبرير الحرب في خطابه عن حال الاتحاد في شهر كانون الثاني/يناير.

كان هذا مستحيلاً بعد مقال ويلسون. وباتت المشكلة الآن تكمن في إيجاد شـخص يلقـى علـيه اللوم. مع قيام الرئيس وفريق عمله بجولة في إفريقيا - مـتحدثين عـن المياه والإيدز والإرهاب من السنغال إلى جنوب إفريقيا، ومن نيجيريا إلى بوتسوانا - باتت الأحاديث الصحافية المتناقلة مشجّعة. فعندما سئل الـرئيس عـن النيجر صرح بأن "الإطاحة بصدام حسين كانت فكرة صائبة"، ولكـنه لم يذهب إلى أبعد من ذلك. فالاهتمام بولسون ومسألة النيجر كانت مهمة كوندي.

هذا كان سبب مكالمتها الهاتفية مع تينيت. كانت تريد التأكد من أنهما كما يقال "على الموجة عينها".

استغرق تينيت برهة للنهوض، ثم استعرض الأمور مع رايس. راجع بالتفاصيل مـا حصل في الخريف الماضي، عندما أطلع هو وماكلولين أعضاء لجنتي الكونغرس لـشؤون الاسـتخبارات علـى وجود شكوك في شأن معلومات استخبارية عن اليورانيوم القليل الخصوبة، ومعارضة السي آي إي للخطط البريطانية - التي كانت أكثـر ثقة من الأمر - الداعية إلى نشر القصة. لم يشر تقرير التقييم الاستخباري القومـي الـسري لـشهر تـشرين الأول/أكتوبر والمؤلف من تسعين صفحة إلى اليورانيوم القليل الخصوبة من بين ما توصل إليه من اكتشافات رئيسية، ونقل أمراً مـن وزارة الخارجـية بإيقـاف الإجـراءات القانونية في شأن الشكوك المتعلقة بالادعاءات. وفي ذلك الخريف أيضاً، أعرب تينيت لهادلي عن قلقه من أن الرئيس يجـب ألا يكون "شاهداً" على اليورانيوم القليل الخصوبة في خطابه في سينسناتي، وهو قلق عكسه في مذكرة رفعها إلى رايس. تحدثا باقتضاب عن سيل الفاكسات

بين مجلس الأمن القومي والسي آي إي في اليوم الذي سبق الخطاب عن حال الاتحاد لشهر كانون الثاني/يناير، وأنه كان من الصعب على السي آي إي الإجابة في الوقت المحدد على كل ما كان مجلس الأمن القومي يعرضه في فاكساته. بتعبير آخر، كان هناك في هذه الحال، ذيلاً من الأوراق واستذكاراً قليلاً للمعلومات وأفعالاً واضحة.

كان أداء تينيت في شأن الدليل حول المسألة، القابل ربما للانكشاف، قادراً على استمالة شخص كرايس – التي تتحمل مع الرئيس ذنباً في هذه المسألة – للإقرار بما كانت تعرفه وبالوقت الذي عرفت فيه ذلك.

بعد انقضاء ساعات قليلة على الاتصال الهاتفي بينهما، تفوّهت رايس بتصريحات خلال مؤتمر صحافي على متن الطائرة الرئاسية "إير فورس وان" في 11 تموز/يوليو، أثناء رحلتها من بوتسوانا إلى أوغندا.

عمّت محادثة رئيسية الكون كله:

سؤال: "دكتور رايس، هناك الكثير من التقارير تصدر على ما يبدو بين ليلة وضحاها، تشير إلى إطلاع مسؤولي السي آي إي مجلس الأمن القومي، قبل وقت طويل من الخطاب عن حال الاتحاد، على وجود شكوك في شأن ما تضمّنه الخطاب. هل يمكنك أن تقولي لنا ما سمعه مكتبك بالتحديد، وما الذي قلته للرئيس في هذا الشأن؟"

رايس: "وافقت السي آي إي على الخطاب. هناك عملية موافقة تقضي بإرسال الخطابات إلى الوكالات المعنية – في هذه الحال مجلس الأمن القومي وعادة وزارتي الخارجية والدفاع، والسي آي إي، وأحياناً وزارة الخزينة. لقد وافقت السي آي إي على الخطاب برمته".

ثم تابعت بالقول: "الجملة موضوع السؤال تتمحور حول سعي العراقيين إلى امتلاك يورانيوم قليل الخصوبة. وأذكر أنها تشير إلى السعي للحصول على يورانيوم قليل الخصوبة من إفريقيا بحسب ما ورد في وثيقة التقييم الاستخباري القومي. وهذه الوثيقة تصدر عن مدير السي آي إي، وتعبّر عن وجهة نظر جماعية لوكالات الاستخبارات في شأن أية مسألة محددة.

"جـــرى الاعـــتماد على هذا الأمر، شأنه بذلك شأن أمور أخرى وردت في الوثـــيقة، لصياغة خطاب الرئيس. وقد وافقت السي آي إي عليه. وحصلت حتى بعـــض النقاشات في شأن تلك الجملة المحدّدة، لكي تعكس بأفضل طريقة ممكنة ما تفكّر فيه السي آي إي. وتمّت الموافقة على الخطاب".

"والآن أســتطيع أن أقــول لكــم إنّــه لــو أقدمت السي آي إي، ومدير الاســتخبارات المركــزية، على حذف هذه الجملة من الخطاب، لكانت سارت الأمــور على ما يرام. ما قلناه عقب ذلك هو إنه نظراً إلى ما نعرفه الآن، عن أنه يبدو أنّ بعضاً من الوثائق المتعلقة بالنيجر قد جرى تزويرها، ما كنا لنضمّن خطاب الرئيس هذا الأمر – لكن هذا بالنظر إلى ما نعرفه الآن".

في حين أن الإجابة التقليدية هي ترجيح أنّ ما قالته رايس كان رغماً عن ما أوضحه تينيت في حديثهما قبل الفجر، فمن الأفضل ربما القول إنها ألقت وحدها اللــوم على السي آي إي بسبب ما قاله تينيت لها. كان لديه حجة قوية عن ذنب مشترك، بينما كانت وظيفتها استغلال بروز تلك المسألة بقوة لا تقهر.

في هذه الأثناء، وطيلة ساعات الصباح، كان تينيت على الهاتف مع فريقه في لانغلـــي، يعدون تصريحهم الخاص لنشره – وهو تصريح عمل عليه كارل روف ومساعدون آخرون في البيت الأبيض. "وافقت السي آي إي على خطاب الرئيس عن حال الاتحاد قبل إلقائه... أنا المسؤول عن عملية الموافقة في وكالتي... للرئيس كـــل الحق في الاعتقاد في أنّ النص المقدّم إليه صحيح. ما كان يجب تضمين هذه الكلمات الست عشرة في النص المكتوب الخاص بالرئيس".

تطـــرّق تصريح تينيت إلى بعض التعقيدات الخاصة بمسألة النيجر، بما في ذلك انعـــدام الثقة في تأكّد البريطانيين من الأمر. كان هذا ليضيع في النشرات الإخبارية المتلاحقة.

لكـــن تحمـــل تينيت اللوم – بينما وجهت رايس الاتهامات بشكل عنيف – وكـــان ذلـــك أكثر مما يستطيع تحمّله فريق معاونيه الوقائي في السي آي إي. لقد تـــناولوا المسائل بأنفسهم. فخلال الأسبوع الذي تلا، لاحظ مسربو المعلومات في السي آي إي خصائص حادثة سينسناتي. أجبر البيت الأبيض على التضحية بهادلي

بإلقاء بعض اللوم عليه - ففي نهاية المطاف، تلقى اعتراضات مكتوبة على مجموعة متشابهة تقريباً من الكلمات الواردة في التقرير الذي راجعه هو وتينيت.

الشعور بالعجرفة والاعتداد بالنفس يمثّل بحد ذاته تراجعاً. فجميع من يتمتعون بوضوح يحمل شعوراً بالعجرفة والاعتداد بالنفس في ما يتّصل بصوابيتهم يرون في السقطات الصغيرة إهانة كبيرة، واعتداء على الهوية الساطعة. أما وجهات النظر المناقضة فتتقلّص إلى انعدام رؤية. اعتبرت الضربة البارعة لهادلي في البيت الأبيض تمرداً، ودليلاً قد تستعمله السي آي إي - مع كل المعلومات المحتملة المدمرة المتداولة في سراديبها - ضد الرئيس. اعتباراً من هذه النقطة، كانت الوكالة تحت الاختبار؛ مع "ملاحظة دقيقة" بتعبير روف لأية اعتداءات قد تحصل في المستقبل.

لكن كان هناك المزيد ليتمّ كشفه عن الكلمات الست عشرة وعما حصل فعلاً في شهر كانون الثاني/يناير.

في يوم الثلاثاء الذي ألقي فيه الخطاب، عمّت الفوضى في اللحظات الأخيرة مع إرسال مجلس الأمن القومي مجموعة من الأوراق المتفرّقة بالفاكس تتضمّن النص النهائي، الذي يشتمل على الاتهامات الخاصة بالنيجر والتي تعزى إلى محلل في السي آي إي يدعى ألن فولي. كانت مجموعة من الأوراق المتفرّقة التي أرسلت في الوقت المحدّد. في لحظة الاستعجال تلك، كان أحد المساعدين الاستشاريين في مجلس الأمن القومي ويدعى بوب جوزيف مسؤولاً مع فولي عن ذلك الهراء - "الذي علمت به الحكومة البريطانية".

بعد ظهر ذلك اليوم، كان تينيت منشغلاً بما اعتبره الجدل الأكثر أهمية في ذلك اليوم - الإعلان المنتظر في الخطاب عن حال الاتحاد عن إنشاء ما يعرف بمركز تكامل التهديد الإرهابي. وجرى وضع مفهوم المركز والإعلان عنه على عجلة من جانب البيت الأبيض في الأسابيع التي سبقت الخطاب، كرد على تحقيقات الكونغرس التي انتقدت قدرة مكتب التحقيقات الفدرالية على مواجهة التهديدات المحلية وعلى الدعوات التي أطلقها المشرعون لإنشاء مكتب استخبارات محلي، على غرار مكتب "إم أي 5" في بريطانيا. وكالعادة كانت هناك توقعات من داخل البيت الأبيض بأن الكثير من أفراد مجتمع الاستخبارات قد يعارضون الفكرة،

بشكل يفترض فيه عدم ملاحظة أية مبادرة، وتتخذ فيه النقاشات أو التحليلات بين الــوزارات حول شكل هذا المركز معنى أقل. جرى العمل عليه في مرحلة متأخرة وضـــمّن في الـــنص. إنها ضربة استباقية سيئة محتملة. لكن مع تسرّب الأخبار يوم الاثـــنين، تلقـــى تينيت، بصفته رئيس جهاز الاستخبارات، سيلاً من الاتصالات القلقـــة. هـــل هناك حاجة فعلية إلى مركز التكامل للتهديد الإرهابي؟ وهل وضع قالـــب تهديد يومي يؤدي إلى ازدواجية في العمل مع السي آي إي أو وزارة الأمن الداخلي؟ هل سيؤدي ذلك إلى سحب مهارات رئيسية من وكالات أخرى؟

حـــض تينيت كارد على حذف هذا الأمر من الخطاب، لأنه لم تجرِ دراستها بحـــسب توجيهاته. فهو سيؤدي إلى إضافة طبقة كاملة من البيروقراطية الجديدة، بيـــنما يكمن الهدف في تسوية الهيكلية وتخفيض عدد الطبقات. رفض كارد ذلك وقال لتينيت إن "الرئيس يريده في الخطاب. وهو في الخطاب".

إذاً، في حين كان تينيت يصارع – وكان ماكلولين في الوقت عينه يتناقش مع ليبـــــي في شـــأن سطر محتمل في الخطاب عن علاقة بين صدام و"القاعدة" قبل اعـــتداءات 11 أيلول/سبتمبر – أرسلت رايس من مجلس الأمن القومي الصفحات إلى فولي.

إن الدكتور رايس، بصفتها عضواً في الحلقة الأقرب إلى مركز السلطة، والتي صادف أنها كانت تمضي في تلك الفترة وقتاً مع جورج بوش أكثر من الوقت الذي كانـــت زوجـــته تمـــضيه معه، عملت مع الرئيس على مدار الساعة، لإعداد هذا الخطـــاب، الـــذي يعتـــبر واحـــداً من أهم خطابات عهده. وبين ما قام به بوب جوزيـــف، أحد كبار نواب رايس، وهادلي الذي واجه لغزاً مشابهاً في شأن مسألة النيجر في خطاب أعد قبل ثلاثة أشهر، عرف تينيت أنه من غير المعقول ألا تكون رايس، وربما الرئيس، على علم تماماً بما كان يحصل.

ورغم إمكان اعتبار تصريحات رايس العامة من إفريقيا استثنائية، فإنها لا تحلّ بصورة كاملة لغز سلوك تينيت. ومنذ الدقيقة الأولى لمؤتمرها الصحافي الإفريقي في الجو، بات بالكاد يستطيع التلفّظ باسم رايس. لكن لماذا لم يكشف لها بنفسه، نظراً إلى معرفته بما كان يعرفه؟ قد يكون العائق الذي يحول دون تحرّكه علاقته بالرئيس

بوش – المشكلة العميقة وغير المرئية دائماً بالنسبة إلى المقرّبين من أي رئيس.

يظهـــر جورج دبليو بوش بحزمه الجاد وعزمه الراسخ سرعة تأثر وتردد فقط لمن هـــم ضمن حلقة صغيرة وسرية جداً، فقط لحفنة من الناس. فهو جيد جداً في بعض الأمـــور الـــتي يقدّر عليها الرؤساء، وعاجز إلى حد بعيد في أمور أخرى. لا أحد في حلقـــته الأقرب إليه يثق في أنّ هذا الخلل في التوازن قد يتلقاه جمهور مدرك بالشكل المناسب، خصوصاً في أوقات الأزمات. لذلك يعمدون إلى حمايته – وبشكل مدهش إلى – مـــساحته. وينطـــبق هذا الأمر على تشيني وروف ورايس وكارد ورامسفيلد وتينيت، السداسي الموثوق. في الواقع، قد يكون هذا الدافع الوحيد الذي يتشاطرونه. هـــذه الرغبة في مساندة رئيس عند الشدائد، في وضعية خطرة، هو ما منع تينيت من مهاجمة رايس – إلحاق الأذية بها قد يلحق الأذى بالرئيس – وما حمله على إغفال ما هو واضح بالنسبة إلى الآخرين في كثير من الحالات.

مع تدفق الاتصالات والفاكسات خلال هذه الأسابيع بين إفريقيا وسان فالي، ولانغلـــي وجادة بنسلفانيا، استمر تينيت في البحث عن طريقة لتبرئة بوش من أي تورط. وقال في أوقات عدّة إنّ "هذا فعلته كوندي وليس الرئيس".

مـــراراً وتكـــراراً، كانت هذه الإجابة تتكرّر: "يا إلهي يا جورج، هي تعمل لحسابه".

يكون التراصف تارة شفافاً، وطوراً لا يكون.

كان التراصف في هذه الحالة منيراً.

في حين كان البيت الأبيض يستنفد طاقة كبيرة خلال صيف 2003 للمراوغة في تهمة أن "قضية" أسلحة الدمار الشامل العراقية غير صحيحة – في جهد اقتضى التثبت من هوية زوجة جو ويلسون، عميلة السي آي إي فاليري بلايم، واستعمال كثـــيف لآلات الفـــاكس لإدارة ما يمكن أن يقوله أو لا يقوله جورج تينيت أمام العموم – بدأت مطالب "الحرب الحقيقية ضد الإرهاب" تغلب على الدفاع الذاتي غير الضروري والسياسي.

ما كان يروّج له منذ أواسط الصيف حتى أواخره كان ما بدأ تينيت بتسميته بـــ "العاصفة الكاملة".

لنبدأ بنظرية – إطار توقّع – جرى ترسيخها بصورة محكمة خلال الأعوام القليلة الماضية. كانت هذه النظرية: تفعل "القاعدة" ما تفعله لأسباب معينة وتقدّر قيمة حشد الجهود، حشد الأفعال المتعددة وشبه المتلازمة للمضي قدماً في تحقيق أهداف أوسع نطاقاً – فوضى وخوف وفعالية مقنعة لحملة عالمية في الظاهر.

كان النموذج على هذا بالطبع اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر. وقد جرى اغتيال زعيم تحالف الشمال الأفغاني القياديّ المتمرّد أحمد شاه مسعود – الحليف الرئيسي لأميركا في البلاد – قبل يومين من مهاجمة برجي مركز التجارة العالمية ووزارة الدفاع. وتوقّعت "القاعدة" مهاجمة الولايات المتحدة لأفغانستان، فأقدمت على خطوة استباقية قضت بقتل الرجل الذي قد يهيأ ويقود هذه المهمة. تدلّ الأحداث المنسّقة على الاستراتيجية العالمية.

أكّدت التلميحات التي حصلت عليها الولايات المتحدة بواسطة نظام الإشارات الاستخبارية ومن الأشخاص الذين يزودونها بالمعلومات الاستخبارية – مثل علي المصدر الداخلي – هذه النظرية إلى حد بعيد. تطابقت محاولات اغتيال مشرف في نيسان/أبريل وأيلول/سبتمبر 2002 مع "مسامير تهديد"، حيث كان لدى السي آي إي ووكالة الأمن القومي أدلة على هجمات أخرى محتملة حول العالم يحتمل أن تكون قد تزامنت مع مقتل مشرف المأمول والخراب الذي قد يحدثه في باكستان.

غير أن المسألة المحددة المتعلقة بما يسمى بـ "الأحداث المتزامنة" باتت تعني الآن المملكة العربية السعودية. فقد عمّت أخبار الاشتباكات المسلحة المجلجلة في المملكة وعناوين الصحف الناتجة منها، أوساط الرأي العام، مما جعل القيادة السعودية تشعر أخيراً بخطر تهديد الإرهابيين المحليين.

لكن الحقيقة تعدّت ذلك – بأشواط. في الواقع، كان الأمر وارداً في ملف حمله تينيت إلى الرياض خلال الصيف. وحينها كان قد مضى على علاقة تينيت بالأمير عبد الله أعوام عدّة. فقد أمضى مدير الاستخبارات المركزية وقتاً مع الحاكم السعودي أكثر من الوقت الذي أمضاه أي شخص آخر من الإدارة

الأميركية – ساعات طوال في تناول الشاي وإعداد الطلبات وشرح آخر الأفكار الثاقبة والمعلومات، والإصغاء إلى الأمير عبد الله يتحدّث عن تحديات حكم مملكة حافلة بالتناقضات. هذا عنى أنّ تينيت كان مقرباً منه لدرجة تسمح له بالقيام بأمور لا يستطيع أي شخص آخر في الإدارة الأميركية القيام بها: لكزه في الصدر.

"إنهم قادمون لقتلك"، قالها تينيت للأمير عبد الله متودداً إلى الرجل المسن. "أنت". ثم فتح الملف الذي يتضمّن معلومات تفصيلية عن خطة متطورة وضعها راديكاليون سعوديون لقتل ولي العهد. شحب لون عبد الله. وصلت الرسالة. وخلال الأشهر القليلة التي تلت، أصبح التعاون السعودي محرراً من جميع القيود.

كان هذا الجزء الأول – محاولة اغتيال كبرى ستحصل في أواخر الصيف، وربما في ذكرى اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر. ماذا أيضاً، تساءلت السي آي إي، هل كانت "القاعدة" تخطّط للحظة الميمونة لمقتل الأمير عبد الله؟

بالنسبة إلى الجزء الثاني، يجب التوجه شرقاً.

في 11 آب/أغسطس، اقتحمت مجموعة تايلاندية من قوات مكافحة الإرهاب مؤلفة من 20 شخصاً شقة في مدينة آيوتايا، الواقعة على مسافة 30 ميلاً شمال بانكوك. كان في داخلها شخص يرتدي قميصاً وسروال جينز ونظارات شمسية تعلوها قبعة بيسبول، هو رضوان عصام الدين، المعروف أيضاً بالحنبلي، زعيم الجماعة الإسلامية. والجماعة الإسلامية هي جناح "القاعدة" في جنوب شرق آسيا – رغم اعتبارها نداً لها من جانب البعض – وهي منظمة تهدف إلى توحيد الشعوب المسلمة الكبيرة العدد في البلدان الممتدة من إندونيسيا – التي تضم 220 مليون مسلم من أصل 250 مليون نسمة – إلى ماليزيا والفيليبين تحت حكم خلافة تيوقراطي.

كانت الشرطة في المنطقة والسي آي إي تلاحق الحنبلي – الذي التقى بن لادن للمرة الأولى وحارب السوفييت إلى جانبه في ثمانينات القرن العشرين – منذ اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر، ورفعت من وتيرة ملاحقتها بعد التفجير الذي طال

ملهـــى ليلياً في جزيرة بالي في شهر تشرين الأول/أكتوبر 2002 وأودى بحياة 202 شخصٍ، وتبناه الحنبلي.

أرسلت السي آي إي الحنبلي إلى الأردن للتحقيق معه. فمن بين جميع شركاء الـــولايات المتحدة المختلفين في "الحرب ضد الإرهاب"، كان الأردنيون من أنجح المحققين الذين يحصلون على معلومات أثبتت صدقيتها.

تـــولّت الولايات المتحدة – المستهلك الأساسي للمعلومات الاستخبارية – المسألة. فقد ساد الاعتقاد طويلاً أن الحنبلي على علاقة وثيقة بالعمليات البيولوجية الـــتي تـــنفذها "القاعدة". أوقفت الشرطة الماليزية في شهر كانون الأول/ديسمبر 2001 يـــزيد صـــفوت، معـــاون الحنبلي الذي يحمل شهادة في الكيمياء وعلوم المختبرات من جامعة ولاية كاليفورنيا في ساكرامنتو، خلال عودته من أفغانستان. وسمـــح الماليزيون للأميركيين – وهم الذين تنتابهم مشاعر مختلطة حيال التعاون مع الأميركـــيين – بالوصـــول إلى صـــفوت في أواخـــر عام 2002. وساعدت تلك التحقيقات والمعلومات التي جمعت خلال الأشهر التالية الأردنيين على التركيز على التحقيق مع الحنبلي.

كـــان إفشاء إحدى المعلومات مريعاً: أنتجت "القاعدة" جمرة خبيثة شديدة الـــتأثير. وقد كشف الحنبلي أثناء التحقيق معه عن أماكن وجودها في أفغانستان. ولم تلـــبث السي آي إي أن قصدت منـــزلاً في كندهار حيث عثرت على نموذج صغير وشديد المفعول من العامل البيولوجي.

ومـــنذ الاجتماع المقتضب الخاص بالجمرة الخبيثة مع تشيني ورايس في شهر كانـــون الأول/ديـــسمبر 2001، تمحور تركيز السي آي إي ومكتب التحقيقات الفدرالـــية على تحديد ما إذا كانت "القاعدة" متورطة في الهجمات برسائل الجمرة الخبيثة في عام 2001، وما إذا كان في استطاعتها إنتاج صيغة سامّة يمكن استعمالها كـــسلاح. الإجابـــة على السؤال الأول كانت لا. أما الإجابة على السؤال الثاني فكانت "ربما لا". ورغم عثور السي آي إي على بقايا منشأة للأسلحة البيولوجية – ونمـــاذج تجريبية لإنتاج الجمرة الخبيثة – كان الاعتقاد السائد أن عزل طرقة من الجمرة الخبيثة الشديدة العدوى وإعادة إنتاجها أمر يتخطى قدرات "القاعدة".

ليس أكثر. كانت الجمرة الخبيثة التي عثر عليها في كندهار شديدة العدوى. والأسوأ من ذلك أنها أنتجت، بحسب الاستخبارات، في الأشهر التي سبقت اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر، ويمكن إعادة إنتاجها بسهولة لإيجاد كمية يمكن تجهيزها واستعمالها كسلاح.

دوت صفارات الإنذار في واشنطن، إذ تبيّن أن "القاعدة" تتمتّع بقدرات إنتاج سلاح دمار شامل، وهو سلاح من شأنه إحداث خوف واسع النطاق.

جمعت قطعة اللغز التالية، من دون لفت الانتباه، في أحد أجهزة الحاسوب. وقد تم العثور على الجهاز خلال مداهمة الاستخبارات الباكستانية لشقق كانت في ما مضى منازل آمنة لمسؤولين في تنظيم "القاعدة".

كانت ذاكرة الحاسوب تحتوي على صور تظهر جهد تغليف شديد الدقة والاحتراف في مدينة نيويورك.

محطة غراند سنترال وسردابها المتكهف من زوايا عدّة.

مصارف.

ردهات فنادق.

مراكز رئيسية لشركات مشهورة قائمة في مانهاتن، مع صور تتضمن كل شيء من أنظمة التسخين والتهوية والتكييف إلى الأقفال على الأبواب المؤمنة.

كانت العديد من المواقع التي التقطت لها صور تمثل مساحات مقفلة، تشكل كل منها بطريقة أو بأخرى، مكاناً مثالياً لهجمات خلية المبتكر، أو ما بات يعرف بهجمات الجمرة الخبيثة.

هل هي "عاصفة كاملة"؟ ليس بعد.

لكن كان هناك أيضاً الزرقاوي الذي بدأ بالبروز كزعيم للانتفاضة في العراق، والذي بدأ بإطلاق تصريحات علنية تتناول ضرورة الانتصار في المعركة من أجل العراق عبر ضرب المصدر – الأرض الأميركية.

ومع أفول شهر آب/أغسطس، كان الحنبلي لا يزال يتكلّم. فقد أطلع المحققين على خطة محددة للجهاد الإسلامي، شملت طائرات متوجهة من إندونيسيا إلى الولايات المتحدة قد تحتوي على متفجرات.

أخيراً أطلق تينيت الذي شاهد أجزاء السيناريو تكتمل طوال الصيف صفارة الإنذار مع اقتراب الخريف. فأطلع بوش على مخاوفه وطلب اجتماعاً خاصاً في غرفة الأزمات، فوافق الرئيس على طلبه.

وفي بداية شهر أيلول/سبتمبر، وقبل أيام قليلة من ذكرى اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر، اكتظت غرفة الأزمات بكبار مسؤولي الإدارة الأميركية - جميع مسؤولي مجلس الأمن القومي وجميع نوابهم.

أخذ الرئيس، العائد من عطلته مرتاحاً والبني البشرة، مكانه على رأس الطاولة ورحب بالمجموعة. وكان تشيني، ونظراً إلى وجود جميع أعضاء قيادة الإدارة الأميركية في غرفة واحدة، ولأسباب أمنية، على اتصال معهم من خلال الفيديو من مكان آمن. أما جميع الباقين فكانوا هناك: أشكروفت وريدج ومويلر من الجبهة الداخلية؛ وباول وإرميتاج؛ ورامسفيلد الذي أحضر معه الجنرال ريتشارد مايرز.

انتزع تينيت وماكلولين موات لارسن في اللحظة الأخيرة "ليقدّم المساعدة". فقد كان جيداً بصورة خاصة في وصف نظرية "النسيج المترابط للتهديدات"، وكيف تنظر السي آي إي إلى ربط الأحداث. قام موات لارسن بذلك بشكل مختصر في غضون دقائق قليلة خلال الاجتماع، ثم تحدّث عن تفهمه لغاية هذا الاجتماع: جمع قادة مختلف الفروع "لنفكر في فعل، وفي ما نفعله داخلياً في لحظة تهديد جامع".

عرض جون بريتان، رئيس مركز تكامل التهديد الإرهابي الحديث النشأة، تقريره في شأن التهديدات - مشيراً إلى جميع النقاط الخاصة، من خطة اغتيال الأمير عبد الله مروراً بالجمرة الخبيثة المكتشفة حديثاً وصولاً إلى إفشاء الحنبلي معلومات عن الطائرات القادمة من إندونيسيا وتنظيم صور نيويورك.

ثم استدار بوش نحو مويلر.

"بوب، ما الذي يفعله مكتب التحقيقات الفدرالية حيال أي من هذه التهديدات؟ ما الذي تبدو عليه الصورة محلياً؟"

تمهّل مويلر إذ سبق للسي آي إي أن أطلعته على ما يمكن أن تقدّمه. كان هذا جزءاً من بروتوكول وضع في بداية عام 2002، عندما وجد مويلر نفسه يلتحق

بتينيت - ومجموعة التهديدات الواسعة للسي آي إي - لإطلاع بوش وتشيني على مـــا يعرف رغم وجود القليل من المعلومات لديه عما اكتشفه مكتب التحقيقات الفدرالية.

قـــال مويلر إن نظرية السي آي إي ورؤيتها القائلة بامتلاك "القاعدة" القدرة علـــى مهاجمة الولايات المتحدة "في الوقت وبالوسيلة التي تختارها" لم تبدُ صحيحة بالنسبة إليه. فهو لم يتقبلها.

أطلـــق بوش أمراً بـــ "وقت مستقطع" ملوحاً بيده وموقفاً الإجراءات. قال: "حـــسناً رولف، كرر ما قلته مجدداً، لكن مع مزيد من التفاصيل هذه المرة. دعونا نستعرض ذلك".

هـــذا ما قام به موات لارسن، فتطرق إلى الخصائص المتعلقة بأسباب وكيفية إنشاء حدث خارجي - مثل اغتيال مشرف أو الأمير عبد الله - جهوداً استراتيجية مـــشتركة لتنظـــيم "القاعـــدة". ثم بدأ باستعراض الأسماء - أسماء وسير داعمي "القاعدة" والخلايا النائمة المحتملة التي تشكّ السي آي إي في وجودها في الولايات المتحدة.

اسم بعد اسم، كان مويلر يغوص في التفاصيل.

قال مويلر إنه إن لم يرتكبوا أية جريمة، قد يكون "من الصعب التعرّف إليهم وعزلهم".

ثم تـــدخّل تشيني عبر شاشة الفيديو قائلاً إن "العقلية نفسها" هي التي تسمح لإرهـــابي مثل محمد عطا الذي لم يقدم على أي شيء للفت الانتباه إليه أن يتربّص داخل الولايات المتحدة "حتى لحظة انطلاق نشاطه".

وتابع نائب الرئيس قائلاً: "بوب، هل لدينا أي شيء محلي عن أي من تقارير السي آي إي هذه؟"

فقال مويلر بعد برهة: "حتى هذه المرحلة، لم نتمكّن من إضافة أي شيء محلياً إلى هذه التهديدات المحسوسة".

سأل بوش: "لا شيء؟"

"لا شيء فعلاً لنضيفه سيدي الرئيس."

كانت الغرفة صامتة.

قال تشيني عبر الفيديو: "هذا ليس جيداً أبداً. نحن نسمع الكثير من هذا القبيل من الأف بي آي".

تدخل بوش ليوقف مبالغة.

قال أحد الفاعلين الرئيسيين في غرفة الاجتماعات يومها: "كان الأمر مريعاً. لكن هــذه هي الطريقة التي تجري بها أمور الأف بي آي. ليسوا جهاز استخبارات، ولكن يطلب إليهم العمل على هذا الأساس. وغالباً ما يكون لديهم القليل ليقدموه".

فقال بوش: "لقد تكلمنا كثيراً و لم نفعل ما يكفي".

من شاشة الفيديو خرجت نظرية الواحد في المئة. كثير من الجالسين في الغرفة سمعــوها - أو سمعــوا بعض أجزائها - لكنها عرضت عندها على يد مبتكرها، الرجل الذي يقود معظم السياسة الخارجية للولايات المتحدة. تابع تشيني - "طبيعة الحدث ذات الوقع الكبير والاحتمال المتدني" وكيف "أنه من دون دليل قاطع، علينا العمل كما لو أن هذه التهديدات مؤكّدة. ليس أمامنا خيار آخر. إذاً أين نحن الآن وماذا يمكن فعله؟"

في هـــذه الحال، كانت تطبيقات النظرية قائمة على رد الفعل وليس المبادرة، وانتقل النقاش إلى وزارة الأمن الداخلي.

اســـتدار بوش حول الغرفة - كرسي وراء كرسي - سائلاً عن ما تم فعله أو مـــا يمكـــن فعله. انتقل النقاش إلى "نقاط الضغط" - المصانع الكيميائية والنووية وشبكة الطاقة.

سأل بوش: "إلى أي مدى نحن محميون فعلاً؟

تحـــدث توم ريدج. لم تكن الصورة مشجعة. كانت المصانع النووية الأفضل حمايـــة وكان قد تمّ تخطي الإنذارات. غير أن المصانع الكيميائية، حتى الواقعة قرب المدن، بقيت معرّضة.

استدار بوش نحو رئيس إدارة أمن النقل. فسأل ماذا كان يحصل مع الطائرات القادمة من إندونيسيا؟ وكان قد تقرّر قبل أيام قليلة عدم إسقاطها. وأضاف بوش: "كيف يمكن أن نضمن أننا آمنون هنا؟"

استفاض رئيس إدارة أمن النقل في بحث حول عدد العملاء المنتشرين وأماكن وجودهم والإجراءات المتخذة في شأن أنواع التهديدات الخاصة.

قاطعه بوش بغضب.

قال الرئيس: "لا أريد سماع المزيد عن السياسة والإجراءات. أريد أن أعرف تماماً ما الذي نفعله في إندونيسيا لتفتيش الحقائب!"

كانت هذه نبرة الحديث - خلال الساعة التالية - من جانب بوش وتشيني. مـــاذا عن حماية المطارات؟ ماذا عن محطة غراند سنترال والمباني الظاهرة في الصور الملـــتقطة؟ هل نحن جاهزون لهجوم آخر بالجمرة الخبيثة؟ ثم عادا إلى الطائرات. لم تكـــن معلومات الحنبلي كاملة، ويمكن تحليلها كقنبلة موقوتة في مقصورة شحن. يمكن أن يكون اختطافاً آخر شبيهاً باعتداءات 11 أيلول/سبتمبر.

قـــال رامسفيلد بنبرة ذكورية عالية: "لا تقلقوا، إذا خرج هذا عن السيطرة، وكانوا يحلقون فوق روز بول، سوف أسقطهم".

رمقه بوش بنظره قاسية.

قـــال: "دون، وماذا لو كان ابنك أو ابنتك على متن هذه الطائرة. هذه هي المعايير التي سنعتمدها لنقرر إن كنا سنسقط الطائرة".

فهز رامسفيلد رأسه بصمت.

ومع سير الاجتماع، كان آخرون ليقدموا على الأمر عينه. الكثير من الأسئلة والقليل من الإجابات. الكثير من التهديدات وبلد لا يمكن حمايته إلى حد بعيد.

قـــال رامسفيلد بعد برهة محاولاً استدراك الأمور: "أعتقد أن هذا تمرين جيد، حتى ندرك فعلاً حجم قدراتنا عندما يكون هجوم ما وشيكاً".

نعم، كانت "قدراتنا" واضحة تماماً.

حتى مع "جدول التهديدات" على الضوء الأحمر، فإن قدرة أميركا على منع هجوم محتمل كانت أفضل بقليل من قدرها في 10 أيلول/سبتمبر 2001.

غادر الجميع غرفة الأزمات والذعر يمتلكهم.

بعـــد أيام قليلة، سافر موات لارسن وليون إلى مدينة نيويورك، وزارا مكتب التحقـــيقات الفدرالية فيها. فعقدا اجتماعاً في غرفة اجتماعات راي كالي، مفوض

دائـــرة شـــرطة نـــيويورك. ثم زارا مجموعات من رؤساء الأجهزة الأمنية لكبرى شـــركات نـــيويورك، وقد سبق لكثيرين منهم أن عملوا في الأف بي آي أو دائرة شرطة نيويورك أو السي آي إي. أقسم الجميع على المحافظة على السرية. تمّ شرح مـــسألة خلـــية المبتكر لهم وتهديد الجمرة الخبيثة الجديد، حتى يعرفوا أين يجب أن ينظروا وعما يجب أن يبحثوا.

غـــادر بـــضع عشرات من الأشخاص هذه الاجتماعات ونبهوا الآخرين – ضـــباط الـــشرطة أو حراس الأمن – ولكن بطريقة شديدة التعميم. قالوا لهم أن يتأهبوا وإنما بطريقة صامتة لا تثير الشكوك، وأن يبحثوا عن أي شيء يثير الشكوك أو عن أي شخص أو ربما علبة معدنية – أو علبة طلاء – مهملة.

ثم عـــاد هؤلاء العشرات إلى منازلهم، إلى زوجاتهم في العادة، أو في حالات قلـــيلة، إلى أزواجهم، وعانقوهم. ماذا تقولون؟ الأمر سري. لا يفترض بكم قول أي شيء.

كيف كان العمل اليوم يا عزيزي؟

جيد. كما هو في كل يوم.

لكنه لم يكن بطبيعة الحال كما كل يوم.

شعر هؤلاء العشرات، مع مرور الأيام، بحيرة أساسية لهذا العصر، وما يعرف بـــ "الحرب ضد الإرهاب".

هل من الأفضل المعرفة أو الجهل؟

ما الذي تضيفه المعرفة؟ الخوف. أليس هذا ما يريده الإرهابيون؟

هل بدأ هذا الخوف يتحول في وقت المرور اليومي للمشاة إلى وعي مسلّم به وربما إلى يقظة؟

هناك شيء واحد غير قابل للنقاش.

كانت مجموعة صغيرة ومختارة من سكان نيويورك تعرف أنه، في حال تساوي جميع الأمور الأخرى، عليهم هم ومن يحبونهم تجنّب محطة غراند سنترال.

الفصل الثامن

انتشار الخوف

كان النقاش في شأن الانتشار النووي خلال العقود الماضية حالة كلاسيكية لأسئلة غير مطروحة في الغرف المكتظة. كان يجري تجنب السؤال المركزي باجتهاد: لماذا يمكن تحديداً لبعض البلدان امتلاك القنبلة ولا يمكن ذلك لبلدان أخرى؟

امتازت حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية، طبعاً، بتهديد متبادل بدمار أكيد أبقى حلفين كبيرين هما حلف شمال الأطلسي وحلف وارسو، على خلاف متقطّع. وكان السلاح النووي نظرية استراتيجية أكثر منه رأساً حربياً فعلياً، سلاحاً يُمتلك ولا يستعمل أبداً، وعائقاً أمام الطموحات القومية أو الإقليمية، وعاملاً للمحافظة على السلام، على الأقل بالنسبة إلى الذين دخلوا خلسة النادي النووي. فقد كانوا يطلقون تصريحات فيها من الكبر والنقاوة عن مخاطر السلاح النووي، فيما هم يقبعون على مخزون ضخم منها ويعملون جاهدين لمنع أي بلد آخر من اقتنائها. كان هذا إلى حد بعيد فعالاً ومسألة قوة تمارس صلاحيتها. وكانت البلدان غير النووية تتذمّر أحياناً من أنه من غير الواضح تماماً إذا كان انتشار أسلحة مماثلة سيؤدي إلى أكثر من التحفظات الغاضبة، وربما إلى حيرة في شأن استخدام القوات التقليدية، ومن أن لديهم الحق من الناحية النظرية على الأقل في اقتناء هذا النوع من السلاح الدفاعي – كانوا ليقولوا أنه سلاح للدفاع عن النفس – على غرار الأمم الأكثر حظوة. وحتى لا يتم ارتكاب أي خطأ، كانت مسألة امتلاك أو عدم امتلاك السلاح، خصوصاً مع وجود إسرائيل ضمن النادي – شأنها بذلك شأن إخوانها في الغرب المتطوِّر – في حين لم يتمكن أي بلد عربي من دخوله.

غيرت باكستان هذا الوضع، إذ تملّكها الذعر بعدما نفذت الهند في عام 1974 تجربة نووية تحت الأرض، في انفجار توازي قوته قوة انفجار هيروشيما. بعد عقد علـــى ذلك، أثبتت باكستان على أنها أبرز مثال للحركة التصاعدية النووية. فقد تـــصرفت بشكل أحادي وبنت ما تحتاج إليه، ثم هبت لتحدي خصمها. وبالنسبة إلى مـــن أرادوا الحصول على تاريخ معاصر مشابه، قدّمت ثمانينات القرن العشرين سوقاً "رمادية" ولم تكن المسألة سوى معرفة المكان الذي يجب البحث فيه. ورغم المصادقة على معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية في عام 1970، كانت شركات منفردة – بمن فيها أ. ك. خان والعديد من الشركات الأقل شهرة في أوروبا الغربية – تمـــارس تجـــارة نـــشطة، فتدخل سراً الأنظمة التي تمتلك سلاحاً نووياً النادي النووي، في عملية تدريجية تتطلب في غالبية الأحيان بناء "شلال" من مئات نابذات تخصيب اليورانيوم. توقع العملاء أن الأمر سيتطلب سنوات ويكلف مئات ملايين الـــدولارات، وأنه سيستحق ذلك. في أواخر سبعينات القرن العشرين، قام العراق بتجـــربته الأولى – وهي تجربة اكتشف أمرها عندما دمرت غارة جوية إسرائيلية مفاعـــل أوسيراك. وفي أوائل تسعينات القرن الماضي، كان إيران وكوريا الشمالية عميلين منتظمين لشركة خان التي ضمّت الجنرالات والعلماء والمهندسين وأعضاء أجهزة الاستخبارات الباكستانيين إلى عملياتها العالمية الأكثر ربحاً.

كانت لشركة خان شبكة من المعاونين والموردين من ألمانيا وإنكلترا وهولندا وتركيا وسويسرا، قدّموا مكونات رئيسية وآلات نووية متخصصة لعملائها.

أحد هؤلاء كان فريدريش تينر، وهو مهندس ميكانيكي سويسري كان يعمل مـــع شـــركة أ. ك. خان منذ ثمانينات القرن العشرين. وقد صنع بعض مكونات النابذات النووية لحساب شركة خان، بما في ذلك صمامات الأمان، واضطلع بدور الـــشاري لـــصالح الباكـــستانيين، مُتّخذاً الترتيبات اللازمة لكي ترسل العديد من الشركات الأوروبية المواد الضرورية إلى السائسين في دبي حيث كانت ترسل على طول سلسلة التزويد إلى شركة خان.

ازدهرت أعمال تينر فانضم إليه أبناؤه للعمل معه. كان ابنه البكر ماركو تينر يملـــك رسمـــياً شركة تراكو، الشركة السويسرية التي صنعت الآلات المتطورة –

مخـــارط عالـــية السرعة والمناشير الحزامية ومجلخات الأدوات - وجهّزها وباعتها لشبكة خان. غير أن ابنه الأصغر أورس تينر - الذي كان في أواخر العقد الثاني من العمـــر في أواسط تسعينات القرن العشرين - هو من سيصبح مصدر فخر شركة تينـــر وابتهاجها. كان تينر الذي نال تدريبات هندسة نووية مسؤولاً عن استيراد الآلات عـــبر العالم وتركيبها. وكان ماهراً علميّاً وشديد الحساسية وطموحاً. كان يعرف أين يتم إرسال كل جزء، وكان، نتيجةً لذلك، على اطلاع على تقدّم العمل في البرامج المختلفة التي أوجدها شركة خان وقدّمتها.

كـــان خـــان وشـــركاؤه يخضعان لسنوات لمراقبة مشددة من السي آي إي والاستخبارات البريطانية - في عملية متشابكة تضمّنت تعقباً بالإشارات وملاحقة مالية. لكن في أواخر تسعينات القرن العشرين، تمكّن عملاء السي آي إي، العاملين بالخفـــاء لـــدى الموردين الأوروبيين للنابذات النووية المتخصصة، من عزل أورس وضمه وجذبه إليهم.

كـــان نـــصراً استخبارياً عظيماً. ففي عالم التجمعات الاستخبارية، لا شيء يوازي قوة الشخص المتخفي وصاحب المكانة الجيدة. كان الأمر وكأن السي آي إي عثـــرت على منظار للرؤية الليلية. ولم يعد يقتصر الأمر فقط على اكتشاف ما هو واضح، بل بات في إمكانهم رؤية كل شيء، من الغسق إلى الفجر.

لكـــن الحـــصول على مبتغاهم طرح سؤالاً شائكاً: ما الذي يجب فعله بهذه المعرفة القيمة في عالم نـــزع السلاح وانتشاره المختل وظيفياً، والعالم الذي لا تزال فـــيه شـــبكة خان تحقق نجاحاً. لقد أصبح فاحش الثراء، وحتى إنّه سوّق لخدماته، كمـــا أعلـــن في إحدى المرات وزير التجارة الباكستاني، بعدما اقتطع إعلاناً على صـــفحة كاملة من إحدى الصحف الناطقة باللغة الإنكليزية في عام 2000، يصف مكونات الأسلحة النووية وخبرة التجميع التي قدّمها البلد.

بالطـــبع، كانـــت الـــولايات المتحدة تعرف أكثر بكثير مما ورد في نسخة الإعـــلان، وكانت تعرف المزيد يوماً بعد يوم. لكننا - كما كانت حال لغز عدم إخـــبارنا السعوديين بطريقة معرفتنا بخلية المبتكر في أميركا - لم نثق في مشرف بما يكفـــي لنخبره عن الدخيل الذهبي. في الواقع، كان إطلاع مشرف على المعلومات

الأكثر دقة عن نشاطات خان ليعرض تينر للخطر، مما قد يجعلنا نخسر نافذتنا الداخلية. وأدى الصراع بين المعرفة والفعل وبين الاستخبارات والمنع - الذي بات شديداً بعد اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر - إلى جعل السي آي إي والعديد من صانعي السياسات يؤدون "لعبة عشرين سؤال" مع مشرف.

في النهاية، وفي عام 2000، حاول الأميركيون التدخل بشكل سيء، إذ أطلعوا الزعيم الباكستاني على صور تظهر تجارة خان بقطع النابذات النووية - وهي صور ما كانت لتشوّه سمعة المصدر الداخلي للسي آي إي. لم ترتسم على مشرف أية علامات قلق، واكتفى بالقول إن الحكومة الباكستانية غير متورطة، وأنهم لا يعرفون شيئاً عن الأمر. إلا أن الضغط المستمر من الولايات المتحدة أجبر مشرف في نهاية المطاف على ملاحقة خان بطرق متواضعة، عبر خلعه مثلاً من منصبه الحكومي في بداية عام 2001. لكن المتعهد النووي الباكستاني مضى قدماً من دون أي رادع - بينما كانت السي آي إي تتلقى تقاريرها الدورية.

بعد كل هذا، اكتشفت الاستخبارات سراً سلوك وصفات مشرف والإيرانيين وكيم جونغ إيل زعيم كوريا الشمالية، والقذافي لإغراض التأكيد. كان الزعيم الليبي يجتمع بخان ومعاونيه منذ عام 1997. وبحلول تشرين الأول/أكتوبر 2001 - عندما كان بن بونك يجتمع بموسى كوسى في لندن - تلقت ليبيا بعض التجهيزات الأولية وحزمة من مصنع خان في باكستان تحتوي على كمية صغيرة من اليورانيوم المخصّب.

وهكذا شاهدنا ما يحصل، عارفين كل شيء وعاجزين عن الحركة.

قدّم موسى كوسى أطروحة الماجستير في العلوم الاجتماعية لاحقاً، بعد خمسة أعوام على مغادرته جامعة إيست لانسينغ من دون نيل الشهادة، للعودة إلى ليبيا والعمل لحساب القذافي.

كانت مهمة غير منجزة. ويظهر الجهد الكبير الذي بذله - الأطروحة من 209 صفحات مع المسرد - لإتمام دراسته ونيل شهادة الماجستير، بطريقة أو بأخرى، الالتماس الراسخ للاستعلام الحر والتجريبية وقيم عصر العقل الأخرى التي لا تزال تعرّف عن الغرب.

تعالج الأطروحة التي كتبت عندما كان كوسى يعمل لحساب القذافي بشكل مفترض مسألة "كيفية تأثير الظروف الاجتماعية والثقافية والاقتصادية في النتائج السياسية". إنها بشكل أكثر تحديداً محاولة لوضع القذافي في سياق تاريخي أوسع، عبر حبك تعليقات – المأخوذة من مقابلات طويلة عدة حصل عليها كوسى – ضمن أقوال لمفكرين عن السياسة والقيادة، من إريك إريكسون إلى سيمور مارتن ليبسيت.

يمدح النص بطبيعة الحال الزعيم الليبي، ولكنه حاد أحياناً – في بعض الحالات بصورة غير متعمدّة – في إشارته على حد تعبير كوسى إلى كيفية اعتبار "شخصيات الفاعلين المنفردين عناصر مهمة تحدد الظواهر السياسية".

قال إن "شرعية" القذافي متأتية إلى حد كبير "من سحره للجماهير"، مستشهداً بقول ماكس ويبر الشهير عن كيفية تمتع "القائد بخصائص معينة وشخصية فردية تجعله مختلفاً عن الرجال العاديين، فتتم معاملته وكأنه يتمتع بقدرات أو مزايا فائقة للطبيعية أو فائقة لطبيعة البشر، أو استثنائية على الأقل".

واجه ذلك الحشو القديم للاستثنائية – "أنا أحكم كما أحكم، لأنني أنا من أنا" – التحدي الحقيقي الوحيد نتيجة تصاعد المفاهيم الجمهورية التي أطلقها اليونانيون وروجوا لها بشكل متقطّع، وصولاً إلى الجزم الحاد للكلاسيكيين الجدد في القرن الثامن عشر على غرار جيفرسون، الذي ساهم في الانفجار الديمقراطي لتلك الحقبة. كانت أطروحتهم المزقة – القائلة إن الناس أسياد أنفسهم والقادة يلبون رغبات العموم – تهدف إلى قلب المعادلة التقليدية التاريخية للمحافظة على السلطة وتبرير نفسها. ورغم انتشار الديمقراطية – مع شمولها نصف أنظمة العالم اليوم – كانت المعركة بين النماذج الديمقراطية والكلية في الواقع نقاشاً مستمراً لا نهاية له أكثر من كونها مجرد حق جديد يلغي أخطاء قديمة. يتعلق الأمران في النهاية بالحكم واستخدام السلطة، ويقرّ كل طرف للآخر ببعض الخصائص المشتركة المربكة. ويمكن خلع الديكتاتوريين، ورغم أنهم غير منتخبين، إذا بلغ استياء الناس حدّه. كما أن الزعماء المنتخبين، ورغم عدم منحهم السلطة الديكتاتورية، كان يعرف عنهم الذهاب بعيداً في سبيل المحافظة على سلطتهم وتبريرها وتوسيع نطاقها في بعض الحالات.

بات كل ذلك ملائماً لسياسة أميركا الخارجية بعد اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر، والتي رغم بلاغتها العالية، تعتمد إلى درجة مدهشة على النقاشات مع الديكتاتوريين. كيف تجعل ديكتاتوراً يفعل ما تريده؟ سواء بشكل علني أو سراً؛ باستخدام الطريق الطويل للأهداف المشتركة أو الطريق القصير للإكراه، أو معاملتهم كأرباب أسرة شرعيين، أو دعم اقتصادهم سراً؟ كان دعم الولايات المتحدة مرة لديكتاتور حسن الطلعة نسبياً، هو رئيس الفيليبين فرديناند ماركوس - الذي تتجسّد غالبية أخطائه بالنهب - سبباً للجدل. والآن كنا في حوار منتظم وإجرائي مع عشرة ديكتاتوريين، على قاعدة العمل على كل حالة على حدة. لدينا سياسة ضد الإرهابيين، ولكن لا يمكن اعتبارها سياسة ديكتاتوريين.

ينطبق الاستثناء على مسألة موحّدة وحيدة: بحلول خريف 2003، أذار/مارس جورج دبليو بوش سلطات استثنائية محاولاً إجبار عدد من الديكتاتوريين على التخلي عن سلطاتهم. إلا أنها كانت تفتقر إلى الاستراتيجية القائمة على أسلوب عمل الديكتاتوريّين. "فالشرعية" - بالنسبة إلى القذافي أو مشرف أو ولي العهد السعودي عبد الله - تتأتى، إلى حد بعيد، بحسب ما كتب كوسى وغيره "من سحره للجماهير"، ما يعني أن كل حاكم يستخدم سلطته بطريقة يحسن بها مصالح بلاده والحس بقيمتها الذاتية. في هذا دعوة عادلة يمكن لكل خاضع - أي موظف مكافح أو ضابط طموح غير صبور - إطلاقها خصوصاً في وقت تتلاشى فيه وسائل الإعلام الخاضعة لرقابة الدولة، وتنتقل الأخبار الفعلية بسرعة، عبر وسائط الإرسال والإنترنت، مرفقة بالتعليقات. تجعل هذه التغييرات التحدي التقليدي بعدم فقدان الديكتاتوريين "ماء وجههم" أمراً أصعب. وبما أن نمو سلطتهم يتأتى من الشخصية، فإن "ماء الوجه" المعززة على نحو وافٍ هي كل شيء. ويجب ألا يغلبهم بشكل لا يربو إلى الشك أي بلد ظافر آخر - وخصوصاً ألا يغلبهم "الصليبي" جورج دبليو بوش.

في هذا الوقت، كان الرئيس - في العراق وفي سائر أماكن العالم - يحاول تنفيذ تجربة عالمية في تعديل السلوك، لم يكن فيها قادراً على تجنب فقدانه ماء وجهه. فبغض النظر عن المسائل المحلية، اعتمد الرئيس على أساليب تعامل جديدة

مع الأسرة الدولية التي كان يأمل تبديل ميولها - في ما يتعلّق بأسلحة الدمار الشامل، والحركات القومية، وسيطرة الراديكالية، ودعم معاداة الأمركة. لم يكن للآلة الانتخابية العالية الطاقة لكارل روف، الفعالة في تنشيط القاعدة ومراقبة الرسائل في الولايات المتحدة، أيّ تطبيق جاهز في الخارج. فبعد عامين على اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر، كانت الأسرة الدولية تفكر دوماً وبشكل شبه مفرط في إملاءات القوة الأميركية. هذا كان الأمر الفعلي بالنسبة إليهم، بغض النظر عن توجهاتهم. ورأى العديد من المحافظين الجدد الأمر ملائماً وأنه يجب أن يكون كذلك. لكن، مع حديث الإدارة الأميركية عن عدم الاستسلام والتسليم قط، وعدم الإقرار باللغة الخاطئة للإرادة والنفوذ - التوجه إلى العديد من شعوب العالم باستخدام اللغة الرسمية للبيت الأبيض، "بطريقة يمكنهم فهمها" - كانت مشكلة "فقدان ماء الوجه" بصورة مفاجئة خطرة بالنسبة إلى بوش بمقدار ما هي كذلك بالنسبة إلى القذافي أو الأمير عبد الله أو حتى مشرف. وقد يعني "فقدان ماء الوجه" بالنسبة إلى بوش أن جمعاً من المتسلطين، قد يبرز ليتحداه.

كانت السياسة الخارجية لأميركا المركزة على الديكتاتوريين تواجه سلسلة من التحديات. فجورج دبليو بوش أراد إخضاع البلدان الخارجة عن السيطرة لسلطة القوة العظمى الوحيدة - وتغيير سلوكها أو حتى أشكال حكوماتهم - وفي الحالة الأمثل، تسليم أسلحتها المدمّرة وعدم بناء أي منها، والتوقف عن تحدينا ورؤية الحس الجيد للديمقراطية والمبادرة الحرة. وإذا أراد آخرون إخضاع سلوكهم لهذه الأمثلة، عليهم أن يدركوا من كان وراءها: الولايات المتحدة الجديدة والجريئة. وكان التفكير يرافق كل مثل جديد، وكانت كلماتنا تحمل قوة إضافية. وكلما سرنا قدماً، كانت الكلمات كل ما نحتاج إليه. فهذه هي الطريقة التي تصمّم بها تجربة "الردع".

من جهة أخرى، لم يتمكّن الزعماء من جميع الأحجام من فعل أي شيء تجبرهم أميركا على فعله، أو أشياء بدا أن الولايات المتحدة تريدها.

قد يفقدون ماء وجههم.

بالنسبة إلى الديكتاتور، أي ديكتاتور، هذا يعني كارثة.

بحلـــول أواخر شهر أيلول/سبتمبر 2003، بعد ستة أشهر من الانفتاح الأولي لموسى كوسى على طوني بلير، لم تكن ليبيا قد قدمت لبوش "المخرج" الذي يحتاج إلـــيه ليعلن على الملأ كيف خضع القذافي الوضيع والميال للقبول والإذعان للنظام العالمي الجديد.

كانـــت قـــراءة أطروحة موسى كوسى لتساعد على تسوية الأمور. فخيار القذافي لم يكن رغبته أو عدمها في نـــزع سلاحه – كان يعلم أنه يتعين عليه ذلك ليـــنال القـــبول الدولي المحرر من العقوبات الذي يلتمسه – بل كيفية القيام بذلك بطريقة لا تقلل من شأنه في نظر الشعب الليبـــي وسائر البلدان العربية، ولا تجعل قـــراراته الـــسابقة – التي جلبت على بلده أكثر من عقد من العقوبات والعزلة – مضللة.

اعتلـــى القذافي السلطة في انقلاب عسكري بدون إراقة دماء في عام 1969، واعتـــبر نفـــسه دوماً قائداً رؤيوياً (كثير الرؤى)، يعتنق نظامه السياسي الخاص، "النظـــرية الـــشاملة الثالثة"، التي جمعت الاشتراكية وفرعاً من الإسلام المستقى من الممارسات القبلية للبلاد التي توقّع أن ينفذها الشعب الليبـــي على شكل ديمقراطية مباشرة. واستخدم مال النفط في سبعينات القرن العشرين وثمانيناته للترويج لرؤيته في الخـــارج، ممولاً الإرهاب الذي شعر أنه، بعظمته الإلهية، قد يضع حداً للرأسمالية والشيوعية.

غـــير أن ما حصل هو الملامة والعقوبات الدولية. في عام 1986، وحتى قبل حادثـــة لوكـــربي، فرضت الولايات المتحدة قيوداً على التعاملات مع ليبيا والسفر إلـــيها. واعتـــباراً من عام 1992، فرضت الولايات المتحدة حصاراً على الأسلحة وحـــصاراً جوياً ومنعت تصدير تجهيزات تكرير النفط إليها. وبدا أن هذا قد أوقع ليبـــيا في مستنقع من الرمال المتحركة بينما حقق جيرانها نمواً سريعاً بالاعتماد على أمـــوال الـــنفط الـــتي جنوها خلال تسعينات القرن العشرين. وكان الناتج المحلي الإجمالي للفرد في عام 2003 والبالغ نحو 6.400 دولار أدنى من الناتج في العديد من بلـــدان المـــنطقة المصدرة للنفط وموزّع بشكل غير عادل في اقتصاد قليل التنوّع. وتمـــثل البلاد – التي تتخطى مساحتها بقليل مساحة ألاسكا، ويبلغ عدد سكانها 6

ملايـــين نسمة، ويعدّ السّنّة 97 في المئة منهم، وتشكّل صادرات النفط 54 في المئة مـــن الـــناتج المحلي الإجمالي – مملكة بدوية صحراوية أكثر من بعض من البلدان العـــربية المجاورة. وفي ظل الحصار، كان قطاع النفط يتراجع، إذ كانت ليبيا تعاني مـــشاكل في اســـتقدام المهندسين وقطع الغيار للمحافظة على طاقة الإنتاج الأعلى للآبار. وتسبب هذا بضيقة اقتصادية وبتنامي بطيء للمجموعات المعارضة السرية.

نتـــيجة تـــسويات لوكربي في ربيع 2003، كان يفترض رفع عقوبات الأمم المتحدة في شهر أيلول/سبتمبر من ذلك العام. لكن الولايات المتحدة أرادت المزيد من التنازلات قبل رفع عقوباها الاقتصادية الأحادية الجانب المفروضة على البلاد – كانت تريد من ليبيا تسليم أسلحتها وقطع علاقاها بالمجموعات الإرهابية، وإطلاق تـــصريحات عامة قوية تعلن فيها تبديل نياها وسلوكها. من دون ذلك، ما كانت الولايات المتحدة لتتزحزح. وبالنسبة إلى القذافي، وما لم تنضم الولايات المتحدة إلى الأمم المتحدة في رفع العقوبات، ما كان ليدفع التكلفة الكاملة لتسوية لوكربي.

وهكـــذا اســـتمرت العقوبات. وخلال الصيف، جال ستيف كابس ونظيره الـــبريطاني رئـــيس جهاز مكافحة الإرهاب في الاستخبارات البريطانية مارك ألن العالم، والتقيا كوسى وغيره من مسوّي النـــزاعات الليبيين.

كـــان الأمـــر إلى حد ما مزيجاً من المصالح المشتركة، إذ بدا أن كوسى كما كـــابس يـــريد دفع الزعيم الليبـــي العنيد إلى الطاولة للتوصل إلى اتفاق. وتحدث الـــرجلان عن عروض مختلفة، وتكتيكات مختلفة، وأشياء يمكنها ترطيب الاتفاق، وعلى الأرجح، عقل القذافي.

عـــندما التقـــى كابس وألن القذافي في طرابلس للمرة الأولى خلال الصيف، ألحـــوا علـــيه في أمور محدّدة – أية أسلحة يتعيّن على الليبيين التخلّي عنها. وكان معروفاً أن القذافي يملك عوامل كيميائية وخصوصاً غاز الخردل. أما امتلاكه نظام تـــسليم فعّال ومنظّم، فتلك كانت مسألة أخرى. إلا أننا نعرف من خلال أورس تينر أنه كان قد جمع مخزناً أو قطعاً لنابذات. غير أن الزعيم الليبـــي لم يصرّح حقاً عن المدى الكامل لسلاحه، الكيميائي والنووي على السواء. وطرح الفريق السؤال عـــن السلاح مراراً وتكراراً. فأجاب القذافي بطرق شتى، مستعيناً بقدرته الملموسة

على التأثير في الجماهير - أو بـ "شرعيته" على حد تعبير كوسى. وقال القذافي في مكان ما أن المسائل لا تقتصر على ما قد تفعله ليبيا، بل على ما يفترض بها القيام بـه كدولـة أجنبـية. من يضمن أيضاً أمن البلاد إن لم تستوعب البلدان المجاورة وضـعية نـزع السلاح المستنيرة الجديدة للقذافي؟ ما طبيعة الاتفاقات الملزمة بين الدول المستقلة وما حدود اتفاقات كهذه؟ تناولت المحادثات هذه النقاط.

بالنـسبة لأي ديكتاتور أو حاكم متسلط، هناك مبدأ أولية الشخصية... التي تحـددها إلى حد بعيد السلطة. فأياً تكن النقاط المسببة للنقاش، بدا القذافي وكأنه يستـسيغ المواجهات، محولاً كابس وألن إلى وكلاء لنوع الالتزامات العامة وذات المـستوى العالمـي التي كان يسعى إليها. كانت هذه الحاجة أكثر من أي حاجة أخرى التي جلبته في المقام الأول إلى الطاولة.

في صبيحة أحد أيام ذلك الصيف، عاد كابس إلى لانغلي، وهو يبدو مرتاحاً، حـتى بعـد زيـارة صعبة إلى طرابلس ورحلة استمرت ليلة كاملة. فالتقى بجون موسيمان في الممشى.

قال موسيمان: "تبدو نشيطاً بعد أيام من العراك مع القذافي".

أجـاب جـون: "ادعـني المجنون جون، ولكن أعتقد أنني بدأت أحب هذا الشخص".

كانت الثقة فيه - وهي مسألة منجزة بالنسبة إلى بوش وبلير - مسألة أخرى. كانـت الولايات المتحدة تعرف بالطبع أن للقذافي برنامجاً نووياً ناشئاً قيد التنفيذ، لكن - في وضع يعكس ترددنا في إطلاع مشرف على معرفتنا العميقة بخان، أو في إطـلاع ولي العهـد السعودي عبد الله عن عمق معرفتنا بخلية المبتكر في الولايات المـتحدة - الفريق الأميركي البريطاني لم يتمكن من مواجهة القذافي بما كنا نعرفه عن نابذاته النووية وكيف عرفناه. فهذا من شأنه تعريض تينر للشبهة.

ما كان القذافي ليقرّ من ناحية أخرى بالبرنامج النووي، رغم توفر العديد من الفـرص. ففي الحكومات التي لا تعتمد الشفافية وإجراءات التحقق الداخلية، يقرّ الزعماء فقط بما يجدون أنفسهم مجبرين على الإقرار به. حتى الولايات المتحدة كان لها أخيراً تجربة من هذا القبيل.

كان التوافق ضمن الفريق الصغير - كابس وتينيت وبوش وتشيني - على أنه يجب تعزيز مكانة القذافي.

وهكذا حصل لمكانة شخص آخر، مكانة لاعب أكثر أهمية.

ازداد الوضع في باكستان سوءاً شهراً بعد شهر في أواخر عام 2002 وفي عام 2003، مع توصل أميركا إلى مزيد من الأدلة على نشاطات خان التي ما كان ممكناً إطلاع مشرف عليها، في حين كان الديكتاتور الباكستاني ودوره في مواجهة "القاعدة" يزداد حرصاً. كانت الإجراءات تتسم بنوع من السلبية العدائية: مع الثناء على مشرف لتعاونه، ازدادت عدائية الولايات المتحدة تدريجياً تجاه ديكتاتور يملك سلاحاً نووياً وهو زعيم كوريا الشمالية كيم جونغ إيل، الذي صادف أنه كان العميل الأول لمستشار مشرف وصديقه الحميم، أ. ك. خان.

احتشد العديد من الفرق في مكتب مدير الاستخبارات، الجناح التشغيلي للسي آي إي. التقى المسؤولون والمحللون المتعاملون مع تينر بكابس والفريق الليبي. وكانت قد وصلت ثلاث شحنات نابذات من خان إلى ليبيا في عام 2003.

كانت ستصل شحنة رابعة في أوائل شهر تشرين الأول/أكتوبر بحسب ما قال تينر لسائسيه. أطلع تينيت وكابس بوش وتشيني على الشحنة القادمة - واقترحا خطة تقضي بالازدواجية. في النهاية، وبعد أعوام من العمل من داخل شبكة خان، ستفسر الاستخبارات عن عمل. فقد حانت لحظة الحظر.

أعلم تينر سائسي السي آي إي بأن سفينة اسمها بي بي سي تشاينا كانت قد غادرت دبي في اتجاه قناة السويس تحمل على متنها تجهيزات نووية إلى ليبيا. طلبت الحكومة الأميركية إلى مالك السفينة، وهي شركة شحن ألمانية، تحويل مسار السفينة إلى مرفأ تارانتو الإيطالي. هناك عثر المفتشون على خمسة أقفاص كبيرة من التجهيزات النووية المصنعة في مصنع إنتاج خان في ماليزيا، سكومي للهندسة، فوضعت السلطات يدها عليها. وبالعودة إلى ماليزيا، حذف أورس تينر ملفه الوظيفي من سجلات الشركة، ونزع الذاكرة التي تحتوي على الرسومات الفنية الرئيسية للشركة من حاسوبه، وفر من البلاد.

أوقف العديد من الرجال خلال الأيام التالية، بينهم الشريك الصغير لخان، بوهاري سيد أبو طاهر، الذي أوقفته الشرطة الماليزية. وضع خان في الإقامة الجبرية في باكستان، بينما درس مشرف الطرق المختلفة التي يمكنه بواسطتها إدارة الوضع الدقيق الذي يقضي بالتعاطي مع صديقه الحميم ومستشاره.

أعطى حجز السفينة للولايات المتحدة فرصة للتعبير عن السخط والدهشة العامة حيال ما كان معروفاً سراً منذ أعوام، فطلبت التدخل من جانب مشرف والقذافي. ولأنه بدا أن معرفة الولايات المتحدة ناتجة في حينه من حدث واحد واضح، فقد أعطت الديكتاتورين فرصة السير قدماً، وتجاوز الأسرار المتعددة، والمحادثات المخادعة مع المسؤولين الأميركيين، واستخدام حادثة الـ بي بي سي تشاينا كنقطة انطلاق رديئة.

بدأ محللو السي آي إي والمتخصصون في السياسة في مجلس الأمن القومي من البداية تقريباً اعتبار الحادثة نموذجاً ذات خصائص تتضمن جمع معلومات استخبارية بشكل بطيء وثابت، وانتظار اللحظة المناسبة للتحرك، أو "انتظار التسديدة المناسبة" بحسب أحد مسؤولي السي آي إي المولعين بكرة السلة.

كان حجز الـ بي بي سي تشاينا يكشف أسبوعاً بعد أسبوع التفاعل الغامض والمضطرب في غالب الأحيان، بين السري والمرئي، وبين الليل الأظلم والفجر المشرق في ما يسمى "حرب" خيضت بمعظمها في الظل. بطبيعة الحال، لم يعلم أي من اللاعبين المتنوعين أي شيء يثير العجب نتيجة حجز السفينة. فجميع المشاركين - الولايات المتحدة وبريطانيا وباكستان وليبيا وربما ماليزيا وإيران وكوريا الشمالية بالتأكيد - كانوا على علم منذ أعوام. كانوا يعرفون أو يشكون بقوة في ما يعرفه الآخرون ربما، حتى لو لم يكونوا جميعاً يدركون مدى معرفة كل طرف بما يعرفه. هذا عنى أن الشعوب المختلفة التي يحكمها هؤلاء الزعماء، خصوصاً في الديمقراطيات الشفافة المتعارف عليها، أبقيت بحرص في الظلمة.

في التفاعل بين القرارات التي يتخذها محترفو الاستخبارات وحلقة صغيرة من صانعي السياسات - والادعاءات المتضاربة لفروع أخرى من الحكومة أو العموم،

مـــع الحق المعترف به في فهم ما يوجه السياسة الخارجية للولايات المتحدة فعلاً – تكمن جميع الخيارات تقريباً في أطراف الجزء الأول.

هذا عن على سبيل المثال أن المعلومات الاستخبارية التي تمّ الاحتفاظ بها لمدة طويلة عن المكانة البارزة لكوريا الشمالية في قاعدة عملاء خان، سرّبت بعد أسابيع قلـيلة مـــن تصويت الكونغرس في شهر تشرين الأول/أكتوبر 2002 على تفويض بـــوش استخدام القوة ضد صدام حسين – الديكتاتور الذي، بشهادة أكثر صانعي الـــسياسات شكوكاً، لا يمكن أن يكون قد وصل في بناء الأسلحة النووية إلى ما وصـــل إليه كيم جونغ إيل. عوضاً عن ذلك، اتخذ القرار بأن لا الكونغرس بكامله ولا الـــشعب الأميركي – الذي كان يعيش نقاشاً لقرابة عام، عما إذا كان صدام يمـــثل أم لا أكبر تهديد للعالم – يجب أن يعرف بأن السي آي إي أصدرت مذكرة داخلـــية في بداية شهر تشرين الأول/أكتوبر 2001 – في الوقت الذي التقى فيه بن بونك موسى كوسى – تشير إلى تطوير ليبيا المراحل الأولى من برنامج نووي، أو إلى أن إيـــران كانت تتقدم بسرعة كعميل لخان. ومع بدء قرع طبول الحرب ضد العراق، كان كل ذلك ليعتبر غير أساسي بتعبير قانوني.

بدلاً من ذلك، وبعد حجز سفينة الـــ بي بي سي تشاينا، عبّر مشرف عن صـــدمته، تمامـــاً كما فعلت الولايات المتحدة. فقد أطلق أخباراً مفادها "أننا خدعنا على يد إخواننا المسلمين"، في تصريح ملتبس وماكر يمكن أن يطبّق إمّا علـــى خان، الذي يمكن أن يكون قد استفاد كثيراً من بيع التكنولوجيا النووية الباكستانية، أو على القذافي الذي تبيّن أنه تحول إلى بطل باكستاني بالنسبة إلى الولايات المتحدة.

لم يُـــستجوب خـــان الموضـــوع في الإقامة الجبرية، و لم يُسمح للأميركيين بالوصـــول إلـــيه، و لم يتمكنوا من ذلك قط. وبعد أشهر قليلة، ظهر على إحدى شاشـــات التلفزة الباكستانية، متحدثاً باللغة الإنكليزية وموجهاً رسالة إلى جمهور عالمـــي أكثـــر منه محلي، معتذراً عن خيانته ومقراً، وهذا الأهم، أن "الحكومة لم تـــسمح قـــط بهذه الأنشطة". في المحصلة، أدّت صدمة مشرف وتصريح خان إلى فقدان الزعيم الباكستاني ماء وجهه، وإنما بصورة ضئيلة وقابلة للسيطرة.

الأمر نفسه انطبق على القذافي. فقد شكل حجز السفينة الغطاء لظرف بدا أنه خـــارج عن سيطرته – فهذا النوع من الأشياء قد يحدث أحياناً في نهاية المطاف – مما جعل الكشف عن برنامجه النووي منطقياً، إذ سبق أن خرجت إلى العلن.

علـــى طاولـــة المفاوضـــات في طرابلس، أظهر الزعيم الليبـــي لكابس وألن ابتسامة ماكرة فسارت الأمور نحو الأمام. وباستخدام الحجز كنقطة انطلاق، كما كـــان الآخرون يفعلون علناً، أعلن عما كانت الولايات المتحدة وبريطانيا تعرفانه سراً بالجزء الأكبر منه عن برنامجه النووي. وفي شهر تشرين الثاني/نوفمبر، تم اتخاذ القـــرار في شـــأن بعض النقاط الخاصة ببروتوكول نـــزع السلاح. وبحلول شهر كانون الأول/ديسمبر، جالت الولايات المتحدة وبريطانيا على المصانع الليبية برفقة ممـــثلين للوكالة الدولية للطاقة الذرية. اطّلعوا على أجزاء الآلات النووية وعناصرها الـــتي كـــان العديد منها لا يزال موضباً. في المقابل، نال القذافي ما أراده: رفعت العقوبات. وبالنسبة إلى النخبة الحاكمة في البلاد، تم التحكّم ببراعة بالمسألة برمتها، من دون أن يفقد قائد الثورة ماء الوجه بشكل ملموس.

بالنسبة إلى جورج دبليو بوش، كان عليه أن يقول مراراً وتكراراً الشيء الذي طالما أراد قوله للتعويض عن التجربة العراقية المتداعية، ما يشكّل نغمة مهمة "لإنقاذ ماء الوجه": أن القذافي سلّم سلاحه نظراً إلى ما أحدثه الاجتياح الأميركي للعراق من تغيير".

كـــان هـــذا خطـــأ، كما كانت في الأصل جميع التصريحات العلنية لجميع الأطـــراف المعنـــية في ما سمّي "بالمسرحية المزدوجة". لم تكن مسألة سوء تصريح: ســـواء كـــان مـــشرف أو بوش، كان الجميع يعلم أنهم يكذبون. وفي غياب أية شـــفافية، حـــتى في ما يتعلّق بالحكومة الأميركية، كان من الصعب جداً مواجهة التـــصريحات بدلـــيل قاطـــع، في المدى القريب على الأقل. هذا أيضاً تفهمه جميع الأطـــراف. المسألة الأساسية – غير المذكورة في النسخة النهائية للاتفاقات الجاهزة للتنفيذ – هي أنه سيتعيّن على جميع الأطراف في السلطة أن "تنقذ ماء وجهها" أو على الأقل ألا تخسر الكثير. فتلك الرسائل الموضوعة ببراعة، القادمة من إسلام أباد أو طـــرابلس أو واشنطن ستزداد عدداً، أو أنها لن تمسّ على الأقل. هذا هو العهد

و"المـــصلحة المـــشتركة" - المكان الذي يشترك فيه الديمقراطيون والمتسلطون هذه الأيام في كثير من الأمور.

طالما شكّل العراق المثال على فشل المحادثات مع ديكتاتور، ومثالاً سيئاً على أسلوب كل حالة على حدة، ينتهي بالنموذج التقليدي للجيش الذي يجتاح والذي بات محتلاً الآن. إلا أنه بالمقارنة "بالحرب ضد الإرهاب" القائمة على مبدأ جدهم واعتقلهم، حورب العراق في وضح النهار بأزيز الكاميرات. ولذلك لاقت الإدارة الأميركية والمحللون الذين استضافتهم البرامج التلفزيونية العديدة بحلول خريف عام 2003، في مختلف البلدان المتقدمة حول العالم، غضباً وارتباكاً - أو بتعبير شيروود أندرسون - "حزن تحديث" حيال الاجتياح الأميركي.

كانت قد ارتكبت أخطاء جلية وواضحة بالنسبة إلى الجميع، مثل عدم حماية مخازن الأسلحة في البلاد وحل الجيش العراقي، الذي يمثل نوعاً من طبقة محترفة من الجـــنود يمكـــن شراء خدماتهم بتكلفة متدنية نسبياً، وأدنى بكثير من المليارات التي أنفقت في حينه لإخماد أعمال الشغب والتفجيرات والعصيان المسلح التي وقعت في صيف حار، قلّت فيه المياه والكهرباء وعمّ فيه الإحباط.

ما الذي كان يفكّر فيه الرئيس في ذلك الصيف، مع التثبت من أن الشكوك الأولية حول العراق وتداعياته للأصوات الرافضة في وزارة الخارجية والسي آي إي تـــوقعات حكـــيمة؟ بنى جورج دبليو بوش نظرته الخاطفة، في حالة نادرة، على ملاحظـــتين استطراديتين. الأولى أبديت في مؤتمر صحافي عقد في البيت الأبيض في شـــهر تموز/يوليو، عندما قال: "يشعر البعض بأنهم إذا هاجمونا [في العراق] سنقرر الـــرحيل في مرحلة مبكرة. هم لا يفهمون ما الذي يتحدثون عنه، إذا كانت هذه هي الحال... هناك البعض ممن يشعرون بأن الظروف تسمح لهم بمهاجمتنا هناك. أما جوابي فهو "أقضوا عليهم"".

هـــذا بالطـــبع أمر مقبول لمدة طويلة، فعند إطلاق قنبلة صوتية ضد بطل، أو عندما لا يتصرّف في مواجهة بالشراسة المتوقعة، فإنه يرفع النبرة في غالبية الأحيان ليظهر أنه ما من خوف أو شكوك... على الأقل ليس في باله. ينطبق هذا النوع من التـــبجّح على شؤون الرجال. لكن على حد قول المهاتما غاندي مرة "الرجولة لا

تكمن في الخداع أو التبجّح أو الغطرسة، بل في الجرأة على فعل الصواب ومواجهة النتائج إن في المسائل الاجتماعية أو السياسية أو في المسائل الأخرى. إنها تكمن في الأعمال وليس في الأقوال". إذا كانت الحكومة ممثلة بزعيم، فهي كيان مؤلف من آلاف الأيدي والوجوه. وفي هذه الحال، وفي ما يتعلق بمسألة "الأعمال" التي تحدث عنها غاندي، كانت الحكومة تحاول السيطرة على أمة من 27 مليون نسمة يبلغ عديد جيشها 150.000 فقط، نصفهم – أو حتى ثلثهم – من القادة العسكريين الذين يتمتعون بالخبرة في المسائل المطلوبة. هذا ما جعل كلام الرئيس فارغاً، وهو الأمر غير المرغوب عند محاولة التبجّح. فوضعية الفراغ تشجّع إجابة مضادة.

كانت الفجوة كبيرة حتى إن بريت هيوم، كبير مراسلي شبكة فوكس نيوز المؤيدة، سأل بوش عن مسألة "أقضوا عليهم" في مقابلة حصرية أعطاها الرئيس للشبكة في شهر أيلول/سبتمبر. فقال بوش إن غاية النكتة الأساسية كانت تشجيع القوات الأميركية التي كانت "شكيمتها قوية" في مواجهة البعثيين المحمومين والمتطرفين الدينيين والإرهابيين الأجانب – بمن فيهم "القاعدة" – الذين كانوا يتدفقون باستمرار عبر حدود البلاد المتخلخلة خلال الأشهر القليلة الماضية. ثم سأل هيوم: "من وجهة نظر عسكرية، هل تعتبر ذلك تطوراً مرحباً به أو غير مرحب به؟" فكانت إجابة بوش بالتحديد الملاحظة الثانية المعبرة عن تلك الفترة: "إنه سؤال مهم، لأنك تعرف أنني رجل سلام. ومن الواضح أنني آمل عدم حصول معارك. ولكنني أيضاً أعيش في عالم واقعي كوني الرئيس خلال "الحرب ضد الإرهاب". لذلك أعتقد أنني سأحاربهم هناك بدلاً من هنا، وأعرف أنه علي محاربتهم هناك بدلاً من مناطق بعيدة من العالم، حيث قد يكون من الأصعب العثور عليهم".

قامت فكرة "محاربتهم" في العراق حتى لا نحاربهم هنا على شيء ما كان الرئيس ليناقشه في العلن: الاعتراف بأنه لا يمكن الدفاع عن "الوطن". وما ألهب هذا الاستنتاج العسير وغير المشجع – كما كانت عليه الحال في غالبية الأحيان – كانت المعلومات السرية التي كشف عنها في شهر آب/أغسطس عن عدو كامن في مدينة نيويورك، عدو يحتمل أن يملك أسلحة دمار شامل كيميائية. هذا كان القلق الكامن وراء الأفعال والأقوال عند بوش والبيت الأبيض.

خلال التحليل الطويل الناقص، أبصر تفكير جديد النور في المكتب البيضاوي، من رحم العديد من المحاولات الاستراتيجية والعلنية المليئة لضم العراق إلى "حرب ضد الإرهاب" أوسع نطاقاً. كانت ببساطة الإجابة الهوجاء أن اسحبوهم إلى العراق، جميعهم، وجعل ذلك المكان الذي نختاره، حيث يمكن أن يواجه الجيش الأميركي القوي - مصدر قوتنا بدون شك - في النهاية خصماً مستدرجاً، مجموعة إرهابية تلو الأخرى، قوامه شتات عالمي من المختبئين. هذا أدى إلى إدراك جيد ارتجالي، دفع بوش إلى إطلاع هيوم عليه. كان المفهوم - المتعارف عليه نتيجة قرون من المواجهات بين الجيوش وعقود من الأفلام السينمائية عن الغرب الأميركي - نوعاً من المكاشفة.

شاهد دونالد رامسفيلد المنتبه دوماً هذه التصريحات العلنية باهتمام بالغ، إذ كان يعرف أن هذا النوع من التخبّط العشوائي لا يمثل استراتيجية. فالتصريحات العلنية للرئيس عكست الفجوة: كانت تنقصها حدود العملية الفكرية المنسجمة عما كان على المعركة الأصلية الواسعة النطاق ضد الإرهابيين أن تفعله بتحدي العراق الجلل.

ليس رامسفيلد بحسب عدد من العاملين معه رجلاً يبدي رأيه دوماً في المجالس. ويتمحور معجمه، حتى في أرفع الاجتماعات مستوى، على الضمير "واحد" - كما في قوله قد يتساءل الواحد، قد يفترض الواحد، قد يعتبر الواحد - كطريقة تسمح له بالمشي على أطراف أصابعه على أرض صلبة من دون أن يخطو خطوة عليها. أما تشيني فيتكلّم عن العقائد الشاملة، وعن الطريقة "التي يجب أن نفكر فيها الآن". لذلك رامسفيلد هو بمثابة النمر على طاولة الاجتماعات.

إلا أنه بحلول منتصف شهر تشرين الأول/أكتوبر، وجد نفسه مضطراً إلى الدخول في أفعال التأكيد والتصريحات عن الاستراتيجية الأصلية. فقد كان أسبوعاً سيئاً جداً في العراق.

التقى الوزير "القادة المحاربين" وطرح أسئلة عليهم. بعد ذلك، كتب مذكرته التي رفعها إلى الرباعي الأرفع مستوى: نائبيه الأعلى رتبة الجنرال ديك مايرز، رئيس الأركان المشتركة، والجنرال البحري بيتر بايس، نائب رئيس الأركان المشتركة، والشخصين اللذين يثق فيهما منذ وقت طويل ولفوفيتز وفايث.

16 تشرين الأول/أكتوبر 2003

الجنرال ديك مايرز

بول ولفوفيتس

الجنرال بيت بايس

دوغ فايث

من: دونالد رامسفيلد

الموضوع: الحرب الشاملة ضد الإرهاب

الأسئلة التي طرحتها على القادة المحاربين هذا الأسبوع كانت: هل نحن نربح أم نخسر "الحرب الشاملة على الإرهاب؟" هل وزارة الدفاع تتغير بالسرعة المطلوبة لتتعاطى مع البيئة الأمنية للقرن الحادي والعشرين؟ هل يمكن لمؤسسة كبيرة أن تتغير بالسرعة الكافية؟ هل تتغير الحكومة الأميركية بالسرعة الكافية؟

جرى تنظيم وزارة الدفاع وتدريبها وتجهيزها لمحاربة كبرى الجيوش والقوات البحرية والجوية. وليس من الممكن تغيير وزارة الدفاع بالسرعة الكافية لخوض "الحرب الشاملة ضد الإرهاب" بنجاح؛ وقد يكون واحد من الحلول البديلة محاولة إنشاء مؤسسة جديدة، إما ضمن وزارة الدفاع أو خارجها - مؤسسة تركّز بلا هوادة قدرات الوزارات والوكالات المختلفة على هذه المشكلة الرئيسية.

في ما يتعلق بالإرهاب العالمي، يبدو السجل منذ 11 أيلول/سبتمبر كالآتي:

حققنا نتائج مختلطة مع القاعدة، رغم أننا مارسنا ضغوطاً كبيرة عليهم - إلا أنه يبقى علينا ممارسة المزيد بالمعنى العريض.

حققت الحكومة الأميركية تقدماً ملحوظاً في اعتقال المطلوبين العراقيين الـ 55 الأوائل أو قتلهم.

حققت الحكومة الأميركية تقدماً أقل في تعقب طالبان - الملا عمر، حكمتيار، إلخ

في ما يتعلق بأنصار الإسلام، لقد بدأنا للتو.

هل ابتكرنا المزيج الملائم من المكافآت والعفو والحماية والثقة في الولايات المتحدة؟

هل يتعين على وزارة الدفاع وضع طرق جديدة للتنظيم والتدريب والتجهيز والتركيز للتعامل مع "الحرب الشاملة على الإرهاب"؟

هـــل التغييرات التي حققناها أو التي نحققها متواضعة جداً وإضافية؟ انطباعي هو أننا لم نقدم بعد على خطوات جريئة، رغم أننا قمنا ببعض الخطوات الملموسة والمنطقية في الاتجاه الصحيح، لكن هل هي كافية؟

اليوم، تنقصنا المقاييس لمعرفة ما إذا كنا نربح "الحرب الشاملة على الإرهاب" أو نخسرها. هل نعتقل أو نقتل أو نردع أو نثبط كل يوم إرهابيين أكثر مما يوظف المدارس الدينية ورجال الدين ويدربون وينشرون ضدنا؟

هـــل يتعين على الولايات المتحدة وضع خطة واسعة النطاق ومتكاملة لوقف الجيل المقبل من الإرهابيين؟ تبذل الولايات المتحدة جهداً قليلاً نسبياً في إطار خطة طويلة الأمد، ولكننا نبذل جهداً كبيراً في محاولة وقف الإرهابيين. إن نسبة النفقات إلى العوائد ضدنا! فتكلفتنا مليارات مقابل ملايين يتكبدها الإرهابيون.

هل نحن في حاجة إلى منظمة جديدة؟

كيف نوقف أولئك الذين يمولون المدارس الراديكالية الدينية؟

هل وضعنا الحالي هو "كلما عملنا بجهد، كلما تراجعنا"؟

مـــن الواضـــح أنّ التحالف يمكنه أن يربح في أفغانستان والعراق بطريقة أو بأخرى، لكنها ستكون عملية طويلة وشاقة.

هل تحتاج السي آي إي إلى اكتشاف جديد؟

هل يتعيّن علينا إنشاء مؤسسة خاصة لاستدراج المدارس الدينية الإسلامية إلى مدرسة أكثر اعتدالاً؟

ما الأمور الأخرى التي يجب أخذها في الاعتبار؟

أرجو أن تستعدوا لمناقشة هذه الأمور في اجتماعنا يوم السبت أو الاثنين.

شكراً.

رغم عدم المس بالدافع الضيق لرامسفيلد، فإن وضع علامات الاستفهام حيث كـــان يمكن بسهولة وضع نقاط يدل على أنه سعى في رسالته الخطية مع ذلك إلى

زيـادة الجهـد لرعاية القطط المتعددة والمتنوعة لسياسة الولايات المتحدة. كانت وزارة الـدفاع تـسيطر على بعض من المشاكل التي أثارها، لكن غالبية المجالات المذكورة - بما في ذلك اعتقال الإرهابيين، وهو جهد لا ينكره أحد على السي آي إي - كانـت خاضـعة لإشراف الوزارات الأخرى. لكن المقطع الأكثر إثارة - لمعـرفة ما إذا كنا نربح "الحرب الشاملة على الإرهاب" أو نخسرها. هل نعتقل أو نقـتل أو نردع أو نثبط كل يوم إرهابيين أكثر مما يوظف المدارس الدينية ورجال الـدين ويدربـون وينشرون ضدنا؟ - هو إجابة رامسفيلدية ماكرة على ما قاله الرئيس إن "أقضوا عليهم" و"محاربتهم هناك بدلاً من هنا".

افترضت التصريحات نوعاً من المعايير النوعية، كما آمن ليندون جونسون مرة في الأيـام الأولى لحـرب فيتنام، بأن العدو راكد ومحدود ويمكن تحديده بسهولة. لذلك يجب القضاء عليه وهكذا تنتهي الأمور.

تحـول اسـتخدام كلمة "ردع" - تعبير مفضّل في مذكراته في الأيام الأولى للإدارة - إلى "تقدّم"، وهو تعبير ملائم وفعال، ويشكل هدفاً متحركاً.

وبحلـول خريف 2003، حصل تحرك واضح في اتجاه غير مرجو ومرغوب فيه. فوجود 150 ألف جندي أميركي في قلب العالم العربي كان أداة توظيف جهادية ذات جاذبية شبه غامضة النواحي. كان التوظيف الإرهابي متصاعداً، بشكل واضح وجلي، عـبر العـالم العربي. أشارت تقارير السي آي إي إلى أن المدارس الإسلامية الدينية في الـيمن والمملكة العربية السعودية وإيران تسجّل اكتظاظاً، وكانت كذلك المساهمات لرجال الدين الراديكاليين وعملياتهم تسجّل ازدياداً. كان الملايين يشاهدون يومياً على قـناة الجزيـرة الفضائية صور الدبابات الأميركية في بغداد وتكريت، وكانت ملحمة العـراق تردع الشبان العرب - في العراق والخليج - من الوقوف على الحدود. كانوا ينـضمون إلى القـتال العالمي ضد "الصليبـي" بوش وجيشه الكافر دفاعاً عن قضية جـيلهم. هـل كـان وضعنا كما تساءل مرة رامسفيلد، "كلما عملنا بجهد، كلما تراجعنا؟" لم يكن من حاجة لوقف علامة استفهام هنا أيضاً.

قد يكون من غرائب التاريخ أن يتم العثور أخيراً بعد كل السعي لإيجاد غاية مشتركة بين مبادرتين كبيرتين - نضال اعثروا عليهم وأوقفوهم وإطاحة حسين -

علـــى رابط بين العراق و"الحرب ضد الإرهاب" الأوسع نطاقاً. كانت علاقة باعثة على الحلحلة (حفّازة)، كالوقود على النار تماماً.

ما لم يكن الرأي العام الأميركي يعرفه عندها أو منذ ذلك الحين هو أن الوقت كان سيئاً جداً لمواجهة موجة جديدة من الإرهابيين. ليس لأنه لم يكن لدينا فكرة أفـــضل عن ملفاهم ووسائلهم المختلفة. كانت لدينا هذه الفكرة. كان هناك تقدم في اعـــتقال بعـــض قادة "القاعدة"، ومجموعة من المسؤولين والداعمين المتوسطي الأهمية. لقد علمنا الكثير منذ عامين عن شكل العدو ونياته.

لكننا في الأشهر الأخيرة من عام 2003، بدأنا نفقد بصرنا.

بدأت الحكومة الأميركية تفقد بصرها.

بدأت الشبكة العالمية للإشارات المبنية بعناية وما يمكن تسميته بالاستخبارات المالية بالتراجع.

باختصار، توقفت "القاعدة" والتابعون لها والمتعاونون معها، عن ترك بصمات إلكتـــرونية. بدأ الأمر بطيئاً، لكنه أصبح في ما بعد اتجاهاً متميزاً وواضحاً ومحدداً. بدأوا بالعمل في الخفاء.

مـــن جهـــتهم، بدا أنها مسألة سياسة تشغيلية. كان بن لادن بشكل خاص متنبهاً عبر الأعوام لاتصالاته، بينما لم يكن آخرون، بينهم الظواهري، محترسين إلى هـــذه الدرجة. كان يجب تنفيذ العمليات - مهمة يجب تنفيذها بسرعة مدروسة. تحـــرّك مسؤولو "القاعدة" قدماً مع بعض الاحتراس غير الكافي، لاعتقادهم أنه لا يمكن تحديدهم وسط المعمعة الإلكترونية العالمية. وعندما بدأت النشاطات الممكن تعقبها إلكترونياً - من الاتصالات الهاتفية عبر الأقمار الاصطناعية إلى السحوبات من الحسابات المصرفية - تظهر في الجدول العالمي في قاعدة السي آي إي، أظهرت الوكالة سمة حيوية نادرة ضمن الحكومة عند هذه النقطة: الصبر. كانت تتمّ معالجة كـــل شـــيء بعناية، بما في ذلك إبقاء المعيّنين السياسيين - وكلاء انعدام الصبر - متحفظين على البرنامج. أُحضر مسؤولو مجلس الأمن القومي الواحد تلو الآخر إلى قاعدة لانغلي حيث قدّم فيل القلق رغم اهتياجه عروضاً رصينة وأنيقة. كان يقدم عروضاً على برنامج "باور بوينت" أظهر فيها كيف كانت الشبكة العالمية الواسعة

تضاء بنقاط صغيرة من المعلومات. ثم تمنى النجاح في السفر لكل معني أو معنية.

كـــان هـــناك ضـــمن هذا الإجراء تفهم من السي آي إي لقيمة العلاقات المـــتحفظة: كـــان انعـــدام الصبر يأتي من أولئك الذين يتبوّأون أعلى المستويات الـــسياسية والـــذين هم على تواصل مباشر ومنتظم مع بوش وتشيني. كان الثنائي بطبيعة الحال في حالة دائمة من انعدام الصبر - أساس نموذج إدارتهم - وكان جميع مـــن يحيطون بهم يكافئون بتقديم "المخرجات". إنه دليل حار واسم حقيقي متلائم مع اسم مستعار، موقوف.

ما كان فيل القلق يعرفه هو أنه كان على الشبكة إقصاء المعلومات المتأتية من شبكات العنكبوت الخاصة بالسي آي إي، والإيقاع بالمشتبه فيهم بالتدرّج، حتى لا يكـــون هناك شعور طارئ بأن عملاً معيناً أدى إلى اعتقال. كان الهدف في النهاية وفي غالبـــية الأحيان عدم الاعتقال فوراً، بل اعتماد بروتوكول "ضرب الحيوان"، حيث يمكن للفريسة الركض في أدغال كاراتشي أو الرياض وإضاءة السبل - سبل يمكنها أن تقود إلى حيوانات أخرى، ربما حيوانات كبيرة.

بهذه الطريقة تمكنا، اعتباراً من بداية عام 2002 وحتى أواخر عام 2003، من معرفة الكثير عن "القاعدة"، ومن يرتبط بمن، واعتقال عدد قليل من المشتبه فيهم، غالبيـــتهم غابوا عن الأنظار في سجون أميركية ما وراء البحار أو ما يشبهها، أو ربمـــا في وجهـــات أسوأ داخل اليمن أو باكستان أو المملكة العربية السعودية أو الأردن أو مصر. هل غالبيتهم مذنبون بما اتهموا به؟ بعضهم كذلك طبعاً. جميعهم مذنب بإثارة الشك، والشك بالنسبة إلى الولايات المتحدة سقف العمل.

في الـــنهاية، ومـــن دون دهشة، اكتشف خصومنا الأمر. كانت فعلاً مسألة استنتاج. فقد اعتقل ما يكفي من الأشخاص، وأعطت نشاطاتهم المشتركة إشارات على كيفية تحديد أماكنهم والقبض عليهم.

قـــال أحد مسؤولي الاستخبارات الكبار: "فوجئنا أن الأمر تطلب منهم هذا الوقت الطويل، لكن الدرس هو أنه مع عدو قابل للتكيّف وصبور، يؤدّي الانتصار أحياناً إلى مجموعة التحديات التالية. في هذه الحال، فعلنا بعض الأشياء التي نجحت كثيراً، وبدأت تتطور".

أو تتـــراجع. بـــدأ بـــرنامج "القاعدة" الذي يستخدمه ما تبقى من الشبكة والـــتابعون لها والمتعاونون معها بالتشديد على أهمية استخدام البريد لنقل الأموال والرسائل المسلمة باليد. أدى هذا إلى إبطاء وتيرة العمليات، إن لم يكن نطاقها، مما اعتبر تالياً انتصاراً.

يقـــول المدير التنفيذي السابق للسي آي إي حتى عام 2004 بازي كرونغارد إن "المجال المالي كان المجال الأكثر نجاحاً، المجال المنسّق على صعيد الحكومة برمتها في "الحـــرب ضد الإرهاب". وقد عاد عمل هذا الفريق علينا بفائدة كبيرة. وكان ذلك المثل الأفضل على أفضل تعاون فعلي على ما أعتقد. لقد عملوا بصمت تحت الرادار. استفاد الجميع".

في هـــذا الوقت، كانت الأمثلة على الخلايا الإرهابية تتخذ شكلاً معيناً. كانـــت هذه الخلايا المنجزة خلسة والمنتشرة وغير المربوطة إلى حد بعيد بشبكة مركـــزية تعمـــل مـــن تلقاء نفسها، وتموّل نفسها بنفسها في غالبية الأحيان، وجاهـــزة لتحمـــيل هـــذا التوجيه التشغيلي الرئيسي من عدد كبير من المواقع الإلكتـــرونية الجهادية. لم يكن هناك مال لتعقبه، ولم تكن هناك حاجة لإجراء اتـــصالات بشبكة القيادة. كان بعضهم أصحاب امتيازات سيئين، يستخدمون برنامج "القاعدة" ويطلبون الموافقة على العمليات الكبرى، تماماً كما تفعل خلية المبتكـــر السعودية. كان آخرون أكثر استقلالية على ما يبدو، إذ كانوا يصغون بـــوقار لخطابات بن لادن أو أحاديث الظواهري الصاخبة، ثم ينفذون برنامجهم الصغير الخاص، كنموذج Amway.

تـــرك الجمـــيع القالب الأساسي - تصميم استثنائي وباهظ - في حالة من الإهمـــال المتـــزايد. ومع ميل الأمور إلى البرودة، بدأ الناس بالانحراف عن أسابيع الساعات التسعين.

قـــدّم دافـــيد أوفهـــاوزر مـــن وزارة الخزينة رسالة استقالته إلى بوش في 2 أيلول/سبتمبر، وغادر بعد أشهر قليلة، تاركاً حياة المحاماة، التي أمضى فيها العقود الماضية من حياته، ليشغل وظيفة عالية الدخل كمستشار عام لشركة "يو بي إس"، الشركة المالية العالمية.

تــبعه الآخــرون من المجموعات المالية المختلفة - كان له المكانة المرموقة في الحكــومة التي يمكن من خلالها القفز فوق تصوينة عالية في عالم الشركات. بطبيعة الحــال، كان الباب الدوار يتأرجح بحرية داخل الحكومة. فقد كان منع الإرهاب مجال عمل شركات كبرى ذات نفوذ عالمي - يريد كل منها الآن رئيس جهاز أمن يــدرك ما هو الخطر الحقيقي. كان مسؤولو السي آي إي حتى هذه المرحلة يميلون إلى المحافظة على ثباتهم مع رواتبهم المتواضعة ومنافعهم الحكومية، والبقاء حيث هم بــسبب النضال الملزم وإنما المضني وإخلاصهم لتينيت وماكلولين. في هذا الوقت، كان مويلر يتعاون مع شركاء غير ديرتي هاري، إذ عين أربعة نواب مختلفين له منذ اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر.

لكن من بين جميع من هم في سدة قيادة مكتب التحقيقات الفدرالية - التي لم تــتمكن مــن الإشارة إلى اعتقال وحيد لإرهابي فعلي وعامل ومقاضاته - كان لدينــيس لورمــيل واحدة من السير الأفضل قيمة. فالطريقة التي كان الإرهابيون يتــنقلون بها عبر البنية الكامنة المالية الكونية، محولين المؤسسات إلى ضيوف عندهم وإلى قــواعد تشغيلية، كانت ما يعرفه أكثر من أي كان. بدأت الشركات تقترب منه في صيف 2003، ولكنه عمد إلى صدها.

مــا تــلا كان أكثر من مجرد أهمية عابرة. فحتى هذه المرحلة، كان واضحاً بالنسبة إلى من هم في أعلى الهرم الحكومي أنّ الخبراء العشرة القلائل الذين يعرفون كيف يمكن خوض "الحرب ضد الإرهاب" المكشوفة حديثاً كانوا يغادرون، الواحد تلو الآخر، أسبوعاً بعد أسبوع.

كانت ضغوطات محاربة عدو مُتملّص من داخل البيروقراطية السلبية العدائية حــادّة. فعندما لم تكن الأمور تتمّ أو لا تتمّ بالشكل المناسب، لم يكن من السهل علــى مــن نال أو لم ينل الترقية التالية الانتقال إلى مكتب ذات نوافذ. كان يمكن فقــدان الحياة. كانت لعبة التسليف والدين عميقة. كان يمكن للمكروه التقليدي للمنظمات الكبرى - دلالة ناقصة، مذكرة لا تصل في الوقت المناسب في المكتب المناسب، خلاف بين وزارتين يصل في النهاية إلى طريق مسدود - أن يحمل وطأة الكابــوس، وكان كذلك في غالبية الأحيان. ازدادت حالات الانهيار واضطرابات

القلق ومحاولات الانتحار في المكاتب الصغرى، حتى إنها بلغت المكاتب العليا. وفي شهر نيسان/أبريل 2003، وضع رئيس الوحدة المسؤولة عن حزب الله والأصوليين المتطرفين الشيعة في مكتب التحقيقات الفدرالية حداً لحياته بإطلاق النار على نفسه من مسدس مكتبه.

مع نهاية الصيف، كان مخزن وزير المالي قد أقفل أبوابه، مع حجز العديد من الطرود المتوسطة المستوى ووقف العديد من المسؤولين والعثور على كنز من المعلومات المالية. كانت بطاقات الائتمان المشغّلة من خلال "فيرست داتا"، والتي باتت مجرد إجراء دعم بسبب فعاليتها المحدودة، تعمل من تلقاء نفسها. نصب مكتب التحقيقات الفدرالية المزيد من أفخاخ التحويلات السلكية من خلال "ويسترن يونيون" لصالح أبي ديشتر - واحداً في شهر آب/أغسطس وآخر في شهر تشرين الأول/أكتوبر - لكن بدا أنّ الطريدة في القيادة الفلسطينية كانت بدأت أخيراً تتحلى بالحكمة.

في أحد الأيام في بداية الخريف، جلس لورميل على حافة السرير، كما يفعل في كل صباح. لكنه قال لاحقاً لزوجته إنه كان "يتحدث مع نفسه". وبالنسبة إلى رجل كان ينهض من فراشه مدة عشرين عاماً - حتى في ظلمة الساعة 4.45 فجراً كما لو أنها كانت ساعة الذروة - كانت مواجهة غير اعتيادية نوعاً ما. في السن التاسعة والأربعين، مع 60 باونداً إضافياً (27 كلغ)، وحالة نفسية سيئة كان يقول بصوت خافت هل أنا فعلاً قادر على النهوض من الفراش؟ هل يمكنه خوض نهار معركة جديد، وشرح كل شيء بطريقة لورميل، مراراً وتكراراً، للجان الإشراف التابعة للكونغرس - في حين أنها ليست نقطة قوته؟ فقد دخل مؤخراً في جدال في الكابيتول بين مسؤولي مكتب التحقيقات الفدرالية وفرانك وولف، النائب الجمهوري عن فرجينيا وعضو لجنة المخصصات التابعة لمجلس النواب. كان وولف مسعوراً من كتاب قرأه - ماسات الدم لغريك كامبل - يؤكّد أن "القاعدة" كانت تستفيد من تجارة الماس، وكان يطالب مكتب التحقيقات الفدرالية بإجابات. قال لورميل، الذي لم يتمكن عملاؤه من عدم تأكيد الادعاءات، إن وولف "رهينة لوسائل

الإعلام". قال وولف، والأوردة مندفعة من رقبته، "هل سميتني لعبة بحيث أُستخدم لتحقيق مآرب شخص آخر؟" قال لورميل أن الأمر كان "بكل احترام لمصلحتك"، لكنه كان مشهداً قبيحاً، قبيحاً ومربكاً. ومع وجود مجرمين أو حتى إرهابيين، كان قتالاً واضحاً، وحتى قتالاً عادلاً. حاولت النفاذ إلى عقولهم، وحاولوا النفاذ إلى عقلك. يحاولون أحياناً التهرب. أحياناً تمسك بخناقهم. لكن في معارك المكاتب وصدامات غرف الاستماع، ما كان أحداً يقاتل بعدل. كانوا يقولون شيئاً ويفعلون عكسه فعلياً. كانوا يتسممون وهم يشهرون السكين. كان ذلك كافياً لتفضيل السفاحين غير المخادعين.

وهكذا في نهاية شهر تشرين الأول/أكتوبر، وبينما كان يسير في المطبخ وهو يتحدث على هاتفه الجوال بعد تناوله فطور الساعة العاشرة الاعتيادي، قال لكبير الموظفين، "نعم قل لهم إنني سآخذها".

أقفل الخط ونظر إلى مولي فقالت له: "لا أستطيع أن أصدّق أنك تفعل ذلك حقاً". فطالما تصوّرت أنه سيمضي حتى النهاية إلى حين بلوغ سن الستة وخمسين الإلزامية للتقاعد من مكتب التحقيقات الفدرالية. كان وجهها لا ينمّ عن أي تعبير طيلة أشهر عندما كان يسألها عما يجب أن يفعله. كانت تقول: "دينيس، يجب أن يكون هذا قرارك. لكن أصغِ لما يقوله لك قلبك".

قال هناك في المطبخ: "نعم، أعتقد أن الوقت قد حان. الوقت للأمر التالي".

وكان هذا ما حصل تقريباً.

بعد شهر وثلاثة أيام، في 1 كانون الأول/ديسمبر، حصل لورميل على شيك مقابل إجازة تراكمية، إذ كان بالكاد قد أخذ يوم إجازة طيلة 12 عاماً. انتهى الأمر بـ "مقدار وافر ولائق من التغيير" على حد قول دينيس له ولمولي، التي قامت بعمل علاقات استثمارية مع شركة مالية، للانتقال من منزلهما في المدينة في الضواحي الشمالية لفرجينيا وبناء منزلهما الخاص. كان لدينيس غرفة من المنزل مشغولة بعناية. كان الطابق السفلي صالة للرياضة، صالة بكل ما في الكلمة من معنى، مع طاولتي بليارد وطاولة للعبة الأقراص الخشبية وبار

للمرطبات وخمسة أجهزة تلفزيون مع كايبل. نعم حقاً، خمسة أجهزة تلفزيون. خمس مباريات كرة قدم الأميركية في آن معاً. كان يعلّق قميص فريق كرة القدم الأميركية لجامعة سانت بيتر في نيوجرسي على الحائط، وصور مباريات كرة القدم التي خاضها ولداهما اللذان كبرا الآن. كان دينيس المدرب، إذ لم يكن قد بات بعد شديد الولع بوظيفته في شركة "آي إي إس"، شركة الطاقة الكبرى، القائمة في مدينة ألكسندريا في فيرجينيا، التي قالت إنها تريد التشدّد في مسائل الامتثال لتجنب انزلاق مشابه لانزلاق شركة "إنرون"، أو تجنب حصول انزلاق مشابه. لكن أعمال بناء المنزل الجديد كانت لتبدأ قريباً، وهذا ما أبقاه مشغولاً.

أقام له مكتب التحقيقات الفدرالية حفل وداع رصيناً، لم يتضمّن كحولاً بل حلويات مختلفة. انشغل مويلر في اللحظة الأخيرة، فيما حضر جون بيستول، المدير التنفيذي المساعد لمكافحة الإرهاب والتجسس وقال بعض الكلمات.

بعد ذلك، أفرغ دينيس مكتبه. لم يكن هناك الكثير ليفرغه، حتى بعد 28 عاماً. معدات المكتب، وصور العائلة، وبعض التنويهات الموضوعة في إطارات، ولوحة كبيرة لتوليفة من الصفحات الأولى للصحف الصادرة في 12 أيلول/سبتمبر، صنعها واحد من رجاله له. كان ذلك يوم انطلاق عصر جديد في أميركا، واليوم الذي كان على فيه الأمة المحظوظة، بجميع شواطئها وجبالها وأمواجها، أن تسأل إن كانت ستكون محظوظة في ما بعد، ومن ثم الانتقال إلى العمل. عندما كان الرجال يدخلون مكتبه، ويجلسون على أحد كراسيها - بعيونهم القلقة والمحبطة - ويقولون "هذه هي!"، إنه قتال مستحيل، وإن العدو اللعين يمكن أن يكون في أي مكان، يتآمر، دون التمكّن من رؤيته أو التعرف إليه، وإنهم لا يستطيعون الكف عن التفكير في المباني والطائرات المحترقة والمتفجرات في المتاجر الكبرى، ليلة بعد ليلة، كان دينيس يكتفي بالإشارة إلى التوليفة. كان يقول "انظروا إليها، فهي تذكركم بسبب وجودكم هنا".

الآن نزع التوليفة الموضوعة في إطار وأزال المسمار عن الحائط بأظافره الثخينة. فقد تراجعت حدّة اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر، وتلاشت في المباهج

اليومـية للـناس الـذين يمضون حياتهم في تسديد الفواتير ومشاهدة المسلسلات وحـضور الأعراس. وهكذا كان يجب أن تتمّ الأمور. لكنه فكّر في محادثة له قبل أيـام قليلة مع فيل القلق، حصلت بعد اتصال اتفقا فيه على "تناول العشاء أحياناً، وفي فـيل جالساً هناك في الطبقة السفلية في لانغلي، مع تحول الصورة الكبرى إلى الـسواد. انتهى الربع الأول، وكان فريقه - هو وفيل ودايفيد والباقون - لا يزال منتصباً. لكن من أين تأتي القوة للربع التالي، وبمقدار أقل للنصف التالي، مع تلاشي حدة اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر، وعدم وجود برنامج، وازدياد الخصم حكمة؟

نظـر إلى توليفة 12 أيلول/سبتمبر - يا له من خراب ومن فوضى لعينة - ثم تأبّطهـا. كان يعرف ما سيفعل بها: يعلّقها على حائط صالة الرياضة، إلى جانب قميصه الرياضي القديم.

مـاذا كـان سـيبقى لجورج دبليو بوش وديك تشيني والمعاونين المختلفين للحكـومة بعدما بدأت وسائل وكالة الأمن القومي الصلبة ووسائل التعقب المالي الدقيقة في الزوال؟

كانت الأوهام تزداد.

كانـت المواصـفات تتعلّق مع نهاية شهر كانون الأول/ديسمبر بتقنية إخفاء الرسائل.

كـان يتعين على دون كير، نائب مدير الشؤون العلمية والتكنولوجية، شرح العبارة بإيجاز وإلحاح مرات عدّة، بدءاً من اجتماعه المقتضب مع الرئيس في المكتب البيضاوي قبل أسبوع من عيد الميلاد. تقضي تقنية إخفاء الرسائل بإخفاء الرسائل المرمّزة ضمن الأشكال المنقولة - الصور المتحركة والثابتة، والملفات الحاسوبية التي تحتوي على صور، وحتى عمليات نقل الأصوات. يعتبر تعميم هذه الطريقة متشعباً ويـتطلّب عـدداً كبيراً من اليد العاملة. حتى مع وجود أجهزة لفك الرموز، من الصعب فك رموز لائحة رقمية مخفية خلف صور أو صور متموّجة. حتى بالنسبة إلى الخـبراء في هـذا المجـال، وهم مجموعة يطلق عليهم اسم محللي تقنية إخفاء الرسـائل، فهو مجال من المؤشرات الإيجابية الخاطئة - نماذج قد تعني شيئاً أو قد لا تعني، وهي لا تعني شيئاً عادة.

غير أن مكتب العلوم والتكنولوجيا التابع للسي آي إي كان مقتنعاً باكتشافه أسوأ همّ ضمن الشريط الإخباري - موجز العناوين التي تظهر في أسفل شاشات التلفزيون - للنشرة اليومية لقناة الجزيرة الفضائية. في علم الأرقام، أكّد كير وفريقه وجود خطط لهجوم يتخطى اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر.

كان هناك عند هذه النقطة عدد غير اعتيادي من ثرثرات العطلات الحادة. وعادة ما يحصل ذلك في العالم العربي في فترة عيد الميلاد، ما يخلق كثافة اتصالات هاتفية ومراسلات غاضبة على مئات المواقع الإلكترونية الإسلامية عن النضال عبر العصور ضد "الصليبيين" والمجاهدين الإسلاميين. جرى تكرار رسالة مخيفة نشرت أولاً قبل أشهر قليلة، وتدعو المسلمين إلى إخلاء واشنطن ولوس أنجلس ونيويورك، على المواقع الإلكترونية المختلفة في شهر كانون الأول/ديسمبر. وفي التاسع عشر منه، يوم الجمعة الذي سبق عيد الميلاد، تمّ بث رسالة صوتية عبر قناة الجزيرة الفضائية لأيمن الظواهري قال فيها إنه "بعد عامين من طورا بورا... ما زلنا نلاحق الأميركيين في كل مكان... بدأت قوى الإسلام والجهاد تلاحق الصليبيين والخبثاء في أفغانستان والعراق وفلسطين وشبه الجزيرة العربية". كانت إذاعة هذا النوع من الرسائل عادة تسبق الهجمات.

لكن هذا كله كان في سياق وضع الطاولة. فما قدّمته السي آي إي للرئيس بالاستعانة بالخدمات الفنية لشركة خاصة كان مدهشاً بخصوصيته وشموليته. أشارات بعض الأرقام إلى أكثر من عشرين رحلة ووقت للإقلاع. وأظهرت أرقام مضغوطة مخفية أخرى إحداثيات الاستهداف - الأماكن غير المحظوظة التي يمكن أن تتجه إليها الطائرات الدولية، المكتظة بالركاب والوقود وربما بالعوامل الكيميائية أو البيولوجية، ما إن تدخل المجال الجوي للولايات المتحدة من مطارات أجنبية تطبق فيها مراقبة أقل احتراساً. راوحت الأهداف من المحيط إلى المحيط، ومن لوس أنجلس إلى نيويورك. كانت هناك إحداثيات للبيت الأبيض، ومسلة الفضاء في سياتل، ومدينة تاباهانوك الصغيرة والريفية في فرجينيا.

أُرسلت إنذارات تمهيدية يوم الجمعة، إلى نيويورك ولوس أنجلس، وتقدم الجميع نحو حال الذعر. فلو صدقت تقنية إخفاء الرسائل، كان أمامهم أيام

قلـيلة، حتى بداية الأسبوع التالي، قبل انطلاق الطائرات الأولى. فأمضى أرفع مسؤولي الإدارة - مسؤولو مجلس الأمن القومي، وأرفع مسؤولي السي آي إي ووزارة الأمن الداخلي وقليلون سواهم - عطلة نهاية أسبوع متحلقين ومن دون نوم.

أخـيراً، في نهايـة صـبيحة يوم الأحد، جلس الرئيس إلى الطاولة في غرفة الأزمـات، يحـيط بـه مسؤولي مجلس الأمن القومي وكبار نوابه. أعطى الجميع تقاريرهم، لكن غالبية العيون كانت شاخصة على تينيت ومعلوماته المقتضبة. كان من الواضح للجميع أن الشك كان يساور بعض مسؤولي السي آي إي مثل بافيت وكابـيس. لم يكن دون كير وعلماؤه كذلك، بينما بدا تينيت محايداً. لكن جون بـرينان، رئيس مركز تكامل التهديد الإرهابي - نقطة تجميع كل التهديدات من جميع أطراف الحكومة - شعر أن المعلومات صحيحة. بشكل أكثر تعميماً، كانت فرصـة للمركـز وبرينان، الرئيس السابق لجهاز موظفي تينيت، لإظهار بعضٍ من القوة. وقد فعل.

كـان في الـنقاش فـوراق وطبقات، مع العديد من العوامل المتغيرة والأدلة المعقدة، تماماً كالفرق المتنافسة في منافسة نادي رياضيات.

لا يفـضل الرئيس هذا النوع من النقاش. لذلك تدخل قائلاً: "حسناً، إليكم الـسؤال. ألا يجـد أحد منكم مشكلة في وجود عائلته على متن هذه الطائرات؟" ونظـر في هذا الاتجاه وذاك وأضاف: "هل من الضروري طرح السؤال على جميع من في الغرفة؟"

كان واضحاً أنه لن يفعل، فقد نظر الجميع أرضاً، مطأطئين رؤوسهم وزامّين شفاههم امتعاضاً. فقال: "حسناً لنفعل ذلك".

بعـد تسعين دقيقة، عقد توم ريدج اجتماعاً قصيراً في غرفة الصحافة لوزارة الأمـن الداخلـي. قال إن خطر حصول هجوم على الولايات المتحدة "في المدى القريب قد يكون ربما أكبر الآن من أي وقت مضى منذ 11 أيلول/سبتمبر 2001".

كـان هناك المزيد. قال: "تلقت أجهزة الاستخبارات الأميركية عدداً متزايداً

من التقارير الاستخبارية المتعلقة بالتهديدات. وتفترض هذه المصادر الموثوقة إمكان وقوع هجمات ضد الوطن في موسم العطل أو ما بعده".

أخيراً، كانت هناك مسألة الحجم. فقد ختم ريدج بالقول إن "المتطرفين في الخارج يتوقعون هجمات في المدى القريب يعتقدون أنها موازية أو أكبر" من اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر.

رُفِعَ مستوى الإنذار عندها من المستوى الأصفر، وهي حالة الحذر، إلى المستوى البرتقالي، وهي حالة الإنذار التي تم بلوغها خمس مرات منذ اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر، وكانت المرة الأخيرة في شهر أيار/مايو الماضي، وقد نسب الإنذار حينه إلى الانفجارات المفاجئة والاشتباكات المسلحة في المملكة العربية السعودية.

لكن هذا كان مختلفاً تماماً. فقد كانت وزارة الأمن الداخلي جاهزة وعاملة ومستعدة للاختبار. وكان على رأسها ريدج، الحاكم السابق لبنسلفانيا والصديق المقرب للرئيس، ونائبه آسا هاتشنسون، النائب الجمهوري السابق. كانا رجلين دمثين، ورفيقين جيدين، ومرحين ومتزنين ولامعين ومتفوقين تماماً.

يمكن قول الأمر عينه عن أي شخص قد يقبل التحدي اللذين قبلاه. كان يتعذر الدفاع عن الأمر من البداية. كان جمع وكالتين حكوميتين مشروعاً مروعاً، في حين كان يتوقع أن يؤدي جمع ثلاث وكالات إلى فوضى. وتعمل تحت إشراف وزارة الأمن الداخلي 22 وكالة.

شغل ريدج منصب مستشار الرئيس للأمن الداخلي بعد أسبوع من اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر، وانتقل ليؤدي دور تنسيق غير واضح، إذ عمل من دون موظفين ولا ميزانيات لنحو عام قبل إنشاء وزارته. كان ذلك عندما عاد هاتشنسون من الخارج وجرى إطلاعه على وظيفته كالتالي: حماية "الحدود ونظام النقل في الولايات المتحدة من الإرهابيين والقيام بذلك بطريقة متلائمة مع تدفق التجارة وحماية الحريات المدنية المنصوص عليها في القانون". هذا ما نصّ عليه النظام الأساسي. تركز المهام على مراقبة 300 مليون معبر حدودي سنوياً، ثم الانتقال إلى المطارات وسفن الشحن والحاويات... فينتهي الأمر بـ 1.8 مليار إجراء تفتيش

سنوياً. بعد الاجتماع المقتضب، أرسل رئيس جهاز موظفي رديج، المايجور جنرال بروس لاولور، ملاحظة كتابية لهاتشنسون، قال فيها:

عزيزي آسا،

1.8 مليار معاملة سنوياً.

كيف ستعالجها؟

بإخلاص،

بروس

كان هاتشنسون شأنه بذلك شأن ريدج، يعرف أن الفرق يتخطى الحسابات بشكل مخيف أو كما قال ممازحاً في ما بعد إن "فرص النجاح ضئيلة".

مـــع نهاية عام 2003، بعد عامين من اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر، كان يتمّ تفتــيش 5 في المئة فقط من حاويات الشحن التي تدخل الولايات المتحدة. بقيت المــصانع الكيميائية من دون حماية، حتى تلك القريبة من المناطق الحضرية. كانت الحـــال عينها بالنسبة إلى المصانع النووية. فقد كانت البنى التحتية للولايات المتحدة بجمـــيع أنـــواعها أهدافاً جذّابة. غير أنّ مدى هذا الضعف لم يكن معروفاً بصورة علنية.

قبل أشهر قليلة من إنذار عيد الميلاد، عندما اتشحت مدينة نيويورك بالسواد في شـــهر آب/أغـــسطس، كان المسؤولون في وزارة الأمن الداخلي متأكدين منذ الـــساعات الأولى أن الإرهابيين يقفون وراء هذا العمل. لماذا؟ قبل شهر، أداروا – مـــع مسؤولين من وزارة الدفاع ووزارة الطاقة – لعبة حربية افتراضية سرية جداً حاولت فيها مجموعة من الخاطفين الإطباق على شبكة طاقة ضخمة بناها مقاولون فدرالـــيون في إيداهو. كانت تلك الشبكة، على غرار جميع أنواع البنى التحتية في الـــولايات المـــتحدة، تعتمد نظام المراقبة الإشرافية وجمع البيانات: أجهزة صغيرة توضـــع في النقاط الرئيسية على طول كابلات وأنابيب سفلية طويلة يمكن التحكم بها عن بعد باستعمال التكنولوجيا المتطورة. واستعمل ما سمّاه الخاطفون في الخدعة "عاصـــفة إيداهو" للسيطرة على النظام خلال دقائق وحتى وضع شاشات تظهر أن كل شيء على ما يرام على لوحة التحكم بالشبكة.

باختــصار، كانــت الولايات المتحدة غير مستعدة لأي هجوم. واكتشف المــسؤولون الحكومــيون أنّ مواطن الضعف هذه كانت تواجه بما اعتقدوه إنذاراً عالمياً حقيقياً.

تم نشر الفرق في لوس أنجلس حيث ركّبت مئات أجهزة التعرف الإحيائي في مخــتلف أنحاء المدينة وعلى مقربة من المطار. وأدى طَرد مهمل إلى إخلاء متحف الفن في نيويورك. كما أدى طَرد آخر إلى إقفال أنفاق نيويورك بصورة مؤقتة. وقام البــيت الأبــيض بتدريبات على الإخلاء. وانطلقت طائرات إف 15 من القواعد القــريبة مــن المدن الكبرى الرئيسية المستهدفة لمواجهة أي طارئ. ووُضع آلاف رجــال الشرطة في مختلف أنحاء البلاد في حال تأهّب، وتمّ توجيه دعوات لشركتي الخطوط الجوية الفرنسية والبريطانية بوجوب وقف الرحلات.

في وقــت متأخــر مــن يوم الأحد، رنّ هاتف هاتشنسون في وزارة الأمن الداخلــي. كان السفير الفرنسي جان دافيد لوفيت الذي كان تلقى تحذيرات من شركة الخطوط الجوية الفرنسية.

"ســيدي نائــب الوزير، ما تفعلونه خطأ، ونحن لا نوافق عليه إطلاقاً – لا يمكنكم وقف هذه الطائرات".

فأجاب هاتشنسون بعد عرض بعض التفاصيل حول التهديد: "سيدي السفير، ببساطة لا يمكن لهذه الطائرات دخول مجالنا الجويّ".

تــأنى السفير لوفيت. فالفرنسيون ما كانوا ليسمحوا للولايات المتحدة باتخاذ القرار عما يجب أو يجب ألا يحصل في مطار شارل دو غول الدولي.

فقــال أخيراً: "سيدي نائب الوزير، قررت حكومة فرنسا من تلقاء نفسها، وقف هذه الطائرات".

ليبارك الله الفرنسيين. ثم تناول النقاش حول ما إذا كان يجب إبلاغ الركاب – المغــادرين في الــيوم التالي أو بعد يومين، وحتى حلول ليلة عيد الميلاد – بإلغاء رحلاتهم. فقال لوفيت: "يجب أبلاغهم بذلك طبعاً". فرد هاتشنسون: "الفكرة هي أنــه لو كان على متن هذه الطائرات إرهابيون، فنحن نريدهم أن يصلوا إلى المطار لنلقي القبض عليهم".

وهكــذا باتت عشرات الرحلات الدولية خلال الأسبوع التالي آلات للقبض علــى الإرهابــيين. كــان الــركاب يصلون إلى مطاري هيثرو وشارل دو غول ويــستقلون الطائــرات، ثم كان يلقى القبض عليهم، بعد تفتيش دقيق للحقائب وإخــضاع كل اسم على لائحة المسافرين لإجراءات تفتيش شاملة على يد مكتب التحقيقات الفدرالية والسي آي إي.

اجــتذبت الأسماء العربية الانتباه بطبيعة الحال. وبدا مسافر على متن رحلة قادمة من فرنسا ويدعى محمد أنه من المشتبه فيهم. لكن تبين أنه فتى في السابعة من العمر.

مــع توقــف الطائرات على المدارج لساعات، أثارت الأدلة على هجمات كيميائــية أو بيولوجــية محــتملة - الناشئة عن تقنية إخفاء الرسائل - المزيد من النقاشات، بما في ذلك وجود رجال ببزات غريبة على متن الطائرات.

ولكــن لم تــرَ هذه الفكرة سبيلاً إلى التنفيذ- فقد ينجم عنها الهلع - لكن الطائــرات كانت أحياناً تنتظر ساعات حتى يتلقى هاتشنسون الاتصال الذي يشير إلى التأكد من جميع الأسماء المدرجة في لائحة المسافرين.

عــند الثالــثة صــباحاً، وبعد انتظار طائرة لشركة الخطوط الجوية الفرنسية لــساعات، انتظر هاتشنسون في مكتبه اتصالاً من مايك غارسيا، موظف الارتباط مــن وزارة الأمن القومي مع أجهزة الاستخبارات. كانوا ينتظرون التأكد من اسم واحــد. ومرت ساعة أخرى. ثم جاء الاتصال. شكر هاتشنسون غارسيا، واتصل بدايفد كولستون في إدارة الطيران المدني، الرئيس المشرف على فرقة من إدارة أمن النقل التي أرسلت إلى فرنسا.

قال هاتشنسون بعدما تنفس الصعداء:"تم التأكد من الجميع للإقلاع".

فأجاب دايفيد: "أعطني دقيقة يا آسا". ساد الصمت لبرهة، ثم عاد إلى الهاتف.

"ماذا أستطيع أن أقول لك؟ لقد طار الفرنسيون. فقد أقلعت الطائرة".

بحلــول شــهر شباط/فبراير 2004، كانت قد بدأت التحاليل. و لم يتبين أي شيء على الإطلاق.

كانت تحليلات تقنية إخفاء الرسائل أصدق تعبيراً بقليل من علم الأرقام الذي يعود إلى القرون الوسطى.

جاهــد مدير في السي آي إي معني بهذه المداولات، بعد أعوام قليلة، ليضع كل هذه الأمور في نصابها.

قــال إن "إحــدى مــشاكل التكنولوجيين هي أنهم يشعرون دوماً بأنهم لا يحـصلون علــى التقدير الذي يستحقونه. لذلك عندما يكونون في واجهة مسرح الحدث أو وسطه، يطرحون على الطاولة أكبر مقدار ممكن من البيانات".

لكــن المــشكلة كانت أوسع، وكانت متعلّقة بانتشار الخوف، وهو وضع ينحدر فيه جميع أصحاب الفكر الراجح بأعداد كبيرة إلى حال من الذعر.

حــذّر مدير السي آي إي قائلاً بصوت مرتفع: "لا أحد يقول إنه لا توجد أدلّة! لقد وصلنا إلى حد لا يرغب أحد عنده في عدم وضع تقرير في شأن أي شيء لأنــه يــشعر بأنه هراء. ليس هناك من عتبة. يتمّ التبليغ عن كلّ الأحداث في كل مكــان. لا يميّــز الــنظام بين الأحداث. لا أحد يقول إنه "بناءً على تجربتي، هذا الــشخص كلب كاذب". لا أحد يقول إن "هذه التقارير لا تقوم على أي أساس البتة".

الفصل التاسع

القلوب والعقول

كان من المناسب أن تكون انتخابات عام 2004 مناسبة لكشف المعلومات.

فهـــناك في نهايـــة المطـــاف تكثر المراهنات، هنا وفي الخارج، عندما يتهافت الأميركيون على صناديق الاقتراع.

اتخـــذت الانتخابات الأميركية منذ انهيار الاتحاد السوفياتي ودخولنا في العالم الأحـــادي منحى تاريخياً متميزاً. لقد كانت هناك بالطبع إمبراطوريات عمّرت لمدة طويلة - الإغريق والرومان والمصريون والأتراك - لكن أياً منها لم تكن قوة مرعبة ناشئة من "موافقة مطّلعة" حساسة وقويّة للمرؤوس.

تـــشكّل الجملة بذاتها اختباراً للحكم الذاتي، يطرح السؤال الآتي... على أية معلـــومات ترتكز الموافقة؟ على الشغف؟ المنطق؟ الإيمان؟ الخوف؟ أو في ما بعد، بأية رسالة يؤدي بروز بعض القادة أو خطابهم المنمّق إلى عالم منقسم وخطير؟

يـــتطلّب المـــنطق الجهد الأكبر بين هذه الخيارات. فهو الأقل قابلية للتحكّم، علـــى الأقل من المستوى الأعلى إلى المستوى الأدنى، لأنه يعتمد على الوقائع، عند حدوثها، وعلى النموذج التجريـــبي الذي يعطي قيمة للدليل - الدليل الذي يؤدي إلى ســـباق مـــشترك غير قابل للجدل، أكثر من أي شيء آخر. افتتح عصر مُثُل المـــنطق الـــذي قامـــت عليه البلاد نقاشاً مفتوحاً وحاداً ومرتكزاً على الوقائع - مفـــسحاً حـــتى مجالاً دستورياً أمام الحريات المقدسة مثل حرية التعبير والصحافة والـــتجمع - لتـــشكيل قوة موازية للإيمان، أي قوة هائلة، مهما حاول المؤسسون اســـتيعابها قانـــوناً، وقوة موازية للخوف، المتأتي في غالبية الأحيان من الجهل، أو للرهبة مما ليس معلوماً. لم يستخدم المؤسسون كلمة مثل "شفافية" لتوجيه نقاشاتهم

حــول إجراءات التفتيش والموازين، وكانت محاولتهم تعزيز الإرادة العامة بالأسس الكافيــة تهــدف لجعل الحكمة والفضائل الجمهورية واحدة من الإمكانات على الأقل. كانوا ليستخدموا على الأرجح عبارة "نور الشمس".

ثم أن هناك "الرسالة" - شيء من قبيل النثريات وحساب للملاحظات التي لا تحمل أياً من الكثافة الأساسية للعناصر الأخرى، ولكن بإمكانها جمع العديد منها في آن معــاً. فهي مصممة بوضوح للإقناع بدلاً من الشرح، وليتمّ تقييمها على أيدي المــتلقّين لــيس فقط على أساس ردود أفعالهم الشخصية، وإنما أيضاً على أساس تقيــيمهم لردود فعل المتلقين الآخرين. بتعبير آخر، قد يؤيّد الناس أحياناً رسالة لا يوافقــون عليها أو حتى بغيضة، إذا اعتقدوا أنها ستوجّه الآخرين في الاتجاه الذين يرغبون فيه.

لإيجــاد الرســائل تــاريخ طويل في مجال الحكم الذاتي: فقد أوصى فلاسفة الإغريق بالمنطق الشديد بصياغة "الخطاب العام"، وحذروا من أولئك الذين كانوا يعــتمدون على مشاعرهم أو أحاسيسهم؛ وكانت لجفرسون وفرانكلين وواشنطن رسائل يقدّرونها ويرددونها غالباً ويعبرون من خلالها بحزم عن معتقداتهم. لكن هذه الجمــل المفضلة كانت نوعاً من خلاصة وعصارة حياة مليئة بالتجارب والدراسة والنقاشات الحادة والبحث عن ما هو معروف ومُدرَك - كانت نهاية عملية وليس بداية لها.

أما اليوم فغالباً ما تشكل الرسالة المناسبة - السطحية ولكن الواسعة النطاق - الاعتبار الأول. لكن نطاقها وحجم وصولها بدّلا من خصائصها. إذ يمكن في هذه الأيام تضخيم الرسالة بواسطة وسائل الإعلام الحديثة والتي تزداد عولمة، بطرق قد تــشوش المؤســسين وقد تعتمد في مصادرها على الصور الحية والسريعة بدلاً من العقــل أو التحليل الجاف والمبتذل. وتقوم الرسائل المبتكرة في عصرنا على نوعية استثنائية وديناميكية وعلى قوة حقيقية.

لم يكــن مفاجــأ أن تكون الولايات المتحدة مبتكرة في هذا الإطار. ويقود الحديث مع المراسلين المتمرسين، على غرار المراسل الأسطوري لصحيفة الواشنطن بوســت الذي تخطى السبعين من العمر والتر بينكوس، إلى العودة إلى التغيير خلال

فترة رئاسة رونالد ريغان، عندما ساهم المدير الإعلامي مايكل ديفر في ترسيخ الفكرة القائلة إن الصور تؤثر في مقدار الكلمات وربما أكثر من السياسات. فبعدما أخذ في الاعتبار أنّ لشبكات التلفزة الأميركية 22 دقيقة كل ليلة لتعبئتها خلال نشرات الأخبار، حرص على أن يكون لريغان "حدث إعلامي" كل يوم تقريباً - مشيعاً لموقع سياسي أو لالتزام حيال جمهور معيّن أو لأي شيء - بدأت الشبكات تغطيها بشكل سريع نظراً إلى حاجتها إلى الصور. ولم يطل الأمر بالصحف التي كانت تكتب عن الرؤساء بحسب بينكوس "عندما كانوا يقدمون على شيء يستحق الكتابة عنه"، لكي تسلك الطريق عينه. وهكذا يطلق كل يوم من البيت الأبيض حدث ورسالة. ثم كل يومين وكل ثلاثة أيام. ومنذ عشرين عاماً، تطورت إدارة الرسائل، عاماً بعد عام، لتطاول غالبية أوجه عملية الحكم الذاتي.

يجري الحكم على الرؤساء بحسب "ولائهم للرسالة"، كما لو أن الرسالة بذاتها - التي هي من صنع المحترفين وصقلهم وتلميعهم - هي حق سيدة الزعيم المنتخب بالشكل المناسب. وفي حين كان الأداء العام للنقاشات السياسية يتناول مجموعة متشعبة وعسيرة من المسائل المتعلقة بالرفاه العام للأمة، كانت هذه الرسالة الصغيرة الناعمة، المنمّقة والمزينة بالصور، لتتحول إلى قصة ذات شأن عن رجل وشخصية.

بعد الفائدة الثابتة خلال الأعوام الأخيرة، رزح هذه النموذج التشغيلي تحت وطأة عبء مفاجئ بعد اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر. فقد باتت النقاشات السياسية الفعلية عن "الحرب ضد الإرهاب" سرية، بعيدة عن النقاش العلنيّ العقلانيّ والصريح في الوقت الذي وجد فيه الرئيس نفسه فجأة رئيساً على أمة في حاجة إلى الوضوح. كانت آلة الرسائل التابعة للبيت الأبيض تؤدي عملاً إضافياً، دونما أي توقع بتقديم دليل حقيقي يدعم ما يقال. فقد بدأت الابتكارات في هذه اللحظة تصبح فعالة.

اعتنق الرئيس الذي طالما تحدث في العلن عن إيمانه الشخصي، لغة الفعل الجريء والإيمان المسيحاني في وصف مهمة أميركا ودورها الجديد بعد 11 أيلول/سبتمبر. فقد استخدم كلمات مثل "الدعوة" و"الحملات الصليبية"،

وتحـدّث عن أمة توجهها إرادة إلهية في "محاربة الشر" – في هذه الحال الإرهابيين الإسلاميين والكراهية والعنف – وتقديم "هدية الله"، الشكل الديمقراطي للحكومة، للبشرية جمعاء. لم يقدم أي من الرؤساء المعاصرين الذين شهدوا لإيمانهم الشخصي علـى هذا النوع من المراوغة المبدعة التي تزرع الحماسة في سياساتهم. فعندما كان الرؤساء يتطرقون من وقت إلى آخر إلى "إرادة الله" – مثل ويلسون أو لينكولن – كانوا يتجنبون التلميح إلى معرفتهم بإرادته، ولم يدّعوا قط أنها تدعمهم في العنف أو العدائية البشرية.

إلا أنـه، ومع صهر الخوف والإيمان في بيئة متعطشة إلى الوقائع، كان النقاش المتّـزن والعقـلاني حاضـراً. فقد تردّد صدى رسالة القناعة والفعل في الداخل. واجتذب هذا الأمر في البداية دعماً من الخارج، مستقطباً مساندة دولية من الشرق إلى الغـرب لمـبادرات أميركا المفتوحة ضد تنظيم "القاعدة" وطالبان والإرهاب العالمي.

كـان واضـحاً أن الرئيس الأميركي قد أضاف في الأصل جمهوراً ناخباً إلى حقيبـته، أسـرة دولـية شديدة الانتباه في تلك الأيام التي لا مثيل لها التي أعقبت اعـتداءات 11 أيلول/سبتمبر، إلى كلمات القوة العظمى الجديدة والوحيدة العازمة علـى الفعل. كان جمهوران – واحد في الداخل وآخر في الخارج – يعلقان على كل كلمة. وقد فرض كل ذلك قيداً خاصاً على الأميركيين، أجبرهم على التفكير عالمياً بالحسابات الكامنة وراء الرسالة – أي تقييم ردود فعل الشعوب الأخرى، إذ لم يعد العالم المطلع والمتخم بالأخبار يسمح بالتجزئة – وبالخطاب المنمّق والخطاب المحلي والآخر الأجنبي؛ والخطاب الذي يتوجه إلينا والآخر الذي يتوجه إليهم. كان الرئيس المنتخب بالطريقة المناسبة في حاجة إلى رسالة تتوجه بفعالية إلى الجمهورين معـاً، علماً بأن الجمهور الثاني يضمّ دولاً مارقة والإرهابيين أنفسهم. العالم واحد والرسالة واحدة. فقد دخلت الأمة رسمياً مجال عمل الرسائل.

أصبح الحزم والشراسة والإيمان شعارات أميركية، لكن مضامينها لم تكن هي عيـنها بالنـسبة إلى الجميع. فالمسلمون في أميركا والخارج – غير المتأكدين من خطاهم، مع بروز رؤية بن لادن الخبيثة عن الصراع الطائفي على حساب رؤيتهم

– حثوا البيت الأبيض على حذف عبارة "الحملات الصليبـــية" من خطابه. وقال البـيت الأبـيض إنه سيفعل، لكنه بدلاً من ذلك، كرر الكلمة فضلاً عن كلمات أخرى تحمل المعاني عينها للحرب المقدسة. وفي الوقت عينه، ترك ذلك الوضع وقعاً كبيراً على تنشيط مؤيديه المحليين على أسس الإيمان.

صاغ معاونو البيت الأبيض بعناية خطابات تحمل رموزاً قد تحاكي الورعين. وبـــذلك نجح التفريق بين الـــ "نحن" والـــ "هم" مع الاستعانة بالصور، حتى ولو كـــان ذلك قد رفع من شأن بن لادن بطريقة أو بأخرى. فقد كان سيموت قريباً في أي حال من الأحوال، إذ توقع صقور الإدارة حصول ذلك في عام 2002، مع مراقبتهم لمسألة أساسية مفادها أنّ رسالة أدّت إلى فائدة سياسية هنا أحدثت فرصاً متنامية لأعدائنا. وعلى الصعيد الداخلي، صرف الرئيس النظر عن القلق حيال تأثير رســالته في قاعدته الشعبية غير المصوّتة في الخارج. فقد كانت أميركا، من خلال صــوته توضــح نياتها ومشاعرها. ولم يكن رد العالم مصدر قلق رئيسي. ففي ما يتعلق بالأولويات الملحّة – مثل بث الحماسة في نفوس مواطنين بات نصفهم يعتبر نفـسه إنجيلـياً وحليفاً في "الحرب ضد الإرهاب"، في الدول الغربية الصغيرة إلى الـــدول العـــربية الـــتي تملكها الخوف – صُممت الدعوة إلى الحرب المحقة بحسب الحاجة.

مـــع نهاية عام 2003، وبعدما أظهر الجمهوريون المتدينون بشكل عام قوتهم وفـــوزهم بمقاعد في الانتخابات النصفية، بدا من الواضح أنّ نغمة السلطة الجديدة والـــثقة القائمـــة على الإيمان تساعد بن لادن الذي ازداد قوة. فحتى بعد الهزائم والتـــشتت في أفغانستان، بات باستطاعة بن لادن والظواهري – اللذين تمكنا من الـــنجاة – ادعـــاء الرؤية النبوية، بمعنى أن الحرب المقدسة التي طالما تكهن بها، بين الـــشرق والغرب، والمسيحيين والمسلمين، قد جاءت أخيراً. فقد كان صدى عبارة "الحملات الصليبـــية" التي تفوه بها بوش يتردد في جميع أرجاء العالم العربي، وباتت عبارة مذيلة بتوقيعه.

لكـــن هـــذا كان لا يزال هناك، في مكان بعيد من العالم. فالأميركيون حتى ذلك الوقت كانوا لا يزالون يفكّرون بواجباتهم في ذلك الوقت العصيب. في موازاة

ذلك، جرى استدعاء أعداد قليلة للخدمة في أفغانستان، أو ملاحقة الإرهابيين، أو حماية الشواطئ، لكن كان في إمكان الجميع تأدية قسطه أو قسطها من الواجب في مساندة رسالة أميركا العالمية ورسولها الأول. كان أقصى ما في إمكان النقاد العاجزين عن الوصول إلى المصدر للاطلاع على البراهين فعله هو انتقاد سياسة الولايات المتحدة بصورة غير منظّمة. وعندما كانوا يفعلون، كانوا يُنتقدون على إراحة العدو. وحتى مع بدء تحول التجربة العراقية إلى تجربة بغيضة في صيف عام 2003، وإلى انتفاضة متوسعة حتى بالنسبة إلى غير المتمرسين، كانت الأسئلة الطبيعية من مثل التقديرات القائمة على الوقائع والناتجة من تجربة طويلة – مثل عدد القوات الفعلية الضرورية لحماية البلاد، أو عما توصلنا إليه في شأن بناء ديمقراطية عربية فعلية – سبباً لهجمات. وحلّت الصور الآتية من العراق، الحية والمروعة في غالبية الأحيان، مكان مصادر الراحة التي تؤمنها السرية. لكن في غالبية أوقات عام 2003، أفاد الشبان والشابات بشكل مسيء من المبدأ الإضافي القائل بـ "من هم معنا ومن هم علينا". وقد أبقت أميركا بغالبيتها على الرسالة.

لم يصل المنطق إلى مستوى الرسالة إلا في كانون الثاني/يناير 2004 – في عام الانتخابات وفي الوقت الذي لا يمكن فيه تفويض "الموافقة المعلومة" دستورياً – بعدما "أمسكت السلحفاة بالأرنب الوحشي".

كان المفتاح كما دائماً، بروز وقائع ملموسة وغير قابلة للجدل، وأسساً يقوم عليها الحديث المنطقي منذ آلاف السنين.

أحد أول العروض جاء من وزير الخزينة السابق بول أونيل الذي نقلت عنه قوله في كتابي الذي نشر في أوسط كانون الثاني/يناير من ذلك العام إن الإدارة بدأت التخطيط لإطاحة صدام حسين في أول اجتماع لمجلس الأمن القومي بعد بداية فترة الرئاسية في كانون الثاني/يناير 2001 – وليس في العملية الواضحة الأكثر تأن التي أعقبت اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر التي شيع لها. وقال أونيل أيضاً إنه بصفته مسؤولاً في مجلس الأمن القومي، فقد قرأ جميع التقارير الموجزة ذات الصلة الواردة من أجهزة الاستخبارات إلى الرئيس قبل اجتياح العراق، وإن أياً منها لم يكن يتضمّن ما يمكن "اعتباره دليلاً" على وجود أسلحة دمار شامل.

في حين جرت إشاعة بعضاً من هذه التهم، كان الأساس وصول شاهد من المصدر، وشخص على علاقة مباشرة ومنتظمة بالرئيس، إلى محاضر الاجتماعات الأرفع مستوى والوثائق الرئيسية.

بدأت حرب تكتيكية رديئة، إذ كان على الإدارة التي تحرّرت تماماً عقب اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر من الإملاءات التقليدية للشفافية، حماية بلاد تفيض بالأحكام والأفعال غير المكتشفة من التعذيب والتنصت غير المشروع والتشوهات التي تحبس الأنفاس في ما يسمى "الحرب ضد الإرهاب"، وكذلك من بعض القناعات المثيرة للاضطرابات التي تحرك السياسة في الواقع.

بدأ الرئيس كلمته التي توجّه فيها إلى الدورة المشتركة والقادة الحكوميين المصنفين بالقول "إننا قد واجهنا سلسلة من التحديات معاً، ونحن الآن أمام خيار، إذ يمكننا المضي قدماً بثقة وتصميم، أو يمكننا العودة إلى الوراء، إلى الوهم الخطير القائل إن الإرهابيين لا يتآمرون وإن الأنظمة الخارجة عن القانون لا تشكّل تهديداً لنا. نحن لم نقطع كل هذا الطريق - من خلال المأساة والتجربة والحرب - فقط لنترنّح ونترك عملنا غير منجز".

كان الانكفاء إلى المواقع المعارضة التي لم تتخذ تكتيكاً سياسياً، مختبراً وفعلياً، طبع البداية الرسمية للموسم السياسي. وبعد دقيقة من بدء الخطاب، قدّم الرئيس بوش السبب الرئيسي لإعادة انتخابه: "مرّ 28 شهراً على اعتداءات 11 أيلول أيلول/سبتمبر 2001- أي أكثر من عامين دونما حصول هجوم على التراب الأميركي. لكن من الخطير التصديق أن الخطر بات وراءنا. الأمل مفهوم ومريح ولكنه خاطئ... فالإرهابيون يستمرون بالتآمر على أميركا والعالم المتحضّر. وبإرادتنا وشجاعتنا، سوف نقضي على الخطر".

علا التصفيق الغرفة، وحتى بين الديمقراطيين. لم نتعرض لأي هجوم. حتى لو لم تكن اللماذا غير واضحة - وكان هذا موضوعاً ضارياً وفي قلب نقاش سري داخل أجهزة الاستخبارات - بقي الواقع ثابتاً.

كان هذا وسيبقى جوهر إعادة الانتخاب.

ومن دون أي تأخير، قدّم الرئيس بوش "النتيجة" الثمينة التي استوحاها من

الأخبار عن انفتاح القذافي والتي كان بلير أول من أطلعه عليها.

"بفضل القيادة الأميركية وتصميمها، يتغيّر العالم نحو الأفضل. ففي الشهر الماضي، تعهّد الزعيم الليبي إرادياً بالكشف عن برامج أسلحة الدمار الشامل العائدة لنظامه وتفكيكها، بما في ذلك مشروع تخصيب اليورانيوم للسلاح النووي... جاء هذا ليكلل بالنجاح تسعة أشهر من مفاوضات مكثفة جمعت الولايات المتحدة وبريطانيا بليبيا، في حين لم يفلح 12 عاماً من الدبلوماسية مع العراق. وهناك سبب واضح: حتى تكون الدبلوماسية فعالة، لا بد من أن يكون الكلام صادقاً، وأحداً لا يستطيع الآن أن يشك في كلام أميركا".

وبعدما ادعى الرئيس،كذباً، علمه بأن ليبيا كانت برهاناً على أن اجتياح العراق قد أتى بثمار، انتقل سريعاً إلى إرساء الدعائم للتجربة العراقية المضنية. "البعض في هذه الغرفة، وفي بلادنا، لم يؤيّد تحرير العراق. وكانت الاعتراضات على الحرب في غالبية الأحيان نتاج مبررات مبدئية. لكن دعونا نكون صريحين حيال تبعات ترك صدام حسين في السلطة. نحن بحثنا عن كل الوقائع. وكان تقرير كاي قد حدد العشرات من أسلحة الدمار الشامل، ونشاطات برنامج ذات صلة وأعداداً كبيرة من التجهيزات التي أخفاها العراق عن الأمم المتحدة".

بعد ثلاثة أيام، يوم الجمعة الواقع فيه 23 كانون الثاني/يناير، صدر عن السي آي إي بيان صحافي يشكر دايفيد كاي على عمله كرئيس لفريق الاستطلاع في العراق، ويعلن عزمه على الاستقالة ليحل مكانه تشارلز دويلفير، وهو خبير أسلحة آخر. وبعد الظهر، مرّ كاي بمكتب جورج تينيت، على أمل أن يكون له حديث أخير مع مدير السي آي إي. لكن تينيت كان في اجتماع مع رؤساء جهاز الاستخبارات الخارجية. وقال موسيمان الذي يقع مكتبه بالقرب من مكتب تينيت لكاي إن الأمر لن ينجح في ذلك اليوم.

قال موسيمان: "لكن يا دايفيد، نريد تكريمك خلال مأدبة على شرفك في الأسبوع المقبل، تجمع الأشخاص الذين عملت معهم".

تردّد كاي قليلاً وقال: "لست متأكداً إن كانت هذه فكرة سديدة"، وغادر المكان.

بعد ساعة، كان بيل هارلو، المتحدث باسم السي آي إي منذ مدة طويلة، على الهاتف مع موسيمان. قال هارلو وهو يستشيط غضباً: "تحدث كاي للتو لرويترز، وهو يقدّم تصريحات".

بعد خمسة أيام، وجد كاي نفسه أمام طاولة استماع للجنة مجلس الشيوخ لشؤون الأجهزة المسلحة. كانت الطاولة ممتلئة وكان يرأسها سيناتور فرجينيا الساخط جون وارنر – المؤيد بشدة للرئيس والذي ازداد شعوره بأنه قد جرى تضليله.

قال كاي بتجهّم: "دعوني أبدأ بالقول إننا كنا في غالبيتنا على خطأ، وأنا بالطبع لا استثني نفسي. وأعتقد أن الجهد المبذول حتى هذه اللحظة كان كثيفاً بما يكفي بما يمكننا من التأكيد إلى حد بعيد أن لا وجود لمخزون كبير من الأسلحة الكيميائية والبيولوجية المنشورة هناك".

بعد ذلك، اتخذ الأمر طابعاً أكثر شخصية، إذ أصرّ العديد من أعضاء مجلس الشيوخ – السيناتور الجمهوري جون ماك كاين والسيناتور الديمقراطي تيد كينيدي – على كاي لإبداء رأيه في شأن إمكانية تضليل الرأي العام الأميركي وكيفية حصول هذا الأمر.

"إن كنت وسيطك وكنت تستثمر بناء على نصيحتي، هناك مسار لا أنصحك باعتماده، وفي نهاية المطاف أقول إن "إنرون كانت أكبر شركة في العالم" وأنك خسرت مبلغاً كبيراً من المال عليها... حتى كنت لتعتقد أنني استغليتك".

التقى كولن باول بعد أيام قليلة محرّري صحيفة واشنطن بوست ومراسليها وقال إنه لم يكن متأكداً من دعمه للحرب لو عرف إنه لا أسلحة دمار شامل في العراق. قال: "إن عدم وجود مخزون [من الأسلحة المحظورة في العراق] يغيّر الحسابات السياسية". وأضاف مشيراً إلى أن الولايات المتحدة دخلت الحرب "وفي بالها أن هناك مخزوناً وأن هناك أسلحة [محظورة]". وقبل حلول فجر الثالث من شهر شباط/فبراير، نشرت الصحيفة هذا المقطع الصريح الذي عم أرجاء العالم بسرعة مثيرة.

زرعت تصريحات باول الرعب في البيت الأبيض، إذ بدت أنها تناقض ما قاله الرئيس وتقلّل من شأن "الرسالة" التي تحدّث عنها بوش بعزم في خطابه عن حال الاتحاد. ما الذي يجب فعله؟ عكّرت الاستراتيجيات المضادة أجواء الجناح الغربي.

عند الظهيرة، رافق باول زائره في ذلك اليوم، الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان، إلى غرفة الصحافة في وزارة الخارجية لعقد مؤتمر صحافي سريع للحد من الأضرار.

قال باول بصوت عالي النبرة: "الاستنتاج هو الآتي: لقد اتخذ الرئيس القرار الصحيح. لقد اتخذ القرار الصحيح بناء على تاريخ هذا النظام، ونية ذلك الزعيم المستبد، وقدراته على مختلف المستويات، وأنظمة التسليم الموجودة هناك. هذه أمور لا جدال فيها... كان من الواضح أن هناك نظاماً يخفي نيات ويتمتع بقدرات، وكانت هناك مخاطرة شعر الرئيس بقوة أنه لا يمكننا تعريض أنفسنا لها. وكان أمراً وافقنا عليه جميعاً وكنا ربما لنوافق عليه مجدداً في أية ظروف أخرى".

صبيحة الحادي عشر من شهر آذار/مارس، انطلق قطار مكتظ بالركاب إلى مدريد في إسبانيا. كان الركاب ممن يستيقظون باكراً ويتناولون الفطور ويستقلون القطار. كانوا من الطبقة العاملة التي تسكن الضواحي الشرقية للمدينة، وأناساً يعجزون عموماً عن دفع أسعار الإسكان المرتفعة في الجوار. كان بينهم العديد من الطلاب أو الزوجات والأزواج الشباب، أو الأهل الجدد الذي غادروا منازلهم للتو. قرأوا صحيفة إيل موندو الصادرة ذلك الصباح أو استمعوا إلى الموسيقى على أجهزة الـ "أيبود"، أو ناموا أو ربما اكتفوا بالتحديق من مقصورة النقل الدافئة إلى المساحات الخضراء المعشوشبة التي تحجبها صفوف المنازل المتلاصقة والمباني الأخرى؛ إلى أن أطل متحف برادو الجليل برأسه أمامهم.

بالنسبة إلى كثيرين منهم، كان ما رأوه آخر شيء يقع نظرهم عليه، إذ انفجرت ثلاث حقائب ظهر عند بلوغ القطار محطة أتوكا، فتطاير الحطام والحديد بشكل عشوائي في كل حدب وصوب. لقي سبعون شخصاً حتفهم في سلسلة التفجيرات الأولى، فيما قتل 121 آخرين في تفجيرات مماثلة استهدفت بعد دقائق قليلة تسعة قطارات أخرى. وفي حصيلة نهائية سقط 191 قتيلاً و1.500 جريح.

انتــشر الكــلام سريعاً وبدأت الهواتف النقالة تدق للسؤال عن الجثث المتناثرة في القطــارات، وصــلى الــناس في جميع أنحاء إسبانيا لنجاة أحبائهم، راجين الله أن ينقذهم، تماماً كما كانت عليه الحال عندما كانت الهواتف النقالة تدق عند وقوع اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر.

لا يمكــن لوم أحد على ما قد يفعله في لحظة مماثلة. كان الناس ينتحبون وقد تملّكهــم الخوف، صلّوا في تلك الليلة والليلة التي تلتها في ساحات مدريد القديمة والمــنمقة. وجهت حكومة خوسي ماريا أزنار المحافظة التي أرسلت رغم المعارضة المحلــية 1.300 جــندي إلى العراق تضامناً مع إدارة بوش، سهام الاتهام في الاتجاه الخاطــئ. فقد سارعت إلى اتهام منظمة إيتا الباسكية الانفصالية الإرهابية المعادية للحكــومات الإسبانية المتعاقبة. كانت للحكومة أسبابها، إذ كانت قد عثرت على مجمــوعة كــبيرة من المتفجرات العائدة للمنظمة في شهر شباط/فبراير الماضي، مما دفعها إلى التركيز بشكل طبيعي - وكما يفعل كل محارب - على عدو عائلي هو منظمة إيتا، وإلى وقف برنامج بدأت تطبيقه منذ مدة طويلة لمراقبة الخلايا الأصولية الإسلامية. وفي حال كانت التحاليل، كل التحاليل، غير واقعية ومتواضعة وتسعى إلى ما هو غير مرجح، يمكنها أن تكون ذاتية المرجع ومقنعة.

هذه هي الصيغة الملطّفة لما ظهر عندما بات واضحاً بعد ثلاثة من التفجيرات أن المجاهدين داخل إسبانيا - الذين بدا أن بعضهم غير راضين عن الوجود الإسباني المــثير للجــدل في العــراق - كانوا وراءها بصورة شبه مؤكّدة. ونتيجة لذلك، خسرت حكومة أزنار التي كانت متقدّمة طيلة شهر شباط/فبراير، الانتخابات التي جرت بعد ثلاثة أيام من التفجيرات. وكان الاشتراكيون الفائزون يرفعون شعارات معاديــة لأميركا ويطلقون وعوداً بسحب القوات الإسبانية من العراق. كان ذلك كافياً في تلك اللحظة لضمان الانتصار.

في الأســابيع الــتي تلت هجمات مدريد، انكبّ مركز استخبارات لمكافحة الإرهــاب كــبير ومــشترك أميركــي وأوروبي في فرنسا بالتعاون مع مكاتب الاســتخبارات في القــارة علــى دراســة ما حصل بحذر. وفي الثالث من شهر نيسان/أبريل، اكتشفت الشرطة 7 مشتبه فيهم كانوا يختبئون في شقة في أحد مباني

ضاحية ليغانيس في مدريد وعمدوا إلى تفجير أنفسهم. وبعد وقت قصير، تمّ القبض على عدد قليل من المتورطين وباتت الطبيعة الذاتية للخلية واضحة المعالم: لقد مولوا العمليات، بما في ذلك شراء المتفجرات وحشيشة الكيف، وطوروا شعائر التطهير الخاصة بهم بشرب الماء المقدس الذي أحضروه من مكة المكرمة.

كشفت مطاردة منظمة في كل أنحاء أوروبا عن وجود خيوط ارتباط بين جماعة غير محكمة من المجموعات الإرهابية المحلية. لم تكن هذه المجموعات مرتبطة بشكل واضح بهيكلية محكمة، ولم تكن تدار من الرأس من قيادة تنظيم "القاعدة"، بل كانت نموذجاً مقلداً لمجموعات مبادرة تعمل على تحقيق أهداف حركة أوسع نطاقاً، متأثرة بقيادة بن لادن والظواهري ولكنها مكتفية ذاتياً وحرة في التغلغل في بلد معين والعمل بثبات على تحقيق هدف مدمّر. في الخريف الذي سبق، أطلق بن لادن تهديدات لإسبانيا وبريطانيا العظمى وبلدان أخرى تدعم الولايات المتحدة في العراق. وبينما كان مسؤولو الاستخبارات يشيرون إلى بعض الترابط بين نائب بن لادن وبعض الانتحاريين الأسبان، كانت هجمات مدريد لتقدّم في جوهرها قوة مدمّرة لذلك الخطاب.

كان هناك دليل راسخ على نموذج جديد لتنظيم "القاعدة": إنه تطور تحركه جزئياً بعض نجاحات نظام الإشارات الاستخبارية خلال العامين الماضيين. وقد ظهر أن الاتصالات والإدارة والدعم المالي من الشبكة المركزية – التي خلّفت أوهاماً إلكترونية أدّت إلى توقيفات فارغة – غير ضرورية. وعرف مدراء العمليات في السي آي إي أنّ هذا قد يؤدي بهم إلى مأزق تكتيكي، وقد حصل ذلك.

أحدثت الرسائل من بن لادن والظواهري مجموعة واسعة من الأهداف الاستراتيجية، وهي مجموعة تتخطى ما يمكن أن تفعله مجموعات متفرقة بمفردها.

كانت العلاقة على حد تعبير أحد محللي السي آي إي "تحمل وضوحاً لا لبس فيه، كما الأطفال الذين كلما كبروا عرفوا أكثر فأكثر كيف يرضون ذويهم". وعلى غرار شركات الإنترنت المبتدئة في أواسط تسعينات القرن العشرين، كانت العوائق أمام الدخول متدنية، وكانت الطاقة الارتجالية مرتفعة. لم تكن الأهداف جني الملايين من حقوق الملكية الفكرية، بل هدفاً آخر ليس أقل جذباً: الشهرة

العالمية، أي صورة الشهيد المقدّس التي تدخل غرف الجلوس في عدد غير محدود من الشقق في الرياض أو كراتشي، والسعادة الأبدية.

وكـــان هـــناك المزيد. فداخل حلقات التحليل للسي آي إي ومجلس الأمن القومـــي، أدّت تفجيرات مدريد والتحقيقات السريعة التي أعقبتها إلى توافق دقيق متـــنامٍ من نوع آخر - خلاصة كانت آخر شيء يريد أي واحد في البيت الأبيض تعميمها: قد لا يكون تنظيم "القاعدة" راغباً في هذه المرحلة في مهاجمة أميركا.

كان أحد العناصر الرئيسية لهذا التحليل تقرير نقلته قبل أشهر قليلة، وتحديداً في شهر كانون الأول/ديسمبر 2003، مؤسسة الأبحاث الدفاعية النرويجية - الذراع الاســـتخباري للحكـــومة - عن موقع إلكتروني جهادي على علاقة وثيقة بتنظيم "القاعدة" السعودي.

أنجز البحث المؤلف من 42 صفحة وعنوانه العراق الجاهد، الآمال والمخاطر، في شـــهر أيلول/سبتمبر 2003، ويحمل علامات لا تدل إلا على يوسف العياري. وهو مهدى إلى العياري ويتضمّن أقوالاً مأخوذة من العديد من كتبه، ويعكس نبرة التوهّج التحليلي - المناقض للديني - للعياري بشكل لا يترك مجالاً للشك. ويعتقد بعض محللي السي آي إي أن العياري قد يكون كتب جزءاً منه قبل مقتله في شهر أيار/مايو 2003، فيما عمد أتباعه بعد ذلك إلى الإضافة عليه وصقله.

تضمّنت الوثيقة الاستراتيجية عدداً من التوصيات المحدّدة التي تشير إلى كيفية الحد من الجهود الأميركية المبذولة في العراق. وتشير إحدى هذه التوصيات الأولية إلى عـــزل الـــولايات المـــتحدة وفصلها عن حلفائها، وزيادة أعبائها المالية بإجبار حلفائها المقربين القلائل - بريطانيا وإسبانيا وبولندا - على الانسحاب. وما يزيد هـــذا العرض تعمقاً هي التحاليل المتطورة للوضع الداخلي في كل من هذه البلدان وتقييم يشير إلى أن إسبانيا التي يعارض جزء كبير من شعبها التورط في العراق هي الأكثـــر عرضـــة للانفصال عن الولايات المتحدة. وتوصي الوثيقة بـــ "هجمات مـــؤلمة" ضـــد "القـــوات" الإسبانية - في العراق أو في أي مكان آخر - في فترة الانـــتخابات الإسبانية المقبلة المنتظرة في ربيع أو صيف عام 2004. ويوضح المقطع أدناه المأخوذ من التقرير الرسالة الاستراتيجية الشاملة:

نحـــن نعتقد أن الحكومة الإسبانية لا يمكنها تحمل أكثر من تفجيرين أو ثلاثة تفجيرات كحد أقصى، يكون عليها بعدها الانسحاب نتيجة الضغوط الشعبية. وفي حـــال بقاء قواتها في العراق بعد هذه الهجمات، يكون انتصار الحزب الاشتراكي مضموناً، ويكون انسحاب القوات الإسبانية مدرجاً في برنامجه الانتخابي.

أخـــيراً، نحن نؤكّد أنّ انسحاب القوات الإسبانية أو الإيطالية من العراق قد يـــؤدي إلى ضـــغوط كبيرة على الوجود البريطاني (في العراق)، وهي ضغوط لن يتمكن طوني بلير من تحملها، وبذلك ستقع أحجار الدومينو سريعاً. لكن المشكلة الأساسية ما زالت جعل الحجر الأول يقع.

كان هذا ليحدث قريباً، إذ بدأت إسبانيا تسحب قواتها مع رواج الأخبار عن "انتـــصار الإرهـــاب" حول العالم. لكن تحت هذه العناوين كانت هناك تأكيدات إضـــافية علـــى مـــا كـــان بدأ محللو السي آي إي يتوصلون إليه من خلال نظام الإشـــارات الاستخبارية اعتباراً من ربيع عام 2002، عن تحول استراتيجي لتنظيم "القاعـــدة" عـــن شن المزيد من الهجمات داخل الأراضي الأميركية. أما ساحات العنف فكانت المملكة العربية السعودية والبلدان الأوروبية، التي يضم بعضها أعداداً كبيرة من المسلمين، فضلاً عن إسبانيا بطبيعة الحال.

في هذا الوقت، أسقط النقاش المعمّق السريّ عن السبب الذي دفع الظواهري إلى وقف الهجمات الكيميائية الفرضية التهنيئية الذاتية التي تعزو هذا الأمر إلى الضغوط التي كانـــت تمارســـها الـــولايات المتحدة على هيكلية تنظيم "القاعدة". ومهّد هذا الخط التحليلـــي الطـــريق أمام دلائل متنامية عن أن "القاعدة" قد لا تكون حاولت مهاجمة الولايات المتحدة خلال الأعوام الثلاثة التي أعقبت اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر.

وقـــال مـــسؤول كـــبير معني بالنقاشات الأرفع مستوى في شأن بن لادن والظواهـــري في تلك الفترة إن "ما فهمناه داخل السي آي إي هو أن القاعدة لا تقـــدم على عمل رغبة بسفك الدماء أو نتيجة اهتياج مرضي. ورغم أن تكتيكاتهم مـــروعة، فهـــم ليسوا مهووسين بالقتل. فهم يفعلون ما يفعلون لتحقيق أهداف اســـتراتيجية محدّدة. كانت قدرتهم على مهاجمتنا بنحو مئة طريقة واضحة، إلا أنهم لم يفعلوا. والسؤال كان لماذا؟"

الآن، بات يستحق الرأي العام الأميركي أن يعلم أن "القاعدة" لم تكن تحاول مهاجمة أميركا – مع كون الإجابة على اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر والمشهد العالمي الجديد من دون أي منازع المسألة الجوهرية في الانتخابات القومية؟

من دون معرفة ذلك، هل من الممكن تقييم الجزم الأساسي للرئيس بوجوب إعادة انتخابه لأنه منع عنا الهجمات مجدداً؟

كانت المعضلة الأساسية – هل يمكن لأمة خوض حرب في السر والدفاع في الوقت عينه عن قيم الديمقراطية – تزداد حدّة ساعة بعد أخرى في تلك الانتخابات القومية الأولى منذ وقوع الهجمات.

في أي حـــال من الأحوال، بقيت مجموعة الوقائع الرئيسية مثل وضعية "القاعدة" واستراتيجيتها الحقيقية مضمرة خلال ربيع عام 2004. وكان تبرير هذه السرية – في وقـــت كانت تطغى فيه مجموعة من الأفعال والأسباب الخاصة بسلوك "الحرب ضد الإرهـــاب" – مقـــتطفاً صـــعباً وتكتيكياً من مذهب السلوك بحسب الرسالة: جعل "القاعـــدة" تعرف بعض الأشياء التي كنا نعرفها، بما في ذلك معرفتنا بأنهم لا يرغبون فعلـــياً بمهاجمة الأراضي الأميركية، قد يدفعهم إلى رسم استراتيجياتهم. ونظراً إلى أن "القاعدة" ومؤيديها وأتباعها وأفرادها جميعهم أعضاء جمهور عالمي غير مصوّت بحسب ما يفترض رئيس الولايات المتحدة، لا أحد كان يعرف ما قد يحصل.

كـــان ذلك يعني أن إملاءات "حرب المعلومات" التي تنطبق على عدو يخوض معـــركة قـــد تنطبق أيضاً على الأراضي الأميركية، حتى ولو كان الوقت لفرصة ديمقـــراطية تـــتجدد كل أربعة أعوام يقيّم فيها المواطنون سلوك زعمائهم. لم يكن للـــرأي العـــام الأميركـــي الحق في معرفة نوايا الحكومة أكثر مما يعرفها مسؤول "القاعدة" المتوسط المستوى. ولو كان هذا ليعود بالفائدة على من هم في السلطة، فليكن الأمر كذلك.

أدى تـــضارب المصالح والحقوق هذا إلى ضغط حاد وخفي – مثل الصحون التكتونية المنـــزلقة – داخل النظام الأميركي للحكومة وتقاليد الموافقة المعلومة.

ما كان مرئياً على السطح في هذه الأثناء هي الصراعات الداخلية الحادة بين قوى السلوك بحسب الرسالة ومن ينادون بالنقاش الفوضوي غير ذي معنى أحياناً.

كـــان تينيت، يوماً بعد يوم، يشارك في هذه المعارك متحدثاً نيابة عن البيت الأبـــيض. فقـــد كان في نهاية المطاف خبيراً في العديد منها. كان يعرف ما يجب معـــرفته بطبـــيعة الحال، ولكنه لم يكن مسؤولاً منتخباً، كما لم يكن يعتبر بصفته مديراً للسي آي إي، شخصاً يحركه تفويض انتخابي. وقد أعطى تاريخ السي آي إي الطـــويل، نظـــرياً على الأقل، كذراع للحكومة عامل بحسب الأدلة – وسيط صـــادق لا تحرّكه النـــزوات المتصنعة والحمائية الذاتية والمؤسسية لمملكتي وزارتي الخارجية والدفاع – تينيت قيمة خاصة.

إذاً، وبعـــد المعلومات التي كشفها دايفيد كاي ولحظة الصراحة غير المسموح بهـــا لباول، ألقى تينيت خطاباً في جامعة جورج تاون دافع فيها إلى حد بعيد عن السي آي إي ومستهلكيها الرئيسيين، أي الرئيس ونائبه، في ما يخصّ المسألة الملتهبة المـــتعلّقة بأسلحة الدمار الشامل في العراق. وقال إن التحريات لم تتم بعد وأضاف أن الجميع أبلى بلاء حسناً وأنه يمكن ألا تكون السي آي إي برمتها على ما يرام – علماً بأنه ما من استخبارات هي كذلك – لكنهم فعلوا كل ما في وسعهم. أعرب الرئيس عن إعجابه بخطاب تينيت قائلاً: "لقد أبليت بلاءً حسناً يا جورج".

لكن الصحون التكتونية استمرت في التبدّل. وبالنسبة إلى بعض من هم ضمن حلقة المسؤولين الكبار المطلعين على حقيقة الأمور، كانت الرسالة تندفع كل يوم مـــن البيت الأبيض مسببة احتكاكات كورق الزجاج في شأن المفاهيم العالقة في الذهن والمدنية التي تتناول الطريق التي كان يجب أن تتم بها الأمور.

مـــر على إنشاء لجنة 11 أيلول/سبتمبر التي رفض البيت الأبيض تشكيلها في بداية الأمر – مشيراً من بين أمور أخرى إلى أن جلسات الاستماع في شأن الهجوم علـــى بيرل هاربور أرجئت إلى حين الانتهاء من تلك الحرب – أكثر من عام من الزمن. وكانت قد وصلت إلى خلاصات رئيسية وتدعو شهوداً من أقرب المقربين من الرئيس.

في 21 أذار/مـــارس، وقـــبل ثلاثة أيام من استماع اللجنة المنتظر لرئيس جهاز مكافحـــة الإرهاب في إدارة بوش ريتشارد كلارك، ظهر هذا الأخير في برنامج ستون دقـــيقة على قناة سي بي إس. وكان هناك بالطبع منشقون آخرون، مثل كولين راولي

الــذي أطلــق صــفارة الإنذار وفصّل في عام 2001 كيف فاتت مكتب التحقيقات الفدرالــية أدلّة كان من شأنها الحؤول دون وقوع اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر، وجو ويلــسون الــذي كتب المزيد عن دقة ادعاءات النيجر، وكبير محللي أسلحة الدمار الشامل التابعين لباول، غريغ ثيلمان، الذي صرح على التلفزيون في شهر شباط/فبراير أنــه قد جرى تضليل الأميركيين. لكن كلارك كان مختلفاً، إذ كان أعلى مسؤول إلى جانــب بول أونيل يصل إلى ما وصل إليه، ويكلّف بمهمات بالغة الأهمية. فقد وصف بتفاصــيل محــزنة للغاية كيف تجاهل الرئيس بوش تهديد "القاعدة" قبل اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر نظراً إلى تركيزه على العراق، وهو تصريح تطابق تماماً مع المعلومات التي كشف عنها أونيل في شهر كانون الثاني/يناير.

خــلال جلــسات الاســتماع للجنة 11 أيلول/سبتمبر التي عقدت في 24 أذار/مــارس، اعــتذر كــلارك من الشعب الأميركي عن عدم التدخل في الوقت المناسب لمواجهة التهديد المتنامي منذ وقت طويل للإرهاب الإسلامي. وعلى طاولة الاستماع، حيث خيّم الهدوء تحت الأضواء الملتهبة، قدّم كلارك اعتذاره لــ "أحياء ضــحايا 11 أيلول/سبتمبر" وقال: "لكم أنتم الموجودون في هذه الغرفة، ولأولئك الــذين يــشاهدون التلفزيون، أقول إن حكومتكم خذلتكم، وإن من ائتمنوا على حمايتكم قد خذلوكم وإنني أنا خذلتكم. وأود أن أطلب منكم – بعد الانتهاء من جميع الوقائع – التفهم والمسامحة".

في تلــك اللحظــة، وجه كلارك الذي نادراً ما التقى الرئيس، غالبية سهام غــضبه مباشــرة إلى كوندوليزا رايس – المسؤولة الكبيرة التي عينها الرئيس لرسم السياسة الخارجية – متهماً إياها ورئيسها بتجاهل التحذيرات المتكرّرة.

"بــذلت أنا وجورج تينيت جهداً كبيراً لبث شعور بالطوارئ من خلال العمل علــى رفع تقارير استخبارية عن تهديد "القاعدة" بصورة دائمة إلى الرئيس ومسؤولين كــبار آخــرين. وكان يجري الإعداد لعملية تخص "القاعدة". لكن رغم تكراري أن المشكلة ملحّة، لم أعتقد قط أنه كان سيتم تناولها بتلك الطريقة".

كانت تلك من المرات الأولى التي يتم فيها الثناء على تينيت الذي طالما شكل درعــاً واقــياً لــبوش ورايــس في العديد من جلسات الاستماع خلال العامين

المنـــصرمين. في تلك الأثناء، كانت رايس مكرهة على الرد على ادعاءات كلارك بالقول إنها في خريف عام 2001، لم تكن حتى تعلم بوجود عبارة "القاعدة"، وأنها أبعدت التحليلات الأكثر أهمية عن بوش.

مـــا كان ينقص الرأي العام الأميركي في تلك المرحلة هو السياق وعدد قليل من عوامل التبصّر ذات الصلة. أحد هذه العوامل هو أنه قيل لبوش إن مجلس الأمن القومـــي قـــد أخفق – وردّد المسؤولون على مسامعه ذلك، بينهم وزير الخارجية كـــولن بـــاول، مستشار الأمن القومي في عهد والده. وقال باول للرئيس في أحد الاجتماعات إن مجلس الأمن القومي يسجل إخفاقاً وإن الدكتور رايس هي السبب الرئيـــسي في ذلك. وأضاف أنه من دون جهاز لمجلس الأمن القومي يعمل بشكل جـــيد، لا يـــستطيع الرئيس ببساطة أن يعرف ما يجب أن يعرفه، عندما يحتاج أن يعرفه. لكن بوش استغرق في التفكير في هذا الأمر ولم يتبدل شيء.

المـــسألة الـــتي تتخطى عمل مجلس الأمن القومي ودوره الأساسي في تحليل المسائل الخاصة بعالم أكثر تعقيداً لتحديد مدى إدراك الرئيس، كانت تلك المتعلقة برايس نفسها. وكانت المسائل بالنسبة إلى باول ومسؤولين آخرين في مجلس الأمن القومي تندرج في إطار واحد: ألم تكن رايس تحيل التقارير بالمشاكل والاختلافات الرئيـــسية من لجنة المسؤولين إلى الرئيس، أم أنها كانت تتوجه بالنتيجة المتأنية شمالاً كما ينبغي، لكن بوش لم يكن يستجيب لما كانت تقدّمه، أم أن تشيني كان يشكل نوعاً من حجاب أو محطة تكرير وفحص بين رايس والرئيس؟

كانـــت الأمور الثلاثة مجتمعة صحيحة إلى حد ما. وما فهمه كل من تينيت ورايس هو أن مفتاح عقل الرئيس كان يكمن في الإطار الذي قدّمه تشيني – قلّص حـــل الـــواحد في المئة من أهمية غالبية العمل، أي عملية رسم السياسة التي وجد مجلس الأمن القومي من أجلها.

وسبق لتشيني أن قال، بحضور رايس وتينيت، إن "الأمر لا يتعلق بتحليلنا بل بردنا".

حـــرّرت عقـــيدة تـــشيني جورج دبليو بوش من أكبر مجال ضعف لديه – القـــدرات التحليلية التي تحظى بتقدير كبير في أوساط الطبقة المحترفة في أميركا –

وحـــرّرت قراره ليعتمد على النـــزوات والارتجال لدرجة لا مثيل لها بالنسبة إلى رئيس معاصر. فقد أوجد تشيني أرضية وتصميماً لبوش ليكون بوش نفسه والبقاء رئيساً في الوقت عينه.

تتأتى مشكلة تنفيذ هذا النموذج من مجموعة ثابتة من الوقائع غير الملائمة – أعـــداء الـــسلوك بحسب الرسالة – التي تسرّبها أذرع السياسة الواسعة للحكومة وتعدلها لأغراض الاستهلاك الرئاسي. وبالنسبة إلى رئيس متعطش بهذا القدر القليل لمنـــتج كهـــذا، كان الأمر حادثة مروعة بالنسبة إلى من هم على مستوى الوزراء. فخلال الأعوام التي أعقبت انتخاب بوش، سرّبت تلميحات رويداً رويداً عبر أمكنة مثل وزارة الخزينة ووكالة حماية البيئة والخدمات الصحية والبشرية. بات العديد من كـــبار محللي الحكومة وخبرائها – أفضل محترفيها وألمعهم – مقتنعين بأنه من غير المجـــدي إرسال التقارير إلى أعلى الهرم. وأدى السخط والقلق حيال عدم ملاءمة عملـــية السياسة إلى بعض الارتدادات الخطيرة والتصريحات العلنية عن عدم التزام الـــرئيس. ولكن على غرار الأشخاص المملين في واشنطن أو أعضاء "البيروقراطية" التي تطاولها الشتائم، كان المنشقون علامات سهلة للهجوم المضاد للبيت الأبيض.

لكن كان من المهم بالنسبة إلى البيت الأبيض عدم توسع هذا الطابع الارتجالي والمرتكز على الإيمان للرئاسة نحو مجالات مركزية وشديدة الأهمية مثل "الحرب ضد الإرهـــاب"، أو حرب العراق – حيث كان الشباب الأميركي يفقد حياته وكانت أعـــداد الضحايا تفوق كل التوقعات تقريباً. وأن يكون الرئيس بعيداً إلى هذا الحد عـــن جهـــاز السياسة الفعلي في هذه المسائل هو أمر قد يزرع الرعب ويؤدي إلى تـــراجع ثقة الرأي العام إلى حد كبير، في أميركا بطبيعة الحال، وكذلك في البلدان المتقدّمة الراسخة في المنطق.

كانت مهمة حماية الرئيس أو إبقائه في منأى عن سقطات مشابهة تقع إلى حد بعيد على عاتق رايس – في دورها الموجه لمؤسسة السياسة الخارجية. ومع سيطرة رامـــسفيلد المطبقة على كبار موظفي وزارة الدفاع الداعمين عقائدياً للمحافظين الجدد، وإبعاد وزارة الخارجية إلى حد كبير في عام 2004 عن عملية صنع السياسة، كـــان ضـــغط دعم رايس وبوش يتركّز على تينيت. وهنا كان يمكن للمشكلة أن

تكمن. ففي النهاية، كانت السي آي إي مصدر غالبية التحاليل الفعلية، والبراهين عن حالة العالم التي كان يتوقع أن يكون الرئيس أكثر اطلاعاً عليها. باختصار كانت تحدّد الخـــيارات والتبعات الفعلية لمجموعة واسعة من المسائل. وعندما كان يبدو أن كلمات الرئيس أو أفعاله تتعارض مع هذه التحاليل، أو أنها تتجاهل دليلاً دامغاً، كانت تتوجه بأسئلة – أسئلة ملحّة عن قدرة الرئيس أو التزامه في أوقات الصعاب أو عن تشيني أو أي شخص مسؤول – تخترق مسامع الحكومة كالغاز المتفجّر.

كـــان يجب اعتبار عشرات من هذا القبيل فوراً حوادث غير منتظمة يجب لوم أحـــدهم عليها: لم يجر ببساطة إطلاع الرئيس الكثير الانشغال على الأمر. ما كان أحـــد ليجرؤ على القول إن الرئيس أوضح لأقرب المقربين إليه أنه لا يريد أن يتمّ إطلاعه، خصوصاً عندما تضر المعلومات بثقته في بعض القناعات الشاملة.

وعلـــيه، كان تينيت الذي يرفع تقارير السي آي إي إلى أعلى الهرم في غالبية الأحـــيان أفضل شخص يمكن إلقاء اللوم عليه. وكانت رايس خبيرة في إلقاء اللوم على تينيت. وليست الكلمات الست عشرة سوى مثل حي على ذلك. فقد أقنعت رايـــس، بالتعاون مع هادلي، تينيت بتحمل مسؤولية الكلمات الست عشرة، وهي مـــسؤولية أقـــرّ بهـــا تينيت إلى أن أعلن مساعدوه الحمائيون في السي آي إي أن رئيـــسهم كـــان يتلقـــى الرصاص باستمرار عن من هم أعلى منه مرتبة، وسربوا معلومات أجبرت هادلي على الاعتراف بالذنب.

اندلعت معارك مشابهة على جبهات عدّة بين مجلس الأمن القومي والسي آي إي. لكـــن رايـــس المقربة من الرئيس لدرجة أن اللوم الملقى عليها قد يطاوله هو أيضاً، كانت تبرز نفسها منتصرة. لكن الآن، في ساعة حاجتها – مع رفض البيت الأبيض تعيينها على رأس لجنة 11 أيلول/سبتمبر – استدعت جورج تينيت من بين جميع الناس.

سألت بنبرة من القلق المفاجئ: "ما الذي يتعيّن عليّ فعله يا جورج؟"

فقال تينيت: "كوندي، لا أعتقد أن لديك خياراً. أعتقد أنه عليك القيام بهذا الأمـــر مـــن أجلـــك. لديك سمعة يجب أن تحميها. أنت ما أنت عليه ويبدو أنك تراوغين. إن كان لديك شيء تقولينه، من الأفضل أن تقوليه".

بعـــد أسبوعين، في 8 نيسان/أبريل، تحلّقت محطات التلفزة في الطبقة السابعة من مقر السي آي إي، حيث رفعت رايس – بثيابها الصفراء الفاتحة وعقدها الذهبي – يدها اليمنى. كانت تقسم على الإدلاء بشهادتها، وهو أمر أصرّ عليه توماس كين حاكم نيوجرسي وأحد رئيسي اللجنة. كانت تشهد بموجب القسم.

لكـــن بدا أن ضغط الدقة والملاءمة لم يكن له الكثير من التأثير. شاهد تينيت كـــيف نهضت رايس بعد كلارك المؤيد له وسددت بعض الضربات القليلة للسي آي إي، منـــتقدة إياها على النقص في التنسيق والتعاون مع الأف بي آي، والنقص في الـــتحديد في نقـــل التهديدات التي سبقت اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر. أبدى تينيت، الذي كان يشاهد ما يحصل لمساعديه، إعجابه بـــ "ذكائها المتوقّد".

في الواقـــع، كانت رايس تقود مرحلة من مراحل هجوم عام الانتخابات في البيت الأبيض ضد الانتقادات والأدلة غير المؤاتية.

في صـــباح يوم الأحد 18 نيسان/أبريل، نشرت صحيفة الـــ واشنطن بوست المقتطف الأول من أصل خمسة مقتطفات من كتاب وودورد خطة الهجوم.

وأشـــار مقـــتطف اليوم التالي إلى حادثة تعود إلى 21 كانون الأول/ديسمبر 2002 تتناول اجتماعاً في المكتب البيضاوي، وظهرت فيه عبارة "الكبسة القاضية".

قرأ تينيت المقطع وشعر أن السكين يغرز فيه. فتساءل كيف يستطيع الرئيس تذكّر شيء لا يذكر تينيت نفسه أنه قاله. اعتقد أنه لو كان الرئيس يتذكرها، فهذا يعني أن الجملة انطبعت في تفكيره، رغم أن الاجتماع – هو وماكلولين وافقا على ذلك – كان لتقديم عرض منمّق لسبب الذهاب إلى الحرب وليس إيجاد دليل قاطع لخوضها.

قـــبل ذلك بشهر تقريباً، جال تينيت في مكتب بيل هارلو عندما كان رئيس جهـــاز الاتـــصالات لديه يجري مكالمة هاتفية مع وودورد. كان المراسل المخضرم يذكّـــر هارلـــو بأنـــه كـــان قـــد وصف الاجتماع الذي عقد في شهر كانون الأول/ديـــسمبر 2002 – حيث استعمل تينيت عبارة "الكبسة القاضية" – لهارلو وماكلـــولين في لقاء جمع الثلاثة في شهر كانون الثاني/يناير. لم يتذكّر هارلو مسألة "الكبـــسة القاضية" كثيراً، إذ تصور وودورد قد يكون ذكرها في معرض حديثه.

لكـــن مع دنو تينيت منه، وضعه هارلو على الهاتف مع وودورد الذي سرد الواقعة لتينيت وقال – بحسب ما يذكره تينيت – أن الأمر "غير مهم".

عـــندما سئل وودورد لاحقاً، لم يعلّق على ما إذا كان قد أخبر تينيت أم لا، لكـــنه تذكّـــر أنه كان متأكداً من أنه أخبر هارلو في مرحلة معينة بأن الحادثة لن تـــشكّل "أمراً مهماً" في المقتطفات التي نشرت من الكتاب الصادر في فصل الربيع ذلك.

بـــدأ تينـــيت، الـــذي كان يحمل الصحيفة بين يديه، يتساءل إن كان القلق المـــضطرب لموســـيمان وهارلو وغرونغارد في شأن جعل البيت الأبيض منه "فتى فاشلاً" مبرراً.

جرى اختصار الأحداث الدرامية لذلك العام الماراتوني الذي شهد اتهام صدام حـــسين بامتلاك أسلحة دمار شامل وتبرير تغيير نظام يجري التخطيط له منذ زمن بعيد – وهي معركة غالباً ما وضعت السي آي إي في مواجهة القوى المتجمعة من وزارة الـــدفاع ومكتب نائب الرئيس – بكلمتين، كلمتين لا يذكر تينيت أنه تفوّه بهما.

حـــاول تينـــيت إهمال الأمر، فقد كان شهر نيسان/أبريل حافلاً، وكانت هـــناك كما دائماً الكثير من الأمور التي تستقطب انتباهه وطاقته. كانت هناك بعض الاختراقات على جبهة الإرهاب البيولوجي، إذ كانت بعض الاعتقالات في باكـــستان وشيكة. وفي اليوم الذي ظهرت فيه المقتطفات الأولى لوودورد، أعلـــنت إسبانيا رسمياً عزمها على سحب قواها من العراق، الأمر الذي تسبب بنشوة انتصار في العالم العربي، الذي كشفت العديد من بلدانه عن مراقبة السي آي إي لها.

قال ماكلولين لاحقاً عن آثار "الكبسة القاضية": "لا أعتقد أن وقعها فوري".

"يجـــب التذكر أنك على جواد عنيد يلاحق أموراً أكثر إلحاحاً. والأمر أشبه بالرسوم المتحركة لشركة وارنر براثيرز. كانت المطرقة تتجه إلى الأسفل، لكنك لا تـــدرك ضربتها إلا حين تجد نفسك مسطحاً. عندها فقط، يشرأب باغز باني من الفطيرة المسواة بالأرض ليقول: "أحدهم ضربني للتو. أحدهم رمى شيئاً عليّ".

وأضاف أنه بعد مرور أسبوع أو اثنين، قلنا إن "أحدهم رمى شيئاً علينا".

وضـع اتخـاذ القرار في شأن هوية "أحدهم" تينيت في مأزق. وكان شعور العديد من مساعديه أنه الرئيس نفسه، إذ إن رايس أو كارد أو تشيني لا يتدخلون في مـثل هذه الحال، كما في العديد من الحالات الأخرى، من دون بعض التوجيه مـن رئيسهم. لكن تينيت كان عاجزاً عن إلقاء اللوم على بوش. فقد كان على علاقـة جيدة بالرئيس. فالرئيس لم يطرد جورج بعد اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر، وقـد ردّ مديـر الاستخبارات المركزية هذا الجميل ببذل جهد يتخطى كل جهد مـبذول لخوض هذا النوع الجديد من الحروب. أراد إثبات استحقاقه والتعبير عن إخلاصه.

لكـن مع انتهاء شهر نيسان/أبريل وبداية شهر أيار/مايو، ومع رواج مسألة "الكبـسة القاضية" في أوساط الرأي العام، بدأ تينيت يشعر بالإرهاق. كان متعباً وقـد ازدادت أحاديـثه مع زوجته ستيفاني. وبدا ارتياها حيال فريق بوش مبرراً. فمهمـا فعـل الرئيس أو تشيني أو رامسفيلد أو وولفوفيتز أو فايث أو لم يفعلوا؛ ومهما فعل محللو السي آي إي أو لم يفعلوا، تحت الضغط أو عدمه؛ ومهما كانت المبررات الفعلية للحرب أو لم تكن، فقد جعلت العبارة المتداولة تينيت مذنباً.

كـان جون مايكل، الابن الوحيد لجورج وستيفاني، سيبدأ سنته الأخيرة في المدرسـة الثانوية في غضون ثلاثة أشهر، وكان أمامه عام واحد فقط قبل دخول الجامعة. عانق تينيت، المرهق والذي بات يؤدي دور الفاشل الذي خشي أن يلصقه بوش به عقب اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر، زوجته.

في الـصباح الباكـر مـن يوم الأربعاء 2 حزيران/يونيو، قرأ تينيت صحف الصباح الموضوعة على مكتبه.

تـصدر عـناوين الـ واشنطن بوست خبر تشكيل الحكومة العراقية المؤقتة، الحـدث الذي أشيع عنه بقوة منذ عام على أنه "مهمة منجزة"، رغم أن ثلاثة من المناصب الخمسة الرئيسية ذهبت إلى أعضاء في مجلس الحكم العراقي الساقط الذي لم يكن يحظى بتأييد العراقيين، بينما تصاعدت حدة الاضطرابات المدنية. أما القصة الأكثـر إثارة بالنسبة إلى تينيت فكانت على الصفحة الأولى من صحيفة نيويورك

تايمز التي أشارت إلى ما كانت السي آي إي قد توصلت إليه قبل ستة أسابيع. فقد أطلـــع أحمـــد الجلبي، المنشق العراقي وصديق المحافظين الجدد منذ زمن بعيد، أحد المـــسؤولين العـــراقيين على أن الولايات المتحدة تمكّنت من فك رمز الاتصالات السرية للاستخبارات الإيرانية. ومع كشف تلك المعلومات، كانت إحدى النوافذ إلى الاستخبارات الإيرانية – مع المعلومات الهامة المكشوفة عن نشاطات ذلك البلد في العراق ذات الأغلبية الشيعية، فضلاً عن نشاطاته النووية – قد أقفلت.

كـــان تحولاً سيئاً على الجبهة الاستخبارية – كان الإيرانيون هدفاً للعديد من العمليات – ولكنه شكل نوعاً من الانتقام للسي آي إي، نظراً إلى أهمية الجلبي في إدارة انـــتقال المعلومات الفاسدة في شأن برامج أسلحة الدمار الشامل العراقية من خـــلال البنـــتاغون، وإلى التقديـــرات المتعددة للسي آي إي، بما في ذلك التقييم الاستخباري القومي البالغ الأهمية. لم تؤخذ عدم ثقة السي آي إي في الجلبي والتي تعود إلى زمن بعيد على محمل الجد قط، بسبب رفض المحافظين الجدد في البنتاغون ومكـــتب نائب الرئيس الذين كانوا يأملون بجعله على رأس الديمقراطية الجديدة. (من ناحيته، طالما ردّد الجلبي أن ادعاء السي آي إي بأنه خان الولايات المتحدة هو تلطيخ للسمعة لا أساس له).

مـــا فاجـــأ تينيت وكبار معاونيه خلال الأشهر القليلة الماضية هو مدى عناد البنـــتاغون حـــيال التشبث بالجلبي. عقد اجتماع في شهر أذار/مارس عرضت فيه تقاريـــر تشير إلى احتمال إساءة استعمال المؤتمر الوطني العراقي الذي يرأسه الجلبي للأمـــوال التي تلقاها من الحكومة الأميركية، باختلاس بعضها واستعمال الأموال الـــنقدية في محاولة لرشوة أعضاء المؤتمر. فقد بوش صبره حيال دعم الجلبي – الذي خصّص له مكان بارز بالقرب من لورا في الخطاب عن حال الاتحاد في شهر كانون الـــثاني/يناير – وأعرب عن استهجانه لرامسفيلد في أحد اجتماعات مجلس الأمن القومي، طالباً من وزير الدفاع التشدّد في علاقة الولايات المتحدة مع هذا العراقي الرشيق الخطى. فأجاب رامسفيلد بأنه سيهتم بالأمر، لكن شيئاً لم يحصل. وحصل الأمـــر عينه في اجتماعات شهري نيسان/أبريل وأيار/مايو، عندما استجوب بوش وولفوفيتز بشدّة قائلاً بنبرة ساخطة: "أردّد دائماً وجوب قطع علاقتنا بالجلبي، ولا

شـــيء يحـــصل". ثم استدار إلى رايس وحدّق بها وقال: "هلا توليت هذا الأمر!". كان تصرف البنتاغون أشبه بالعصيان. والله يعلم أن "الرجل" كان قد ضاق ذرعاً بالمحـــافظين الجـــدد الذين يحيطون به من كل ناحية، وبالعمل المعطل لمجلس الأمن القومي.

عـــندما فكّر تينيت في كل ذلك، شعر بالتعاطف مع بوش، كما كان يفعل دائمـــاً، رغـــم مسألة "الكبسة القاضية" وتعقيدات علاقتهما. فالرئيس كان يبذل أقصى ما في وسعه.

لكـــن كـــان عليه أن يمضي اعتباراً من هذه النقطة من دون تينيت. أو على الأقل كانت تلك هي الخطة. رفع سماعة الهاتف واتصل بموسيمان في مكتبه وطلب منه إقفال الباب.

قال تينيت: "لقد حان الوقت".

أومـــأ موسيمان، المساعد الكبير الموثوق لتينيت وصديقه منذ أيام الكابيتول هيل، برأسه. فقد كانا يتكلمان في الأمر منذ أسابيع. وكان من الواضح أن تينيت قد اتخذ قراره أخيراً.

كان السؤال الذي طرحه موسيمان بعد برهة: "هل سيقبل الرئيس بذلك؟"

في المرة الأخيرة التي حاول فيها تينيت ذلك، رفض بوش طلبه. فبدأ الصديقان نوعاً من أخذ وردّ. لو قال بوش هذا، أقول ذلك... بعدها اتصل موسيمان بأندي كـــارد وقـــال له باختصار:"يريد جورج رؤية الرئيس هذا المساء". لم يجد كارد إمكانـــية لـــذلك، فأصرّ موسيمان على رأيه. وما هي إلا دقائق حتى عاود كارد الاتصال للقول إن الرئيس ومدير الاستخبارات المركزية سيتناولان العشاء معاً ذلك المساء.

كـــان بـــوش في زيارة خاطفة إلى كولورادو، الولاية المتقلبة في الانتخابات المقبلة. بدأ صباح اليوم الثاني بخطاب عن السياسة الخارجية في حفل تخريج القوات الجوية الأميركية في دنفر. قال بوش أمام 981 خريجاً لدفعة عام 2004 الذين ملأتهم الغبطة والحماسة وأحاطت بهم لافتات كتبت عليها عبارة مستعدون للحرب، وهي شعار الدفعة: "نحن نتعاطى مع قتلة جعلوا من موت الأميركيين دعوة حياتهم. وقد

اتخذت أميركا قرارها في شأن هؤلاء الإرهابيين: بدلاً من أن ننتظر هجومهم علينا في أرضنا، سوف ننقل هذه المعركة إلى أرض العدو. ونحن واثقون من قضيتنا في العراق، لكن النضال الذي نخوضه لن يتكلّل بالنجاح في العراق. فتخطي الإرهاب ومنح حرية أكبر للأمم في الشرق الأوسط، هو عمل يتطلّب عقود. ولتحقيق الانتصار، تحتاج أميركا إلى جيش قادر متحول ستساعدون في بنائه وقيادته. ستحتاج أميركا إلى جيل من اللغويين العرب، وإلى خبراء في تاريخ الشرق الأوسط وثقافته. سوف تحتاج أميركا إلى قدرات استخبارية محسّنة لتعقّب التهديدات وعرض خطط الأعداء غير المرئيين. وقبل كل شيء، سوف تحتاج أميركا إلى المثابرة".

بعد الغداء، استقل بوش الطائرة الرئاسية إير فورس وان في رحلة بعد الظهر للعودة إلى واشنطن.

وصل تينيت مع مرافقيه الأمنيين لتناول عشاء مبكر في مقر إقامة الرئيس. جلس الرجلان وبدأ تينيت الكلام: قال إنه فعل ما كان عليه فعله وأنه متعب وأنه بات جاهزاً للرحيل، بعد سبعة أعوام أمضاها في رئاسة السي آي إي وهي المدة الأطول لمدير في العصر الحديث. بعد ذلك تحدّث هو وبوش بالأمر بالتفصيل.

مع مرور الساعات، كان موسيمان يذرع أروقة لانغلي ذهاباً وإياباً. في ذلك الصباح، تصور هو وتينيت أنه لو طال الاجتماع، فهذا يعني أن الأمور لم تجرِ على ما يرام وأن الرئيس كان يحاول إقناعه بالبقاء.

وكانت لديه أسبابه للمحاولة. كانت غالبية المراقبين تفترض أن بوش سيرحب برحيل تينيت، لكن موسيمان كان يعرف ما هو أفضل من ذلك. شكّل تينيت منفعة استثنائية استراتيجية بالنسبة إلى بوش، مقدماً له الغطاء ومانعاً عنه الصواعق في قضية أسلحة الدمار الشامل – قضية عرف تينيت أنها شكّلت دائماً موضع ممانعة لبوش وتشيني، وأنها تؤدي في الوقت عينه إلى قيادة مبادرة الإدارة، أو الحملة المناهضة للإرهابيين "جدوهم وأوقفوهم" – الركيزة التي قامت عليها حملة إعادة الانتخاب. وكان استطلاع للرأي أجرته صحيفة واشنطن بوست بالتعاون مع شبكة إي بي سي قبل أسبوع قد أظهر أن 58% من الأميركيين لا يؤيدون

طـــريقة إدارة بـــوش للعراق، مما أعطى صورة سياسية محفوفة بالمخاطر. وكانت "الحـــرب ضـــد الإرهاب" - التي بدت أكثر فأكثر خشبة الخلاص الانتخابية - المبادرة التي تولاها تينيت بشكل أساسي.

مـــا فهمـــه موسيمان أيضاً - على غرار ماكلولين وهارلو والآخرين - هو طريقة عمل رموز الإخلاص لتينيت. فكل من كان يقدم له خدمة، خدمة حقيقية، كان يصبح منـــزهاً عن أي حكم. وكان للرئيس مكانة خاصة في هذا المجال بفعل تقـــرّبه من تينيت بعد اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر. غير أن التطابق مع رموز بوش، نموذج "الإخلاص" ذات الاتجاه الواحد، أعطى مجالاً واسعاً للرئيس، وهو مجال أفاد مـــنه الـــرئيس في طلـــباته المتعدّدة والمتنوعة إلى تينيت - منه شخصياً ومن أقرب مـــساعديه - لنحو ثلاثة أعوام. ومع اقتراب الساعة التاسعة، تساءل موسيمان إن كان بوش يمارس هذا الأمر مجدداً على صديقه لإجباره على البقاء، رغم قرار تينيت بـــأنّ وقـــت الرحيل قد حان. كان إجبار الناس على فعل أشياء ضد إرادهم من إحدى هوايات الرئيس، ولو فعل الرئيس ذلك بتينيت الآن، كان ليقضي عليه.

عند التاسعة، اتصل موسيمان برئيس جهاز الأمن وحضّه قائلاً: "تأكد من أن يتّصل بي فور انتهائه. أنا هنا في الانتظار".

بعد دقائق قليلة، دق جرس الهاتف.

قال تينيت بصوت ملؤه الراحة: "حسناً يا جون، الأمر ناجز".

استمر العالم في التحول، وقد شهد تحولا في ذلك الصيف مع تركيز الولايات المـــتحدة علـــى السياسة والخطابات النارية، وعلى اللوم والسلوك بحسب الرسالة، وعلى استخراج ما صنعته معارك الماضي.

إلى مـــا وراء المعـــركة العلنـــية، كـــان المحاربون الفعليون للـــ "حرب ضد الإرهاب" يبحثون شبه مكفوفين عن التهديد التالي.

كانـــت الجبهة تتحوّل في ساحة المعركة غير المرئية. ومع انقباض الإشارات المالية والشفهية للاستخبارات، بات الإنترنت أكثر من أي وقت مضى محور تركيز المرؤوسين داخل أجهزة الاستخبارات الأميركية - تماماً كما كانت عليه الحال مع أعـــداد المتطرفين الإسلاميين الشبان، "قاعدة" رجال ونساء تحرّكهم صور القوات

الأميركية الغائصة في وحول العراق وأفغانستان، كما تحرّكهم منذ الربيع الماضي، صور مروعة للتعذيب والإذلال في سجن أبو غريب.

يحدث الكوكب المترابط جميع أنواع التقلبات، حيث تستحث المعرفة الفعل، علـــى شــكل صـــور وكلمـــات يعاد إرسالها - كما لو أن آلة الحركة الدائمة الأســـطورية قد أبصرت النور. كانت هناك، حتى ذلك الوقت، الآلاف من المواقع الإلكتـــرونية الجهاديـــة المتشدّدة والتي تشكّل مواقع مثالية لما يمكن تسميته بالحوار "القابـــل للفعـــل" والذي أوجد الجماعات حول الأيديولوجية والرسائل المؤيدة، المحدّثـــة باســـتمرار وإنما المحفوظة والقابلة للبحث - يساعد كل موقع في ظاهرة متـــساوية واسعة النطاق لبعض كلمات الاستخدام في غرفة محادثة حيث يتحاور مؤيدو بن لادن وبوش ويتبادلون الأسئلة والإجابات.

قـــد يكـــون الفصل بين الحوار المطّلع والتواصل الشخصي وبين الاقتراحات والتعلـــيمات مـــضطرباً لو كان كلّه باللغة الإنكليزية وتتمّ مراجعته في مدن مليئة بحملة شهادات الدكتوراه الجدد. وإذا جرى تحويل كل ذلك إلى اللغة العربية أو إلى أي مـــن اللغات في الشرق الأقصى أو جنوب آسيا، يمكن عندها مواجهة التحدي المطروح.

أطلـــق ماكلولين ورئيس وكالة الأمن القومي لفترة طويلة مايك هايدن على هذا اسم "المطحنة" - كانا يستخدمان الجملة نفسها غير الساحرة. إنها مهمة شاقة يـــتولاها يومياً وطوال اليوم إلى حد كبير "جيش من النساء الذكيات جداً واللواتي يملكن حدساً قوياً" على حد تعبير ماكلولين.

لكـــن في بداية شهر حزيران/يونيو، في الوقت الذي جمعت فيه مائدة العشاء الـــسابقة الذكـــر كل من تينيت وبوش - توصّلت مطحنة البيانات إلى نجاح باهر بالاعـــتماد علـــى تقاطـــع بعـــض رسائل البريد الإلكتروني مع بعض الإشارات الاستخبارية.

تبـــيّن أن المعلومات مصدرها مسعد العروشي، ابن شقيقة خالد الشيخ محمد والبالغ أربعين عاماً من العمر، وقريب رمزي أحمد يوسف الذي كان وراء تفجير مركـــز التجارة العالمية في عام 1993، والذي يمضي عقوبة السجن مدى الحياة في

أحـــد سجون الولايات المتحدة. انتقلت الأجزاء المحصورة سريعاً إلى الاستخبارات الباكـــستانية الـــتي تعقّـــبت العروشـــي إلى مديـــنة كراتشي المكتظة. وفي 12 حزيران/يونيو، تم اعتقاله واحتجازه في قاعدة جوية مدة ثلاثة أيام قبل تسليمه إلى السي آي إي حيث تم نقله على متن إحدى طائراتها الخفية إلى "موقع أسود".

حتى ذلك الوقت، كانت الاستخبارات الخارجية – الباكستانية أو السعودية أو اليمنية على السواء – ماهرة في بروتوكول التحقيق الذي تعتمده الاستخبارات الأميركـــية: كان يتمّ الإطباق على الشقق بإحكام لإجراء بحث دقيق، بما في ذلك البـــصمات وأجهـــزة الحاسوب والهواتف النقالة، ثم تسلّم إلى علماء التكنولوجيا للتوصل إلى خلاصات دقيقة.

احـــتوى جهاز حاسوب العروشي على صور تظهر فيها مواقع في نيويورك ومعـــالم في العديـــد مـــن المدن. وكانت هناك أيضاً أرقام هواتف وعناوين بريد إلكتـــروني، دفع أحدها المحققين للضغط على العروشي في السؤال عن رجل يدعى محمـــد نعـــيم نور خان، فني موهوب في الخامسة والعشرين من العمر، قصد أحد المعسكرات التابعة لبن لادن في عام 1998.

أطلـــق بعض من تقنيات العمليات الحادة التي استخدمت في مخزن باشا وزير مـــنذ نحو عامين على الجبهة الافتراضية. وكشف النقاب عن أن خان كان يشغّل مركـــز إنتـــرنت محـــوري لتنظـــيم "القاعدة" خارج باكستان. في أواسط شهر حزيـــران/يونـــيو، وُضع في نوع من الأطر الرقمية للمراقبة الكثيفة. وفي الطوابق الـــسفلية لمقـــري السي آي إي ووكالة الأمن القومي، كانت المطاحن تستجمع أنفاســـها الجماعية، إذ بدأت كل رسالة بريد إلكتروني وكل رقم على كل جهاز تابع لأحد مساعدي خان بالظهور على شكل ضوء في ساحة المعركة المظلمة.

كـــان رولـــف موات لارسن ومسؤولو السي آي إي في الخليج يجمعون من جديـــد التقارير عن نشطات الخلية الجهادية في البحرين. كان بسام بوخوا، الذي يخزّن التصاميم الأصلية لخلية المبتكر على حاسوبه حراً، هو ومواطنوه منذ نهاية عام 2003. وقـــد حـــصل ذلـــك عندما أطلق البحرينيون سراحهم، مدّعين ما ادعاه الـــسعوديون في ذلـــك الوقت: هناك أدلة قليلة جداً لإبقاهم قيد الاحتجاز. قالت

الولايات المتحدة إنه سيلقى القبض عليهم جميعهم من جديد، وكان هذا ما حصل في ربيع عام 2004، إذ كان يجري التخطيط لشيء ما، ربما هجوم ضد القاعدة البحرية الأميركية في البلاد وضد الجالية الأميركية المؤلفة من بضع آلاف من المواطنين. وكان الخوف من أن يكون الهجوم مبتكراً.

كانت السي آي إي واثقة من الاستخبارات، إذ كان لها مصدر بشري داخل جماعة المتطرفين الإسلاميين البحرينيين. إلا أنه، وكما هي الحال في غالبية الأحيان، كان البحرينيون، على غرار السعوديين أو الباكستانيين، أصدقاء، ولكنهم لم يكونوا أصدقاء حقيقيين يمكن الوثوق فيهم - لذلك لم تتمكن الولايات المتحدة من كشف مصادرها للبحرينيين. وقال المسؤول عن السي آي إي في البحرين لموات لارسن: "فقط ضعوا ثقتكم فينا". بطبيعة الحال - رغم الملايين التي أنفقت على تجهيز جهاز الاستخبارات البحريني وتدريبه، كجزء من علاقة "الربط" بيننا - كانوا هم أيضاً لا يثقون فينا.

ناقش موات لارسن الخيارات مع صديقه القديم روب ريتشر، المسؤول الكبير في السي آي إي ورئيس قسم الشرق الأدنى. ربما كان هناك أمر يمكن أن يتدبراه، القليل من الاجتماعات الخاصة مع عدد قليل من الفاعلين الرئيسيين من شأنها إقناع البحرينيين أنه "سيكون من مصلحتهم" التحرك. وبدلاً من الأوامر التنفيذية المتعثرة، والقرارات الصادرة عن الكونغرس، والعقوبات التجارية، كانوا ليعقدوا الاتفاقات في الظل.

كانت هذه في النهاية سمة السي آي إي في عهد تينيت بعد اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر. كانت حماية البلاد مهمة شخصية جداً، حيث كانت العلاقات تنسج في عشرات البلدان على شكل أجهزة ربط مموّلة جيداً، أو مراكز استخبارات لمكافحة الإرهاب، وعلى شكل التزامات أولية صريحة بين تينيت والأطراف المسؤولة، سواء أكان أميراً أو ملكاً أو ولي عهد أو حاكماً عاماً. كانت تلك الطريقة المعتمدة في الثقافات المتعدّدة والمنظمات الكبرى: في حال تبيّن أنّ الكبار هم أصدقاء، ينطبق الأمر على كل واحد يخضع له، أو أنه على الأقل يبذل جهداً.

بطبيعة الحال، كان الوقت وقت تغيير سريع في الوكالة. فقد أعلن عن استقالة تينيت في 3 حزيران/يونيو، فيما استقال جيم بافيت في اليوم التالي. وأعلن الرئيس تعـيين جون ماكلولين مديراً مؤقتاً، واعتبرت غالبية المراقبين أنه سيبقى في منصبه لفتـرة قصيرة. وعيّن ستيف كابس مكان بافيت كرئيس لمديرية العمليات، وحلّ مايك سوليك مكان كابس بصفته الرجل الثاني في مديرية العمليات، وبات روب ريتشر الرجل الثالث فيها.

كـان تينـيت يـرغب في القيام بجولة أخيرة في المنطقة، وكان ذلك في 15 حزيران/يونيو. رافق هارلو كل من ريتشر وموات لارسن. كان الأمر بمثابة جولة أخيرة... وكانوا ليقوموا بها كما كانوا يفعلون دائماً.

اجـتمع مـوات لارسن وريتشر وتينيت. كانت الاتصالات أولاً مع الأمير بـندر. كان صديقاً حميماً للشيخ حمد بن عيسى الخليفة من البحرين – وسيكون الشيخ خليفة اللاعب الرئيسي.

والمشكلة.

كان قد أثنى قرار صادر عن مجلس النواب على الشيخ خليفة عندما قام بزيارة إلى الولايات المتحدة في شهر شباط/فبراير 2003، "حيث إنّه "كان قد قدم الدعم للقـوات الأميركـية في قاعدته البحرية، و"حيث إنه" ومنذ تبوئه السلطة في عام 1999 كـان قـد ساهم في بناء اقتصاد متنوع، و"حيث إنه " كان قد أعاد إحياء الانتخابات البلدية في عام 2002 التي سمح فيها للنساء بالتصويت والترشح. وكما هـي الحـال بالنسبة إلى الحكام في هذه المنطقة، كان هناك عدد قليل من عبارات "حيث إنه" التي جرت دراستها بدقّة – مثل "بحيث إنه" يمضي غالبية وقته في المرح في المغرب.

بهـذه الطريقة تمكّن بندر الذي يضج بالحياة من التقرّب من الملك البالغ من العمر 54 عاماً.

أجرى بندر الاتصال. كان على الشيخ خليفة تغيير ما يجب تغييره من خطط موضـوعة وعقد اجتماع فوري مع تينيت ورجاله. وأصرّ بندر على الملك بقوله: "إنها مسألة أمنية خطيرة. يجب أن تكون حاضراً".

بعـــد يومين، كان تينيت وموات لارسن وريتشر يجلسون في المبنى الزجاجي المطل على منظر رائع وراء منـــزل الشيخ خليفة الكبير في المغرب.

جلـــس الشيخ خليفة العائد للتو من مراكش بين تينيت وريتشر، وسأل عن الأمر الهام جداً الذي أجبره على تغيير برنامجه.

اقترب تينيت من الملك ووضع يده على ركبته وقرّب وجهه القوي من وجه الشيخ خليفة حتى بدا أن رأسيهما قد تناطحا.

"جلالة الملك. الأمر مخيف. سوف يخبرك رجالي بالأمر. أنت تعرف رجالي. عليك أن تصغي إليهم. الرئيس يعرف بهذا. والسعوديون يعرفون بذلك. إنه تهديد حقيقي".

قـــال ريتشر الجالس إلى يسار الشيخ خليفة من الطرف الآخر: "سوف يحدّد لك رولف خصائص التهديد، وأنا سأخبرك بالتشعبات إن لم تتدخلوا لمواجهة هذا التهديد".

عرض موات لارسن - الرجل الكبير ضمن الثلاثي والجالس على بعد ستة أقدام (1.8 متـــر) - الـــتهديد: وضعت المجموعة البحرينية خططاً لصنع جهاز ضار يسهل تـــركيبه، قنـــبلة كيميائية، والهدف منه هو إخراج الولايات المتحدة من الخليج، محور التركيز الرئيسي لعمليات تنظيم "القاعدة". كان ذلك ليتم عبر التسبب بإصابات كبيرة في صفوف الأميركيين والبحرينيين. وبعد دقائق من هذا، استلم ريتشر الدفّة.

قال: "يعرف البيت الأبيض بهذا التهديد، والسعوديون يعرفون بهذا التهديد، نظراً إلى وجود روابط بين هذه المجموعة والمملكة العربية السعودية. وهناك زعماء عرب آخرون يعرفون بهذا التهديد. عليك التدخل وإلا فعلنا نحن". توقف لبرهة ثم تابـــع: "أنظـــر يا جلالة الملك. عندك الأسطول الخامس الأميركي وهو لحمايتك، ويمكنه الرحيل".

كان رحيل الأسطول الخامس أسوأ سيناريو بالنسبة إلى الشيخ خليفة.

أجاب: "سوف أتحرك في هذا الشأن. سوف أحرك الأمور فوراً".

وهكـــذا كان. نهض تينيت ورجاله. كانت عملية تقليدية لتينيت ورجاله. لا ملاحظـــات بل حزم تام. كانت علاقة تينيت وسحنته القوية تحدد المشهد. كان

نـــوابه يحدّدون نقاطهم الساخنة وينهون الاتفاق. أخبر تينيت الملك أنه سيلتقي هو وريتـــشر ولي العهد السعودي الأمير عبد الله - السعودية التي لها نفوذ كبير على البحرين - وأنه عليهم المغادرة فوراً. كان موات لارسن سيرافقهم وينتقل في اليوم الـــتالي جواً إلى البحرين للمساعدة في تنسيق رد البلاد. أومئ الشيخ خليفة برأسه، فـــيما كان التجهم مرتسماً على وجهه. قال إنه سينهي عمله سريعاً في المغرب ثم يعود لمعالجة هذه المسألة في بلاده، وأضاف: "ليس عليكم أن تقلقوا".

بعد ساعات قليلة، كانت قد قطعت المجموعة ثلاثة آلاف ميل في اتجاه جنوب الشرق، إلى مرفأ مدينة جدة السعودية.

كان أمسية خططوا لها مسبقاً - معالجة وتدليل يطبعان جولة تينيت الأخيرة قبل الاستقالة.

كـــان قد قدّم بندر الموثوق - الجاهز دائماً لتقديم الهدايا التي يبقى ثمن بعضها طـــي الكـــتمان - مقرّه للفريق لأيام قليلة. وكان رجاله يهتمون بأفراده. كان في إمكـــانهم إجراء الاتصالات الهاتفية أو حتى عقد اجتماع أو اثنين - أحدهما كان معداً في اليوم التالي مع الأمير عبد الله - في طريق العودة.

كانت العودة بالطبع أمر المساء، والشيء الذي لا مفر من القيام به. انضم إلى تينـــيت وريتشر وموات لارسن كل من بيل هارلو، مدير الشؤون العامة منذ عام 1999 والموثوق به لدى تينيت، وصديق آخر لتينيت، مسؤول عن فريق استخباري - كان لا يزال متخفياً - تولّى غالبية الأمور في المنطقة لصالح السي آي إي.

وبعد وقت قصير، تحلّقوا جميعهم في ثياب الاستحمام حول حوض السباحة، وهـــم يدخنون السيجار ويحتسون المشروب المفضل ويشاهدون مغيب الشمس في البحر الأحمر.

كـــان كل ذلك سينتهي قريباً - كانوا سيصلون إلى النهاية على غرار تلك الحقـــبة الخاصة في حملة كبيرة ويائسة في غالبية الأحيان. كانوا ليقودوها في الجزء الأكـــبر مـــنها، نحـــو الأفضل أو الأسوأ. ما كان أحد قادراً على أخذ ذلك من طـــريقهم. كانـــت حروب المستقبل تتعلق بالاكتشاف بمقدار ما تتعلق بالمحاربة - بالكـــشف عـــن ساحة معركة وعن جبهة سريعة الزوال قد تتلاشى أو قد يعاود

الظهور في مكان آخر، وبإقناع أعداء محتملين بأن يكونوا أصدقاء ممانعين.

في سبيل إدارة هذا الأمر، لا بد من معرفة الآخر، الغريب الشامل، رغم أن حياته في أرض غابرة بعيدة لا يمكن أن تكون مختلفة كثيراً، وإطاره المرجعي خارج الأرض إيجابياً. ولا يمكن لهذا الوعي الأولي أن يتطوّر بأي شكل من الأشكال إذا كانت المواجهة الأولى من برج دبابة. عند هذه النقطة، كان المحاربون التقليديون يكتشفون ذلك في العراق، على بعد بضع مئات من الأميال شرق حوض السباحة.

لكن هذا كان بعيداً جداً. لذلك جلسوا واسترخوا واحتسوا المشروب المفضل الخاص ببندر، باستثناء هارلو، الذي غادر باكراً.

قاد تينيت الفريق، وعليه كانت هناك بعض الأمور التي لم يعبر عن حقيقة شعوره تجاهها فعلياً، رغم كل لحظات التفجر العاطفي الصاخبة والنعوت ولحظات الحاجة المشتركة والساحقة.

كان يمكنه التعبير عن ذلك الآن. فقال بصوت خافت لحلقة المدخنين المؤلفة بكاملها من مسؤولين كبار في السي آي إي أمضوا حياتهم يعملون لحسابها: "تعلمون، أردت دائماً أن أكون مثلكم أيها الرجال، وأن أحظى باحترامكم. كان هذا مهماً بالنسبة إليّ. كان كذلك حقاً".

أومئ موات لارسن وريتشر ورئيس الوحدة المتخفي برؤوسهم تأثراً بصراحة تينيت، رغم أنهم كانوا يفهمون - بصفتهم متخفين بارزين - أنه من بين جميع الشخصيات العامة، والوجهاء، كان تينيت يفهم فعلاً أين تخاض المعركة الحقيقية. فهي لم تقع تحت الأضواء الحارة، ولا في غرف الاجتماعات، حيث يتواجد المنتخبون احتفالياً أو شرعياً. لا فقد كانت تندلع في الظل، وراء خطوط الإدراك، حيث تمّ تعقّب وربما ملاقاة الخصم، الرقم المناقض. وكان بهذه الطريقة ينقل المبدأ الصحيح القائل اعرف عدوك. هذه نصيحة راسخة وقديمة فعلاً، تحمل بذور الانتصار والرحمة في نهاية المطاف.

جلس الرجال البيض جميعهم الذين هم في خريف العمر لبرهة فيما الشمس تغيب، واستمتعوا في ذلك المكان المشرف على العالم العربي الحار، وهم مدركون جميعاً، المخاطر المباشرة لعمل كهذا، وهم يعرفون العدو المتربص في مقهى غابر في

كراتشي، أو في قصر في المغرب، من دون أن ينسوا سبب وجودهم هنا، وما الذي جعلهم على ما هم عليه. كان تينيت أكثر من أي من الوجهاء الآخرين، يدير يوماً بعد يوم، عبر تلك الأراضي الخفية الاجتماعات ويلتقي بأصدقاء ممانعين وأعداء محتملين، محاولاً التوصل إلى اتفاقات من شأنها – من شأنها – إنقاذ حياة العديد من الأشخاص.

قال رولف بعد برهة: "نحن لم نترعرع معاً كما يقال، ولكننا كنا نعتبرك دائماً واحداً منا. كنت وراءنا وتسهر علينا. وأعتقد أننا معاً أحدثنا اختلافاً".

أومئ تينيت برأسه: "نعم أعتقد أننا فعلنا".

وكانت الأفعال في صيغة الماضي.

في اليوم التالي، سافر موات لارسن إلى البحرين. وبعد أسبوع جرى القضاء على الخلية البحرينية وتم اعتقال ستة أشخاصٍ حتى 22 حزيران/يونيو. وجرى تفتيش منازلهم جميعاً، من دون العثور على أي شيء. احتكم العديد من الملا إلى الحكومة. وكان لبوخوا أصدقاء بين أعيان الشيعة في البلاد. وتمّ إطلاق سراحهم جميعاً في 23 حزيران/يونيو.

ما حصل في الشهر التالي كان نوعاً من المواجهة المحمومة غير المتقنة، إذ تم استبدال القناة الاستخبارية للسي آي إي – وهي قناة صمّمت للأفضل أو للأسوأ لتبقى مفتوحة مهما تبدّلت الأجواء في الخارج – بما سمي بـ "السياسة" أو القناة السياسية. هدّدت الولايات المتحدة لسخطها من عمليات إطلاق السراح بالانسحاب من قاعدتها وبإصدار أوامر لجميع الموظفين والمواطنين الأميركيين بمغادرة البلاد.

قاوم البحرينيون الذين أرادوا عدم إكراههم علناً على العمل من جانب الولايات المتحدة – في تحرك هو الأقل فائدة أقدمت عليه دولة عربية حتى ذلك الحين.

في النهاية، بدأت الولايات المتحدة بسحب جميع موظفيها وأقفلت بشكل دائم المدرسة التي تموّلها وزارة الدفاع في المنامة – وهي مدرسة خاصة تنشئ أولاد النخب المتواجدة في البلاد، بمن فيهم أولاد الأسرة الملكية. وفي نهاية اليوم، ثبت أن

الـــسياسة كلـــها محلية، حتى السياسة الجغرافية. ألقي القبض مجدداً على الستة في أواســـط شـــهر تموز/يوليو، لكن لم يعد العمل إلى طبيعته المعتادة في مملكة الشيخ خلـــيفة. فقد عرّم الملك علناً، وهي نتيجة غير إيجابية قط بالنسبة إلى ديكتاتور - خـــصوصاً ديكـــتاتور ســـاعد الولايات المتحدة. وخرجت المجموعات الإسلامية المتطرفة في البلاد من الحادثة أقوى من أي وقت مضى.

هـــل كان سيجري إطلاق الستة بهذه السرعة في شهر حزيران/يونيو لو أن تينيت لم يكن في طريقه لتقديم استقالته؟ إنها مسألة للمناقشة.

الأمـــر غـــير القابـــل للمناقشة هو أن لا ماكلولين ولا أي شخص آخر في الحكومة كانت له علاقات شخصية مع شركاء مشروطين رئيسيين في "الحرب ضد الإرهاب"، من مشرف إلى عبد الله إلى الفاعلين الأقل شأناً وإنما المهمين، مثل أمير قطـــر آل ثاني أو ملك البحرين الشيخ خليفة، ترتقي إلى مستوى علاقات تينيت. وحتى ضعفه حيال أسباب الراحة الجاهزة، العائق المطروح في العديد من النقاشات المعـــروفة في الـــولايات المتحدة، كان سمة أساسية في دفع الديكتاتوريين برفق إلى العمل. فالشخصية قادرة على أخذك بعيداً في هذا العالم، ومما لا شك فيه أن تينيت كان عنصراً أساسياً في أكثرية ما أنجز في المعركة ضد الإرهابيين.

كان مصدر قوة، لا يمكن استبداله بسهولة، سيجري التحسّر عليه.

بعـــد الـــساعة العاشـــرة تمامـــاً مـــن مساء 29 تموز/يوليو، اعتلى سيناتور ماساشوستس جون كيري منصة المؤتمر الوطني للحزب الديمقراطي في بوسطن.

كـــان المؤتمـــر، حتى ذلك الحين، قد ركّز بشكل حثيث على سجل كيري كـــبطل في حرب فيتنام، بما في ذلك شهادات لرجال خدموا معه ظهروا في أفلام أنتجت بصورة أنيقة.

تماماً كما راهن الرئيس بشكل أساسي على حقه في إعادة انتخابه في خطابه عـــن حال الاتحاد - أن أميركا كانت تواجه تهديداً دائماً ولكنها لم تتعرض لهجوم جديـــد - عبّـــر كيري عن غاياته في خطابه الذي ألقاه في وقت الذروة في ردهة المؤتمـــر الـــتي علت فيها أصوات الابتهاج: "القول إن هناك أسلحة دمار شامل في العـــراق لا يجعل الأمر كذلك. والقول إنه يمكننا خوض حرب بتكلفة رخيصة لا

يجعل الأمر كذلك. والادعاء أن "المهمة أنجزت" لا يجعل الأمر كذلك طبعاً. في هذه الأيام الخطيرة، هناك سبيل صائب وسبيل خاطئ لنكون أقوياء. والقوة أكثر من مجرد كلمات صارمة".

على بعد خمسمائة ميل جنوباً، أشرق وجه كيري وشعره الكثيف وربطة عنقه الحمراء على شاشات التلفزة في الغرف الصاخبة لمحللي السي آي إي وخبرائها الفنيين.

كانت هناك أماكن قليلة أكثر ملاءمة من هذه الغرف لرؤية الرابط بين ثروات الإدارة والمسائل التي تصعب مناقشتها والمتعلّقة بالإرهاب والخوف ورد الأمة. ففي مجال المعركة العلنية، كان كيري يركّز على الرسالة التي يجب توجيهها إلى الجمهور العالمي غير المنتخب – بمن فيهم "القاعدة" وأفرادها المحتملون – ويوافق مع بوش على أن تلك الرسالة يجب أن تكون صارمة، صادرة عن زعيم صارم يقود أمة صارمة. لكنه قال إنه يجب أن تتضمّن أكثر من "كلمات صارمة".

لم يكن أحد يعتقد بالطبع أن بوش لم يكن صارماً – أو والله أعلم أنه لم يجبر أميركا على التصرف بصرامة، بعد إرسال أعداد وافرة من القوات المسلحة الأميركية إلى بلدين بعيدين. كانت مناشدة كيري مرتكزة على مثال منطقي – إلى الفرق بين قول شيء والإقدام عليه، الاعتقاد بأن التحليل الصائب يجب أن يدعمه كلام وأفعال. لم يثر الأمر الكثير من الاحتكاك. كانت قاعدة بوش تقول بالتصرف بصرامة، سواء أكان هناك سبب جيد أو سبب سيء أو لم يكن هناك سبب، وكان ذلك الموقف – الرسالة – الذي يفضّل العديد من الأشخاص إرساله إلى أهم قطاع في الأسرة الدولية، الجمهور المستهدف: الإرهابيين المتّقدين المتعطشين إلى الدماء. وإن كان متعذراً الوصول إلى بن لادن بواسطة فريق شبه عسكري، يمكننا على الأقل الوصول إليه بواسطة كلاماتنا.

ما لبث موظفو السي آي إي أن أهملوا خطاب كيري نظراً إلى انهماكهم بمعركة شرسة على جبهة مكافحة الإرهاب – الأولى منذ مدة. فقد ألقي القبض على محمد نعيم نور خان في لاهور منذ أسبوعين – في 13 تموز/يوليو – وأجبره المحققون الباكستانيون، بالتعاون مع السي آي إي، على إرسال رسائل إلكترونية

عاجلة إلى مجموعة كبيرة من المتعاونين معه، موزعين بين إندونيسيا وإنكلترا ليعاودوا مراسلته فوراً. جرى تحديد أماكن العشرات منهم، بينهم أحمد خلفان غيلاني، المطلوب منذ عام 1998 لضلوعه في تفجير سفارة الولايات المتحدة في بلده تنزانيا. وجرى احتجاز غيلاني مع أربعة من مساعديه من "القاعدة" في منزل في مدينة غوجارات الباكستانية. وبعد ذلك، استسلم عضوان آخران من "القاعدة" مع عائلتيهما عقب معركة مسلحة دامت 16 ساعة، توصلت بنتيجتها الوحدات شبه العسكرية الباكستانية إلى اكتشاف مدهش، إذ عثرت على أجهزة حاسوب وأقراص مدمجة، بما في ذلك دراسات مفصلة لخمسة مباني: المقر الرئيسي لسيتي كورب في نيويورك، وبورصة نيويورك، والبرج المتعقل في نوارك في نيوجرسي، والمقر الرئيسي للبنك الدولي ومبنى صندوق النقد الدولي في واشنطن.

تمت دراسة الخطط خلال جولة من الاجتماعات عقدت في عطلة نهاية الأسبوع. ونظر أصحاب الذكريات عن علم أعداد تهديد عيد الميلاد – الذعر الذي لا يرتكز في نهاية المطاف على أي شيء – إلى برنامج عدمي دقيق إلى حد مدهش. كانت هناك عشرون صورة ومواصفة – درجات الانحناء والترددات الهيكلية وحركة السير – لكل مبنى من المباني.

ناقشوا في عطلة نهاية الأسبوع إن كان التهديد فعلياً. وضعت الخطط بين عامي 2000 و2001، رغم أن واحدة منها قد جرى تحديثها في العام الماضي. لكن الآن، بات كل تهديد مبطن من الثرثرة إلى التحقيقات إلى مصادر المعلومات البشرية – بعضها مجرد خيال – تطبق عليه بصرامة نظرية تشيني. هل هناك فرصة تساوي واحد في المئة؟ طبعاً.

يوم الأحد 1 آب/أغسطس، دق رئيس جهاز الأمن الداخلي توم ريدج ناقوس الخطر، رافعاً مستوى التهديد إلى اللون البرتقالي في المناطق المحيطة بهذه المباني. وفي مؤتمر صحافي، نسي ذكر أن الاسطوانات تعود إلى عامي 2000 و 2001، ولكنه تمكن من تذكر أن اكتشاف المعلومات منسوب إلى "قيادة الرئيس".

كُشف تاريخ الاسطوانات في اليوم التالي، حتى عندما أمر المسؤولون بإخلاء المباني المعنية. وقال رئيس لجنة 11 أيلول/سبتمبر توم كين: "ما كان يجب أن

نكتشف في اليوم التالي أن المراقبة جرت قبل أربعة أعوام. فهذا لم يساعدنا".

كـان الديمقـراطيون في حال من الصدمة تقريباً. وقد عبّر هوارد دين عن شـكوكه الكبيرة بالقول: "من غير الممكن إطلاقاً معرفة كم من هذا حقيقي وكم منه سياسي".

كان الفصل بين الأمرين في عام الانتخابات الذي شكّل فيه السلوك في حرب سرية إلى حد بعيد المسألة المركزية من السخافة بمكان. غير أن ما كان واضحاً من اسـتطلاعات الرأي خلال عطلة نهاية الأسبوع هو أن كيري لم يتمكّن من تحقيق أي ارتفـاع في التصنيف بعد المؤتمر وحتى قبل إعلان ريدج، بل إنه سجل تراجعاً ضئيلاً، وهذا لا يعني أن إعادة تأكيد الخوف لم يؤدِّ إلى ضرر إضافي.

في هذا الوقت، مضت آلات القبض على الإرهابيين قدماً.

في 3 آب/أغسطس، ألقي القبض على عشرة رجال في إنكلترا، بينهم عيسى الهـندي، كاتـب التقارير المنمّقة التي عثر عليها في باكستان وزعيم "القاعدة" في بريطانيا. وكانت السي آي إي تلاحقه منذ أن ذكر خالد شيخ محمد اسمه قبل 16 شهراً، في واحد من الاعترافات القليلة التي نتجت من استجوابه العنيف.

تقاطـرت التقارير الخاصة للشبكات التلفزيونية وعناوين الصحف والمقالات الطـويلة في المجـلات خلال الأسبوع الأول من شهر آب/أغسطس. كان العدو هـناك، لكـن جيوش العدالة كانت تسير - ولاقت يد الخوف اليسرى يد الفعل اليمنى.

شكل كل ذلك - الذي تولت غالبيته السي آي إي - حجة جيدة للرئيس. كانـت أرقامـه في استطلاعات الرأي ترتفع، وكانت لديه أسطر جديدة ونقية يـضيفها إلى معـاييره في شـأن تجنب المزيد من الهجمات على الولايات المتحدة وإذعان ليبيا، وإدارة حملة عبر الغرب الأوسط ذلك الأسبوع.

لكـن كل ذلك كان له وقع محدود على تبديل رؤية كارل روف ومساعديه في المكتب السياسي للرئيس وربما جميع المحيطين بالرئيس القائلة إن السي آي إي - شـأنها بـذلك شأن وزارة الدفاع - كانت مجموعة ضد الرئيس. وارتكزت هذه الخلاصـة إلى حد بعيد على التسريبات المتعاقبة التي ظهرت في الأشهر الأخيرة من

طـرفي الحكومة. فقد أصدر مكتب وزارة الخارجية للتحليل الاستخباري مجموعة من التقارير قبل حرب العراق تتوقع بغالبيتها المزيج المتفجّر للعصيان والجمود الذي طـبع العام الأول من الاحتلال الأميركي. وكان للسي آي إي حصتها أيضاً، إذ كانـت لها تقييمات منعزلة عن كيفية إثارة الاجتياح الأميركي للغضب الجهادي عالمياً وتغذية قاعدة متوسعة من معتنقي العنف.

شعر محللو السي آي إي - المتأثرين أيضاً بتقييم تينيت المؤلف من كلمتين - بـضرورة إظهار أن النصح السياسي في مجالات أخرى لم يكن خاطئاً. وقال أحد مـدراء الـسي آي إي السابقين: "كان الأمر صعباً. كنا جميعاً معارضين لفكرة العـراق، وقد قمنا بذلك التحليل وها نحن الآن نلام عليه - بسبب أسلحة الدمار الشامل".

كـان التقييم الذي يشير إلى أن وزارة الخارجية والسي آي إي كانا شريكين في محاولة إعاقة إعادة انتخاب الرئيس غير ملائم مطلقاً. فعلاقاتهم لم تكن سياسية بـل كانت هيكلية. ما كان يعرفه من هم في مكاني صنع السياسة - مثل مجموعة الجنـرالات في وزارة الـدفاع - هو أنه حتى في المجالات الرفيعة الشأن للسياسة الخارجـية، كانـت أسس جمع المعلومات التحليلية في الواقع تترك مهملة، أو يتمّ التطرق إليها فقط عندما تكون هناك حاجة إلى "منتج" لدعم سياسات سبق للبيت الأبيض أن وافق عليها. كانت خلاصتهم - على غرار خلاصة أونيل، الجمهوري المحـافظ، أو كلارك، الجمهوري المضمون الذي طالما التزم بجزم قواعد الصمت - أن هذا شكّل مخاطر مؤسسية على الحكومة والبلاد.

وبـدلاً من التعاطي مع المسألة الأساسية والتكيّف بعض الشيء مع ما يسمى بـــ "العملـية السياسية" - طريقة جاهزة للتخفيف من حدة السخط - كانت إجابة البيت الأبيض تكتيكية: تكثيف بحثه عن المسربين مع إجراء جولات مستمرة من اختبارات كشف الكذب في السي آي إي وبين أولئك الذين يملكون تصاريح عالية المستوى في وزارة الخارجية وسواها (كان هناك سؤال أساسي عما إذا كان سبق أن تحدّثت مع مراسل من دون إذن)؛ ومسح خطوط اتصال الفرع التنفيذي، بمـا في ذلك الهواتف النقالة المستعملة لأغراض فدرالية. أدّت عروض عارية مماثلة

للسلطة التنفيذية في نهاية المطاف إلى الخوف، وإلى النتيجة التقليدية المتجسدة في انعدام الثقة المتبادلة، وإلى مجموعة أخرى من الدروس - مثل العديد من الدروس التي تعكر صفو الحكومة - قليلة تبرّر معيار "الضرورة بأي شكل من الأشكال". كانت التسريبات في ارتفاع في أي حال من الأحوال.

أدرك من تبقى من كبار مسؤولي الاستخبارات المركزية أن الوكالة قد فقدت الغطاء. فالعلاقة المعقدة بين بوش وتينيت - وداعة ممزوجة بحموضة، وقالب حلوى مغلف بطبقة من الترابط - شكّلت حماية غير متوقعة. كان في إمكان جورج دائماً الجلوس مع جورج وتبرير قضية ما أو توجيه انتقاد. كانت هناك علاقة بين الرجلين الكبيرين، جعلت نوابهما يحافظون على مواقعهم لبعض الوقت.

انتهى هذا الأمر. كان ماكلولين الذي أمضى 32 عاماً في السي آي إي، الذي تلقى تربية تقليدية، والصارم والجدي، خياراً تقليدياً لمدير الاستخبارات المركزية خلال الأعوام الماضية. لكن لم يكن على علاقة وطيدة ببوش، في إدارة تؤثر فيها أمور من هذا القبيل.

وهكذا فعلت السياسة. فقد حقق كيري بعض الشعبية في شهر تموز/يوليو عندما قال إنه سيلتزم جميع توصيات لجنة 11 أيلول/سبتمبر. وانتقد بوش - بدلاً من تينيت والسي آي إي - على الإخفاقات الاستخبارية، وتحدى الرئيس ليقبل بشكل كامل أيضاً توصيات اللجنة.

جاء الرد في 10 آب/أغسطس، عندما أعلن الرئيس أن النائب الجمهوري عن فلوريدا بورتر غوس الذي ترأس لجنة الاستخبارات في مجلس النواب - والذي ترأس مع السيناتور الديمقراطي عن فلوريدا بوب غراهام لجان الاستخبارات المشتركة للتحقيق في اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر - سيكون على رأس السي آي إي. كان سيدرس بتمعن اقتراحات اللجنة.

كانت ميزة غوس الوحيدة أنه كان مرة ضابطاً شاباً في السي آي إي. وبالعودة إلى ستينات القرن العشرين، فقد وظف جواسيس في أوروبا الغربية وأميركا الوسطى، قبل أن يتقاعد لأسباب طبية في عام 1972، ويطلق العمل في صحيفة في جزيرة سانيبيل، ومن ثم يخوض غمار الحياة السياسية. كان غوس الذي

انتخب للمرة الأولى لعضوية الكونغرس في عام 1988 وأصبح رئيساً للجنة الاستخبارات في عام 1997 ليؤدي دوراً رئيسياً في الوكالة - التي اعتبرها "غير وظيفية" خلال جلسات استماع لجان الاستخبارات المشتركة - لكن لانغلي نظرت إليه في بداية الأمر نظرة حذر. لم يكن عميلاً بكل ما في الكلمة من معنى، وافترض كبار مدراء السي آي إي أن نظام الاستحقاق الداخلي - الذي يطبّق على رفع كل رجل وامرأة إلى منصب رفيع - سيكون له بعض التطبيقات، أو أنهم كانوا يأملون ذلك.

رغم عدم ترقية ماكلولين وتعبير البيت الأبيض بوضوح عن رغبته بسط سيطرته على المسائل الاستخبارية، مضى المحللون والمسؤولون قدماً من دون أي تأثير، كما لو أن القليل من الأمور قد ظهر. كان بول بيلار الذي كان ينسّق تحليلاً استخبارياً للشرق الأدنى وجنوب إفريقيا ينجز في هذه اللحظة تقريراً طلبه تشيني في الربيع، يتناول العراق ما بعد الاجتياح. كانت المرة الأولى التي يطلب فيها البيت الأبيض من السي آي إي تقييماً للوضع في العراق. كان التقرير شديد الوضوح.

فقد حذر من أن العصيان في العراق قد يتطور إلى حرب عصابات أو ربما إلى ما هو أسوأ، أي حرب أهلية.

في شهر أيلول/سبتمبر، سُرِّب التقرير إلى وسائل الإعلام. كان بوش، المنهمك بحملته الانتخابية غاضباً. فقد أُمطر بوابل من الأسئلة خلال حملته. أغرقت رسالة كل يوم واليوم التالي بضجة خارجة عنها، فيما لم يتبقَّ سوى بضع عشرات من الأيام الثمينة قبل الانتخابات. فقد أنكر بنزق التقرير الذي لم يقرأه وقال إن التقييم كان "مجرد تخمين".

بعد أيام قليلة، أشار مقال لروبرت نوفاك إلى أن بيلار هو من وضع التقرير المسرب. وأشار نوفاك إلى أن بيلار ألقى خطاباً غير رسمي في عشاء خاص في كاليفورنيا حضرته كوندوليزا رايس.

كان ذلك الدليل - البرهان على عدم الإخلاص المشكوك فيه منذ زمن بعيد - الذي كان البيت الأبيض يبحث عنه.

بـــدأ مسؤولو البيت الأبيض يؤكدون في مجالسهم الخاصة - وعلناً من خلال وسطاء - أن السي آي إي كانت تحاول بشكل حثيث إسقاط الإدارة.

شـــاهد جون ماكلولين الذي كان لا يزال في السي آي إي وغوس الحديث العهد فيها كل ذلك برهبة متزايدة.

اتصل بمكتب أندي كارد لترتيب حديث مع بوش.

حصل الحديث هاتفياً.

قال ماكلولين: "سيدي الرئيس، نحن في السي آي إي لا نحاول الإيقاع بكم".

أجـــاب بوش: "أنا أقدر قولك هذا". وجزم الرئيس أن الأمور قد تزداد حدة في موسم سياسي.

انتهـــى الاتـــصال. لم تتم مناقشة المسائل التي تؤدي إلى الخلاف بين رئيس ووكالـــة الاستخبارات التابعة له في وقت تكون فيه الاستخبارات معادلة للأسلحة والذخيرة.

في 24 أيلول/سبتمبر، بدأ غوس بممارسة مهامه كمدير جديد وأعلن أن أربعاً مـــن المناصـــب العليا ستملأ من جهاز موظفيه. كان الرباعي نوعاً من البنية العليا العاملـــة حول غوس، أي طبقة من كبار الموظفين تقدّم له النصح المباشر في شأن جمـــيع عمليات الوكالة. أما الاستثناء فهو الموظف المساوم في السي آي إي، كيل "داســـي" فوغـــو، الـــذي كان صديقاً وحليفاً لغوس خلال عمله في الكونغرس. عـــين غـــوس فوغو في منصب المدير التنفيذي، المنصب الثالث في الوكالة، ليحلّ مكان أ. ب. "بازي" كرونغارد.

بدأ التطهير رسمياً.

ليس هناك من تغيير عنيف للنظام في أميركا.

لا مجموعات عصيان ولا جمع للسلاح لمهاجمة القوات الحكومية.

لا حالات طوارئ تؤخر الانتخابات إلى أن يقرر من هم في السلطة أنها آمنة. ولا حرب أهلية تضع العوائق.

هـــناك عملية سارية هنا، حيث يحاول 125 مليون بالغ أو أكثر أن يعرفوا ما هو قابل للمعرفة أو أن يتخذوا القرارات في شأن مستقبل الأمة - أمتهم.

لكن بالنسبة إلى من هم وسط الكفاح المركزي لهذا العصر - معركة "قلوب وعقول" مع نوع جديد من الأعداء - فإن الشهر الذي يسبق يوم الانتخابات هو وقت غريب وغير مترابط.

تتـــرافق المعرفة مع الأعباء والمباهج والمسؤوليات. ففي هذه الفترة الحارة والجافـــة والمؤيـــنة - تلك الأعوام التي كانت لا تزال فيها صور المباني المحترقة وغـــيوم الغبار ماثلة في الأذهان، ولا تزال العيون تلقي نظرة خاطفة على برجي مركـــز التجارة العالمية في فيلم قديم - عدد قليل من الساريات التي يمكن منها رؤيـــة كل شيء تقريباً. ربما هذا كثير جداً. هذا لا يعني أن زعماءنا لا يملكون ســـاريات عالـــية جداً، بل إنهم يملكون. لكنهم قلقون أيضاً حيال ما يمكن أن يفكر الناس فيهم - تلك الأعداد الكبيرة التي لا وجوه لها، الـــ نحن التي توجد الـــشخص المـــشهور بفضل انتباهنا الودّي. يجب أن يفكروا في طريقة العرض. وهـــذا لا ينطبق فقط على الرؤساء أو السيناتورات المعروفين، وإنما أيضاً على جـــورج تينيت وبوب مويلر، ورامسفيلد وباول. وبالنسبة إلى الوجهاء، يمكن للجمهور أن يحجب الرؤية.

يقـــبع وراءهـــم تماماً "غير المرئيين" - اللاعبون الأوائل في كفاح عالمي، غير مـــرئيين بطرق عدّة بمقدار ما هم خصومهم القتلة. إنهم موظفون يقلقون فقط في شـــأن القـــتال والفوز به. ولا تكون هذه المجموعة عادة صغيرة العدد. ففي غالبية الصراعات، يكون هناك انتباه شديد. يقرأ الشعب عن معارك اليوم، ويتضح له إن كنا قد فزنا في ذلك اليوم أو خسرنا، مع تبيان السبب. ومن الأسباب التي جعلت العـــراق يـــسترعي هـــذا المقدار من الانتباه، بعيداً من الصور المغيظة للأميركيين والعـــراقيين المقـــتولين والمشوهين، هو لأنه يمتلك الفوائد التقليدية للرؤية. ليس في الـــنوع الجديد من الحروب. فالانتقال من الغضب إلى الغضب والعنف في مدينة لا يمكـــن لفظ اسمها يعادل تجميع الجنود. واليوم الذي تنفجر فيه قنبلة وتقضي على الحالة النفسية لأمة وتوقع ضحايا أبرياء، يضع حداً لأعوام من الانتصارات الصغيرة والهزائم الصامتة. لا أحد في المعركة يشكّ في أن هذا اليوم سيأتي أو في أنه سيعجل في طرح سؤال ملح: مجدداً، ماذا يفعل جنودنا في العراق؟

في شهر تشرين الأول/أكتوبر 2004، بحث عملاء مكتب التحقيقات الفدرالية عن تهديدات في البلاد وعادوا خالي الوفاض (فارغي الأيدي) تقريباً. كانت هناك بعض الاتصالات الواردة من الخلايا الباكستانية المكونة في الصيف إلى عناوين إلكترونية أميركية، ولكنها لم تؤد إلى شيء. حصل ذلك بعد مقابلة آلاف الأشخاص.

في الواقع، كان هناك حفنة صغيرة من القناعات الهامة، بعد ثلاثة أعوام من الهجمات المروعة، هي في غالبيتها مما يسمى "الدعم المادي"، أي تهمة منثورة عندما يكون الدليل على الخطأ ضئيلاً. واستمر طرح السؤال على الرئيس عما إذا كانت هناك خلايا ناشطة جاهزة للعمل في أميركا، وكانت الإجابة أنه لم يتم العثور على أي منها بعد.

ترك دان كولمان منصبه رسمياً لأسباب طبية. وبصفته "الرجل الذي أدخل بن لادن إلى أميركا" - مقدمته المعتادة - فقد جرى استدعاؤه خلال العام المنصرم للأخذ بنصحه الصريح غير الاعتيادي. لكن كلما ازدادت حدة غضبه حيال الدروس التي كان يجب أن نتعلمها عن العدو، والتي كان يجب أن نتعلمها من جديد مع وصول مدير جديد، كانت حدة الربو ترتفع عنده. فقد تقاعد في السن الثالثة والخمسين وذهب إلى بيته مع مورين. ويمكن العثور في عليته على علبة صفيح احتوت في يوم على رأس الظواهري، توجد في داخلها وحول أنهار، مجففة ومفتتة، من جميع أنحاء العالم. وكان يتصور أنه سيورثها إلى أحفاده.

لم تكن حياة الشركات تناسب دينيس لورميل، وهو أمر غير مفاجئ حقاً. فقد كان يحب المال، لكن شركة أي إي إس، وعلى غرار الكثير من الشركات، كانت لها نظرة ضيقة عن الصفقات التي يمكن لدنيس تقديمها. فقد غادر منصبه بعد ستة أشهر للعمل لحساب شركة استشارات تدعى "كوبوريت ريسك انترناشيونال"، تقدم الخدمات الاستشارية للحكومات والشركات عن الطريقة التي يتنقل فيها المال - بما في ذلك الأموال المخصّصة لغايات تدميرية - حول العالم. لكنه أنهى العمل في الطابق السفلي في منزله، إذ أقام صالة رياضة حقيقية حملت علامات التقدير للمعارك التي خيضت وحقق فيها أحدهم نتيجة، والحمد لله.

هناك كان يجلس – فيما كانت شاشات التلفزيون تشير إلى قنوات "إي إس بي إن" و"إي إس بي إن 2" و"إي إس بي إن كلاسيك" وقنوات رياضية أخرى أقل شهرة – عندما قرأ صحيفة وال ستريت جورنال الصادرة في 20 تشرين الأول/أكتوبر، وقد تصدّرت صفحتها الأولى قصة كتبها غلين سيمبسون، مراسل التحقيقات المتفوّق – أحد أفضل مراسلي الصحيفة – المعني بقضية ويسترن يونيون. أشارت القصة إلى الكثير من الأمور الخاصة، بينها الوصول العالمي لويسترن يونيون، وتمركزها في مناطق معينة مثل باكستان، حيث كان الإرهابيون يتجولون بحرية، فضلاً عن الصعوبة التي تواجهها الشركة أو أي طرف آخر لمراقبة الجهة المرسلة للأموال والجهة المرسَل إليها.

قرأ لورميل الاقتباس الرئيسي للقصة – الذي يتصدر الصفحة الأولى للصحيفة التي يصل عدد قرائها إلى ستة ملايين – المنقول عن أحد أصدقائه القدماء، وليام فوكس، رئيس شبكة مكافحة الجرائم المالية في وزارة الخزينة.

وقال فوكس في تصريحه: "توصلنا إلى قناعة بأن الفروع الأجنبية وعملاء شركات الخدمات المالية يشكلون مشكلة مقلقة للغاية. ويتلخص قلقنا بمعرفة ما إذا كانت شركات الخدمات المالية هنا تعرف حقاً مع من تتعاطى في الخارج، حتى ولو كان هؤلاء عملاء لها. ففي حال عدم معرفتها، يشكل هذا الأمر نقطة ضعف خطيرة".

ثم أخبر فوكس الصحيفة أنه خطط "لدفع ويسترن يونيون إلى التعرف بشكل أقرب على عملائها من خلال عملية منتظمة تعرف بتوجيه القطاع، وهي عملية تنجز في وقت قصير".

ابتسم لورميل.

قال في نفسه: "لا بد من أنهم يحاولون الحصول على بعض الأعمال الجديدة الخاصة بالإرهابيين لحساب ويسترن يونيون، لكنهم لن ينجحوا".

كان يعرف أن الإرهابيين ينقلون الأموال بطرق لا يمكن تعقبها ومن خلال التسليم يداً بيد. وقال بعد برهة: "إن افترضنا أنهم أغبياء، فسوف يخيب أملنا لأنهم ليسوا كذلك. نحن في لعبة هي أشبه بلعبة الشطرنج، لوحتها الكون برمته، لكن مع

قـواعد مثيرة للضحك. ويبدو أن لخصومنا عدداً غير محدود من القطع. فإذا تمكنا مـن الإطاحة ببيدق أو بِرُخّ (كما في لعبة الشطرنج)، يعودون إلى صندوق كبير ويستبدلوهما. وما لم نتمكن من فعل الأمر عينه بعد برهة، فسوف نواجه المتاعب في حماية ملكنا. إنها لعبة لعينة".

باتت اجتماعات الساعة الخامسة في مقر السي آي إي غير منتظمة.

كان التابعون لغوس المعروفون بالغوسليين يجرون اختبارات وفاء. فقد أوضح غـوس لكـبار معاونيه ما صاغه لاحقاً في مذكرة وجهها إلى الوكالة برمتها: إن السي آي إي موجودة لمساندة سياسات الإدارة، ونقطة على السطر.

لكن مع إدارة جون ماكلولين زمام الأمور، كما في الأيام القديمة، استمروا في الاجـتماع عـند الخامسة مساء، وكانوا يحاولون إيجاد السبل، على غرار ما فعل المحاربـون الآخـرون في هذه النسخة الجديدة من "الحرب" في الأعوام التي تلت اعـتداءات 11 أيلـول/سـبتمبر، آخذين بالوعود التي أطلقها الوجهاء ومحاوين اكتشاف الطريقة التي تسمح بتحقيقها.

قال رولف: "كان الأمر محزناً للغاية. كنا لا نـزال معاً، لكن جون من دون جـورج لم يكن هو عينه. كنا نعرف في أيامنا ونحن نجوب العالم أن كل ما كان ممكناً بشرياً قد انتهى، حتى بدا أن الأيام القديمة قد باتت من زمن غابر".

جهـزوا جمـيعاً سـيرهم الذاتية وكانوا يشغلون الهواتف. وقد بات الجميع متمرسـين في مجـال الاستخبارات ومضطربين. كانت الوزارات على أنواعها في حاجـة ملحـة إلى "تدريب عملاء" لتعليمهم طريقة العمل. كان رولف يستعد للانتقال بعد أشهر لمنصب مسؤول الاستخبارات في وزارة الطاقة. كان التدفق الحر لليورانـيوم والتكنولوجيا النووية ينغص عليه نومه. كان هانك كرومبتون سينتقل إلى وزارة الخارجـية لتـرؤس جهاز الاستخبارات فيها. أما شارلي ألن، البالغ 72 عامـاً، المحلل الأسطوري والمسؤول الأعلى عن التحذير في الوكالة، فكان سيرأس جهـاز الاستخبارات في وزارة الأمن الداخلي، وهي مهمة كان أطلس ليحجبها عـنه. في الواقع، كانت غالبية المشاركين في هذا الاجتماع الذين يقارب عددهم العـشرة – وحـتى المسؤولون الأكثر أهمية الذين بنوا علاقات وطيدة مع أصدقاء

ممـــانعين حول العالم – كانوا سيغادرون قريباً، وكذلك الأشخاص الذين سيحلون مكـــانهم. وكانت مهمة الوكالة على غرار غالبية أجهزة الحكومة، خدمة السياسة ومساندتها بدلاً من المساعدة على صياغتها.

مـــع إشـــراق شمس يوم الجمعة 29 تشرين الأول/أكتوبر، اجتمعوا في الطبقة الـــسابعة. عـــرفت أخبار ذلك اليوم بـــ "مفاجأة تشرين الأول/أكتوبر"، الشريط الذي ظهر فيه بن لادن، الذي لم يظهر منذ قرابة عام. لكن اليوم، وقبل أربعة أيام من الانتخابات، تردد حضور طيفه في أرجاء كل منـــزل في أميركا. كان تصريحاً مفاجئاً تماماً لزعيم "القاعدة" عن حوافزه وأفعاله ورؤيته للساحة الأميركية الحالية. صـــلى إلى الله وهاجم طوال الدقائق الثماني عشرة تقريباً بوش، مستشهداً بمصادر عدة من فيلم مايكل مور "فهرنهايت 9/11"وبتصريحات أدلى بها إلى محطة "سي إن إن" ومجلـــة تـــايم والعديـــد من وسائل الإعلام، التي شتمتها الإدارة كثيراً، ومن مقـــابلات مع صحافيين ليبراليين. وقد سخر من بوش لكونه غبياً ومضللاً وفاسداً لتورطه مع شركات النفط وشركات كبرى أخرى، مثل هوليبورتون. وفي النهاية، صرف النظر عن كيري، لكن ذلك كان فكرة متأخرة في بحثه الذي يحيد "أياً كان ما عدا بوش".

بعـــد دقائـــق مـــن شريط الظهر، سلكت الحملتان المسار عينه، فعبرتا عن اشمئـــزازهما مـــن محاولـــة بن لادن التأثير في الانتخابات: بدأ كيري بالقول "إننا كأميركـــيين مـــوحدون تماماً لملاحقة أسامة بن لادن والقضاء عليه"، ثم تبعه بوش قائلاً: "لن يرهب الأميركيين أو يتأثروا بعدو لبلادنا. وأنا متأكد من أن السيناتور كيري يوافقني في هذا الأمر". كانت مسألة عدم تدخل في الشؤون الداخلية، حتى بالنـــسبة إلى النقاد الذين سارعوا في الساعات التي تلت الخطاب إلى تقييم أية حملة قد يساعدها التصريح. ويؤدي تقبل تقليب قاتل جماعي نتائج الانتخابات الأميركية إلى زرع الرعب.

داخـــل الـــسي آي إي، ســـلك التحليل مساراً مختلفاً بالطبع. فقد أمضت الـــوكالة، وكذلك وحدة مماثلة خاصة بتعقب بن لادن في الأف بي آي، أعواماً في ترجمة كل كلمة لزعيم "القاعدة" ونائبه الظواهري.

ومـــا تعلمـــاه طـــوال عقد من الزمن أن بن لادن يتحدث فقط عن أسباب استراتيجية – وتعالج هذه الأسباب بعمق في قيادة التنظيم. وكان التقييم في النهاية خلاصـــة سرية لمحادثات داخلية لا يفترض للرأي العام الأميركي وللأسرة الدولية الأوسع نطاقاً الاطلاع عليه، ونعني بذلك التحليل الاستراتيجي.

كانت خلاصة اليوم: كان هدف رسالة بن لادن مساعدة الرئيس على إعادة انتخابه.

في اجتماع الساعة الخامسة، وبعد تقديم تقارير عدة عن التهديدات الأخيرة، تطـــرق ماكلولين إلى المسألة من وجهة نظر توافقية فقال: "مما لا شك فيه أن بن لادن قدّم خدمة كبيرة للرئيس اليوم".

أومـــأ العديـــد مـــن الأشخاص على الطاولة برؤوسهم. كان موات لارسن يـــشاهد مـــا يجـــري. وتضاربت الأحاديث – مع الأخذ في الاعتبار أن بن لادن تـــصرف بدافع منطقي – عن سبب هذه الخطوة، فتذكر موات لارسن لماذا كان الـــسوفييت يحبون بعض الزعماء الأميركيين مثل نيكسون: لأنهم كانوا مستقيمين ويمكـــن التكهن عنهم. وشرحت جيمي ميسيك كيف أن بن لادن – الذي شكل بـــروز الظواهري تحدياً له – يفهم تماماً كيف أن أولويته كزعيم للقاعدة يدعمها اســـتمرار مواجهـــته المباشرة مع بوش. وقالت: "يريد طبعاً أن يستمر بوش في ما يفعله لسنوات قليلة إضافية".

بيد أنه لم يتم التطرّق إلى الكثير من الحقائق الدامغة – من مثل ماذا يقال عن سياسات الولايات المتحدة بأن بن لادن يريد إعادة انتخاب بوش.

تذكر موات لارسن أن "الأمر كان محزناً. جلسنا هناك. كانت الكآبة تسيطر علينا. لم يبقَ لدينا شيء في ذلك الحين".

ليوم آخر ربما.

لكـــن كـــان ســـبق لبعض كبار المسؤولين الحكوميين أن توصلوا إلى هذه الخلاصـــة. ففي حين كانت السي آي إي تدرس حوافز بن لادن وتتوقف، كان هـــناك أولـــئك الـــذين فهموا كيف أن هذا الحوار العالمي الملتهب – من الأفكار والرسالة والحفاظ على السلطة، سلطتنا وسلطتهم – هو مرآة وشارع في اتجاهين.

عند هذه النقطة، يمكن لأي مسؤول في مجلس الأمن القومي الإتيان بشيء مشوش للذهن لا يمكنه فعل أي شيء حياله، وهو أن تصنيف بوش يلحق بتصنيف بن لادن في العالم العربي.

لا أحد يشك في جدية بوش عندما يفكّر بضحايا 11 أيلول/سبتمبر ويتحدث عـــن تـــوقه الشديد لسوق المجرمين أمام العدالة. لكنه رجل طموح على رأس أمة طمـــوحة وذات رغبات معقّدة، يعرف أنه عندما يظهر زعيم "القاعدة" حضوره القوي، تسجل النتائج الداعمة له ارتفاعاً والعكس بالعكس.

إن أحداً لم يقل أن الأمور ستكون سهلة.

وهكذا نحن نسير على غير هوادة في عصر الإرهاب، شأننا بذلك شأن العديد من الناس الذي فعلوا الأمر عينه في أيامهم.

الخاتمة

تـــنطلق الحملة الافتتاحية للحرب، أي حرب، عندما تتحول الافتراضات إلى تحــديات على الأرض ويمكن تقييم قوة العدو وخصائصه، وعندما تكشف طبيعة الصراع عن نفسها شيئاً فشيئاً.

يمكن اعتبار الأعوام الثلاثة الأولى من الرد الأميركي على هجمات "القاعدة" في 11 أيلول/سبتمبر من ناحية عقلانية "الحملة الأولى" في صراع طويل الأمد.

وسبق أن تشكّلت عناوين معضلة أساسية: هل يمكن لأميركا الانتصار في هذا الصراع والبقاء على مبادئها الأساسية؟ المسألة ليست جديدة. فقد عبئت البلاد في الماضـــي في أوقـــات الحروب، مخصصة مواردها وطاقاتها لمساندة أهداف واسعة واســـتراتيجية، أدى بعضها إلى استطرادات قضت على الخصوصية الأميركية. لكن كان هناك دائماً شعور بفترة محدودة للأزمة تستلزم احتياجات أساسية، وهي فترة لن تطول بمشيئة الله.

لكـــن الأمـــر ليس كذلك في هذه المعركة الجديدة ضد جيش غير مرئي من الإرهابيين، وهو أمر يشكل بالنسبة إليهم نقطة قوة في موقعهم التكتيكي.

كل لحظة تمضي يتمكنون فيها من الحديث عن حلم الجهاد، ونعيش فيها في تنبه حذر وحريات ضيقة، هي لحظة انتصار في مقياسهم. سوف يزداد هذا النوع من اللحظات.

ما بات واضحاً مع نهاية عام 2004 لغالبية المشاركين في "القتال" – مجموعتي مـــوات لارســـن ولورميل – هو أن الوقت لم يعد إلى جانبنا. فنموذج الإرهابي الإســـلامي الحديث نموذج أنيق – تنضجه عقيدة وخيبة عنيفتان ويدعمه وصول

جاهـــز إلى المعلومات ووسائل التدمير ويحرّكه ميل إلى الاستشهاد - ويمكن نسخه وتصعب مواجهته.

يـــستثير هؤلاء المسؤولون والمحللون والباحثون والمستقطبون - كثير منهم من السي آي إي والأف بي آي - الذين حذوا حذو العدو، قلق حاد وقاتم ومسعور. كـــان المـــسؤولون عن الكثير من الانتصارات التكتيكية الأقل تشجعاً لمعنى هذه الانتـــصارات وإمكانـــية استمرار آثارها. و لم يؤدِّ التعبير عن قلق كهذا لنظرائهم الرفيعي المستوى دائماً إلى الإجابة المنشودة: حماسة متزايدة ووضوح معلوم لوضع استراتيجية منطقية.

مـــا أصـــبح واضحاً يوماً بعد يوم في الأعوام الافتتاحية للحملة هو أن لهاتين المجموعـــتين غاية مشتركة ولكن ليس لهما دائماً مصالح مشتركة. فمن هم رفيعو المـــستوى يهتمون بوضعيتهم في نظر الرأي العام، ويهتمون لاحتياجاتهم السياسية الملحّة.

هناك ملاحق قليلة لهذا المعركة، أحدها يتعلّق بجيمي ميسيك، كبيرة محللي السي آي إي التي كانت لها الباع الطويلة في الفصل الأول من المعركة ضد الإرهابيين.

في أواســـط شـــهر تشرين الثاني/نوفمبر 2004، وقبل أسابيع قليلة من إعادة انتخاب الرئيس، عاد أحد نواب ميسيك من اجتماع مع نائب الرئيس، وقد حمل طلـــباً إليها. لقد أراد تشيني اقتطاع جزء من تقرير معيّن ونشرى على الملأ. عرفت ميـــسيك التقرير، وكان يتعلّق بالارتباطات المعقّدة والمحفزة في غالبية الأحيان بين الحرب في العراق والحرب الأوسع نطاقاً على الإرهاب. والجزء الذي أراد الرئيس اقتطاعه كان جزءاً صغيراً من شأنه أن جعل المرء يصدّق أن الحرب كانت تساهم في الحملة الأوسع نطاقاً ضد الجهاديين الإرهابيين. وقد عرفت أن التقرير لم يؤدِّ إلى أيـــة نتيجة، بل إن العديد من النتائج التي خلص إليها ذهبت في الاتجاه المعاكس. وبذلك يكون نشر هذا الجزء الصغير تضليلاً متعمداً. فطلبت من نائبه إطلاع تشيني على أن الفكرة ليست جيدة في رأيها.

عبّر نائب الرئيس عن سخطه لبورتر غوس. وبعد أيام قليلة، ورد اتصال من مكتب غوس. كان من أحد المساعدين التنفيذيين لغوس. ويؤشر عدم إجراء غوس

الاتصال بنفسه إلى مدى تفكك العلاقات في أعلى مستويات السي آي إي. أعرب النائب عن سخط مدير السي آي إي وطلب إلى ميسيك أعادة النظر في المسألة. كما وصف موقف غوس باختصار: "قول لا لنائب الرئيس إجابة خاطئة".

من غير المرجح أن تكون اللغة فاعلة، إذ إنها في النهاية مجرد كلمات في عالم عابق بالضجيج. لكن بعض التركيبات الكلامية من شأنها إزاحة الجبال وتغيير حياة الأشخاص. وهذا ما حصل مع ميسيك، والتي ورغم كل ما فعلت، وجدت نفسها في النهاية، على غرار أطراف أخرى مترامية في زوايا الحكومة المتلاطمة، تحاول المحافظة على أسس التحليل والكدّ في مواجهة عقيدة الواحد في المئة التي يمكنها العمل من دونها لو اقتضت الحاجة ذلك، وهي عقيدة تثمن "الإجابة" قبل أي شيء آخر.

أجابت: "في الواقع، ندفع ثمن قولنا لا لنائب الرئيس".

أقفلت الخط وأحالت مذكرة إلى غوس قالت فيها - تذكرت مضمونها في ما بعد - إن "هذا النوع من الأمور قادنا إلى الاضطرابات مراراً وتكراراً في الأعوام القليلة الماضية. فسرد نصف القصة، النصف الذي يجعلنا نبدو جيدين، فيما نترك الجزء الآخر طي الكتمان. ففي النهاية، يظهر هذا الجزء ويبدو سيئاً، سيئاً جداً، ونفقد رأسمالنا الأخلاقي".

بعد أيام قليلة، تلقت ميسيك مجدداً اتصالاً من أحد نواب غوس أكّد فيه دعم مدير السي آي إي الحازم لقرارها. وما هي إلا أسابيع قليلة حتى رحلت. "كانت مجرد مسألة وقت في تلك المرحلة" على حد قولها.

أبقيت مذكرتها - التي تلخص مدرسة فكر قديمة تضمها إلى عدد لا محدود من الأشخاص - بطبيعة الحال طي الكتمان، لأن نشرها يؤدي منطقياً إلى تعريض أمن الأمة للخطر.

يتعلق ملحق آخر من المعركة بتينيت، الرجل الذي كان عليه "سد الثغرة"، وهي العبارة المدونة على بعض القمصان، في الفرق الشاسع بين "تحليلنا" و"ردة فعلنا".

كانت مهمة متعذرة وكان سيدفع الثمن إلى حد بعيد.

بعد مغادرة السي آي إي، أخذ فترة راحة، متعافياً فعلاً من الإنهاك بفعل قيادته لمعركة جدوهم واقضوا عليهم الصاخبة خلال الفصل الأول من "الحرب ضد الإرهاب". ارتدى ثياباً عادية، كانت في غالبية الأحيان عبارة عن سروال جينز وسترة حريرية لفريق "نيويورك جاينتس" - سترة جميلة - وأمضى وقته مع ابنه الوسيم وزوجته الجميلة، أو ارتدى بذلة، هنا وهناك، لإلقاء خطاب يجني منه مالاً وفيراً. عبّر إعلان تينيت في ذلك اليوم عن اعتناقه الشفافية، وعن رغبة في توعية الرأي العام، وهو موقف أوجزه بلطف في أحد الأيام عبر الهاتف.

بدأ حديثه بالقول: "الأمر يتعلق بالبيانات وليس بالهيكلية" مشيراً إلى بعض العلاجات التي تعتمدها واشنطن لتحسين الاستخبارات. وأضاف:"الأمر يتعلق بالشرطي العامل في ردموند في أوريغون، والذي يشاهد نشاط مراقبة شاذ خارج المقر الرئيسي لشركة مايكروسوفت، وقدرته على إرسال تلك البيانات عبر نظام اتصالات رقمي لنكتشف إن كان قد سبق لنا أن رأينا هذا في أبو ظبي أو أنقرة أو إنديانا بوليس أو ديترويت، وماذا فعلنا في هذا الشأن. وكيف يجب أن نفكر في الأمر وما التدابير التي يجب اتخاذها. تتحرك الحكومة وفق مقاربة مركزية، في حين أن ما نحتاج إليه هو مجموعات بيانات لا مركزية في مختلف أنحاء البلاد، مرتكزة على قاعدة اتصالات مشتركة، تسمح للناس الذي يملكون جماعاتهم الخاصة، ويعرفونهم أكثر من أي طرف آخر في واشنطن، باكتشاف ما لديهم ومواجهته".

ثم أخذ نفساً ودون ملاحظة وتابع قائلاً: "بعد خمسة أعوام تقريباً من اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر، لا تزال البلاد غير مجهزة بنظام اتصالات رقمي... لنقل البيانات على أدنى المستويات والمستويات غير المعلومة، ولإطلاع الجميع على ما نعرفه عن العقيدة الاستراتيجية المركزة لتنظيم "القاعدة"، ونحن نعرف الكثير عنها. في كل مرة يحدث فيها أمر في الأنفاق، يجب عدم تكرار العملية من جديد... إنها في برنامجهم... لا يتعلق الأمر بتاريخ الحدث وتوقيته ومكانه... لأن اكتشاف ذلك ضرب من ضروب الحظ والصعوبة والمصادفة. الأمر يتعلق ببناء نظام حماية قائم على البيانات... الأمر لا يتعلق بهذه الهيكلية اللعينة الكبيرة والمتعددة الطبقات التي أوجدوها معاً... الأمر يتعلق بالسرعة وخفة الحركة،

السرعة وخفة الحركة، وتدفق البيانات إلى أشخاص يمكنهم القتال. كانت ثورة الاستخبارات التي حدثت بعد عام 1991، أي بعد حرب الخليج، أساسية في السماح لقائد عسكري في أبعد موقع في أرض المعركة بسحب البيانات ودفعها لإطلاعه على ما يحدث فعلاً في ساحة المعركة. هذا ما أقوله. اسمع الجميع يقولون، حسناً، إنه تهديد أجنبي. نعم لكنه هنا حضرة السيدات والسادة. يمكن للبريطانيين أن يقولوا إنه تهديد أجنبي، لكنه يقوم هناك. إنه قائم داخل الولايات المتحدة، شئنا أم أبينا".

في وقت لاحق وفي محدثة أخرى، تحدث تينيت عن أسلحة الدمار الشامل في العراق. قال في نفسه تقريباً: "كنا على خطأ. لم نكن فاسدين".

لا يرفع تينيت من وتيرة هذا الأمر. إنه يعرف، هو الرجل المتوقد الذكاء، أن نتيجة الاستراتيجية الناجحة للولايات المتحدة ستضع عبارة "الكبسة القاضية" حول عنقه، تماماً بالقرب من ميدالية الحرية التي منحه إياها بوش في احتفال في خريف عام 2004 ضمه إلى بول بريمر وتومي فرانكس.

إنه مزيج سيء لما يمكن أن يوضع حول العنق. وتكمن إحدى النكهات الخاصة للمأساة في أن القوة يمكنها أن تحمل بذور الضعف - ضعف يمكن أن يستغله أحد ما يستفيد من الخلل. تينيت معجب ببوش ويثق فيه وممتن لأن ابن تكساس منح ابن نيويورك الفرصة للتعويض بعد اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر. حافظ تينيت - ربما الشخص الأول المسؤول عن عدم مهاجمة أميركا مجدداً - على قاعدة وفائه الشخصي، ولم ينس المأثرة التي وقعت نيابة عنه، وشعر بأنه أعاد الخدمة ببذل أقصى ما يمكنه لحماية البلاد. لكن كان لبوش رؤية أكثر إجرائية للوفاء من تينيت. فالأمر يتخطى بالنسبة إليه إثبات الناس وفائهم بفعل ما يطلب منهم، فهذا تناغم سيء.

لذلك، علّق بوش الميدالية حول عنق تينيت بعد أيام قليلة من فتح البيت الأبيض نار جهنم عليه - من المسؤولين الكبار المجهولي الهوية إلى التسريبات المركزة - لإلقاء اللوم عليه في كل شيء على ما يبدو، من حرب العراق إلى ارتفاع معدلات الفائدة على الرهن. كان تينيت الذي تندرج غالبية أفعاله وجهوده

كمدير للاستخبارات المركزية ضمن إطار ما هو "محظور نشره"، متروكاً وكما لو أن الكـــلاب ستلتهمه وتفصل لحمه عن عظمه في ساحة المدينة، وكما لو كان في حاجة إلى إثبات علاقته بالرئيس - إنه ميدالية تفقد قيمتها يوماً بعد يوم.

يمكـــن لتينـــيت الذي بقي صامتاً أن يتكلم عن نفسه. وهو يعمل - يتوقف ويعـــاود ويكرّر - على مذكراته التي يمكن أن تنشر في يوم من الأيام. لكن مما لا شك فيه أنه تألّم لرغبة البيت الأبيض الجامحة في تجنب اللوم وإلقائه على السي آي إي، سواء في ما يتعلق بمفاجأة 11 أيلول/سبتمبر أو الظن في امتلاك العراق أسلحة دمار شامل، مما يعني أن الوكالة كانت ستعاني وتشهد تشققات وربما تترك البلاد أكثر عرضة للمخاطر - وهو على ما يبدو ثمن المهمة السياسية في زمن الأزمة. أما في ما يتعلق بمنظومة الوفاء، المسألة الأكثر شخصية، يمكن أن يطبعها في هذه الحال وفي نهاية المطاف، التفكير الأجش للكاردينال ووسلي، في كتاب شكسبير المعنون هنـــري الثامن، الذي استدار نحو خادمه الوفي كرومويل وهو ينتظر إعدامه قائلاً: "لـــو خـــدمت الله كما خدمت ملكي، ما كان ليتركني في سني عارياً بين أيدي أعدائي".

في أواخـــر خريف 2005، أمضيت يوماً مع جون ماكلولين. فقد حضر إلى معهد دارتموتس لإلقاء كلمة مخطط لها منذ أشهر، صادف أن ألقاها بعد أيام قليلة علـــى كشف مراسلة صحيفة واشنطن بوست المخضرمة دانا بريست، التي كانت علـــى وشك الفوز بجائزة بوليتزر، قصة التعذيب في "المواقع السوداء" السرية للسي آي إي في مخـــتلف بلدان أوروبا الشرقية. تقاسم ماكلولين المنصة في دارتموتس مع القاضـــي لاري سيلبيرمان، الحليف المخلص لتشيني والذي كان قد انتهى لتوه من تقريـــر روب - سيلبيرمان الذي يلقي باللوم على السي آي إي في فشل الأعمال الاســـتخبارية في مـــرحلة ما قبل الحرب، رغم عدم الإشارة إلى أي دور إشكالي للبيت الأبيض.

أمام مسرح مكتظ في دارتموتس، طالب حشد من نحو 500 شخص أو أكثر بتفـــسيرات. تجنب سيلبيرمان الأسئلة التي تناولت الدور المحتمل للإدارة في تضليل الرأي العام في شأن العراق أو تشجيع التعذيب.

كان ماكلولين من ناحيته رصيناً، إذ قلل من حدة التعليقات والأسئلة اللاذعة بانفـــتاح فاجـــأ الحضور. لم يكن الأمر يتعلق بتأييد التعذيب أو عدمه، كما كرّر مـــرات عدّة بطرق بارعة. كان وقتاً صعباً، وقد قمنا بأمور لم تلبث أن أدركنا أننا قد نندم عليها لاحقاً.

في وقـــت لاحق من ذلك المساء، احتسينا معاً الشراب المفضل في حانة فندق "هانوفر إن".

تبادلنا أطراف الحديث عن كثير من الأمور، وكم يمكن أن يكون حوار الرأي العـــام غاضـــباً ومفككـــاً في هذا العصر، وكيف أن التضييق على السي آي إي، المؤسسة الوحيدة المخولة بخبرتها وتصميمها حماية البلاد من أي هجوم جديد، وهو هجـــوم، علـــى غـــرار الهجمات الأخرى، "يتركنا مفتوحين بشكل واسع" على اعتقاده.

ومع مرور الوقت، واحتساء المشروب المفضل، تحدث عن صديقه تينيت.

توقف ماكلولين لبرهة محاولاً رسم صورة العلاقة التي جمعت تينيت ببوش. في النهاية هز برأسه.

"أعرف أنه يتمنى لو كان قادراً على إعادة تلك الميدالية اللعينة".

مـــن أوهـــام المـــوالاة الشرسة الاعتقاد بأن الخصوم السياسيين مجردون من الأحاسيس الجيدة والمشاعر الإنسانية الأساسية، فالهزيمة لا تعني فقط الانكفاء، وإنما أيضاً كارثة بالنسبة إلى بلاد لا تدري بشيء.

يتحوّل الموقف الحاد للدفاع عن النفس النابع عن فكرة أقتل أو تُقتل مباشرة إلى فخ مؤكد. لا يمكن الإقرار بالأخطاء علناً؛ واليقين، حتى في وجه الدليل المبطل، يصبح بديلاً عن الشجاعة؛ وتحل الإرادة مكان القناعة المكتسبة – والمختبرة بشكل منتظم.

السؤال الأساسي المطروح في هذا الكتاب يتعلق بما إذا كان الحوار السياسي في الـــبلاد ذكـــياً لدرجة تسمح له بمواجهة تحديات الحملات المستمرة، والفصول التالـــية في المعـــركة ضد أعداء متوهجين وأقوياء، يصعدون ربما مع تيار التاريخ الصاعد. فالصراعات التي نشأت بكثافة لا مثيل لها في الحملة الأولى لا تؤشر بقوة إلى النجاح المستقبلي.

اندفع غير المرئيين الذين مالوا إلى الاعتقاد القديم للوسيط الصادق نحو كتابات العـــصمة الحاذقة هذه. ورغم أنهم أثبتوا بأسهم في المعركة، في المعركة الفعلية على مـــدار الساعة، فإن قلقهم المتزايد من أن تكون هذه الجهود مزاحمة تكتيكية أكثر مـــنها استراتيجية متماسكة – مزاحمة زادت من صعوبتها الكلمات والأفعال من الأعلى، بما في ذلك حرب العراق – جعلهم يناقضون التوجه الحالي لطريقة ممارسة السلطات الرئاسية.

حـــتى مـــع نهايـــة عام 2004، كانت المعركة بين المجموعتين – الأولى تحت الأضـــواء والثانية في الظل – تميل لصالح الفريق الثاني. فمن كانوا حاضرين في 11 أيلول/سبتمبر، ومن أطلقوا الحملة الافتتاحية، ورغم التزامهم كمن سلفهم، طبقت علـــيهم مجموعة معدّلة من القواعد: من كانوا في خضم المعركة، الأقرب إلى الفعل والحقائـــق الـــتي تنتج من تجربة مماثلة، يقدِّرون على ما يقومون به وليس على ما يفكرون فيه.

كانـــت مهامهم تقضي بالمضي قدماً بالوسائل الضرورية، وحتى الوسائل غير الواضـــحة الغايات تملك طريقة لتتحرّر. فالتحذير التقليدي ضد مبدأ "الغاية تبرّر الوسيلة" يحمل نتيجة طبيعية. فمن دون الغايات الواضحة التي يمكن تحقيقها، يمكن أن تصبح الوسائل من دون حدود وارتجالية ووليدة إملاءات الافتراضات "الضيقة" وغير المتوقعة.

التعذيب في سجن أبو غريب ومعتقل غوانتانامو؛ وبناء آلة مواجهة الإرهاب الكـــبرى، بـــرأس الاتصالات وجسمها المالي؛ والاستخدام الذاتي المصلحة للمواد المصنفة للمضي قدماً في تحقيق الغايات السياسية؛ وكتمان الطبيعة الحقيقية لما يحصل مـــنذ اعـــتداءات 11 أيلول/سبتمبر لصالح طبيعة صحية "يجب معرفتها" – كلها وسائل تتعارض مع خصوصية الأمة، مهما كانت القيمة المسوقة لها.

كما يمنح هذا ويا للأسف راحة فعلية لأعدائنا، الذين يتمتعون بوسائل عمل أكثر مما كانوا يأملون.

عنى شعور التجدد في شأن اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر وإجابتنا – توخياً للعدالة – أننا تعثرنا منذ البداية وسط هذه الغايات والوسائل، كما لو أننا لم نعرفها قط.

تلك الفترة تنتهي الآن لحسن الحظ. يمكننا الآن بوضوح رؤية هذا الخارج عن مبادئه المسن، إلى جانبنا دائماً، بوجهين، لا مبالٍ ومتحرراً من التهم.

لـــذلك، ولاختـــتام هذا الكتاب الذي يتناول إلى حد بعيد الوسائل – عما شـــعرنا أنه يجب القيام به في زمن الأزمة وما حاولناه في ما بعد – سأقدم عرضين مختلفين.

في قطب بعيد يقف مفكر فريد من مفكري القرن العشرين وممارس للبرغماتية الجيوسياســية يدعى جورج كنان، ويحاول حل أحجية. وخلال جولة له في عام 1947 في مديـــنة هامـــبورغ المدمّـــرة، والتي قتل فيها خلال الحرب العالمية الثانية 40.000 مدني نتيجة قصف الحلفاء، كتب الشاب في مذكراته:

إن كان العالم الغربي سيدعي فعلاً الوقوف عند نقطة انطلاق أخلاقية أعلى – تعاطـــف وتفهم أكبر للكائن البشري لأن الله خلقه، كما يعبر ليس فقط في قرارة نفسه وإنما في الأشياء التي صنعها واهتم بها – عليه تعلم خوض حروبه أخلاقياً تماماً كمـــا يخوضـــها عسكرياً، أو أن لا يخوضها أبداً، لأن المبادىء الأخلاقية جزء من قوته. وإذا جرد من هذه القوة، لا يكون هو نفسه، ولا تكون انتصاراته انتصارات حقيقـــية... قد يرى العسكر في هذا سذاجة، وقد يقولون إن الحرب هي الحرب، وإنـــه عندما نخوضها، نقاتل بكل ما لدينا أو نهزم. لكن إن كانت هذه هي الحال، فهـــذا يفـــرض على الحضارة الغربية، ورغم قساوته، أن تكون أقوى عسكرياً من خـــصومها بهامش كاف يمكنها من الاستغناء عن هذه الوسائل التي من شأنها درء الهزيمة بثمن تقويض الانتصار.

بعـــد وقـــت قـــصير مـــن كـــتاباته هذه، فكر كنان طويلاً وبشكل مضنٍ بالأيديولوجية المناهضة في أيامه – الشيوعية – وتصدعاتها. في ذلك الوقت، شجب العديـــد مـــن الأميركـــيين الأقـــوياء والثاقبي التفكير "الوحش الكافر" وأوصوا بالانقضاض على الاتحاد السوفياتي والصين أيضاً. وتمكّن كنان، غير المعروف تقريباً في أيامـــه، رغم "خوضه المعركة" كدبلوماسي، من البروز من خلال صياغة مقال طـــويل في إحدى المجلات عنوانه "السيد إكس". وعرض المقال الذي نشر في مجلة الـــشؤون الخارجية سياسة كان سيطلق عليها قريباً اسم "الاحتواء"، وقد اعتمدتها

الـــولايات المتحدة. ونظراً إلى قضائه بعض الوقت في روسيا، عرف كنان العدو، وعرفه من الداخل، ولم يتمكن من تحويله إلى شيطان، وتوقع عن وجه حق أنه لو جـــرى احتواء الخصم، فإن نظام حكمه الذاتي، غير المحكم جيداً على غرار ما هو نظامـــنا على صعيد الطاقات البشرية والنمو، سيفسد في النهاية من الداخل. كان خياراً صعباً – وخياراً قد لا يوافق عليه من عاش 40 عاماً في ظل النظام الشيوعي – لكنه كان يرتكز على التفكير في الأمور ببذل جهد كبير وقاهر قبل اتخاذ القرار في شـــأن الـــسياسة الصحيحة. لم ترمِ الولايات المتحدة في أي حال من الأحوال قنبلـــتها الاســـتثنائية والذرية على خصومها – في خطوة كانت لتؤدي إلى تحويل آلاف المدن إلى هامبورغ – واستطاعت طوال الوقت المحافظة على "نقطة الانطلاق الأخلاقية العليا" في غالبية فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

كان هذا في ما مضى.

أمـــا الـــيوم، في عصر تُغمر فيه الحقيقة الدينية كثير من الأشخاص في أميركا والعـــالم – أشـــخاص مـــنهكين في غالبيتهم من وتيرة التغيير ومواجهة النـــزعة التجـــريبـــية المسيطرة على طريقة كنان – أودعكم نصاً قديماً جداً يشكل أساس المسيحية والإسلام معاً.

تقول الآية 16 من الفصل 20 من سفر تثنية الاشتراع: "العدالة، العدالة، هذا ما يجب أن تسعوا إليه". العدالة، وهي كلمة مبالغ في استخدامها هذه الأيام – لم تذكـــر مـــرتين لزيادة التأكيد. وهنا يوافقني علماء العبرية – وهم لا يوافقون آراء الكثيرين – أن الأولى معناها الغايات، والثانية معناها الوسائل.

حاربوا جيداً، وليبارككم الله.

ملاحظة الكاتب

في شهر تشرين الأول/أكتوبر 2005، دخلت كالورقة الساقطة في إحدى غرف جلوس فيرمونت ويليام سلوان كوفين. كان الكاهن الواعظ في كنيسة ريفر سايد في مانهاتن وجامعة يال، والبالغ من العمر 81 عاماً، قد انتهى من إلقاء كلمة في كنيسة بالقرب من مسقط رأسه ستراتفورد، وقد قصد غرفة الجلوس لاحتساء الشاي الساخن وتناول الطعام ولقاء المعجبين. لم يسبق لي أن التقيته - سمعت به طبعاً وبرؤيته المصاحبة عن الفضيلة العلنية المسؤولة - فتكلمنا، في حضور العديد من أساتذة معهد نيو أنغلند ومراسل صحيفة نيويورك تايمز السابق توم ويكر، على هذه الأوقات الهامة. أبدى سلوان كوفين رأيه في "صلاحيات السلطة" وكيف "استعمل الخوف فعلياً لإدارة المثال السياسي". عرف ما رميت إليه، وأمطرني بأسئلة عن خصائص قليلة، ثم نظر إليّ ممازحاً وقال: "لم أفكر يوماً بأنني سأعيش إلى اليوم الذي تكون فيه الصحافة القديمة الطراز شكلاً من أشكال العصيان المدني".

قد يكون سلوان كوفين الذي توفي بعد سبعة أشهر بالغاً في قوله قليلاً - وهي إحدى مواهبه - وإنما ليس كثيراً.

يتطلب الإطلاع على الشؤون القومية وخصوصاً الأمن القومي في فترة النزاعات هذه على الأقل جرعة من العصيان - إجراء مضاد للثقة القوية لمن هم في السلطة في أن العاصي سيكافأ أو على الأقل يكون لديه شيء يقلق عليه.

خلال العامين اللذين أمضيتهما في جمع التحقيقات وكتابة هذا الكتاب، وجدت نفسي أفكر أكثر في مصادري وأحميها، كما لم يسبق لي أن فعلت خلال أعوامي العشرين في مهنتي كصحافي. لم يقدم أي منهم على شيء غير ملائم من

الناحيتين القانونية أو الأخلاقية. لكن يبدو أهم ارتكبوا أفعال عصيان صغيرة، بما في ذلك "الابتعاد عن الرسالة"، والغوص في دروس صعبة تعلموها عن طريقة رد أميركا على التحديات التي تواجهها، والإيمان أن الشفّافية والمحاسبة ليستا قط مسألة ملاءمة في ديمقراطية.

رتبت بعض ملاحظات تدبير الشؤون. كانت إحداها تتعلّق بيسري فودا، مراسل الجزيرة. التقيت فودا في واشنطن ولندن، عاد فيهما بالتفصيل إلى قصته المدهشة – قصة ذكرها ببراعة في كتاب العقول الموجّهة للإرهاب الذي كتبه مع نيك فيلدينغ. ونتيجة مقابلاتنا، كنت متأكداً من أن فودا لم يكن يعلم أن أمير قطر قد أعطى تفاصيل عن تقريره الحصري للسي آي إي. وأنا مقتنع بأن فودا قد أبقي في الظلام.

بالطريقة عينها، كدح كثير من المصادر ذات المستوى الرفيع التي تقارب المئة والتي اعتمدت عليها في هذا الكتاب في أعمالهم منذ اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر على قاعدة "الحاجة إلى المعرفة". كانوا يعرفون جزءاً من هذه المبادرة وليس المبادرة برمتها (ولو كانوا على اطلاع على كامل الصورة، ما كانوا طبعاً ليكشفوا ذلك). وكان عليّ في غالبية الأحيان جمع هذه الأجزاء مع بعضها البعض، وصنع مجموعة واسعة منها.

ما يظهر بين الغلافين هو في أي حال من الأحوال نتاج ذكرياهم المشتركة وحكمتهم. كثيرون منهم مسؤولون سابقون في السي آي إي، ومكتب التحقيقات الفدرالية، والبيت الأبيض، ومجلس الأمن القومي، ووزارات الخارجية والدفاع والخزينة وغيرها. وهناك عدد كبير منهم ما زال داخل الحكومة. وتتضمن هذه المجموعة الأخيرة عدداً قليلاً من المسؤولين في وزارات مختلفة أعطوا أذونات غير رسمية ليحاولوا الإجابة على الأسئلة. كنت أود ذكر أسمائهم وشكرهم علناً، لكنني عدت وقلت في نفسي أنه يجدر بي ألا أفعل.

لهم ولجميع من تعاونوا معي، كانت المشاركة فعل ثقة – ثقة أن هذا المشروع سيعكس بدقة وعمق ما حصل خلال هذه الفترة الصاخبة من تاريخ أمتنا. وهذه الثقة شرف لي، وآمل ألا تخيبهم النتيجة، تماماً مثل القراء الذين أتوجه إليهم، شأني بذلك شأن جميع الكتاب.

كلمات شكر

لائحة الأشخاص الذين يستحقون الشكر لمساهمتهم في إنجاز هذا الكتاب طويلة.

دعوني أذكر عدداً قليلاً منهم. كانت محررتي في دار سيمون وشوستر أليس مايهيو متحمسة وماهرة وصاحبة رؤية واضحة في شأن هذا المشروع. كانت عينها دائماً على الجائزة - كتاب سيحدث فرقاً - وكانت تساعد على نيلها.

كان دايفيد روسينتال، ناشر دار سيمون وشوستر، متنبهاً بشكل خاص لهذه المهمة - وتحدياتها - من البداية إلى النهاية. كان وأليس ونائبها رودجر لابري وجميع أعضاء الفريق في دار سيمون وشوستر يعملون على جمع أجزاء العمل لإطلاقه بصورة تعكس تضافر جهودهم جميعاً.

كان مدير أعمالي أندرو ويلي دافعاً مستمراً لمزيد من التحفيز وللبصيرة الحادّة. وكان يجعلني أضحك، وهو أمر ذو قيمة بالغة عندما نرزح تحت الضغط.

وقّع الشريك في شركة كوفينغتون وبرلينغ الكائنة في واشنطن كورت ويمر على تزويدي بالمساعدة القانونية في عام 2004، في وقت أثار حصولي على 19 ألف وثيقة داخلية من وزارة الخزينة وأماكن أخرى موجة حادة من التدقيق الحكومي. وقد ساعدني في هذه المسألة بمهارة وكان لي مرشداً قانونياً فريداً طوال هذا المشروع. ويتملّكني شعور بالاضطراب أن يحتاج صحافي إلى محامٍ ليؤدي وظيفته، ويشدّد من عزمي أن يكون إلى جانبي محامٍ موهوب من شركة ميمونة.

تعاملت أيضاً مع مصدر موثوق على إنجاز هذا الكتاب وهو باتريك كليف الذي غاص في براعة في الملفات الواسعة والمقتطفات المختصرة والوثائق الكثيرة،

وأنجز عدداً قليلاً من مهمات التحرير. وأود أن أعرب له عن خالص شكري. كما أتــوجه بالامتــنان لصديقي القديم ألن ويرزبيكي الذي استعنت بقدراته التحليلية لإتمام الإجراءات الأخيرة للتحقق من الوقائع وتحديثها.

كان أصدقائي في مركز روكفلر في معهد دارتماوثت ملاذاً لجأت إليه طويلاً في أيــام الــصيف وصحبة تعبق بعطر العقول الراجحة. وإنما لشهادة لمبادرتهم إلى الترحيب بي في كل سنة مهما كانت الخلافات التي يمكن أن أتسبّب فيها.

كــان تحريــر هــذا الكتاب وصياغته أمراً بالغ الصعوبة، وأمراً غير عملي ومقلقلاً، وغير منطقي بطلباته في غالبية الأحيان. لذلك أود أن أتوجه بشكر خاص إلى عــائلتي. فخلال هذا المشروع، مرّ ولداي والتر، 17 عاماً، وأوين، 15 عاماً، بأعــوام المراهقة المهمّة. ويطيب لي أن أشير إلى الدور المتواضع الذي أدّيته في هذه المعجــزة اليومية، وأقول تواضعاً مقارنة بالأهمية التي تكتسبها صرامتي المهنية. فقد منحني هذان الصبيان الأمل والقوة.

وربمــا علــيّ التوقف برهة لأشكر كورنيليا زوجتي على فضيلتها وحكمتها وتضحيتها خلال العملية الدائمة الصعوبة لمحاولة صياغة شيء يستحق القراءة – إنه كــتابي الثالث خلال ثمانية أعوام. ونظراً إلى احترامي لموقعها الحساس، قرّرت في الــنهاية اللجوء إلى بعض من العصيان المدني الحاد بالقول: كورن، شكراً على كل شيء.

تصوير ابو عبدالرحمن الكردي

SCHUSTER

الدار العربية للعلوم - ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

يأخذك رون سَسْكِند، الصحافي والمؤلّف ذائع الصيت إلى أعماق حروب أميركا الحقيقية ضد إرهابيّين عنيفين ودون هوادة – إنها لعبة قاتل أو مقتول، تمتد من المكتب البيضاوي حتى شوارع كاراتشي.

قد تظنّ أنك تعرف ماهية «الحرب على الإرهاب»، ولكن لمعرفتها حقاً، يجب أن تقرأ هذا الكتاب.

خطّ سوسكايند وقائع قصّة حقيقية مثيرة، تكشف العديد من الأسرار الخاصة والتاريخيّة التي سيتردّد صداها في أميركا والعالم.

ما هو المبدأ التوجيهيّ الذي ترتكز عليه أوّل قوّة في العالم في بحثها عن أعدائها على أراضيها وفي الخارج؟ تشكّل نظرية الواحد في المئة اللب السريّ في كتيّب إرشادات أميركا الحقيقيّ: استراتيجيّة افتراضية، أعدّها ديك تشيني، تحرّر أميركا من قيودها، وأنتجت كافة الأحداث – من الحرب على أفغانستان إلى الحرب على العراق إلى البحث العالمي عن الجهاديّين.

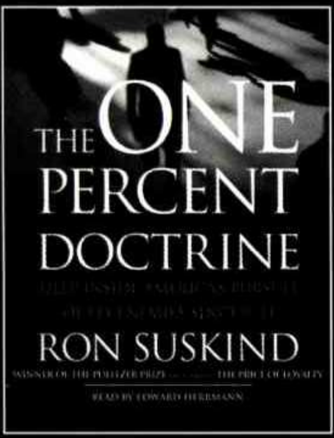

تبدأ القصة في 12 سبتمبر 2001، اليوم الذي بدأت فيه أميركا تلمّ أشلاءها وتستعدّ للرد على ما لا يخطر في البال. في نهاية المطاف، سيغيّر ذلك وجه الأمّة.

يُطلعنا سَسْكِند على الأحداث التي توالت خلال السنوات الثلاثة التالية، بأدقّ تفاصيلها، من خلال تعقّب آثار اللاعبين الأساسيّين، البارزين منهم أمثال الرئيس ونائبه وجورج تينيت وكوندوليزا رايس والذين يشرفون على «الحرب على الإرهاب» ويقدّمون تقارير متتالية للأمة القلقة؛ والمستترين من الرجال والنساء غير المعروفين والذين أُلقيت على عاتقهم مسؤولية إعداد الخطط اللازمة لقهر عدو من طراز جديد في سباق متسارع للتصدي للكوارث المحتملة. تكشف الصراعات الداخلية بين هذين الفريقين – أحدهما تحت الأضواء، والآخر يخوض المعارك الحقيقية – ما تواجهه أميركا وما أنجزته في عصر الإرهاب هذا.

صدر للمؤلف أيضاً من
منشورات الدار العربية للعلوم

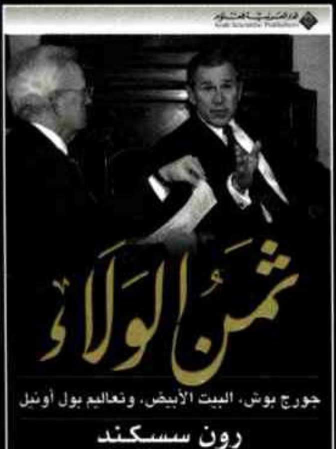

من يدير حقاً السياسة الخارجيّة للولايات المتحدة؟ هل من خليّة أعمال، مسلّحة بأسلحة دمار شامل داخل الولايات المتحدة؟ هل حقاً جرى اعتقال عدد من أخطر الإرهابيّين في العالم – بمن فيهم قادة تنظيم القاعدة – ثم أُطلق سراحهم عرضاً؟ هل ستتمكّن أميركا من تحقيق النصر في هذه المعركة ضدّ عدو صبور، عبقريّ، عازم ومتقدّم تكتيكياً؟

ISBN 9953-87-046-2
9789953870465

الدار العربية للعلوم - ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

ص. ب. 5574-13 شوران 2050-1102 بيروت – لبنان
هاتف: 785107/8 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

جميع كتبنا متوفرة على شبكة الإنترنت في نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com

تم اعادة الرفع بواسطة
مكتبة عسكر
ask2pdf.blogspot.com